THE EXORCIST

طارِدُ الأرْواح

وِليَم بيتر بلاتي

ترجمة نادر أسامة

رواية

مكتبة	224

ويليام بيتر بلاتي

طارد الأرواح

للمزيد من الكتب والروايات

تابعوا صفحة المكتبة فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الكتاب: طارد الأرواح
تأليف: ويليام بيتر بلاتي
ترجمة: نادر أسامة

عدد الصفحات: 432 صفحة

الطبعة الأولى: 2017
الترقيم الدولي: 978-977-6483-94-1
رقم الإيداع: 2016/23534

THE EXORCIST by William Peter Blatty.
Copyright © 1971, 2011 by William Peter Blatty. By arrangement with the author.
All rights reserved

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة لدار التنوير ©

التوزيع:

دار التنوير للطباعة والنشر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ويليام بيتر بلاتي

طارد الأرواح

THE EXORCIST

ترجمة: نادر أسامة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى چولي

كَلَمَّا نَزَلَ يَسُوعُ إِلَى الشَّاطِئِ قَابَلهُ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ اِستَحوَذَت شَيَاطِينٌ عَلَيه... لَطاَلَمَا أَذَتْهُ وتَخَطَّفَتَهُ، وكثيرًا ما كُبِّلَ بالقيودِ والسَّلاسِل... لكنه كان يكَسِّرَ القيود، ولم يكنْ أحدٌ يقوى على كَبْحِهِ... وسَأَلَ يَسُوعُ الشَّيطَانَ قائلًا: «مَا اسْمُكَ؟»، فَقَالَ: «اِسمَنَا لِيچون، لأنَّنا كَثِير».

إنجيل لوقا 27:8-30

***

چيمس توريلو: كان چاكسون مُعلَّقًا على خُطَّاف اللحم ذاك. كان وزنه ثقيلًا لدرجة أن الخُطَّاف التوى تحت ثِقله.. وظلَّ مُعلَّقًا على الشَّيء ثلاثة أيامٍ كاملةٍ قبل أن يموت.

فرانك بوتشيري (مُقهقهًا): كان لا بد أن ترى الرجل يا چاكي.. ضخم كالفيل.. وعندما صعقه چيمي بالصاعق الكهربائي...

توريلو (متحمِّسًا): أخذ يتخبَّط فوق ذلك الخُطَّاف يا چاكي. لقد ألقينا ماءً عليه لإعطاء الصاعق شُحنة زائدة، كان يصرخ...

- مُقتطف من تسجيلات تنصُّت المباحث الفيدرالية الامريكية على مكالمة هاتفية للمافيا الصقلِّية تتعلَّق بجريمة قتل ليام چاكسون.

***

لا يوجد تفسيرٌ آخر لبعض الأشياء التي ارتكبها الشيوعيون. مثل القس الذي ثُبِّتت ثمانية مسامير إلى جُمجمته... وأيضًا الأولاد السبعة

الصغار ومُعلِّمهم. كانوا يتلون صلاة «آبانا الذي في السموات» عندما أتى الجنود إليهم. أحد الجنود أخرج سِكِّينه وقطع لسان المُعلِّم، وأخذ آخر عِصِي الطعام وأولجها في آذان الأولاد السبعة الصغار. كيف يمكنك التعامل مع حالات مثل هذه؟

- د. توم دولي

معسكرات الاعتقال النازية

داخاو

أوشفيتز

بوخينفايد

مُقدِّمة المُترجم

كثير من المهتمين بأدب الرعب يعتبرون رواية ويليام بيتر بلاتي، طارد الأرواح، أكثر رواية مُرعبةٍ كُتبت في التَّاريخ. بالتأكيد يختلف بعض القُرَّاء مع الأمر، ويشعر آخرون أنه ينطوي على بعض المُبالغة، لكن هذا لا يمُكن أن ينفي حقيقة أن الرواية دائمًا ما تأخذ مركزًا مُتقدِّمًا في أيِّ قائمة يعدُّها هواة أو متخصِّصون تُفصِّل لأفضل 10 روايات مُرعبة كُتبت على الإطلاق، بل تحتلُّ الصدارة في كثيرٍ منها.. وبطبيعة الحال، بات كل كاتب يُفكِّر في احتراف هذا الضرب من الأدب مُجبرًا على ليِّ رقبته بعنفٍ إلى أعلى لينظر إليها.

تستند «طارد الأرواح» إلى واقعة حقيقية حدثت بالفعل في أواخر أربعينيات القرن العشرين. ففي أغسطس عام 1949، تناقلت الصحف الأميركية خبرًا غير معتادٍ عن صبي من ولاية ميريلاند أُنقِذ من قبضة مسٍّ شيطاني بفضل طقس طرد أرواح قام به أحد القساوسة، وحكت الأخبار كيف أن الصبي أظهر أعراضًا غير طبيعية كالتحدُّث بلغة لم يألفها في حياته قط، وظهور رموز غريبة على جسده من تلقاء نفسها، واندفاعه في نوبات هياجٍ عارمة مليئة بالفحش والألفاظ النابية. بالطبع، لم تكن تلك أخبارًا مُعتادة من التي تتداولها الصحف بشكلٍ يومي، لذا انتشرت القِصَّة على نطاقٍ واسع، وأفزعت جيلًا كاملًا من الأميركيين.

ويليام بيتر بلاتي، الذي كان كاتبًا كوميديًا مغمورًا آنذاك، التقط الخيط ونسج منه روايته الأشهر إلى الآن، واضعًا فيها كل ما في جعبته من شغف،

ومحاولًا من خلالها تمرير رسالة ذات طابعٍ تبشيري إلى حدٍ ما إلى القُرَّاء؛ أنه إذا كان الاستحواذ الشيطاني يُعد دليلًا على وجود شر غير طبيعي في العالم، فلا بد من وجود خير غير طبيعي بدوره يُجابِه هذا الشر، ويكف أذاه عن البشر. بالطبع غيَّر بلاتي كثيرًا من تفاصيل القصة الأصلية لدواعٍ درامية عديدة، أهم هذه التغييرات كان استبدال الصبي الممسوس بفتاةٍ على أعتاب المُراهقة.. فقد عَلِمَ بلاتي جيِّدًا أن جرعة الرعب تتضاعف إذا ما ارتبطت بأنثى، وفقًا للمُعتقد القديم بأن الجسد الأنثوي هو معبد الشر. أيضًا قدَّم بلاتي من خلال روايته نقدًا صارخًا للتفكُّك الأُسري في أميركا السبعينيات، التي نُشِرَت في ذروة فترة اغتراب الأطفال عن آبائهم، ولم يغفل الرجل عن تضفير صراع الدين والعلم في نسيج حكايته، من خلال تفنيد طقس طرد الأرواح وكل ما يرتبط به من خرافات المسِّ والاستحواذ، التي تُعدُّ من البقايا القليلة التي تخلَّفت من العصور الوسطى قبل فهمنا الحديث للأمراض العقلية. عالج بلاتي كل تلك الخيوط ببراعة دون إهمال جانب الرعب الشنيع الذي ملأ به جوانب روايته بجرعة نجرؤ أن نقول إنها غير مسبوقة في تاريخ أدب الرعب. تكمن التجربة الحقيقية في أن بلاتي كان يُخاطب القارئ الغربي الذي لا يؤمن بالدين، ولذا جعل بطلتي الرواية -الأم والابنة- مثله، إلى أن أقنعتهما الأحداث المرعبة بالعكس.

بالطبع الحديث عن طارد الأرواح لا يكتمل دون أن نذكر فيلم عام 1973 الشهير الذي أعطى الرواية شهرتها الكاسحة، وضاعف من مبيعاتها بعد صدوره.. الفيلم الذي صاغ له السيناريو ويليام بيتر بلاتي أيضًا، وحاز به جائزة الأوسكار في فئة أفضل سيناريو مُقتبس. الفيلم أخرجه الأميركي ويليام فريدريكن، الذى ما إن قرأ سيناريو ويليام بيتر بلاتي، وقع في هواه على الفور، وقد علَّق بلاتي على ذلك وقتها تعليقًا طريفًا جدًّا، وقال: «أنا أعرف كيف أصوغه كسيناريو جيد، لقد طرحت كل الأشياء أمام المتفرجين وحقَّقت لهم الإثارة، وهذا هو ما يريدونه. إنهم لا يريدون الذهاب إلى السينما كأنهم يقرأون كتابًا، إنهم أصلاً لا يقرأون الكتب».

استطاع الفيلم أن يصبح فاتحة لنوع خاص جدًّا من أفلام الرعب هي «أفلام الاستحواذ» التي لاقت رواجًا كبيرًا من بعده، وإن لم يقترب أيُّها -رُبَّما باستثناء *The Exorcism of Emily Rose*- من جودة وسمعة الأصل. تلقَّى الفيلم ردود أفعال مختلفة من الجمهور، وقد أدان كثيرون تصوير الممارسات المُزدرية للدين بهذه الفجاجة، وإقحام الطفلة في مشاهد جنسية صريحة وفجَّة. وقد سُرِدت روايات مُخيفة عن مُشاهدين كُثُر فقدوا أعصابهم وأُصيبوا بحالات إغماء من جراء العنف المبالغ الذي حُمِّلت به المشاهد، وقد أُشيع وقتها أنه كانت توجد سيَّارة إسعاف تقف خارج كل دار عرض تعرض الفيلم، وأن دور العرض ذاتها كانت تضع أكياسًا للتقيُّؤ أسفل مقاعد المُشاهدين.

الفيلم في النهاية إذًا لم يخدم غرض مؤلِّفه الأساسي، وإنما خدم قطاعًا عريضًا من صناعة أفلام الرعب، وجعلها تزدهر، وهو ما علَّق المؤرِّخ نيك كال عليه في مقاله الشهير بعنوان طارد الأرواح في العدد الخامس من المُجلَّد الخمسين لمجلة هيستوري توداي قائلًا: «لم يستطع فيلم طارد الأرواح أن يُعيد أميركا إلى الكنيسة كما رغب كاتبه، وإنما عاد بأميركا مرة أخرى إلى أفلام الرعب، وقد فتح نجاحه الباب على مصراعيه أمام عصر ذهبي جديد من أفلام الرعب الأمريكية ذات التقييم المرتفع». أود أن أضيف أن الفيلم كان فاتحة كبرى لأفلام الرعب التي لا تُمازح المُشاهد أو تعتمد أساليب رخيصة ومبتذَلة في إرهابه، وإنما ترك ميراثًا ثريًّا من سينما الرعب الجادة ذات التأثير المُدمِّر نفسيًّا في كثيرٍ من الأحيان.

في العيد الأربعين لرواية طارد الأرواح، قام ويليام بيتر بلاتي بتنقيح شاملٍ للنص هو أقرب لإعادة كتابة كاملة، مُغيِّرًا ومُحسِّنًا ومُبدِّلًا عباراتٍ ومُضيفًا أشياء لم تكن في النص الأصلي الذي اقتبسه الفيلم. أحد أبرز هذه التغييرات مشهد حلم كامل جديد لم يكن موجودًا في الرواية في طبعتها الأصلية، وتلك عزيزي القارئ هي الطبعة التي اعتمَدْتها في الترجمة، حيث أن بلاتي صرَّح أكثر من مرَّة أن هذه هي النسخة التي يتمنَّى

أن يذكره الناس بها، لأن ظروف كتابة الرواية في نسختها الأولى كانت ضاغطة بشدَّة، وحدثت في وقتٍ أوشك فيه بلاتي على الإفلاس، ما جعله يتعجَّل صدور النص.. فقط لتُحقِّق الرواية بعدها أعلى المبيعات، وتُحيل بلاتي من كاتب كوميدي مغمور، إلى أديبٍ بارز وكاتب سيناريو وصانع أفلام هوليوودي شهير.

إن كم الآثار والتداعيات التي أحدثتها رواية طارد الأرواح في الثقافة الأميركية من الصعب حصرها أو استيعابها حقًّا.. لكن يكفي ما تقدَّم كمدخل سريعة إلى نص الرواية القابع بين يديك الآن عزيزي القارئ. حان الآن وقت الصَّمت وإفساح المجال إلى النص ذاته، الذي أتمنى أن تجد فيه ما يثير شغفك، وقشعريرتك.. تلك الأخيرة التي أعلم أنك اقتنيت الكتاب في الأصل من أجل اختبار لذَّتها الحرِّيفة قبل كل شيء. إن الرعب ضرب قديم من الأدب بقِدَم حرفة الكتابة ذاتها، وهو يُشكِّل واحدًا من الأعمدة الثلاثة الرئيسية للكتابة الخيالية ككل، مع الخيال العلمي والفانتازيا، ودائمًا كان له مُريدوه المُخلصون. لقد وُجِدت عناصر الرعب الأوَّلية في الطبيعة أمام الإنسان منذ فجر التاريخ، وبقدر ما أرهب الرعب البشر، خلب ألبابهم، وعكس نفسه في الأساطير العتيقة الأولى لكل الحضارات القديمة، وفي حالاتٍ كثيرة كان هو العامل المُحرِّك الأساسي للأسطورة.

مُفتتح

شمال العراق

اعتصرت أشعة الشمس الحارقة جبين الرجل المُسِنّ ونضحته بالعرق، إلا أنه احتضن كوب شاي ساخنًا مُحلًّى بكَفَّيه وكأنما يستمد الدِّفء منه. لم يكن قادرًا على نفض الهواجس وأحاسيس القلق عنه. كانت مُتشبِّثةً به كأوراق شجرٍ رطبةٍ وباردة.

لقد انتهت أعمال الحفر. نُخِلت التَّلة الأثرية طبقةً تلو طبقة. فُحِصت أحشاؤها جيدًا ووُسِمت ثم شُحِنت: السُبح والقِلاد.. النقوشات.. الفواليس[1].. مِلاط الأداوت الحجرية الملوَّث بأكسيد الحديد.. القدور المصقولة.. لا شيء استثنائي. ثمة مرحاض آشوري مصنوع من العاج، وعِظام رَجُل. البقايا الهشَّة للعذاب الكوني، والتي جعلت الرجل المُسِنَّ يتساءل ذات مرَّة إذا ما كانت مادة العالم ليست سوى إبليس الذي يتلمَّس طريقه صعودًا إلى خالقه في نهاية المطاف. لكنه الآن يعرف أكثر. رائحة

(1) جمع فالوس phallus، وتُجمع في الإنجليزية phalli: وثن القضيب؛ وهو أيُّ تجسيد لقضيبٍ ذكريٍ ضخم مُنتصِب في التماثيل أو الأعمال الفنية. كان استخدامه شائعًا في منحوتات الحضارات القديمة (المصرية والآشورية واليونانية)، وهو يرمز لخِصْب الطبيعة.

نبات العرق سوس والأثْل جعلت بصره يُحلِّق إلى تلال الخُشخاش، إلى سهول القصب، إلى الطريق الوعر المكسو بالصخور الذي يمتد -غير آبهٍ- نحو مصدر الفزع. شمالًا تقبع مدينة الموصل، وشرقًا أربيل، وفي الجنوب بغداد وكركوك والأتون الناري لنبوخذ نصَّر. نَقَل الرجل المُسِنُّ ساقيه أسفل الطاولة وهو يجلس في مقهى الشاي خانة على جانب الطريق مُحدِّقًا في لُطخ العُشب المُلتصقة بحذائه وسراويله الكاكية، ثم ارتشف بعض الشاي. الحفر انتهى.. لكن ما الذي ابتدأ؟ نفض الرجل الغبار عن أفكاره كأنها قطعة صلصالٍ عُثِرَ عليها حديثًا، لكنه لم يستطع معرفة كُنيتها بعد.

ترامى إلى سمعه صوت لهاث أحدهم من داخل مقهى الشاي خانة. إنه مالك المكان الذابلٍ يتقدَّم نحوه وهو يركل الغبار بنعاله روسي الصنع الذي يستخدمه كخُفٍّ، ساحقًا حوافه الخلفية أسفل عَقبيه. انزلق ظل الرجل فوق الطاولة مع اقترابه.

- «كمان شاي يا خواجة؟».

هزَّ الرجل الذي يرتدي الكاكي رأسه نافيًا وهو ينظر إلى أسفل حيث النعال القديم اليابس عديم الرباط المغطَّى بطبقة سميكة من المُخلَّفات من جراء شظف العيش. إنها مادة الكون؛ هكذا تذكَّر الرجل مليًّا في هدوء: مادة، لكنها بشكلٍ ما سوف تستحيل روحًا في النهاية. الروح والنعال لم يكونا بالنسبة إليه إلا مظاهر لمادة أكثر جوهرية، مادة بدائية ومختلفة تمامًا. تحرَّك الظل، ووقف الرجل الكُردي مُنتظرًا كالدَين القديم. نظر الرجل المُسِنُّ مُرتدي الكاكي إلى أعلى مُحدِّقًا بعينين بيضاوين تمامًا، كما لو أن غشاء قشر البيض الرقيق قد التصق بالقزحتين. إنها الجلوكوما. في الماضي، رُبَّما لم يكن ليستطيع أن يحب هذا الرجل.

أخرج الرجل المُسِنُّ محفظته وبحث عن عُملة بين محتوياتها الرثَّة المُكدَّسة: حِفنة من الدنانير. رخصة قيادة عراقية. رُزنامة كاثوليكية بلاستيكية باهتة الألوان مُتقادمة سِنَّها اثنتي عشرة سنة، تحمل على وجهها الآخر كتابة تقول: ما نعطيه للفقراء نأخذه معنا حين نموت. دفع الرجل

ثمن الشاي، وترك خمسين فِلسًا إكرامية على الطاولة المُشقَّقة المُصطبِغة بلون الحُزن.

نهض وسار إلى سيارته الچيب. بدا صوت المُفتاح وهو ينزلق في قفل السيَّارة واضحًا تمامًا في هذا الصمت. للحظة، توقَّف الرجل ونظر بعيدًا بتشاؤم. عبر الأفق، لاحت هضبة مدينة أربيل، كانت تتلألأ في حرارة الجو الساخن وتبدو كأنها جزيرة طافية في السماء، بينما أسطح مبانيها المُتصدِّعة تحوم في السُحُب كأنقاضٍ مُوحِلةٍ مُباركةٍ.

تشبَّثت أوراق الشجر الباردة أكثر بعموده الفقري.

شيءٌ ما ينتظر.

- «الله معك يا خواجة».

كان الكُردي يبتسم ابتسامة عريضة كاشفًا عن أسنانٍ فاسدة، ويلوِّح مودِّعًا. تلمَّس الرجل مُرتدي الكاكي بعضًا من المودة من أعماق روحه واستخرج منها تحيَّة فاترة وابتسامة صفراء، تلاشت الأخيرة ما إن نظرَ بعيدًا. شغَّل الرجل المُحرِّك، وأدار المِقوَد مستديرًا في انحرافة ضيقة على هيئة حرف U، واتَّجه إلى مدينة الموصل. وقف الرجل الكُردي يراقبه مُتحيِّرًا من إحساس الفقد القابض الذي اعتصر قلبه مع ابتعاد الچيب. ما الذي ذهب؟ ما الذي استشعره في حضرة الغريب؟ نوعٌ ما من الأمان، هكذا تذكَّر، شعورٌ عميق بالحماية والطمأنينة أخذ يخفت وينزوي الآن مع ابتعاد الچيب المُسرعة. والآن، شعر أنه وحيدٌ بشكلٍ غريب.

***

انتهت أعمال الجرد المُضنية في الساعة السادسة وعشر دقائق. كان أمين الآثار -وهو رجل عربي بخَدَّين مُترهِّلين- يدوِّن بعناية البند الأخير في الدفتر على مكتبه. للحظة توقَّف، ونظر إلى صديقه وهو يغمس طرف القلم في المحبرة. بدا الرجل مُرتدي الكاكي شاردًا مع أفكاره. كان يقف إلى جوار المنضدة، يداه في جيبيه، وينظر إلى أسفل ناحية قطعة أثرية يابسة وموسومة تهمس إليه من الماضي البعيد. بفضولٍ، ودون حِراك، راقبه أمين

الآثار للحظات، قبل أن يعود إلى التدوين، خاطًّا كلماته بحروفٍ راسخة، وأنيقة، وصغيرة جدًّا. ثم تنهَّد في النهاية وترك القلم من يده بعد أن لاحظ تأخُّر الوقت. القطار المُغادر إلى بغداد سيتحرَّك في الثامنة. جفَّف الرجل الورقة من الحبر الزائد، وعرض على صديقه بعض الشاي.

هزَّ الرجل في السراويل الكاكية رأسه رافضًا وعيناه مُثبَّتتان على شيءٍ فوق المنضدة. راقبه العربي وفي صدرهِ يختلج شعورٌ مُنزعجٌ لم يفهمه. ما الذي يملأ الهواء؟ شيءٌ ما في الهواء. نهض الرجل العربي واقترب، ثم شعر بوخزٍ غامض في مؤخرة عنقه عندما تحرَّك صديقه أخيرًا وانحنى ليُمسك تميمةً واحتضنها بين يديه مُفكِّرًا. كان رأسٌ حجريٌ أخضر للشيطان بازوزو، الصِّفة المُجسَّدة للريح الجنوبية الغربية.. نفوذه السقم والأمراض. كان الرأس مثقوبًا. يبدو أن مالك التميمة اعتاد أن يرتديها كتحصين.

- «شيطان يحارب شيطان».

لفظها أمين الآثار متنهدًا وهو يُروِّح على نفسه بفتور مُمسكًا بدورية علمية فرنسية غُلافها ملوَّث ببقعة زيت زيتون. لم يتحرَّك صديقه، ولم يُعلِّق. أدار أمين الآثار رأسه قائلًا:

- «ثمة مشكلة ما؟».

لا جواب.

- «أبونا ميرين؟».

بدا أن الرجل مُرتدي الكاكي لم يسمع بعد. كان مُستَغرِقًا بالكامل في التميمة، أحدث اكتشافته. بعد برهة وضعها في مكانها، ونظر إلى العربي مُتسائلًا. هل قال شيئًا ما؟

- «لا يا أبت. لا عليك».

ثم غمغم الرجلان مودِّعين أحدهما الآخر.

عند الباب، قبض أمين الآثار يد الرجل المُسِنِّ بحزمٍ صارم.

- «أتمنى من سويداء قلبي ألا ترحل».

جاوبه صديقه بهدوء أن رحيله واجب بسبب الوقت، والشاي، ولشيءٍ ينبغي القيام به.

- «لا، لا، لا. قصدتُ الوطن!».

ثبَّتَ الرجل المُسِنُّ نَظَرَهُ على قِذْية من الحُمُّص المسلوق تنحشر في زاوية فم العربي؛ لكن عينيه بدتا شاردتين. قال مُكرِّرًا: «الوطن». بدا للكلمة وقع النهاية.

أضاف العربي: «الولايات المتحدة»، وتعجَّب على الفور ما أن تلفَّظ بها.

تأمَّل الرجل مُرتدي الكاكي مُدعاة قلق صديقه. إنه لم يجد صعوبة قط في أن يحب هذا الرجل.

- «وداعًا».

قالها بصوتٍ خفيض، ثم التفت وخرج سريعًا إلى الكآبة المُتراكمة في الطُرقات، ونحو رحلة إلى الوطن بدت مسافتها بشكلٍ ما غير مُحدَّدَة.

- «أراك بعد سنة!».

صاح بها أمين الآثار من موقعه على عتبة المدخل، لكن الرجل مُرتدي الكاكي لم ينظر إلى الوراء. راقب العربي هيئته الآفلة في أثناء عبوره الشارع الضيِّق بزاوية ميل جعلته بالكاد يصطدم بعربة تجرُّها جياد. في كابينة العربة، جلست امرأة عربية بدينة وجهها مُخفي وراء حجابٍ أسودٍ فضفاضٍ يُسربلها كالكفن. خمَّن العربي أنها تُسرِع للَّحاق بميعادٍ ما... وسرعان ما غاب صديقه المُسرِع بدوره عن بصره.

سار الرجل مُرتدي الكاكي مُكرَهًا.

اخترق الضواحي مُستهجنًا تسيُّب المدينة، وعَبَر نهر دجلة بخُطى عجولة، لكن مع اقترابه من الأطلال أبطأ وتيرته، لأن مع كل خطوة اتَّخذت هواجسه هيئة أكثر رسوخًا وترويعًا. لكنه يجب أن يعرف، يجب أن يستعد.

صرَّ الجسر الخشبي الذي يعبُر نهر الخوصر الموحل تحت وطأة

ثِقله. بعدها كان قد وصل. ها هو الآن يقف فوق التَّلة التي تألَّقت في غابر الزمان ببوَّابات نينوى التسع عشرة، الحصن المُخيف للجحافل الآشورية. في العصر الحالي، آل مصير المدينة أن ترقُد مُمدَّدة في التراب الأحمر الدموي. ورغم أنه هنا الآن، كان الهواء ما زال كثيفًا حوله.. ذلك الآخر الذي عصف بأحلامه.

طاف الرجل مُرتدي الكاكي بالأطلال -معبد نابو، معبد عشتار- مُتلمِّسًا مصدر الانبثاق. عند قصر آشوربانيبال توقَّف، ونظر إلى أعلى حيث التمثال الضخم المنحوت من الحجر الجيري الذي لم يتزحزح من موضعه عبر العصور. جناحان مُشعَّثان وقدمان مخلبيَّتان. عضوٌ ذكريٌ بارز ذو هيئة بَصَلِيَة، وفمٌ مشدود في ابتسامة وحشية. الشيطان بازوزو.

تداعى الرجل فجأة، ونكَّس رأسه.

لقد عرف.

إنه قادم.

حدَّق الكهلُ في الغبار والظلال المُتسارعة. كان قرص الشمس قد بدأ في الانزلاق خلف حافة العالم، واستطاع أن يسمع النباح الخافت لقطعان الكلاب الوحشية التي تجوب أطراف المدينة. مع هبوب النسيم الراجف، أرخى الرجل كُمَّي قميصه وأحكم زِرَّيهما. كانت الريح قادمة من الجنوب الغربي. أسرع الرجل خُطاه مُتَّجِهًا إلى مدينة الموصل للَّحاق بقطاره، وقلبه مُغلَّف بقناعة جليدية بأنه قريبًا سيُطارَد من قِبَل عدو قديم لم يُرَ وجهه من قَبل قط.

-1-

البداية

الفصل الأول

تمامًا مثل وهج الشموس المُتفجِّرة الوجيز الذي يغزو بإبهامِ عيون العِميان، مرَّت بداية وقائع الرُعب دون أن يلحظها أحد. وفي صخب ما حدث لاحقًا، نُسيت البداية تمامًا، ورُبَّما لم يربطها أحد بمصدر الرعب على الإطلاق. كان من الصعب الحكم على الأمور.

كان المنزل مُستأجرًا. بناءٌ كئيبٌ وضيِّق. مُستعمرة من القرميد يلفُّها اللبلاب تقع في جادة چورج تاون في واشنطون العاصمة. عبر الشارع تقع حدود الحرم الجامعي لجامعة چورج تاون. خلف المنزل، يوجد درج مُنحدِر طويل يهبط بزاوية حادة إلى شارع إم المُزدحم. وفي البُعد، يجري نهر بوتوماك. في صباح اليوم الأول من أبريل، كان المنزل هادئًا. اضطجعت كريس ماكنيل على فراشها تُراجع سطور حوار النص السينمائي استعدادًا ليوم التصوير غدًا؛ بينما ريجان، ابنتها، تنام في غرفتها في نهاية الردهة. في الطابق السفلي، وفي غرفة قُبالة مخزن المؤن، ينام مُدبِّرا المنزل متوسِّطي العمر ويلي وكارل. في الثانية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، رفعت كريس بصرها عن النص ونظرت إلى أعلى في عبوسٍ حائرٍ. لقد سمعت أصوات نقرٍ. أصوات مكتومة وعميقة وإيقاعية بشكلٍ ما. شِيفرة غريبة يَنقِرها رجلٌ ميت.

هذا غريب.

ظلَّت كريس تستمع للحظات، ثم تناست الأمر. لكن مع استمرار النقر لم تستطع التركيز فيما تقرأ، لذا صفعت دفَّتي النص مُغلقة إياه وتركته فوق الفراش.

يا للمسيح، هذ مُزعج!
نهضت من رقدتها لتتحرَّى الأمر.
ذهبت كريس إلى المدخل وألقت نظرة. بدا أن أصوات النقر تأتي من غرفة نوم ريجان.
ماذا تفعل يا تُرى؟
عادت في طريقها عبر الرواق في الوقت الذي ارتفعت فيه أصوات النقر فجأة، وأضحت أكثر سرعة، وما إن دفعت الباب بيدها ودخلت إلى الغرفة اضمحل الصوت على الفور.
ما الذي يحدث بحق الجحيم؟
كانت ابنتها ذات الأحد عشر ربيعًا نائمة وهي تحتضن مِن كثب دُمية باندا واسعة العينين محشوَّة بالقطن. الباندا بوكي المُهترئة من جراء سنوات طويلة من الخنق، والصفع، والقُبُلات الدافئة المُبلَّلة.
تحرَّكت كريس إلى جوار الفراش، وانحنت فوق الفتاة وهمست:
- «راجس؟ أنت مُستيقظة؟».
نقلت كريس بصرها في جميع أرجاء الغرفة. الضوء الخافت الآتي من الردهة يسقط شاحبًا ومُتكسِّرًا على لوحات ومنحوتات ريجان، وعلى مزيدٍ من دُمى الحيوانات القُطنية.
حسنًا يا راجس. مؤخرة والدتك العجوز قد أُنهكت. هيا، انطقي بها! قولي «كذبة أبريل!».
هكذا فكَّرت كريس على الرغم من أنها تعلم جيدًا أن مثل هذه الألعاب ليست من شيم الفتاة. كان طبيعة ريجان خجولًا ومختلفة. إذًا من المُخادِع العابث؟ أهو عقلها النَّاعس مَن يَنظِم إيقاعات وهمية على القعقعات الصادرة من أنابيب الصرف أو التدفئة؟ ذات مرَّة، في جبال مملكة بوتان، حدَّقت كريس لساعاتٍ إلى راهب بوذي يجلس القُرفصاء فوق الأرض في حالة تأمُّل. في النهاية، ظنَّت أنها رأته يرتفع في الهواء، لكن رغم ذلك عندما كانت تعيد سرد القصة إلى شخصٍ ما، كانت دائمًا

تُضيف كلمة «رُبَّما». والآن رُبَّما يكون عقلها (ذلك الجامح الذي لا يكل عن نسج الوهم) قد حاك صوت النقرات.

هُراء! لقد سمعته.

ثم فجأة، رمت السقف بنظرة سريعة.

هناك! صوت خربشات خافتة.

بحق الجحيم، توجد فِئران في العلّية! فِئران!

تنهَّدت كريس. الأمر كذلك إذن. فِئران كبيرة. نقر، نقر!

غمرها شعور غريب بالارتياح. ثم استشعرت بعدها البرودة. كانت الغُرفة باردة كالثلج.

هرولت كريس إلى النافذة وتفحَّصتها. إنها مُغلقة. تحسَّست المُدَفِّئ. إنه ساخن.

أوه، حقًا؟

مُتحيِّرة، اقتربت مجدَّدًا من الفراش ووضعت يدها على وجنة ريجان. كانت ناعمة كما توقَّعت ومُتعرِّقة قليلًا.

لا بد أنني مريضة!

نظرت كريس إلى ابنتها، إلى الأنف الأشمِّ والوجهِ النَّمِشِ، ثم بدافع سريع حنون انحنت إلى الفراش وقبَّلت وجنتها هامسة: «بالتأكيد أحبك». بعدها، عادت كريس إلى غرفتها وإلى فراشها وإلى نصها السينمائي. استمرَّت كريس في الاستذكار لفترة من الوقت. كان الفيلم إعادة إنتاج كوميدية غنائية لفيلم السيِّد سميث يذهب إلى واشنطون. ولقد أُضيفت إليه حبكة فرعية تستعرض انتفاضة ومُظاهرات الجامعة. كانت كريس بطلة الفيلم، وتلعب دور أستاذة علم نفس تأخذ صف المُتمرِّدين. كانت تكره الدور بشدة. هذا المشهد مبتذل! هكذا فكَّرت. إنه أبله! إن عقلها -على الرغم من سذاجتها- لم يكن يأخذ الشعارات الرنَّانة على محمل الجد، وتمامًا مثل طائر القيق الأزرق الفضولي النبَّاش، كانت لا تنفك تنبش بلا هوادة أكوام الحشو والإطناب لتعثر على الحقيقة الخفية اللَّامعة. لهذا لم

تكن انتفاضة الطلبة المُدرجة في النص ذات معنى بالنسبة إليها. ولكن كيف؟ أخذت تتعجَّب الآن. فجوة بين الأجيال؟ هذا هُراء، أنا في الثانية والثلاثين من العمر. هذا مُجرَّد حُمَق، هذا كل ما في الأمر، إنه...!

اهدئي. لم يبق سوى أسبوع آخر فقط.

لقد انتهوا من تصوير كل المشاهد الداخلية في هوليوود، وكل ما يتبقَّى تصويره عدد من المشاهد الخارجية في الحرم الجامعي لجامعة جورج تاون.. ابتداءً من الغد.

تثاقل جفناها، وبدأت تشعر بالنعاس. انتقلت إلى صفحة أطرافها مُمزَّقة ومهترئة بشكل يثير الفضول. مُخرج فيلمها البريطاني، بيرك دينينجس -تحديدًا عندما يكون متوتّرًا- يُمزِّق بيدين راجفتين مُرتعدتين شرائط طولية من حافة صفحات النص التي تكون في متناوله، ثم يمضغها ببطء، بوصة تلو الأخرى، إلى أن تستحيل كُرة مُبلَّلة داخل فمه.

بيرك المجنون العزيز، هكذا فكَّرت كريس.

وضعت كريس يدها على فمها وهي تتثاءب، ثم نظرت بإعزاز إلى طرف صفحات النص. بدت الصفحات مقضومة. تذكَّرت الفِئران. لا بد أن أولئك الأوغاد الصغار طوَّروا إيقاعًا، هكذا فكَّرت. ذكَّرت نفسها بأن تجعل كارل ينصب مصايد لها في الصباح. تراخت أصابعها، وانزلق النص من يدها، فسمحت له بالسقوط. مُبتذَل، هكذا فكَّرت، إنه مُبتذل. مدَّت يدًا مُتحسِّسة ناحية مُفتاح النور. ها هو. تنهَّدت واستلقت بلا حراك بُرهةً من الوقت، كانت قد نامت تقريبًا، ثم ركلت الغطاء من فوقها بساقٍ كسول.

الجو حارٌّ جدًا! حارٌ بشكلٍ لعين! فكَّرت مرة أخرى في برودة غرفة ريجان المُحيِّرة، وفي عقلها ومضت ذكرى عملها مع إدوارد چي روبنسون، نجم أفلام العصابات الأسطوري في الأربعينات، وكيف كانت تتعجَّب وقتها إنها تصير على شفا الارتعاش من البرد في كل مشهد يؤدياه معًا، حتَّى تبيَّنت أن ذاك المُخضرم الماكر كان يتدبَّر الوقوف قُبالة إضاءتها

الرئيسية. لمعت ابتسامة مندهشة على ثغرها الآن، بينما يتكاثف رذاذ الندى بلطف على زجاج نوافذ غرفتها. غابت كريس في النوم، وحلمت بالموت بشكلٍ مُحدَّد تمامًا. كما لو كان الموت لم يُسمع به من قبل قط. وبينما ما كان شيءٌ يُصدر رنينًا.. كانت تلهث وتذوب، وتنزلق إلى الفراغ وهي تُفكِّر مِرارًا وتكرارًا.. أنا لن أكون.. سأموت.. لن أكون دائمًا وأبدًا.. أوه يا بابا.. لا تدَعهم.. أوه.. لا تدعهم يفعلونها، لا تدعني أصير لا شيء إلى الأبد.. ذوبان.. تكشُّف.. رنين.. الرنين...

الهاتف!

قفزت إلى الهواء وقلبها يخفق بقوَّة، أمسكت يدها بالسمَّاعة وهي تشعر بانعدام وزن في معدتها.. جوهرها لا وزن له، والهاتف يرن.

أجابت المُتَّصل.. إنها مُساعدة المُخرج.

- «كوني جاهزة للتنميق في السادسة صباحًا يا حبيبتي».

- «حسنًا».

- «كيف تشعرين؟».

- «كمن آوت إلى الفراش لتوِّها».

ضحكت مُساعدة المخرج: «سأراكِ قريبًا».

- «بالتأكيد، حسنًا».

أغلقت كريس الهاتف وجلست لحظاتٍ بلا حراك تستعيد الحُلم الذي راودها. حُلم؟ بدا الأمر كتداعي أفكار في حالة من نصف الوعي. ذلك الوضوح المروِّع.. وميض من داخل الجمجمة.. الشعور بانعدام الوجود.. شعور بلا رجعة. لم تستطع تصوُّره.

يا إلهي، هذ لا يمكن أن يكون!

مُغتمَّة، أحنت كريس رأسها لأسفل.

لكنه حدث.

ذهبت إلى الحمام، وارتدت الرداء الفضفاض فوق المنامة، ثم هرولت

نزولًا بخطى سريعة على الدرجات الخشبية القديمة ودلفت إلى المطبخ، إلى الحياة التي يغمرها صوت لحم الخنزير الذي يُفرقع فوق النار.

- «آه، صباح الخير يا سيِّدة ماكنيل».

كانت ويلي الخادمة الشيباء المُتهدِّلة تعصر ثمار البرتقال، والهالات السوداء تبرز مُنتفخة أسفل عينيها. صوتها يحمل بقايا لكنة سويسرية.. تمامًا مثل كارل. نشَّفت يديها في منشفة ورقية وهمَّت لتتَّجه نحو الموقد.

- «دعيها لي يا ويلي».

قالتها كريس رقيقة الحاشية دائمًا عندما رأت مظهر مُدبِّرة المنزل المُرهق.. ومع استدارة ويلي على عقبيها عائدة إلى حوض غسيل الأطباق، صبَّت المُمثلة القهوة لنفسها وجلست إلى ركن منضدة الإفطار، ثم ابتسمت والدِفء يغمرها عندما نظرت إلى أسفل نحو طبقها ووجدت وردة حمراء قانية تتوهَّج في تضادٍ أنيق مع بياضه. أوه ريجان. ذلك الملاك. في أصباحٍ عديدة، عندما كانت كريس تعمل، تقوم ريجان بمغادرة فراشها بهدوء، وتهبط إلى المطبخ لتضع وردة في طبق أمها الفارغ، ثم تتلمَّس طريقها رجوعًا بعينين يابستين رمَّصاتين إلى فراشها وإلى النوم مرَّةً أخرى. في هذا الصباح تحديدًا، هزَّت كريس رأسها بأسى وتذكَّرت عزمها في فترةٍ ما على تسمية الفتاة جونريل[1]. بالتأكيد، يجب أن تستعدي للأسوأ. ابتسمت كريس بخفوت للذكرى، ثم رشفت رشفةً من قهوتها، وعندما وقع بصرها من جديد على الوردة بدا الحُزن يغزو ملامحها للحظات، وتكدَّرت عيناها الخضروابن في وجهٍ كامد. لقد تذكَّرت وردةً أخرى.. ابنها.. چايمي. لقد تُوفِّي منذ زمن طويل عن عمر ثلاث سنوات عندما كانت كريس يافعة جدًا ولا تزال فتاة جوقة غير معروفة في مسارح برودواي. لقد أقسمت ألا تنذر نفسها بعد ذلك بشكلٍ كامل لأحد كما

(1) في مسرحية شكسبير الشهيرة «الملك لير»، جونريل هي كبرى بنات الملك الثلاث. هي وأختها ريجان شخصيتان شرِّيرتان ومهوستان بالقوة.

فعلت مع چايمي، وكما فعلت مع والده، هوارد ماكنيل. مع تبخُّر حلمها بالموت وسط أبخرة القهوة السوداء الساخنة، رفعت بصرها عن الوردة ونفضت أفكارها في اللحظة التي أحضرت فيها ويلي العصير ووضعته قُبالتها. تذكَّرت كريس الفِئران.

- «أين كارل».

- «أنا هنا يا سيدتي».

خرج الرجل من الباب المواجه للمخزن مُبتهجًا، مُسيطرًا وحازمًا لكن دمث في الوقت نفسه، وبقطعة منديل ورقي مُلتصقة بذقنه حيث جرح نفسه في أثناء الحلاقة. «نعم؟». كان طويلًا ومكتنزًا بالعضلات، وأخذ يلهث جوار المنضدة بعينين لامعتين، وأنف كالصقر، ورأسٍ أصلع.

- «هاي يا كارل، لدينا فِئران في العلية. يُستحسن أن تنصب لنا بعض المصايد».

- «فِئران؟»

- «لقد قُلت ذلك لتوِّي».

- «ولكن العلية نظيفة تمامًا».

- «حسنًا إذًا، لدينا فِئران نظيفة».

- «لا توجد فِئران».

- «كارل، لقد سمعتها البارحة».

قال كارل مُتفحِّصًا: «قد تكون أنابيب المياه، أو الألواح الخشبية».

- «وقد تكون فِئران. هلَّا ابتعت المصايد اللعينة وكففت عن الجدال؟».

قال كارل وهو يبتعد غاضبًا: «حسنًا! سأذهب الآن».

- «لا، ليس الآن يا كارل. المحال مغلقة».

صاحت ويلي موبِّخة: «إنها مُغلقة».

لكنه كان قد رحل. تبادلت كريس وويلي النظرات، وبعدها عادت ويلي إلى تحضير لحم الخنزير المُقدَّد وهي تهزُّ رأسها. ارتشفت كريس قهوتها. رجل غريب، هكذا فكَّرت.. إنه مثل ويلي، جادٌّ في عمله، مُخلصًا

تمامًا، مُتحفظًا جدًّا، ورغم ذلك يوجد شيء ما بخصوصه يجعلها تشعر بعدم ارتياح غامض. ماذا كان؟ تلك السحابة الرقيقة من الغطرسة؟ لا، شيءٌ آخر، لكنها لا تستطيع تحديده. الزوجان مُدبِّرا المنزل ظلا معها قرابة ست سنوات الآن، ومع ذلك كارل لا يزال غامضًا، كمُتحدِّث لغة هيروغليفية مُبهمة يؤدي مَهماتها بتكلُّفٍ زائد على اللازم. ومع ذلك، خلف هذا القناع الجامد يوجد شيء يتحرَّك، كانت تستطيع الإنصات إلى آليته تُتكتِك كالضمير. أصدر الباب الأمامي صريرًا وهو يُفتح، ثم أُغلِقَ.

تمتمت ويلي: «إنها مُغلقة».

أخذت كريس قضمة من اللحم المُقدَّد، ثم عادت إلى غرفتها حيث ارتدت ملابس التصوير: السُترة والتنّورة. نظرت إلى المرآة وتفحَّصت باهتمام شعرها الأحمر القصير الذي يبدو أشعث على الدوام، ثم نقلت بصرها إلى النمش المُتناثِر فوق وجهها الصغير الذي جُلي مؤخرًا، ثم حوَّلت عينيها وضحكت في بلاهة قائلة: أوه، مرحبًا يا جارتنا الرائعة! هل أستطيع التحدُّث إلى زوجك؟ حبيبك؟ قوّادك؟ أوه، قوَّادك نزيل ملجأ المُشرَّدين؟ كم هذا صعب. ثم أخرجت لسانها لنفسها ثم تنهَّدت. أوه، بحق المسيح، يا لها من حياة! التقطت صندوق الشعر المُستعار، وهبطت مُتراخية درجات السلم إلى الطابق الأسفل، وخرجت إلى الشارع الساخن الذي تصطف الأشجار فيه على الجانبين.

للحظة توقَّفت خارج المنزل، وتنفَّست بعمق في هواء الصباح الواعد البَليل، المُحمَّل بالخلفية المألوفة لأصوات بدء يوم جديد. أدارت بصرها إلى اليمين –ووجهها يعكس نظرة توَّاقة حزينة– إلى حيث درجات السُلَّم الحجري القديم جوار المنزل التي تهبط بتحُّدر شديد إلى شارع إم القابع بعيدًا في الأسفل، بينما أبعد قليلًا توجد الأبراج العتيقة المُشيَّدة بأحجار الركوكو، ومرأب السيَّارات ذو السقف القرميدي المائل على طراز سقوف مباني البحر المتوسط. حي مُمتع، هكذا فكَّرت، اللعنة لِمَ لا أستقر هنا؟ ابتاع المنزل؟ وأبدأ حياتي؟ ترامت إلى مسمعيها دقَّات جرس عميق

مُجَلجِل. هذا برج ساعة حرم جامعة چورچ تاون. حُمِل صدى الصوت راجفًا فوق صفحة مياه النهر الموحل بُنِّية اللون وتسرَّب إلى قلب الممثلة المُتعب. سارت مُتَّجهة إلى مكان عملها، نحو الملهاة الهزلية المروِّعة، نحو مُحاكاة اللا شيء المليئة بالهُراء.

مع دلوفها عبر البوَّابات الأمامية الرئيسية للحرم الجامعي، تضاءل شعورها بالاكتئاب، ثم تقلَّص أكثر عندما نظرت إلى مصفوفة عربات تبديل الملابس المُصطفَّة على طول الطريق بالقرب من الجدار الجنوبي المُحيط بالحرم. وبحلول الثامنة صباحًا، كانت قد استعادت نفسها تقريبًا، وبدأت جدالًا مُحتدمًا بشأن النص.

- «هاي، بيرك؟ هلَّا ألقيت نظرة على هذا الشيء اللعين؟».

- «أوه، أنت تملكين نصًّا بالفعل. أرِني هذا! كم هذا رائع!».

قالها المُخرج بيرك دينينجس الجذَّاب متوتِّرًا، بينما عينه اليسرى ترجف وتلتمع بالشيطنة والرغبة في العبث، وهو يُمزِّق بدِقَّة بأصابع مرتعشة شريطاً رفيعاً من إحدى الأوراق، مُضيفًا:

- «أظن أنني سأحظى بقليل من اللَوْك».

كانا يقفان على الممشى الذي يؤم المبنى الإداري الرئيسي للجامعة، وسط عدد من المجاميع والممثلين وطاقم الفيلم الرئيسي، بينما هنا وهناك ينتشر المُتفرجون في الحديقة، معظمهم من الكُلِّية اليسوعية. التقط مصوِّر الفيلم عدد اليوم من مجلة ديلي ڤارايتي في ملل بينما دينينجس يضع الورقة داخل فمه مُقهقهًا، وأنفاسه تفوح منها بخفوت رائحة كأس الجِين الأولى لهذا الصباح.

- «أوه، نعم.. أنا سعيد تمامًا كونهم أعطوكِ نصًّا!».

كان بيرك رجلًا ماكرًا ضئيل البنية في الخمسينيات من العمر، ويتحدَّث لكنة بريطانية ساحرة شديدة الوضوح، بمخارج ألفاظ قاطعة ومُحدَّدة لدرجة أنها تجعل من أقذع البذاءات شيئًا أنيقًا، وعندما يُفرط في الشراب، يبدو دائمًا أنه على وشك القهقهة.. يبدو وكأنه يُكافح باستمرار لاستعادة رابطة جأشه.

- «الآن إذًا، أخبريني يا عزيزتي ماذا هنالك؟ ما الخطب؟».

كان المشهد المعني يستعرض عميد الكلية الخيالية في النص وهو يخطب في جمع من الطُّلَّاب في محاولة لإخماد اعتصام مُهدِّد. حينها، من المُفترض أن تركض كريس صاعدة الدرج إلى الممشى الرئيسي، وتنتزع مُكبِّر الصوت من يد العميد، ثم توجِّهه صوب مبنى الإدارة الرئيسي وتصيح: «لنهدمه!».

قالت له كريس: «هذا كلام فارغ».

رد دينينجس كاذبًا: «حسنًا، الأمر بسيط تمامًا».

- «أوه، أهو كذلك؟ فَسِّره لي يا بيركي إذًا. لماذا بحق الجحيم ينبغي عليهم تحطيم المبنى؟ ما الغرض؟ ما رؤيتك؟».

- «هل تسخرين مني؟».

- «لا، أنا أسأل عن الدافع؟».

- «لأن المبنى قائم يا عزيزتي».

- «في النص؟».

- «لا، في الواقع».

- «أوه، كفاك يا بيرك. الأمر فقط لا يتَّفق وشخصيتها. إنه ليس تصرُّفًا قد تقوم به على الإطلاق. مثلها لا يفعل ذلك».

- «بل يفعل».

- «لا، لا يفعل».

- «أيتحتَّم علينا استدعاء الكاتب؟ إنه في باريس حسبما أظن».

- «يختبئ؟».

- «يُضاجع!».

تفوَّه بالكلمة ضاغطًا على كل مقطع منها بفصاحة لا تشوبها شائِبة، ولمعت عينا الذئب في وجهه الشبيه بالفطيرة، بينما الكلمة ترتفع مع الهواء نحو الأبراج القوطية واضحة تمامًا. أسقطت كريس رأسها على كتفه، مستسلمة وضاحكة.

- «أوه يا بيرك، عليك اللعنة! أنت وغدٌ صعب المِراس».
- «هذا صحيح».
قالها كيوليوس قيصر عندما أكَّد في تواضع تقارير رفضه الثالث للتاج الملكي.
- «الآن إذًا، هلَّا بدأنا؟».
لم تسمعه كريس. كانت تُلقي نظرة مُختلسة ومُحرجة إلى قس يسوعي في الأربعينيات من عُمره يقف وسط نِطاق من المُتفرِّجين لترى إذا كان قد سمع اللفظ البذيء. كان له وجه مُتجهِّم وقاسٍ ومُرضَّض كوجه مُلاكم. ويوجد شيءٌ ما حزين بخصوص عينيه، شيءٌ ما آسفًا، ومع ذلك دافئٌ ومُطمئن. لاحظت هذا عندما ثبَّت عينيه على عينيها وهو يبتسم ويومئ برأسه. لا بد أنه سمعه. نظر الرجل إلى ساعته ثم مضى مبتعدًا.
- «كنت أقول، هلَّا بدأنا؟».
التفتت كريس إليه مُشوَّشة وقالت: «نعم، بالتأكيد يا بيرك. لنبدأ».
- «شكرًا للسموات».
- «لا، مهلًا».
- «أوه، يا للمسيح!».
اعترضت كريس على المشهد التالي. كانت تشعر أن التتابع بلغ ذروته مع جملتها الأخيرة، وأن هذا يتعارض مع ركضها عبر باب المبنى مُباشرةً بعد ذلك.
قالت كريس: «الأمر لا يضيف شيئًا. هذا غباء».
وافقها كريس الرأي بإخلاص: «هو كذلك يا عزيزتي، بيد أن مونتير الفيلم يصر على أن نصوِّر المشهد، لذا سنصوِّر المشهد. هل تتخيَّلين الأمر؟».
- «لا».
- «بالتأكيد لم تفعلي يا عزيزتي، لأنكِ على صوابٍ تام. هذا غباء. هل ترين، بما أن المشهد الذي يليه مباشرةً» قالها دينينجس مُقهقهًا ثم استطرد

«حسنًا، بما أنه يبدأ بدخول جيد إلى المنظر عبر باب، فإن المونتير يشعر بأن أفضل ختام للمشهد السابق هو رؤيتك وأنت تدلفين مُبتعدةً عبر الباب».

- «هل تمزح؟».

- «أوه، أنا أتفق معكِ يا حلوتي. إنه هُراء محض، جنون أبله! لكن لِم لا نُصوِّره، وثقي بأني سأحذفه من النسخة النهائية.. أظنه سيُشكِّل مُضغة لذيذة نوعًا ما».

ضحكت كريس موافقة. نظر بيرك تجاه المونتير الذي كان معروفًا عنه أنه مزاجيّ مغرور لا يحب تضييع الوقت في الجدال. كان مشغولًا مع المصوِّر، لذا تنفَّس المُخرج الصعداء.

في أثناء مكوثها فوق العشب أسفل الدرج في انتظار إحماء أضواء التصوير، نظرت كريس إلى دينينجس وهو يُقرِّع فني إضاءة تعسًا بلفظٍ فاحش، وبعدها تألَّق وجهه بالرضا عن النفس. بدا أنه يستمتع بغرابته وشذوذه. لكن مع ذلك كانت كريس تعلم أنه في مرحلة ما من سُكرِه، عندما يكون مخمورًا بحق، فإنه قد ينفجر فجأة في نوبة غضب عارمة، وإذا حدث ذلك في الثالثة أو الرابعة صباحًا، فإنه من المُرجَّح أن يُهاتف أحد الرؤساء ويختلق معهم مشكلات على أمورٍ تافهة. تذكَّرت كريس رئيس ستديو كانت جُل جريمته تتمثَّل في مُلاحظة عابرة أبداها في أثناء عرض خاص، لقد قال إن أساور قميص دينينجس تبدو مُهترئة قليلًا، الأمر الذي حثَّ دينينجس على إيقاظه في الثالثة صباحًا تقريبًا ليصفه بالـ «المهبل الفج»، وأن والده -مؤسس الستديو- «مُختل عقليًا على الأرجح!»، وأنه «تحسَّس جودي جارلند مرارًا وتكرارًا» في أثناء تصوير فيلم ساحر أوز. ثم في اليوم التالي يدَّعي فُقدان الذاكرة وهو يشع بالسرور بشكلٍ خافت بينما أولئك الذين تلقَّوا إهاناته يسردون ما فعله معهم بالتفصيل. لكنه أيضًا قد يتذكَّر كل شيء فقط لو شعر أن الأمر يناسبه. ابتسمت كريس وهزَّت رأسها وهي تتذكَّر حادثة تدميره لمكتبه والمكاتب المجاورة في الستديو في ثورة عارمة من الغضب الجنوني أججها خمر الچين، وعندما واجهه

رئيس الإنتاج -بعد الحادث- بصورٍ فوتوغرافية للحطام وفاتورة مُفصَّلة أنكرها جميعًا بمكرٍ لكونها «واضحة التزييف» على حد تعبيره، حيث إن «الدمار كان أسوأ بكثير جدًّا مما تعرضه الصور!». لم تكن كريس تؤمن بأنه مُدمن خمر أو حتَّى حالة سُكر ميؤوس منها، ولكنه بالأحرى يعاقر الخمر ويتصرَّف بمجون لأن هذا ما يتوقَّعه الناس منه.. إنه فقط يعيش صيته الذائع، يرتقي إلى الأسطورة المنسوجة حوله.

آه، حسنًا، هكذا فكَّرت كريس، أظن أن الأمر ينطوي على خلودٍ من نوعٍ ما.

أدارت كريس رأسها ونظرت من فوق كتفها بحثًا عن اليسوعي الذي ابتسم عندما تلفَّظ بيرك بالفحش. كان يسير مُبتعدًا ورأسه مُنكَّس بقنوط. بدا كسحابةٍ سوداء وحيدة تبحث عن المطر. لم تُحب القساوسة قط. إنهم شديدو الثقة، مطمئنون تمامًا، ورغم ذلك كان هذا الرجل...

- «كريس، الجميع مُستعد».

- «جاهزة».

- «حسنًا، سكوت تام يا حضرات». صاح بها مُساعد المُخرج.

صاح بيرك آمرًا: «أَدِرْ شريط الفيلم»..

- «دائر!».

- «الصوت دائر!».

- «والآن، حركة!».

ركضت كريس صاعدة الدرج وسط هتاف المجاميع ومراقبة دينينجس، وهو يتساءل ما الذي دار في عقلها تحديدًا. لقد تخلَّت عن الجدال أسرع ممَّا ينبغي. ألقى بنظرة ذات مغزى إلى مُدرِّب الحوار الذي زحف إليه مُخلصًا ومدَّ يده بنسخته المفتوحة من النص كصبي مذبح مُتمرِّس يُسلِّم كتاب القدَّاس إلى كبير القساوسة في قدَّاس رسمي مهيب.

***

استمروا في العمل في ظل شمسٍ مُتقطِّعة وسماء غائمة، وبحلول

الرابعة عصرًا أُظلِمَت السماء تمامًا وغصَّت بالسُحُب الكثيفة المُكدِّرة.

راقب مُساعد المخرج الأجواء قَلِقًا ثم قال: «بيرك، الضوء يتلاشى».

- «نعم، إنها تُظلم في جميع أرجاء العالم الداعِر».

بتعليمات من دينينجس، صرف مُساعد المُخرج فريق العمل وأنهى اليوم، والآن كانت كريس في طريقها إلى المنزل، عينيها تُحدِّق إلى الرصيف، وتشعر بإرهاقٍ شديدٍ. توقَّفت عند ناصية تقاطُع شارعي 36 و O لتوقِّع إهداءً إلى عامل إيطالي مُسِن في محل بقالة نادى عليها من عتبة متجره. كتبت اسمها مُرفقًا بعبارة «أطيب تمنياتي الحارة» على الكيس الورقي البُني. نظرت بزاوية مائلة عبر الشارع إلى كنيسة كاثوليكية في أثناء انتظارها مرور سيارة لتعبر إلى شارعِ إن. لافتتها تقرأ: شيءٌ ما مُقدَّس، وكانت تزدحم باليسوعيين. هنا تزوَّج چون إف كنيدي بچاكي، هكذا سمعت، وهنا تعبَّد. حاولت تخيُّل الأمر: چون إف كينيدي واقفًا بين أضواء النذور والنسوة المُتغضِّنات الوَرِعات.. چون إف كينيدي برأسه المحني في الصلاة يُتمتم: أؤمن (بالوِفاق مع الروس). أؤمن.. أؤمن (برحلة المركبة أبولو 4).. خشخشة حبَّات المِسبحة.. أؤمن بالقيامة والحياة الأبدية...

نعم. هذا هو القول الصواب. هذا ما يثير المشاعر.

شاهدت كريس شاحنة جعة ماركة جانثر تعبر بتثاقل الشارع المرصوف بالحجارة، بأصواتٍ تحمل وعودًا مرتعشة، ودافئة، وسائلة.

عبرت كريس الطريق، ومع سيرها في شارع O وتخطيها قاعة احتفالات مدرسة الثالوث المُقدَّس الابتدائية، اندفع قِسٌّ مُسرعًا من خلفها ويداه في جيبي سُترة واقية من النايلون. كان شابًا ومتوتِّرًا جدًا، وفي حاجة إلى حلاقة ذقنه. بعد لحظات، انحرف يمينًا إلى مدخل يمر عبر عقار ويُفضي إلى باحة الكنيسة الخلفية. توقَّفت كريس عند المدخل تراقبه بفضول. بدا كأنه يتَّجه نحو كوخ أبيض مُسيَّج. انفتح باب مفصلي قديم مُصدرًا صريرًا وخرج منه راهبٌ آخر، وأومأ باقتضاب إلى الشاب،

ثم بعينين مكسورتين سار مُسرعًا ناحية باب يقود إلى الكنيسة. ثم مرَّة أخرى فُتح باب الكوخ من الداخل. راهب آخر. بدا وكأنه... أوه، نعم، هو كذلك! القس الذي ابتسم عندما قال بيرك «يُضاجع»! فقط بدا الآن مُتجهِّمًا وهو يُحيِّي الوافد الجديد بصمتٍ، ويضع يده فوق كتفه في لفتة بدت حانية وأبوية على نحوٍ ما. قاده الرجل إلى الداخل، ثم انغلق الباب القديم مُحدثًا صريرًا بطيئًا وخافتًا.

حدَّقت كريس إلى حذائها. كانت حائرة. ما الذي يحدث؟ تعجَّبت ما إذا كان اليسوعيون يذهبون إلى الاعتراف.

هَزِمَ الرعد بشكلٍ خافت. نظرت كريس إلى أعلى نحو السماء. هل ستمطر؟... القيامة والحياة الأبدية... نعم. نعم، بالطبع. الثلاثاء القادم. لمعت ومضات من البرق من بعيد. لا تتَّصل بنا يا فتى، نحن سنفعل.

رفعت ياقة معطفها إلى أعلى ثم مضت ببطء إلى الأمام.. وتمنَّت أن يهطل المطر سيلًا.

***

بعد مرور دقيقة واحدة كانت في المنزل. أسرعت إلى الحمام، وبعدها توجَّهت إلى المطبخ.

– «مرحبًا يا كريس، كيف كان يومك؟».

قائلة العبارة كانت شقراء جميلة في العشرينيات من عمرها تجلس إلى المنضدة. شارون سبنسر. فتاة حديثة التخرج من ولاية أوريجون. على مدى السنوات الثلاث الماضية، كانت مُربِّية ومُثقِّفة ريجان، وسكرتيرة كريس الاجتماعية.

– «أوه، الهُراء المعتاد». قالتها كريس وهي تتَّئِد إلى المنضدة وتبدأ في تصفُّح الرسائل، ثم أردفت: «أيُّ شيءٍ مثير؟».

– «هل تريدين أن تحظي الأسبوع القادم بعشاءٍ في البيت الأبيض؟».

– «أوه، لا أعرف يا حُلوة، ماذا تشعرين أنك ترغبين في فعله؟».

– «تناول الحلوى والإصابة بالمرض».

- «أين راجس؟».
- «في الطابق السفلي، في غرفة اللَّعِب».
- «ماذا تفعل؟».
- «تتنحَّت. إنها تصنع طائرًا على ما أظن. تصنعه لكِ».

غمغمت كريس: «نعم، أريد واحدًا»، ثم اتجهت إلى الموقد وصبَّت قدحًا من القهوة الساخنة وأردفت متسائلة: «هل كنت تمزحين بخصوص ذلك العشاء؟».

أجابتها شارون: «لا، بالطبع لا. إنه يوم الثلاثاء».
- «حفل عشاء ضخم؟».
- «لا، ما فهمته إنه عشاء لخمسة أو ستة أشخاص».
- «هاي، هذا رائع!».

شعرت بالسرور لكنها لم تتفاجأ فعليًّا. كثيرون يأنسون بصحبتها: سائقو الأجرة، والشعراء، وأساتذة الجامعة، والملوك. ما الذي يحبوه فيها؟ حيويتها؟

جلست كريس إلى المنضدة وسألت: «كيف سار الدرس؟».

أشعلت شارون لفافة تبغ وقالت مُقطبة جبينها: «مررنا بوقتٍ عصيبٍ مع الرياضيات مجدَّدًا».
- «حقًّا؟ هذا غريب؟».
- «نعم أعلم هذا. إنها مادتها المُفضَّلة».
- «أوه، حسنًا، يا لتلك الـ «رياضيات جديدة». يا للمسيح، ألن أتمكَّن من عدِّ حفنة عملات من أجل الحافلة إذا...».
- «مرحبًا يا أمي».

بذراعيها النحيفتين ممدوتان أمامها، دخلت ابنة كريس عبر الباب وهي تتقافز في مرح. كانت الفتاة ذات وجهٍ ناعم ومُشرق ومليء بالنمش، وتعقص شعرها الأحمر في ذَيلين مُتدلِّيين على جانبي رأسها.
- «مرحبًا يا زهرتي».

قالتها كريس مُبتهجة وهي تحتضنها بقوَّة، ثم لثمت وجنتها الوردية بحماسة مُحبَّبة. لم تكن تقدر على كبح جماح فيض مشاعرها في حضرة الصغيرة. «امموه، امموه، امموه»، المزيد من القُبُلات الحارة. ثم أبعدتها برفق وتفحَّصت ملامحها بعينين مُتلهِّفتين.

- «إذًا، ماذا فعلتِ اليوم؟ أيُ شيءٌ مثير؟».

- «آه، بعض حاجات».

- «أيُ نوع من الأشياء إذًا؟ أشياء جيِّدة؟ ها؟».

- «آه، دعيني أرى» كانت تضع رُكبتيها في مُقابلة رُكبتي والدتها، وتمايلهما بلطف جيئةً وذهابًا «حسنًا، لقد ذاكرت بالطبع».

- «حسنًا».

- «ورسمت».

- «ماذا رسمتِ؟».

- «آه، حسنًا، أزهارًا، تعرفين ما أقصد... أقحوانات. فقط وردية اللون. وبعدها.. آه، أجل! ذاك الحصان!» ركضت فجأة في حماسة وقد اتَّسعت عيناها «ذلك الرجل كان لديه حصان، أتعرفين ما أقصد، عند النهر؟ كنا نسير يا ماما ثم بعدها أتى ذلك الحصان، كان جميلًا! آه يا ماما، كان يجب عليكِ رؤيته، ولقد تركني أمتطيه كما أشاء! حقًا يا ماما! أعني، لمدة دقيقة كاملة!».

غمزت كريس إلى شارون في دُعابة خفية وسألت رافعة أحد حاجبيها: «هو نفسه؟». عند انتقالهم إلى واشنطن من أجل تصوير الفيلم، كانت السكرتيرة الشقراء -التي أضحت الآن أحد أفراد الأسرة تقريبًا- تقيم معهم في المنزل في غرفة النوم الإضافية في الطابق العلوي. إلى أن قابلت «الفارس» في الحظيرة المجاورة. في هذه اللحظة قرَّرت كريس أن شارون في حاجة إلى مسكنها المستقل لتكون بمفردها، لذا نقلتها إلى جناح في فندق باهظ الثمن وأصرَّت على تحمُّل كل النفقات.

- «نعم، هو نفسه». قالتها شارون بابتسامة.

أكملت ريجان حكايتها: «كان حصانًا رماديًا. أماه، ألا نستطيع اقتناء حصان؟ أعني، هلّا فعلنا؟».

- «لنُفكِّر في الأمر يا صغيرتي».
- «متى أستطيع الحصول على واحدٍ؟».
- «سنرى. أين ذلك الطير الذي صنعتيه؟».

في البداية بُهتت ريجان، ثم التفَّت إلى شارون وابتسمت ابتسامة عريضة بفم تحتلَّه مشابك تقويم الأسنان.

- «أنتِ أخبرتها!». قالتها قبل أن تلتف إلى أمها مجدَّدًا وتضحك: «كان من المفترض أن تكون مُفاجأة».
- «أتعني...؟».
- «إنه بأنفٍ طويل وغريب، تمامًا كما أردتِ!».
- «آه يا راجس، كم أنت لطيفة. هل لي أن أراه؟».
- «لا، ما زال عليَّ أن أطليه أوَّلًا. متى العشاء يا ماما؟».
- «جائعة؟».
- «أتضوَّر جوعًا».
- «إنها ليست الخامسة حتَّى. متى تناولتم الغداء؟». سألت كريس شارون.

أجابتها: «آه، نحو الثانية عشرة».

- «متى ستعود ويلي وكارل؟».

كانت كريس قد منحتهما عصر اليوم عُطلة.

قالت شارون: «في السابعة مساءً على ما أظن».

توسَّلت ريجان: «ماما، ألا يمكننا الذهاب إلى هوت شوبي؟ هلّا فعلنا؟».

أمسكت كريس بكف ابنتها، وابتسمت بحنان، وقبَّلتها، ثم قالت: «اركضي إلى أعلى وارتدي ملابسك وسنذهب على الفور».

- «أوه، أنا أُحبك».

قالتها ريجان وركضت إلى خارج الغرفة.

صاحت بها كريس: «حبيبتي، ارتدي الثوب الجديد!».

قالت شارون مُتأمِّلة: «هل ستسعدين لو أصبحتِ في الحادية عشرة من عُمركِ مجدَّدًا؟».

- «لا أعرف».

مدَّت كريس يدها والتقطت رسائل بريدها مرَّةً أخرى، وبدأت عملية فرز مُعتادة لخطابات التزلُّف والمداهنة المكتوبة بخطٍ رديء وعلى عجالة.

- «بعقلي الحالي؟ بكل الذكريات؟».

- «بالتأكيد».

- «لا محالة».

- «فكِّري مليًّا».

أسقطت كريس الخطابات والتقطت نصًا سينمائيًا يتصدَّره خطاب مُرسَل من وكيل أعمالها إدوارد هاريس.

- «أظن أنني أخبرته أنني لن أقرأ نصوصًا لبعض الوقت».

قالت شارون: «ينبغي عليكِ قراءته».

- «أوه، حقًا؟».

- «أجل، اقرئيه هذا الصباح».

- «أهو جيد لهذه الدرجة؟».

- «أظن أنه رائع».

- «وسألعب دور راهبة تكتشف أنها سحاقية، أليس كذلك؟».

- «لا، لن تلعبي أيَّ دور».

- «اللعنة، الأفلام أضحت أفضل من أي وقتٍ مضى. ما الذي تتحدثين عنه يا شارون بحق الجحيم؟ لِمَ هذه الابتسامة؟».

- «يريدونك على مِقعد المُخرج». قالتها شارون وهي تزفر دخان التَّبغ من صدرها بخجلٍ، والذي تصاعد مُمتزجًا بالدخان المتصاعد من لفافة التَّبغ ذاتها.

- «ماذا».
- «اقرئي الخطاب».
- «آه يا إلهي يا شار، أنت تمزحين!».
انكبَّت كريس على الخطاب، وعيناها تلتهم الكلمات في قضماتٍ جائعة: «... نص جديد... ثلاث قصص... الستديو يريد السيِّد ستيڤن مور للعب الدور... القبول ينص على...»
- «سأقوم بإخراج قصته!».
رفعت كريس ذراعيها في الهواء، وأفرجت عن صيحة فرحٍ مدوِّيةٍ ومبحوحة، ثم بكلتا يديها احتضنت الخطاب وضمَّته بقوة إلى صدرها.
- «آه يا ستيف، يا لك من ملاك. لقد تذكَّرت!» التصوير في أفريقيا، والاثنان جالسان إلى مقاعد المُخيَّم تحت تأثير الخمر يشاهدان الأُفُق القُرمزي المُذهب الذي يعلن عن نهاية اليوم. «آه، تلك المهنة ما هي إلا سَخف. بالنسبة إلى الممثل ما هي إلا هُراء كامل يا ستيف». «أوه، أنا أحبها». «إنها مضيعة للوقت! أتعرف ما الشيء الحقيقي في هذا المجال؟ الإخراج. هكذا تصنع شيئًا ذا قيمة، شيئًا ملكك، أقصد، شيئًا يُخلَّد». «فلتفعليها إذًا يا حبيبتي. فلتفعليها». «أوه، لقد حاولت يا ستيف، حاولت كثيرًا. لكنهم يرفضون». «لِمَ؟». «أوه، بربك، أنت تعرف السبب، إنهم لا يظنون أنني قادرة على إنهائه». «حسنًا، أظن أنكأهل لها». أضاءت ابتسامة دافئة مُحيَّاها. يا للذكرى الدافئة. العزيز ستيف...
- «ماما، لا أستطيع العثور على الثوب». هكذا صاحت ريجان من أعلى الدرج.
أجابتها كريس: «في خِزانة الملابس!».
- «تفقَّدتها!».
صاحت كريس: «لحظة واحدة وسأصعد إليكِ».
تصفَّحت كريس صفحات النص سريعًا، ثم توقَّفت، وبدت ذابلة وهي تقول: «أراهن على أنه هُراء على الأرجح».

- «أوه، لا أظن ذلك يا كريس! لا! أظن أنه عمل جيِّد بالفعل!».
- «آه، أنت يا من ظننتِ أن فيلم سايكو في حاجة إلى إضافة أصوات ضحك الجمهور إلى شريط صوته».

ضحكت شارون.

- «ماما؟».
- «قادمة».
- «ألديكِ موعدٌ يا شار؟».
- «نعم».

أشارت كريس إلى الخطابات: «اذهبي إذًا. يمكننا تفحُّص كل هذه الأشياء صباح الغد».

نهضت شارون من جلستها، إلا أن كريس تداركت نفسها وأردفت:

- «أوه لا، انتظري. لا، معذرة، يوجد خطاب يجب إرساله الليلة».
- «حسنًا». قالتها شارون وهي تلتقط مُذكِّرة الإملاء.

دوَّى أنين نافد الصبر: «أُماااه!».

أطلقت كريس تنهيدة ونهضت وهي تقول: «دقيقة وسأعود»، لكنها تردَّدت عندما لاحظت أن شارون تتحقَّق الوقت من ساعة معصمها.

قالت كريس: «ماذا؟».

- «لقد حان وقت تدريب التأمُّل الخاص بي يا كريس».

ضيَّقت كريس عينيها ونظرت إليها بغَيظٍ حنون. خلال الشهور الستة الماضية، راقبت كريس سكرتيرتها في أثناء تحوُّلها إلى «باحثة عن السكون». بدأ الأمر في لوس أنجلوس بالتنويم الإيحائي الذاتي، ثم أفضى بعد ذلك إلى الترانيم البوذية. طيلة الأسابيع القليلة الماضية التي اثتوت فيها شارون في الغرفة العلوية، تعبَّق المنزل بالبخور والدَّندنة الرتيبة الخالية من الحياة لترنيمة «نام يو رينجيه كو» التي تردَّد صداها في أرجاء المنزل باستمرار، وفي أوقاتٍ غير مناسبة، عادةً عندما تكون كريس مشغولة باستذكار حوارها. اعتادت على سماع نصيحتها: «أترين يا

كريس، فقط استمري بإنشاد الترنيمة، هذا كل ما في الأمر، وستحصدين أمانيكِ. ستحصلين على كل ما ترغبين فيه...». ذات مرَّة قالت شارون بكرم وافر لربَّة عملها: «يمكنك تشغيل التلفاز. لا بأس. أستطيع الترنيم في ظل وجود كل أنواع الضوضاء».

الآن ها هي قد انتقلت إلى التأمُّل التجاوزي خارج نطاق الواقع.

- «أتعتقدين فعلًا أن هذا النوع من الأشياء سيُفيدك بأي شكل من الأشكال يا شار؟».

أجابت شارون: «إنها تعطيني حالة من السلام العقلي».

- «هذا صحيح».

هكذا علَّقت كريس بنبرة جافة، ثم استدارت خارجة وهي تُتمتم مُتذمِّرة: «نام يو رينجيه كو».

صاحت بها شارون: «استمري في الدندنة لنحو خمس عشرة أو عشرين دقيقة. قد ينجح الأمر معكِ».

وقفت شارون للحظة وفكَّرت في ردٍ مناسب، ثم تخلَّت عن الأمر. صعدت إلى الدور العلوي قاصدة غرفة ريجان، واتَّجهت على الفور إلى خِزانة الملابس. كانت ريجان واقفة في منتصف الغرفة وتحدِّق إلى السقف.

- «ماذا تفعلين؟».

هكذا سألتها كريس وهي تبحث عن الثوب في خِزانة الملابس. كان من القطن وذا لونٍ أزرقٍ شاحب. لقد اشترته لها الأسبوع الماضي، وتتذكَّر أنها علَّقته داخل الخِزانة.

قالت ريجان: «توجد أصوات غريبة».

- «نعم أعرف. لدينا رفقة».

نظرت ريجان إليها في عدم فهم: «ماذا؟».

- «سناجب يا صغيرتي. توجد سناجب في العلية».

كانت ابنتها شديدة الحساسية، وسريعة الغثيان، وتخاف الفئران

كالجحيم. حتَّى الجرذان كانت تزعجها. البحث عن الثوب لم يُفضِ إلى شيء.

- «أترين يا ماما، إنه ليس هنا».
- «نعم، أرى. ربَّما أخذته ويلي مع الملابس المُتَّسخة».
- «لقد ضاع».
- «حسنًا. ارتدي الثوب الكُحلي. إنه جميل».

***

بعد أن حضرتا الحفلة المسائية المُبكِّرة لفيلم شيرلي تمبل وي ويلي وينكي في دار عرض تابعة لبيت الفن في چورج تاون، قادت السيَّارة عبر النهر عبر جسر كي وصولًا إلى هوت شوبي في روسلين، ڤيرچينيا. حيث تناولت كريس سلاطة، بينما طلبت ريجان حساءً، وزوجين من اللفائف، وقطع الدجاج المقلي، ومخفوق فراولة، وفطيرة توت أزرق مُغطَّاة بمُثلَّج الشيكولاتة. أين تضع كل هذا؟ في معصميها؟ تعجَّبت كريس في قرارة نفسها. الفتاة كانت هزيلة كالأمل سريع الزوال.

أشعلت كريس لفافة تبغ لتُرافق قهوتها، ونظرت عبر النافذة على يمينها إلى أبراج جامعة چورج تاون، قبل أن تُخفض عينيها وتلقي بنظرة مُتأمِّلة ومزاجية إلى سطح نهر بوتوماك الهادئ المُخادع، الذي لا يُعطي أدنى إشارة على التيَّارات الخطرة السريعة والقوية التي تصطخب في أحشائه. حرَّكت كريس نفسها قليلًا. في ضوء الليل الخافت، بدت مياه النهر داكنة وهادئة.. بدا وكأنه ينتظر.

- «لقد استمتعت بعشائي يا ماما».

أدرات كريس بصرها لتُقابل ابتسامة ريجان، ومثلما حدث لها كثيرًا من قبل، التقطت نفسًا سريعًا بهيرًا بعد ما اختبرت ذلك الوجع الذي يلُفَّها دون سابق إنذار، والذي تشعر به أحيانًا حينما ترى انعكاس صورة هوارد في وجهها. كثيرًا ما اعتقدت أن الأمر سببه زاوية سقوط الضوء. نقلت بصرها إلى صحن ريجان وقالت:

- «ستتركين الفطيرة؟».
خفضت ريجان بصرها وقالت: «لقد أكلت بعض الحلوى آنِفًا».
أطفأت كريس لفافة التَّبغ وابتسمت قائلة:
- «هيا بنا يا ريجان، لنذهب إلى المنزل».

***

عادا قبل السابعة مساءً، ووجدتا أن ويلي وكارل قد عادا بدورهما بالفعل. هرعت ريجان إلى غرفة اللعب في القبو مُتحمِّسة للانتهاء من التمثال لتهديه لأُمها، بينما توجَّهت كريس إلى المطبخ لتأخذ النص، ووجدت ويلي تصنع بعض القهوة الخشنة في وعاء مفتوح. بدت عصبية ومُتجهِّمة.
- «مرحبًا يا ويلي.كيف سار الأمر؟ هل حظيتِ بوقتٍ طيب؟».
- «لا تسألي».
قالتها ويلي وهي تضيف قشرة بيضة وحفنة من الملح إلى الوعاء، وشرحت لها أنهما ذهبا لمشاهدة فيلم. كانت ترغب في مُشاهدة البيتلز، لكن كارل أصر على فيلم مُستقل عن موتسارت. باحت في حسرة وهي تُهدِّئ الشعلة: «فيلم شنيع. ذاك الغبي».
- «آسفة لذلك».
ثم أضافت بعد أن تأبَّطت النص: «آه، ويلي. هل رأيتِ ذلك الثوب الذي ابتعته لراجس الأسبوع الماضي؟ القطني الأزرق؟».
- «نعم رأيته في خِزانة ملابسها هذا الصباح».
- «أين وضعتيه؟».
- «إنه في مكانه».
- «ألم تأخذيه بالخطأ للتنظيف مع الملابس المُتَّسِخة؟».
- «إنه في مكانه».
- «مع الملابس المُتَّسخة؟».
- «في الخِزانة».

- «لا. لقد بحثت».

كانت ويلي على وشك أن ترد إلا أنها زمَّت شفتيها واكفهرَّت مع قدوم كارل إلى الغرفة.

- «مساء الخير يا سيدتي».

قالها مُتَّجهًا نحو الحوض ليصب لنفسه كوبًا من الماء.

سألته كريس: «هل نصَّبت تلك المصايد؟».

- «لا توجد فئران».

- «هل نصَّبتها؟».

- «لقد فعلت بالطبع. لكن العلية نظيفة تمامًا».

- «أخبرني يا كارل، كيف كان الفيلم؟».

قال لها: «مُثير». كانت نبرته مثل وجهه، حازمة وخالية من التعبير.

همَّت كريس بمغادرة المطبخ وهي تُدندن أغنية شهيرة للبيتلز، لكنها توقَّفت فجأة، واستدارت وهي تُحدِّث نفسها، فقط محاولة واحدة أخرى!

- «كارل، هل واجهتك أيُ صعاب في ابتياع المصايد؟».

قال لها كارل مُعطيًا ظهره لها دون أن يلتفت: «لا يا سيدتي. لا صعاب».

- «في السادسة صباحًا».

- «لهذا أُنشئت السوق الليلية».

صفعت كريس جبهتها برفق وحدَّقت في ظهر كارل للحظة، ثم استدارت مُغادرة المطبخ وهي تغمغم بصوتٍ خفيض: «سُحقًا».

***

بعد استحمام طويل وفاخر، ذهبت كريس إلى خِزانة ملابسها في غرفتها لتأخذ رداء الحمَّام، لتُفاجأ بوجود ثوب ريجان المفقود. كان يرقد مكوَّمًا في أرضية الخِزانة. التقطته كريس ووجدت أن مُلصق السعر ما زال مُعلَّقًا به. ما الذي يفعله هنا؟

حاولت كريس التفكير رجوعًا إلى الوراء، وتذكَّرت أنها في يوم ابتياعه ابتاعت أيضًا شيئين أو ثلاثة لنفسها. لا بد أنني وضعت الحاجِيات كلها مع بعضها، هكذا قرَّرت.

حملت كريس الثوب إلى غرفة ريجان، وعلَّقته على شمَّاعة، ثم وضعته على حامل الملابس في خِزانة ريجان. ثم بكفٍّ مرفوع إلى شفتيها، أخذت تُثمِّن خِزانة ثياب ريجان. جميل.. جميل. ملابس. نعم يا ريجان، انظري هنا، وليس هناك، حيث والدك الذي لم يتَّصل أو يكتب لكِ قط.

مع ابتعادها عن الخِزانة، صدمت كريس إصبع قدمها في قاعدة المكتب. آه، يا للمسيح! يا لكِ من ذكية! رفعت قدمها وأخذت تُدلِّك إصبعها عندما لاحظت أن المكتب يبعد عن موضعه بنحو ثلاثة أقدام.

لا عجب أنني صدمته. لا بد أن ويلي نظَّفت الغرفة.

هبطت كريس إلى الدور السُفلي ودخلت غرفة المكتب وهي تتأبَّط النص الذي أُرسل من وكيل أعمالها.

بخلاف غرفة المعيشة الضخمة بنوافذها الكبيرة المُطِلَّة على جسر كي المقوَّس الذي يُظلِّل نهر بوتوماك وصولًا إلى ضفَّة ڤيرچينيا، كانت غُرفة المكتب مُغلَّفة بأجواء كثيفة نوعًا، ويفوح بها عبق أسرار دارت بين مُرابين أثرياء: مدفأة بارزة من القرميد، ألواح من خشب الكرز الأحمر، وحِزم مُتقاطعة من خشب متين بدا وكأنه مقطوع من جسر مُتحرِّك عتيق. الموجودات القليلة في الغرفة التي أشارت إلى زمن معاصر نسبيًّا تمثَّلت في رُكن مشروبات حديث الطراز تُحيطه مقاعد من الكروم مكسوَّة بجلد الغزال الزَغِب، وبعض الوسائد من طراز ماريمكو مُزركشة وزاهية الألوان تتناثر فوق أريكة ناعمة استلقت كريس عليها وتمطَّت حاملة النص المُرسل من وكيل أعمالها. كان خطابه محصورًا بين الصفحات، وقد قامت كريس بانتزاعه وقراءته مرةً أخرى. إيمان، وأمل، ومحبَّة: فيلم يضم ثلاث قصص مُحدَّدة، كلٌّ منها بفريق عمل ومُخرج مُختلف. قصتها بعنوان «أمل». أحبَّت الاسم. بليدٌ رُبَّما، هكذا فكَّرت، لكنه أنيق. على الأرجح سيغيِّرونه إلى شيءٍ ما على غرار «زعزعة الفضائل».

قرع جرس الباب. لا بد أنه بيرك دينينجس. الذئب الوحيد. كثيرًا ما كان يمر بالجوار. ابتسمت كريس شاعرة بالأسى لحاله، وهزَّت رأسها مع

سماعها إياه يسُبُّ كارل بلفظٍ فاحش، كان يمقته ويستمتع بالسخرية منه بكلماتٍ لاذعة.

- «مرحبًا، أين الشراب!».

نطقها آمِرًا وبشَكَس وهو يدلف إلى الغرفة مُتَّجهًا إلى ركن الشراب مُشيحًا ببصره ويديه في جيبي معطفه المُجعَّد الواقي من المطر.

جلس على المقعد المُرتفع وبدا مُنفعلًا، وفي عينيه التمعت نظرة ماكرة، وعلى وجهه خيبة أمل مُبهمة.

سألته كريس: «تطوف الطرقات خِلسةً مجدَّدًا؟».

قال دينينجس مُستنشقًا الهواء: «ما الذي تعنيه بحق الجحيم؟».

- «في عينيك تلك النظرة».

كانت قد رأتها من قبل عندما كانا يعملان معًا في فيلم في لوزان بسويسرا. في ليلتهما الأولى في ذلك الفندق الرصين المُطِل على بُحيرة چنيف، كانت كريس تعاني الأرق. بعد الخامسة صباحًا بقليل، هبَّت ناهضة من الفراش وقرَّرت ارتداء ملابسها والنزول إلى بهو الفندق للبحث إما عن بعض القهوة أو بعض الصُحبة. وبينما هي مُنتظرة المِصعد في الردهة، نظرت عبر النافذة ورأت المُخرج يسير مشدودًا بجانب البُحيرة وهو يدفن يديه عميقًا في جيبي معطفه اتِّقاءً لبرد شتاء فبراير القارس. في الوقت الذي بلغت فيه البهو، كان قد دخل الفندق. «لا توجد عاهرة على مرمى البصر!». صاح بها في مرارة في أثناء مروره مُسرعًا مُتخطِّيًا كريس دون حتَّى أن يرمقها بلمحة، ثم غاب داخل المصعد الذي حمله إلى طابقه وإلى غرفته وإلى فراشه. عندما ذكرت كريس الحادثة أمامه لاحقًا على سبيل الدعابة، استشاط المُخرج غضبًا واتَّهمها بالترويج إلى «هلاوس فاضحة»، وأن الناس «منِ المرجَّح أن يُصدِّقوكِ فقط لأنكِ نجمة». أيضًا أشار إليها بوصفها «مُجرَّد مُخطرفة جامحة». لكنه بعد ذلك أوضح بلُطف في محاولة تهدئة مشاعرها أنها -رُبَّما- شاهدت شخصًا ما رغم كل

شيء، وظنَّته دينينجس بالخطأ. ثم اعترف مُرتجلًا: «الأمر ليس غير وارد على الإطلاق، فجدَّة جدَّتي يُصادف أنها سويسرية».

انتقلت كريس إلى خلف المَشرب وذكَّرته بالواقعة.

- «أجل، تلك النظرة يا بيرك. كم كأس چين وكم كأس تونيك قد جرعت حتَّى الآن؟».

صاح دينينجس: «أوه، الآن. لا تكوني سخيفة، لقد قضيت المساء كله في احتساء الشاي، شاي الجامعة اللعين!».

عقدت كريس ذراعيها وانحنت فوق المَشرب: «قلت أين كنت؟». قالتها بتشُّكك.

- «أوه، أجل.. استمرِّي. تصنَّعي الابتسام!».

- «هل ثملت من احتساء الشاي مع بعض اليسوعيين؟».

- «لا، اليسوعيون كانوا رُزناء».

- «ألا يشربون الخمر؟».

صاح دينينجس: «هل جُنِنتِ؟ إنهم يتجرَّعونه تجرُّعًا! لم أرَ سعة تحمُّل كهذه في حياتي!».

- «هاي، رويدك يا بيرك، اخفض صوتك. قد تسمعك ريجان!».

قال دينينجس خافضًا صوته: «ريجان، أجل! بالتأكيد! الآن أين شرابي بحق المسيح!».

شبَّت كريس ومدَّت ذراعها والتقطت الزجاجة والكأس وهي تهز رأسها باعتراض.

- «أتريد إخباري ماذا كنت تفعل -يا هل ترى- في حفل شاي جامعي؟».

- «العلاقات العامة اللعينة! شيءٌ ما يُفترض بكِ فعله. أعني، يا إلهي، بعد ما لوَّثنا المكان ودَنَّسناهُ بالكامل» نطقها المُخرج بورعٍ «آه، أجل. تفضَّلي، اضحكي! هذا كل ما تُجيدينه، هذا وتعرية جزء من مؤخِّرتك!».

- «أنا فقط أقف هنا وأبتسم ببراءة».

- «حسنًا، الآن يتحتَّم على أحدهم تقديم عرض جيد نيابةً عنكِ».

مدت كريس يدها برفق وتحسَّست نُدبة فوق جفن عين دينينجس اليسرى، التي سببَّتها لكمة غاضبة من تشاك دارين، نجم أفلام الحركة والمغامرات مفتول العضلات الذي كان بطل فيلم دينينجس السابق، والذي أهداه إياها في آخر يوم تصوير:

- «لونها يستحيل إلى الأبيض». قالتها كريس باهتمام.

خفض دينينجس جفنيه بأسى وقال: «سأحرص على ألا يشارك مرةً أخرى في أي عملٍ مهم. لقد بدأت في إشاعة القول بالفعل».

- «أوه، حسبكَ يا بيرك. فقط بسبب تلك؟».

- «الرجل معتوه يا عزيزتي. إنه مخبول ولعين تمامًا، وخطر أيضًا! يا إلهي، إنه مثل كلبٍ مُسِنّ يغفو بسلام في أشعة الشمس الدافئة، ثم يومًا ما ينقض دون أيِّ مُقدِّمات ويعض ساق أحدهم بوحشية!».

- «وبالطبع طرحه لك أرضًا ليست له علاقة بأنك قد نعتَّ أداءه أمام طاقم العمل والممثِّلين بأنه «إحراج مُخنَّث يقع في مكانٍ ما بالقرب من مستوى مُصارعات السومو»؟».

- «عزيزتي، عارٌ عليكِ». وبَّخها دينينجس بوقارٍ بينما يتناول من يدها كأسًا من الچين والتونيك ثم أردف: «عزيزتي، يُقبَل مني أن أتفوَّه بمثل هذه البذاءات، ولكن ليس من معشوقة العم سام وقُرَّةُ عين الولايات المتَّحدة. الآن أخبريني، كيف حالك يا صغيرتي البارعة في الرقص والغناء؟».

أجابته كريس بهزَّة من كتفيها ونظرة قانطة وهي تنحني إلى الأمام وتُريح وزنها فوق ذراعيها المعقودتين على سطح المَشرب.

- «هلُمي، اخبريني يا صغيرتي، هل أنت مُكتئبة؟».

- «لا أعرف».

- «أخبري عمَّك».

- «اللعنة، أظن أنني سآخذ شرابًا».

قالتها كريس ثم اعتدلت وشبَّت على قدميها والتقطت زجاجة ڤودكا وكأسًا.

- «أوه، أجل، ممتاز! فكرة رائعة! الآن إذًا، ما الأمر يا عزيزتي؟ ما خطبك؟».

سألته كريس: «هل فكَّرت في الموت من قبل؟».

قطَّب دينينجس حاجبيه وقال: «هل قُلتِ الموت؟».

- «نعم، الموت. هل فكَّرت فيه بجدية من قبل يا بيرك؟ ماذا يعني؟ ماذا يعني حقًّا؟».

قالتها وهي تصب بعض الڤودكا في الكأس.

بانفعال قليل ردَّ دينينجس قائلًا: «لا يا حلوتي، لم أفعل. أنا لا أُفكِّر في الموت. فقط يومًا ما. لماذا تفتحين موضوع الموت الآن بحق السماء!».

هزَّت كريس كتفيها مُستهجنة وهي تُسقط مُكعَّبًا من الثلج في كأسها وقالت: «لا أعرف. كنت أفكِّر فيه هذا الصباح. حسنًا، لم يكن تفكيرًا بالمعنى الحرفي، لقد حلمت به بشكلٍ ما مُباشرةً قبل استيقاظي، واعترتني رجفة باردة. لقد روَّعني الأمر يا بيرك. ما الذي يعنيه الموت؟ أقصد النهاية. النهاية الحقَّة اللعينة. كأنني لم أعرف شيئًا عن الموت من قبل قط!» ثم نظرت جانبًا وهزَّت رأسها وأضافت «آهٍ يا صاح، لكم أفزعني الأمر! شعرت كأنني أسقط بعيدًا عن الكوكب بسرعة مئة وخمسين ميلًا في الساعة».

أنهت كريس كلامها ورفعت الكأس إلى شفتيها وهي تُغمغم: «أظن أنني سأشرب هذا دون إضافات».

ثم رشفت رشفة.

أخذ دينينجس نفسًا وقال: «أوه، حسنًا.. هذا هُراء. الموت راحة».

خفضت كريس كأسها وقالت: «ليس بالنسبة إليَّ».

- «كفاكِ، المرء يُخلَّد عن طريق أعماله التي يُخلِّفها وراءه، أو من خلال أبنائه».

- «هذا هُراء، أبنائي ليسوا أنا!».

- «أجل، هذا من رحمة السماء. واحدة فقط تكفي».

انحنت كريس إلى الأمام وهي تحمل كأسها عند مستوى الخصر، ووجهها اللعوب يُظهر تكشيرة اهتمام.

- «فكِّر في الأمر يا بيرك! أن لا توجد! أن تُصبح عدمًا إلى الأبد أبدًا...».

- «أوه، كُفِّي عن هذا! كُفِّي عن الأحاديث الصبيانية وفكِّري في التباهي بساقيكِ الطويلتين المعشوقتين المدهونتين بكريم التنعيم في حفل الشاي الجامعي الأسبوع القادم! لرُبَّما يُعطيكِ أولئك القساوسة الراحة التي تبغينها!».

أنهى كلامه وقرع كأسه على سطح المَشرب وأردف: «واحدٌ آخر».

- «أتعرف، لم أكن أعلم أنهم يشربون الخمر!».

قال المُخرج مُشاكسًا: «حسنًا، أنتِ حمقاء».

حدَّقت كريس إليه. تلاعبت نظرة شريرة في عينيه. هل وصل إلى نقطة اللاعودة؟ أم هل لمست وترًا حسَّاسًا خفيًا؟

سألته كريس: «هل يذهبون للاعتراف؟».

- «من؟».

- «القساوسة».

انفجر دينينجس قائلًا: «وكيف لي أن أعرف!».

- «حسنًا، ألم تُخبرني أنك ذات مرَّة درست كي تُصبح...».

صفع دينينجس سطح المَشرب بكفِّه المفتوحة مُقاطعًا إياها وهو يصرخ: «اسرعي، أين الخمر اللعينة؟».

- «ماذا لو جلبت لك بعض القهوة؟».

- «لا تكوني سخيفة يا عزيزتي! أريد خمرًا».

- «ستشرب قهوة».

خفض دينينجس صوته وداهنها بنبرة رقيقة فجأة: «أوه، هلمي يا حبيبتي. مجرَّد كأس آخر من أجل الطريق؟».

- «طريق لينكولن السريع؟».

لوى دينينجس شفتيه في استياء ودفع كأسه إلى الأمام قائلًا: «الآن تلك قسوة يا حبيبتي. حقًا. وهي لا تُناسبك. الرحمة لا تُطلب قسرًا[1]» قالها وواصل مُترنِّمًا «لا، إنها تهبط من السماء كخمر الچين. لذا طاوعيني الآن، كأسٌ واحد وسأرحل على الفور. هذا وعد».

- «وعد حقيقي؟».

- «كلمة شرف، وقسم مُغلَّظ!».

نظرت كريس إليه بشكٍ، ثم التقطت زجاجة الچين وهي تهزُّ رأسها، وقالت شاردة الذهن بينما تملأ كأس دينينجس: «نعم، أولئك القساوسة. أظن أنه يجب عليَّ دعوة أحدهم أو اثنين إلى المنزل».

- «لن يغادروا قط».

قالها دينينجس مُتذمِّرًا وعيناه تزدادان احمرارًا وتضيقان أكثر، كل واحدة منهما أضحت جحيمًا مُنفصلًا، ثم أردف: «إنهم لصوص لعينون».

التقطت كريس زجاجة التونيك وهمَّت لتصُبَّ له، لكن دينينجس حرَّكَ يده بحدَّة باعدًا يدها: «لا، بحق السماء، أشربه خالصًا، ألا يمكنك التذكُّر أبدًا؟ الكأس الثالثة دون إضافات دائمًا».

راقبته كريس وهو يرفع الكأس ويصُب الخمر في جوفه، ويضع الكأس بعدها بقوَّة على المَشرب، ثم برأسٍ محني، يُحدِّق إلى الكأس الفارغة ويغمغم: «عاهرة عديمة التفكير».

حدَّقت كريس إليه بحذرٍ. أجل، لقد بدأ يهتاج. لذا غيَّرت مجرى الحديث من القساوسة إلى النص الذي استلمته لتُخرجه.

شَخَرَ دينينجس قائلًا وهو لا يزال ينظر إلى أسفل إلى كأسه: «أوه، هذا جيِّد. براڤو!».

- «لأكون صادقة، رغم سعادتي، الأمر يرعبني».

رفع دينينجس بصره ونظر إليها مباشرةً، التعبير الذي لاح على وجهه حاليًا كان مزيجًا من الكياسة والأبوَّة.

---

(1) اقتباس من مسرحية «تاجر البندقية» لويليام شكسبير.

قال لها: «كلام فارغ! أتعرفين يا صغيرتي، الشيء الصعب الوحيد بخصوص الإخراج هو أن تجعلي المَهمة اللعينة تبدو وكأنها صعبة. في فيلمي الأوَّل، لم يكن لدي أدنى فكرة عمَّا ينبغي عمله، لكن ها أنا ذا. الأمر لا ينطوي على سحرٍ يا حبيبتي، فقط عمل شاق لعين، وإدراك مُتواصل من أول يوم تصوير بأنكِ قد انخرطِّي في موقفٍ عصيب لكنه سيجعل منكِ شيئًا مهمًّا».

- «أجل أعرف كل هذا يا بيرك. لكن الآن بعد أن أصبح الأمر حقيقيًا، بعد أن قدَّموا لي فُرصتي، لست مُتأكِّدة أنني قادرة حتَّى على إخراج مشهد لجدتي وهي تعبر الطريق. أقصد مع كل تلك الأمور التقنية!».

- «أوه لا تصيري هستيرية الآن! اتركي كل ذلك الهُراء لمونتير الفيلم، ومدير التصوير، والمُشرف على النص. فقط اختاري الجيدين منهم، وأعدك أنهم سيرسمون البسمة على شفتيك طيلة مدة التصوير. المهم سيطرتك على فريق العمل، على أداءات الممثلين، وفي هذه التفصيلة تحديدًا ستكونين مُدهشة يا حلوتي. فأنت لن تقولي لهم فقط ما ترغبين به، لكنكِ بدلًا من ذلك تستطيعين أن تُريهم بنفسك».

بدت كريس حائرة وهي تقول: «أوه، حسنًا، لكن...».

- «لكن ماذا؟».

- «الأمور التقنية. أقصد، يجب أن ألمَّ بها».

- «حسنًا، في هذه الحالة، اعطي مُعلِّمك مثالًا».

من اللحظة، وطيلة ساعة كاملة، سبرت كريس أغوار معرفة المخرج المشهود له، وصولًا إلى أدق التفاصيل، وآخر مسمار في النعش. بالتأكيد خصوصيات وعموميات الإخراج السينمائي مُتاحة في كتب ومُجلَّدات عديدة، لكن القراءة دائمًا ما كانت تستنزف صبر كريس. لذا بدلًا من ذلك، كانت تُفضِّل قراءة البشر. بفضولها الطبيعي الذي جُبلت عليه، لطالما اعتصرتهم واستخلصت منهم ما تُريد. لكن الكتب حصينة ضد ذلك. الكتب فصيحة، ودائمًا ما يتكرَّر بها ألفاظٌ مثل «ومن ثم» و«بشكل

أوضح»، عندما يكون المقروء في حقيقة الأمر ليس بذلك الوضوح. كما أن إطنابها وإسهابها لا يمكن وقفه أو الالتفاف حوله، لا يمكن نزع أسلحتها بالحيلة والدهاء. إنها صمَّاء، ولن يُجدي معها أن تقول «هاي، توقَّف الآن إذا سمحت. إنني بلهاء. هل يمكنك شرح الأمر مرَّةً أخرى؟». الكتب لا يمكن إلقاء اللوم عليها، أو التملُّص منها، أو ابتزازها. الكتب مثل كارل.

كان دينينجس يُثرثر في النهاية قائلًا: «عزيزتي، كل ما تحتاجينه مونتير مُحترف، أعني مونتير يملك كل مفاتيح اللعبة».

كان دينينجس قد صار جذَّابًا وحيويًا، وبدا أنه قد تجاوز نقطة الخطر المُهدِّدة، إلى أن ترامى إليهما صوت كارل.

- «أستميحك عذرًا يا سيدتي. أتريدين شيئًا؟».

كان يقف منتبهًا على عتبة باب غرفة المكتب المفتوح.

حيَّاه دينينجس ضاحكًا: «أوه، مرحبًا يا ثورنديك» ثم سأله «أم هل هو هاينريش؟ في الحَقيقة لا أستطيع تذكُّر الاسم جيدًا».

- «إنه كارل يا سيدي».

- «أجل، بالتأكيد. لقد نسيت. قل لي يا كارل، هل ما كُنت تفعله مع الجيستابو يندرج تحت العلاقات العامة أم العلاقات الاجتماعية. أظن أنه يوجد فارقًا».

أجاب كارل بتهذيب: «لا هذا ولا ذاك يا سيدي. أنا سويسري».

قهقه المُخرج قائلًا: «أوه بالطبع يا كارل. أنت سويسري! ولم تذهب قط للعب البولينج مع جوبلز على ما أظن!».

عنَّفته كريس قائلة: «بيرك، كفاك هُراءً».

أضاف دينينجس لا مُباليًا: «أو التحليق مع رودلف هس؟».

برباطة جأش وأعصاب هادئة، نقل كارل بصره إلى كريس وسألها بشكلٍ رقيق: «سيدتي، أيُّ طلبات؟».

- «بيرك، ماذا عن تلك القهوة، ها؟ ما رأيك؟».

- «آه، حسنًا، فلتذهب إلى الجحيم!».

أعلنها المُخرج بصرامة، ثم نهض فجأة من على مِقعد المَشرب الطويل وخرج من الغرفة بخطواتٍ واسعة ورأسه محنيًا إلى الأمام وكفَّيه مضمومان في قبضتين. بعد لحظات سَمِعت صوت الباب يُغلق بقوة. بلا أيِّ انفعال بادٍ، التفتت كريس إلى كارل وقالت بنبرةٍ مُحايدةٍ: «افصل جميع الهواتف».

- «حسنًا يا سيدتي. شيءٌ آخر؟».

- «آه، أجل. رُبَّما بعض القهوة منزوعة الكافيين».

- «سأجلبها».

- «أين راجس؟».

- «في غرفة اللعب بالأسفل. هل أستدعيها؟».

- «نعم، حان وقت النوم. أوه لا، انتظر لحظة يا كارل! لا تُزعج نفسك. سأهبط لها بنفسي».

كانت قد تذكَّرت الطائر فتوجَّهت إلى الدرج الذي يقود إلى أسفل وقالت: «سأتناول القهوة عندما أصعد».

- «نعم يا سيدتي، كما تشائين».

- «وللمرَّة المئة، أعتذر عن تصرُّفات السيد دينينجس».

- «لا أعيره انتباهًا».

توقَّفت كريس والتفَّت إليه جزئيًا وقالت: «نعم، أعرف. هذا تحديدًا ما يثير جنونه».

ثم اعتدلت وسارت إلى مدخل المنزل وفتحت الباب المؤدي إلى سلالم القبو وبدأت في النزول.

- «مرحبًا يا صغيرتي الفوضوية! ماذا تفعلين هنا بالأسفل؟ هل انتهيت بعد من ذلك الطائر الخاص بي؟».

- «أجل يا ماما! تعالي لتري! اهبطي! لقد انتهيت تمامًا!».

كانت غرفة اللعب مُزدانة بألوانٍ زاهية، وتتناثر فيها اللَّوحات

والحوامل، وفونوجراف، ومِنضدة للَّعب، وأخرى للنحت، وبقايا زينة احتفالات مُتبقِّية من حفل عيد ميلاد ابن المُستأجر السابق المُراهق.

- «آه يا عزيزتي، هذا رائع جدًا!».

هتفت بها كريس بينما ريجان تناولها التمثال مزهوَّة بنفسها. لم يكن قد جفَّ تمامًا بعد، وبدا شبيهًا بتماثيل طيور القلق[1] الشهيرة. كان مطليًّا بالكامل باللون البرتقالي فيما عدا منقاره، الذي كان مُخطَّطًا بشكلٍ أُفُقي بخطوطٍ خضراء وبيضاء، بينما أجمة من الريش لُصِقَت أعلى رأسه.

سألتها ريجان وهي تبتسم بشِدَّة: «هل أعجبكِ حقًّا؟».

- «أوه يا عزيزتي. بالطبع أعجبني. أعجبني جدًا. هل عثرتِ على اسمٍ له؟».

هزَّت ريجان رأسها وقالت: «لا، ليس بعد».

- «ماذا سيناسبه يا تُرى؟».

- «لا أعرف».

قالتها ريجان وهي ترفع راحتي يدها وتهز كتفيها علامة على الحيرة.

أخذت كريس تنقر أسنانها بأطراف أظافرها، ورسمت على وجهها تجعيدة تأمُّل مُبالغًا فيها وهي تغمغم: «لنر، لنر». قالتها بهدوء وهي تُفكِّر، ثم صاحت فجأة: «هاي، ماذا عن «الطائر الأبكم»؟ ها؟ ما رأيك؟ فقط الاسم القديم المعتاد «الطائر الأبكم»!».

بانعكاس سريع غطَّت ريجان فمها لتُداري تقويم أسنانها الذي بدا مع ابتسامتها الواسعة، وهزَّت رأسها موافقة بقوَّة.

- «حسنًا، إذًا هو «الطائر الأبكم» بموافقة الأغلبية الساحقة!».

قالتها كريس بنبرة مُنتصِرة وهي ترفع التمثال عاليًا في الهواء. وعندما

---

(1) في الثقافة الغربية، طيور القلق هي تماثيلٍ صغيرة لطيور تبدو حزينة ومُثقلة بالهموم، يضعها الناس في المنازل كأيقونة ويبثون إليها بشكواهم ودواعي قَلَقِهم، ومن المُفترض أن يجلس التمثال بعدها في مكانه طيلة اليوم ليقلق نيابةً عن صاحبه.

أنزلته بعدها قالت: «سأتركه هنا بعض الوقت ليجفَّ طلاؤه ثم سآخذه إلى غرفتي».

عندما همَّت كريس كي تضع الطائر على منضدة اللعب التي تبعد أقدامًا قليلة منها، لاحظت وجود لوح ويجا[1] فوقها، كانت قد نست إنها تملك واحدًا. لقد اشترته في الأصل بدافع فضولها الشَّرِه عن نفسها الذي يساوي فضولها تجاه الآخرين، وكوسيلة مُحتملة لسبر أغوار عقلها الباطن. لكنه لم يعمل. ومع ذلك فقط استخدمته مرَّة أو اثنتين مع شارون، ومرَّة أخرى مع دينينجس، الذي كان يُحرِّك المؤشِّر البلاستيكي عمدًا، «أأنتِ من تُحرِّكينه يا عزيزتي؟ أأنتِ؟»، لذا كانت كل الرسائل الروحية فاحشة بالتأكيد، وبالطبع ألقى دينينجس اللَّوم على «الأرواح الشريرة المُخنَّثة!».

- «هل كُنتِ تلعبين بلوح الويجا يا حبيبتي راجس؟».
- «آه، أجل».
- «أتعرفين كيف؟».
- «أوه بالطبع. هاكِ، سأُريكِ».

تحرَّكت ريجان لتجلس أمام اللَّوح.

- «حبيبتي، أظن أنكِ تحتاجين إلى شخصين».
- «لا يا أمي. أنا أفعلها طيلة الوقت».

---

(1) بالإنجليزية Ouija. يعرف أيضًا بلوح الروح أو لوح الكلام. لوح مُسطَّح مكتوب عليه الحروف الأبجدية والأرقام من 0 إلى 9 وكلمتا «نعم» و«لا» وكلمتي «مرحبًا» و«وداعًا». قُدِّم تجاريًا لأوَّل مرَّة من قِبَل رجل الأعمال الأمريكي إيليا بوند في عام 1890، وكان يُعتبر لعبة صالونات غير مؤذية، إلى أن استخدمه الوسيط الروحاني الأمريكي بيرل كوران كأداة للتكهُّن خلال الحرب العالمية الأولى. ربط بعض السحرة والمشعوذين الويجا بالمس الشيطاني، ويزعم البعض أن الموتى يتخاطبون من خلاله، ورغم انتقاده من الجميع إلا إنه يلقى رواجًا بين كثيرٍ من الناس.

سحبت كريس لنفسها مقعدًا وقالت: «حسنًا، لنلعب معًا، ما رأيك؟».

مرَّت لحظة من التردُّد، ثم قالت: «حسنًا، لا مانع».

كانت الطفلة تضع أصابعها فوق المؤشِّر برفق، وعندما مدَّت كريس يدها لتضع أصابعها، أحدث المؤشِّر حركة سريعة ومُفاجِئة إلى الجزء من اللوح المُعَنون بـ «لا».

ابتسمت كريس ونظرت إليها بمكر وقالت: «الأمر هكذا إذًا. «ماما، الأفضل أن أفعلها بنفسي»؟ ألا تريدين أن ألعب معكِ؟».

- «بلى أريد. القبطان هاودي من قال «لا»».

- «القبطان من؟».

- «القبطان هاودي».

- «حبيبتي، من القبطان هاودي؟».

- «أوه، كما تعرفين. أنا أطرح أسئلة وهو يُجيبها».

- «آه، فعلًا؟».

- «إنه لطيف جدًا».

حاولت كريس ألا تقطب جبينها رغم إنها بدأت تستشعر قلقًا خافتًا وإن كان مُمضًا. إن ريجان تُحب والدها بعُمق، لكنها لم تُظهر أدنى ردَّة فعل تجاه طلاق والديها. رُبَّما تكون الفتاة قد بكت في غرفتها وحيدة، من يدري؟ لكن لطالما خافت كريس أن تكون ابنتها تقمع بداخلها كلٍ من الغضب والحزن، وإنه في يومٍ ما قد ينهار السَّد وتموج مشاعرها وتنفجر بشكلٍ ما غير مألوفٍ أو مؤذٍ. زمَّت كريس شفتيها. رفيق لعب خيالي. الأمر لا يبدو سليمًا أو صحِّيًا. ولماذا الاسم «هاودي»؟ نسبةً إلى هاورد؟ والدها؟ يبدو قريبًا بما يكفي.

- «كيف لم يتأتَ لكِ اختيار اسم للطائر، ثم تُفاجئيني بشيءٍ مثل «كابتن هاودي»؟ لِمَ أطلقتِ عليه هذا الاسم يا راجس؟».

ضحكت ريجان بطريقة طفولية: «لأن هذا اسمه بالطبع».

- «من قال؟».

- «حسنًا، هو».
- «أوه، حسنًا، بالتأكيد».
- «بالتأكيد».
- «وبِمَ يُخبِرك أيضًا؟».
- «أشياء».
- «أيُّ أشياء».
هزَّت ريجان كتفيها وأشاحت بوجهها وقالت: «لا أعرف. مُجرَّد أشياء».
- «حسنًا، على سبيل المثال؟».
نظرت ريجان إليها مُجدَّدًا وقالت: «حسنًا إذًا. سأُريكِ. سأطرح عليه بعض الأسئلة».
- «فكرة جيدة».
أغلقت ريجان عينيها بإحكام في تركيز، ووضعت أصابع كلتا يديها على المؤشِّر البُنِّي الفاتح الشبيه بشكل قلب وسألت:
- «القبطان هاودي، ألا ترى أن أمي جميلة؟».
مرَّت خمس ثوانٍ.. ثم عشر.
- «القبطان هاودي؟».
لم تصدر أيَّ حركة. الأمر أدهش كريس، لقد توقَّعت أن تُمرِّر ابنتها المؤشِّر إلى الجزء المعنون بـ «نعم». أوه، ماذا الآن؟ فكَّرت مُرتبكة. أهذا تصرُّف عدائي لا واعٍ؟ أتلومني على فقدان والدها؟ أعني، ما الأمر.
فتحت ريجان عينيها، وبدت صارمة وهي تقول بنبرة مُوبِّخة: «القبطان هاودي، هذا ليس مُهذَّبًا جدًا منك».
قالت كريس: «رُبَّما هو نائم يا عزيزتي».
- «آاااه، ماما!».
نهضت كريس وقالت: «أجل، هيا يا حلوتي. هيا هيا! قولي عمت مساءً للقبطان هاودي».

تمتمت ريجان في استياء: «لا، لن أفعل. إنه دائمًا مُرهِق».
ثم نهضت من مقعدها وتبعت كريس إلى أعلى.
وضعتها كريس في فراشها وجلست على حافة الفراش.
- «عزيزتي، يوم الأحد عُطلة. أترغبين في فعل شيء ما؟».
- «بالتأكيد يا ماما. مثل ماذا؟».

عندما انتقلوا إلى واشنطن، بذلت كريس جهدًا كبيرًا كي تعثر على أصدقاء جدد لريجان، ولم توفَّق في العثور إلا على طفلة واحدة فقط. فتاة في الثانية عشرة من عمرها تُدعى چودي. لكن عائلة چودي سافرت لقضاء عُطلة عيد الفصح خارج المدينة، وأضحت كريس قَلِقة من أن تظل ابنتها وحيدة بلا رُفقاء.

هزَّت كريس كتفيها وقالت: «في الحقيقة لا أدري. أيُّ شيء. أترغبين في التجُّول بالسيارة في المدينة وزيارة الآثار والمعالم؟ هاي، أزهار الكرز يا راجس! هذا جيد، لقد تبرعمت باكرًا هذا العام! أترغبين في رؤيتها؟».
- «أوه، أجل يا ماما».
- «حسنًا إذًا، وفي مساء الغد نذهب لمشاهدة فيلمًا؟!».
- «أوه، أنا أحبك».

قالتها ريجان وحضنت أمها، وفي المقابل احتضنتها أمها بقوَّة أكبر وهي تهمس: «أوه يا عزيزتي، لكم أحبك».
- «يمكنك اصطحاب السيد دينينجس إذا أردتِ».
- «السيد دينينجس؟».
- «أجل يا ماما. لا بأس».

ابتسمت كريس قائلة: «أوه، لا يا عزيزتي. لِمَ سأرغب في اصطحاب السيد دينينجس؟».
- «حسنًا، أنت تحبينه، أليس كذلك؟».
- «أوه، حسنًا، بالتأكيد أحبه يا حلوتي، ألا تحبينه؟».

شردت ريجان ببصرها بعيدًا، ولم تُعطِ إجابة. تأمَّلتها أمها بقلق.

شجَّعتها كريس على الكلام: «ما الأمر يا صغيرتي؟».

- «ستتزوَّجان، أليس كذلك يا ماما؟».

بدت عبارتها الأخيرة وكأنها إقرار مُتجهِّم بواقع أكثر من كونها سؤالًا.

انفجرت كريس ضاحكة: «أوه يا صغيرتي، بالطبع لا! ما الذي تتحدَّثين عنه؟ السيد دينينجس؟ من أين أتت لكِ تلك الفكرة؟».

- «لكنكِ قُلتِ إنكِ تُحبينه».

- «وأحب البيتزا كذلك، لكنني لن أتزوَّج بواحدة! ريجان، هذا صديق، مجرَّد صديق قديم مخبول!».

- «ألا تستلطفينه مثل أبي؟».

- «أنا أحب أباكِ يا حلوتي، وسأظل أحبه. السيد دينينجس يأتي إلى هنا كثيرًا لأنه وحيد. هذا كل شيء. إنه مجرَّد صديق وحيد أحمق».

- «حسنًا، لقد سمعت...».

- «ماذا سمعتِ؟ وممَّن؟».

بعينين حائرتين يلفُّهما الشك، وبعد برهة من التردُّد متبوعة بهزَّة كتفين نفضت بها هواجسها، تنهَّدت ريجان قائلة: «لا أعرف. لقد كنت أُفكِّر فقط».

- «حسنًا، هذا سخف، لذا انسيه».

- «حسنًا».

- «الآن، اخلدي إلى النوم».

- «لا أشعر بالنعاس. هل أستطيع القراءة؟».

- «بالتأكيد، اقرئي ذلك الكتاب الجديد الذي ابتعته لكِ».

- «شكرًا يا أمي».

- «تَصبحين على خير يا عزيزتي. نامي جيدًا».

- «تصبحين على خير».

بعثت كريس إليها بقبلة من عند عتبة الباب، ثم نزلت الدرج إلى غرفة المكتب. يا للصغار! من أين يأتون بمثل هذه الأفكار! تساءلت كريس

ما إذا كانت ريجان ربطت بين دينينجس وبين دعوى الطلاق. إن هاورد من أراد الأمر. انفصال طويل الأمد. اضمحلّت عزة نفسه وتأذّى كبرياؤه نتيجة كونه زوج نجمة شهيرة. لقد وجد شخصًا آخر، لكن ريجان لا تعلم بالأمر، إنها تظن أن كريس صاحبة الدعوى. أوه، دعكِ من أمور الهواة وجلسات التحليل النفسي وحاولي قضاء مزيدٍ من الوقت معها. حقًّا!

في غرفة المكتب، جلست كريس كي تقرأ قصة فيلمها «أمل». عندما وصلت إلى منتصف النص، سمعت صوت خطواتٍ في الخارج فرفعت بصرها لتجد ريجان الناعسة قادمة إليها وهي تفرك بيدها زاوية إحدى عينيها.

- «كيف حالك يا عزيزتي! ما الأمر؟».

- «توجد أصوات غريبة حقًّا يا ماما».

- «في غرفتك؟».

- «نعم في غرفتي. الأمر أشبه بالنقر على الباب، ولا أستطيع النوم».

أين تلك المصايد بحق الجحيم!

- «حبيبتي، اذهبي ونامي في غرفتي وسأرى ما الأمر».

قادت كريس ابنتها إلى غرفة النوم الرئيسية وبدأت في دَسِّها في الفراش حينما سألتها ريجان: «هل يمكنني مشاهدة التلفاز إلى أن أنام؟».

- «أين كتابكِ؟».

- «لم أجده. هل يمكنني المشاهدة؟».

- «أوه، حسنًا إذًا. أظن ذلك. بالتأكيد».

وضعت كريس جهاز التحكُّم عن بعد على الفراش جوارها.

- «حسنًا يا عزيزتي، فقط شاهديه إلى أن يغلبك النعاس، موافقة؟ ثم أغلقيه».

أغلقت كريس الأنوار وسارت عبر الممر، ثم صعدت السلالم الضيِّقة التي تقود إلى العليَّة المسجوَّة ببساطٍ أخضر وفتحت الباب مُتحسِّسةً الجدار من أجل مفتاح النور. وجدته كريس وأدارته لأعلى. ثم دلفت

إلى العليَّة غير المُكتَمِلة وسارت بضع خطوات إضافية قبل أن تتوقَّف وتنظر حولها. قُصاصات من الصُحُف ومُراسلات قديمة مُكدَّسة بدقَّة في صناديقٍ موضوعة على الأرضية المصنوعة من خشب الصنوبر. لم ترَ شيئًا آخر. باستثناء مصايد الفئران. ست منها مُعدَّة ومُجهَّزة بالطُعم. لكن المكان بدا ناصع النظافة. لا أنابيب. لا مُدفِئ. لا ثقوب في السطح تُستخدم كمدخل للفِئران. أخذت كريس خطوة إلى الأمام.

جاء صوتٌ ما من خلفها: «لا يوجد شيء».

ارتعدت فصائل كريس وشهقت: «أوه، بحق يسوع الطيب!».

واستدارت مُسرعة وهي تضع يدها فوق صدرها: «يا للمسيح يا كارل، لا تفعل هذا!».

كان يقف على آخر درجتين في السُلَّم من ناحية العليَّة.

- «آسف تمامًا. لكن أرأيتِ يا سيدتي؟ كل شيء نظيف ومُهندم».

قالت كريس بضعف وأنفاسها لا تزال مُتقطِّعة: «شكرًا على المعلومة القيمة التي تُشاركني بها يا كارل. نعم، إنه نظيف. أشكرك. هذا رائع».

- «سيدتي، رُبَّما قطة ستكون أفضل».

- «قطة أفضل لِمَ؟».

- «للإمساك بالفئران».

ودون أن ينتظر إجابةً منها، استدار كارل على عقبيه وهبط الدرج، وسرعان ما غاب عن بصر كريس. ظلَّت كريس لحظات تُحدِّق إلى الباب المفتوح وتتعجَّب ما إذا كان كارل يتطاول بدماثة. لم تكن مُتأكِّدة. نظرت حولها مُجدَّدًا باحثة عن أيِ شيءٍ يمكن أن يُحدث أصوات نقر. رفعت بصرها إلى السقف المائل. كان الشارع تُظلِّله أشجارٌ عملاقة، مُعظمها وقع فريسة في شراك النباتات المُعرشة التي تشابكت فوقها، والتي جعلت فروع شجرة زيزفون هائلة تطرُق بخفة الثُلث الأمامي من المنزل. تساءلت كريس، هل هي سناجب بالفعل؟ لا بد أنها كذلك، أو رُبَّما تكون الفروع فحسب. الليالي الأخيرة كانت عاصفة.

«رُبَّما قطة ستكون أفضل».

التفَّت كريس ونظرت مُجدَّدًا إلى الباب. يا للذكاء، أليس كذلك يا كارل؟ هكذا فكَّرت. وفي اللحظة التالية تغيَّرت ملامحها لتبدو مؤذية بشكلٍ صريح. هبطت إلى غرفة ريجان، والتقطت شيئًا، وأحضرته إلى العليَّة، ثم بعد دقيقة عادت إلى غرفة نومها. كانت ريجان قد نامت، فحملتها كريس إلى غرفتها، ووضعتها في الفراش، ثم عادت إلى غرفتها الخاصة وأغلقت التلفاز واندسَّت في الفراش لتنام.

في تلك الليلة، كان المنزل هادئًا على نحو استثنائي.

في الصباح، وفي أثناء تناول فطورها، أخبرت كريس كارل بطريقة جافة أنها خلال الليل ظنَّت أنها سمعت إحدى المصايد تُغلَق.

- «ما رأيك أن تذهب وتُلقي نظرة؟».

هكذا اقترحت كريس عليه وهي ترشف القهوة وتتظاهر بالانهماك في قراءة صحيفة واشنطن بوست. على الفور، ودون أيِّ تعليق، صعد كارل إلى العليَّة ليتفقَّد الأمر. وبينما هو عائد في طريقه بعد دقائق، عبرت كريس ردهة الطابق الثاني من جواره. كان بصره شاردًا، ويسير ببلادة بلا أدنى تعبير على وجهه، ويقبض يده على دُمية ميكي ماوس يطل أنفها من بين براثن إحدى المصايد. في أثناء عبوره وكريس من جوار بعضهما بعضًا سمعته يُتمتم: «أحدهم يملك حس دعابة».

دخلت كريس غرفتها، وبينما كانت تخلع رداءها وترتدي ملابس العمل، همست بخفوت: «نعم، رُبَّما القطة أفضل... أفضل كثيرًا». وعندما ابتسمت، تغضَّنت كل تقاسيم وجهها.

***

مضى التصوير على ما يُرام في ذلك اليوم. في وقتٍ لاحق من الصباح، أتت شارون إلى موقعِ التصوير، وفي الاستراحة بين المشاهد، وفي غرفة تغيير الملابس المتنقِّلة، تداولت وكريس بعض أمور العمل: إرسال خطاب إلى وكيل أعمالها تقول فيه إنها ستُفكِّر بشأن النص. الموافقة على

دعوة البيت الأبيض. الاتصال بهاورد لتذكيره بأن يُهاتف ريجان في عيد ميلادها. الاتصال بمدير أعمالها وسؤاله عمَّا إذا كان في مقدورها تحمُّل أخذ عُطلة لعام كامل. وأخيرًا خطط حفل العشاء الذي عزمت على إقامته في منزلها في الثالث والعشرين من أبريل.

مُبكِّرًا في المساء، اصطحبت كريس ريجان لمُشاهدة فيلم، وفي اليوم التالي تنزَّها بسيارة كريس الحمراء طراز چاجوار XKE لرؤية المعالم المهمة. مقر الكونجرس. نصب لينكولن التذكاري. أزهار الكرز المُتفتِّحة. ثم تناوُل الطعام. وبعدها عبور النهر إلى مقبرة أرلينجتون الوطنية وقبر الجندي المجهول، حيث تعكَّر صفو ريجان، بينما في وقتٍ لاحق، عند ضريح چون إف كينيدي، بدا أنها ازدادت شرودًا وحزنًا. حدَّقت الفتاة إلى «الشعلة الخالدة» لوهلة، ثم بعدها -وفي صمت- مدَّت ذراعها لتلتقط كف أمها، وقالت بنبرة لا روح فيها: «ماما، لِمَ يتحتَّم على الناس الموت؟».

اخترق السؤال سمع وروح أمها. أوه يا راجس، أنتِ أيضًا؟ أنتِ أيضًا. أوه، لا! ماذا عساها أن تُخبرها؟ أكاذيب؟ لا، لن تستطيع. نظرت إلى وجه طفلتها الذي يرنو إلى أعلى تجاهها، إلى عينيها المغرورقتين بالدموع. هل استشعرت ريجان أفكارها وهواجسها؟ لقد حدث الأمر سابقًا أكثر من مرَّة.

قالت لريجان بلطف: «حبيبتي، الناس تُنهك».

- «ولِمَ يتركهم الله؟».

اضطربت كريس وتحيَّرت، ونظرت إلى ابنتها بصمت. بصفتها مُلحدة، لم تقم كريس بتعليم ريجان الدين قط. شعرت أن الأمر ينطوي على عدم أمانة. سألتها كريس: «من حدَّثكِ عن الله؟».

- «شارون؟».

- «آه».

يجب أن تُحادثها في الأمر.

- «ماما، لماذا يتركنا الله لنُنهك؟».

بالنظر إلى أسفل نحو الألم البادي في زوجٍ العيون الحسَّاسة، استسلمت كريس. لن تستطيع إخبارها بما تؤمن به حقًا، وهو اللاشيء.

- «حسنًا، بعد فترة، يشتاق الله إلينا يا راجس، لذا يريد أن يرُدَّنا إليه».

شرنقت ريجان نفسها بالسكوت. وظلَّت صامتة طيلة الطريق إلى المنزل، واستمرَّت على هذه الحال البقية الباقية من اليوم، ثم على نحوٍ مُقلق، طيلة يوم الأثنين كذلك.

عندما أتى الثلاثاء، يوم عيد ميلاد ريجان، بدا أن موجة الحزن والصمت الغريب تنكسر. اصطحبتها كريس معها إلى موقع التصوير، ومعٍ نهاية اليوم، جُلِبت كعكة هائلة تعلوها اثنتا عشرة شمعة مُضاءة، وغنَّى لها الممثلون وطاقم الفيلم ترنيمة عيد الميلاد. كشف دينينجس عن وجهه الرقيق المُهذَّب المعروف عنه في فترات استفاقته، وأمر بإضاءة أنوار التصوير مرَّة أخرى، وأصر على تصوير ريجان وهي تُطفئ الشمع وتُقطِّع الكعكة، ووصف الأمر بأنه «اختبار كاميرا»، ووعد بأنه سيجعلها نجمة. بدت ريجان مرحة، بل مُتهلِّلة. لكن بعد العشاء وفض الهدايا، انحسر هذا الابتهاج اللعوب. هاورد لم يتَّصل. هاتفته كريس في روما، لكن موظَّف الفندق أخبرها أنه مُتغيِّب منذ عدة أيام ولم يترك لهم رقمًا لتحويل المُكالمات إليه. كان في يختٍ في مكانٍ ما.

قدَّمت كريس أعذارًا.

أومأت ريجان برأسها مغلوبة على أمرها، وهزَّت رأسها نفيًا لأمها عندما اقترحت عليها الذهاب معًا إلى هوت شوبي لتناول مخفوق اللبن. ودون أن تنبس ببنت شفة نزلت إلى غرفة اللعب في القبو، حيث مكثت إلى أن أتى ميعاد النوم.

في الصباح التالي فتَّحت كريس عينيها لتجد ريجان في فراشها نصف مستيقظة.

- «بحق الجحـ... ريجان، ماذا تفعلين هنا؟».

قالتها كريس ضاحكة.
- «فراشي كان يهتز يا أمي».
- «أوه، أيتها الحمقاء!».
قالتها كريس وهي تُقبِّلها وتنزع عنها الغطاء.
- «اذهبي ونامي. الوقت لا يزال مُبكِّرًا».
وما بدا كصباحٍ روتيني مُعتاد، كان بداية لليلة لا نهاية لها.

الفصل الثاني

وقف الرجل على طرف رصيف قطار الأنفاق المُنعزل يستمع إلى هدير القطار الذي كان دائمًا ما يُسكِّن الألم البائس الذي طالما رافقه كنبض قلبه، ولا يُسمع إلا في قلب السكون. نقل حقيبته إلى اليد الأخرى وحدَّق طويلًا عبر النفق. نقاط من الضوء تمتد في جوف الظلام كأدلَّاء إلى أرض القنوط. ألقى نظرة إلى يساره، حيث بدأ شريدٌ نامي اللحية رمادي اللون كان مكوَّمًا لا مُبالٍ وسط بركة من بوله في النهوض، وعيناه الصفراوان مُثبَّتتان على القس ذي الوجه المُشقَّق الحزين. أشاح القس بوجهه. سوف يأتي. سوف ينتحب. هل يمكنك مُساعدة صبي مذبح قديم يا أبت؟ أتفعل؟ سيضغط بيده الملوَّثة بالقيء الجاف منكبه. سيتحسَّس جيبه من أجل الميدالية المُقدَّسة. رائحة الأنفاس العفنة المُحمَّلة بمئات الاعترافات السابقة الممزوجة بالخمر والثوم والموبقات المُبتذلة تندفع من كل جانب، والشعور بالاختناق... الاختناق...

سمع القسُّ الشريدَ ينهض.

لا تقترب!

ثم سمع خطوة.

آهٍ يا إلهي! اسمح لي!

- «كيفك يا أبانا!».

أجفل الرجل وتداعى غير قادرٍ على الالتفات. لم يعد قادرًا على البحث من جديد عن المسيح في الرائحة الكريهة والعيون الغائرة. عن

مسيح القيح والبراز الدامي. عن المسيح الذي لا يمكن أن يكون. بشرود ذهن، تحسَّس كُم معطفه كما لو أن عليه شارة حداد خفية. وتذكَّر بخفوت مسيحًا آخر.

- «أنا كاتوليكي يا أبانا!».

اقترب صوت الهدير الخافت للقطار القادم. ثم تبعته أصوات شخصٌ يتعثَّر. التفت القس ونظر باتِّجاه الصوت. كان المُتشرِّد يترنَّح متهاويًا، على وشك أن يُغشَى عليه، لذا باندفاعةٍ سريعةٍ ومتهوِّرةٍ أمسك القس به، وسحبه إلى المقعد الملاصق للحائط.

تمتم الشريد: «أنا كاتوليكي، أنا كاتوليكي».

أخذ القس يُهدِّئ من روعه، وأراح جسده على المقعد. ثم رأى قطاره يقترب فسحب دولارًا من محفظته ووضعه في جيب سترة المنبوذ. بعدها قرَّر أنه قد يُضيِّعه، لذا أخرج الدولار من جيب السُترة ودسَّه في جيب السراويل الغارقة في البول، والتقط حقيبته مُسرعًا وصعد إلى القطار. جلس في الركن مُتظاهرًا بالنوم إلى أن بلغ نهاية الخط، حيث تسلَّق السلم صعودًا إلى الشارع وبدأ في السير إلى جامعة فوردهام. كان يدَّخر الدولار لركوب سيَّارة أجرة.

عندما وصل الرجل إلى قاعة إقامة الزوَّار، وقَّع اسمه في السِّجِل. داميان كاريس. ونظر إليه مُتفحِّصًا قليلًا.. شيءٌ ما خطأ. ثم تذكَّر بسأم وأضاف حَرْفَي اختصار عبارة «مُجتمع يسوع»[1]. استأجر غرفة مُتفرِّعةً من قاعة وايجل، وبعد ساعة غاب أخيرًا في النوم.

في اليوم التالي، حضر اجتماع الرابطة الأمريكية للطب النفسي. وبصفته مُتحدِّثًا رئيسيًا، قدَّم ورقة بحثية بعنوان «الجوانب النفسية للتنمية الروحانية»، وفي نهاية اليوم تمتَّع ببعض المشروبات وقليل من الطعام مع جماعة من الأطباء النفسيين الآخرين. هم الذين دفعوا، لقد عزموه. لكنه تركهم مُبكِّرًا. يجب أن يزور أمه.

---

(1) S. J.: اختصار يوضع بعد اسم الشخص، ما يعني إنه قس يسوعي.

سار من محطة قطار الأنفاق إلى أن بلغ البناية السكنية المُتداعية المبنية من الحجر البُنِّي الواقعة في شارع الحادي والعشرين شرق منهاتن. توقَّف عند الدرجات التي تقود إلى الباب الداكن المصنوع من خشب البلوط، ونظر إلى الأطفال المُتناثرين فوق السُلَّم. مشعَّثون. باليو الثياب. لا مكان يأويهم. تذكَّر وقائع الطرد والإخلاء. تذكَّر الخزي والإذلال. والعودة إلى المنزل برفقة صديقته في الصف السابع ومُقابلة أمه على قارعة الطريق مُنكبَّة تُنقِّب في صفيحة قمامة المدينة عند ركن الشارع. صعد كاريس الدرج ببطء، واشتم ما بدت وكأنها رائحة طهي دافئة، ورطبة، وعطنة في عذوبتها. تذكَّر الزيارات إلى السيِّدة تشياريلي، صديقة أمه، في شقَّتها الصغيرة وقططها الثماني عشرة. أمسك بالسور المحيط بالسُلَّم وصعد وقد أخذه تعبٌ مُفاجئ عَلِمَ أنه بسبب الذنب. لم يكن ينبغي عليه تركها قط. ليس وهي وحيدة هكذا. في ممر الطابق الرابع مدَّ يده إلى جيبه وأخرج المفتاح ودسَّه في قفل الشقَّة رقم 4C. شقَّة أمه. فتح الباب ببطء وكأنه جرح مُوجِع. كان استقبالها حافلًا. صياح مرح وقُبلة. ثم أسرعت لتُعد له القهوة. كانت قصيرة وبدينة. مُغضَّنة الساقين. داكنة البشرة. جلس في المطبخ واستمع إلى حديثها، بينما الحوائط القذرة والأرضية المُتَّسخة تتسرَّب إلى عظامه. كانت الشقَّة كوخًا حقيرًا. تعيش فيها السيِّدة بمُرتَّب الضمان الاجتماعي وحفنة دولارات كل شهر من أخيها. جلست قبالته إلى المائدة تتحدَّث عن هذه السيِّدة وذاك العم، بلكنة المُهاجرين التي لم تَفقِدها إلى الآن. حاول تجنُّب العينين اللتين هما ينبوعا حُزن، عينان تمضيان الأيام في التحديق خارج النافذة.

لم يكن ينبغي أن أتركها قط.

لم تكن تستطيع القراءة أو الكتابة بالإنجليزية، لذا لاحقًا، كتب بضعة خطابات بالنيابة عنها، ثم بعدها أخذ يعمل على إصلاح مُوالف الراديو البلاستيكي. عالمها الوحيد. الأخبار. الاستماع إلى برنامج چون ليندسي عُمدة نيويورك.

ذهب إلى دورة المياه. جرائد صفراء تتناثر فوق البلاط، وبُقع من الصدأ في الحوض والبالوعة. فوق الأرضية يوجد مشد قديم. تلك هي بذور الدعوة. عبر هذه الأشياء نما الحب الإلهي في قلبه، لكن الحب استحال باردًا الآن، وفي الليل كان يسمعه يُصفِر في حجرات وجنبات قلبه كريح تَنوح برقَّة.

في الساعة الحادية عشرة إلا الربع، قبَّلها مودِّعًا ووعدها بأنه سيعود في أقرب وقت ممكن.

وترك المذياع مفتوحًا على تردُّد الأخبار.

***

بمجَّرد أن عاد إلى غرفته في قاعة وايجل، كرَّس كاريس بعضًا من الوقت لكتابة خطاب إلى أسقُف أبرشية ولاية ماريلاند. كان قد ناقشه في الفكرة من قبل، وطلب نقله إلى مدينة نيويورك ليكون قريبًا من أمه. وطالب بوظيفة في التدريس وإعفائه من مهام التبشير. وبخصوص هذا الطلب الأخير، تعلَّل كاريس بـ «عدم صلاحيته» للعمل.

تداول أسقُف أبرشية ماريلاند الأمر معه خلال جولته التفقُّدية السنوية لجامعة جورج تاون، وهي مَهمَّة توازي تقريبًا مَهمَّة مفتش لواء الجيش فيما يتعلَّق بمنح جلسات استماع سرية لأولئك الذين لديهم تظلُّمات أو شكاوى. بخصوص تفصيلة والدته التي تعيش وحيدة، أومأ الأسقُف برأسه مُتفهِّمًا وأعرب عن تعاطفه، لكن مسألة «عدم صلاحيته» تلك كانت تتعارض مع سِجِل كاريس الحافل. ومع هذا، سعى كاريس وراء الأمر، وقَصَدَ بمطلبه توم برمنجهام، رئيس جامعة جورج تاون. «الأمر يتخطَّى الطب النفسي يا كارل. أنت تعلم ذلك. بعضٌ من مشاكلهم يرجع إلى النداء الباطني للعمل، إلى معنى حيواتهم. اللعنة يا توم، ليس الجنس دائمًا هو السبب، بل الإيمان. وأنا لا أستطيع إيقاف التفكير في الأمر. هذا يفوق طاقتي. أريد الإستقالة».

«ما المشكلة؟».

- «توم، أعتقد أنني فقدتُ إيماني».

لم يسأله برمنجهام عن أسباب تشكُّكه، وقد امتنَّ كاريس لذلك كثيرًا. كان يعرف أن أسبابه ستبدو جنونية. ما معنى حاجتنا إلى تمزيق الطعام بالأسنان ثم التغوُّط بعد ذلك. ما جدوى تكريسات أمي التسع لعبادة قلب يسوع يوم الجمعة الأول من كل شهر. الجوارب النتنة. أطفال الثاليدومايد[1]. خبر في الجريدة عن صبي مذبح كان ينتظر الحافلة حين مرَّ به غرباء وسكبوا عليه كيروسين وأضرموا فيه النار. لا. لا. تلك أفكارٌ عاطفية جدًّا، وغامضة، ووجودية. الفكرة الأكثر تجذُّرًا وقربًا إلى العقل هي صمت الإله. يوجد شرٌّ كبير في العالم، ومعظمه ناتج عن الشَّكِ، عن الارتباك والحيرة الصادقة في صفوف رجالٍ ذوي نيَّات الحسنة. هل يرفُض إلهٌ عاقل إنهاء الشَّك؟ أن يتجلَّى ويُظهر نفسه؟ أن يتكلَّم؟

«ربنا آتنا علامة...».

قيامة لعازر حدثت منذ زمنٍ بعيد، وقد خَفُتَ وقعها. ليس من بين الأحياء من سمع ضحكته.

لِمَ لا توجد أدنى علامة؟

في أوقاتٍ عديدة تمنَّى كاريس لو كان قد عاصر المسيح، لو كان قد رآه وتحسَّسه وسبر أغوار عينيه.

أوِ يا إلهي، دعني أراك! دعني أعرف! ائتِني في الأحلام!

لطالما استهلكه الشوق، وأنهكته اللهفة.

---

(1) ثاليدومايد Thalidomide: عقار مُهدئ للحوامل ظهر في ستينات القرن الماضي مصحوبًا بحملة دعاية ضخمة بأنه الأكثر أمانًا للحوامل، ولكن أنتج جيلًا من الأطفال المشوَّهين. سبَّب العقار تشوُّهات خلقية للأطفال، وفي كثيرٍ من الحالات وُلِد أطفالٌ بدون أيدٍ أو أرجل، كما حدثت ولادات أخرى بأيدٍ أو أرجل شبيهة بالزعانف، واشتملت التشوُّهات الأخرى على شذوذ في تكوُّن الحبل الشوكي أو القلب أو بعض الأعضاء الأخرى.

جلس إلى مكتبه في هذه اللحظة والقلم يعلو الورق. رُبَّما لم يكن الوقت هو ما أسكت الأُسقُف. رُبَّما فهم أخيرًا أن الإيمان قضية حُبّ، هكذا فكَّر كاريس. وعده برمنجهام بالنظر في طلبه، بمحاولة التأثير على الأُسقُف، لكن حتَّى الآن لم يحدُث شيء.

كتب كاريس الخِطاب وخلد إلى فراشه.

استيقظ خاملًا في الخامسة صباحًا، وذهب إلى الكنيسة الصغيرة في قاعة وايجل لتأمين القُربان لخُطبة القُدَّاس، ثم عاد إلى غرفته.

تمتم مُصلِّيًا وهو مغموم: «استجب يا رب لصلاتي، وليصل إليكَ صُراخي...».

حمل القُربان وفرش المذبح بإجلال بينما تُداعب عقله الذكرى الموجعة للبهجة التي كان يمنحها إياه فيما مضى. وشعر مجدَّدًا -كما يفعل كل صباح- بالوخز الناتج عن اللمحة البعيدة غير المتوقَّعة وغير الملحوظة للحب الضائع منذ زمنٍ طويل. كسر كسرة من الخبز فوق الكأس: «سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ»». ووضع القُربان في فمه وابتلع الطعم اللاذع لليأس. عندما انتهى القُدَّاس، نظَّف الكأس بعناية ووضعها في حقيبته. وسارع للحاق بقطار السابعة وعشر دقائق وهو يحمل الألم في حقيبة سفر سوداء.

الفصل الثالث

في الصباح الباكر من يوم الحادي عشر من شهر أبريل، اتَّصلت كريس تليفونيًا بطبيبها في لوس أنجلوس لتطلب منه إحالتها إلى طبيب نفسي محلِّي من أجل ريجان.

- «أوه؟ ما الأمر؟».

شرحت له كريس أنه ابتداءً من اليوم الذي تلى عيد ميلاد ريجان، وبعد فشل هاورد في الاتِّصال بها، لاحظت تغيُّرًا مُفاجِئًا ودراميًا في تصرُّفات وميول ريجان. أرق. نزوع للشجار. نوبات غضب. تركل أشياء. تلقي بأشياء. صراخ. فقدان شهية وامتناع عن الطعام. وبالإضافة إلى هذا، بدا نشاطها غير طبيعي. كانت تتحرَّك، وتتلمَّس، وتتلفَّت، وتنقر، وتسترق السمع، وتركض، وتقفز باستمرار. وتُبلي بلاءً سيئًا في واجباتها المدرسية. ولديها رفيق خيالي. وتمارس أمورًا غريبة وشاذة للفت الإنتباه.

سألها الطبيب: «مثل ماذا؟».

حكت له كريس عن أصوات النقر. منذ الليلة التي تفحَّصت فيها العليَّة، سمعت الأصوات مُجدَّدًا في مناسبتين مختلفتين، وفي كلتا الواقعتين لاحظت أن ريجان موجودة بالغرفة وأن النقر يتوقَّف ما إن تدخل كريس إليها. ثانيًا، أخبرته كريس، بدأت ريجان «تفقد» أشياء في الغرفة. ثوبها. فرشاة أسنانها. كتب. حذاءها. وكانت تشكو من «شخصٍ ما يُحرِّك» أثاث غرفتها. وأخيرًا، رأت كريس كارل في غرفة نوم ريجان يعيد مكتبها إلى مكانه من موضع في منتصف الحجرة. وعندما سألته عمَّا يفعل، قال لها

عبارته السابقة «أحدهم يملك حس دعابة»، ورفض أن يُفسِّر أكثر من ذلك. لكن بعدها بقليل عثرت كريس على ريجان في المطبخ تشتكي بأن شخصًا ما حرَّك الأثاث جميعه في غرفتها ليلًا في أثناء ما كانت نائمة. شرحت له كريس أن تلك هي الواقعة التي بلورت شكوكها. من الواضح أن ابنتها من تقوم بذلك كله.

- «أتشيرين إلى السير في أثناء النوم؟ أنها تفعل تلك الأمور وهي نائمة؟».

- «لا يا مارك، إنها تفعل ذلك مُستيقظة، للفت الانتباه».

ذكرت كريس له مسأله اهتزاز الفراش، التي تكرَّرت مرَّتين، وتبع كلتيهما إصرار ريجان على النوم جوار أمها.

غامر الطبيب الباطني بالقول: «حسنًا، قد يكون هذا نتيجة لنشاطٍ بدني».

- «لا يا مارك، أنا لم أقل إن الفراش يهتز. أنا أقول إن ريجان تقول إن الفراش يهتز».

- «وهل أنتِ مُتأكِّدة من أنه لا يفعل؟».

- «لا، ليس تمامًا».

غمغم الطبيب: «حسنًا، قد تكون تلك تشنُّجاتٍ رَمَعيَّة».

- «ماذا؟».

- «تشنُّج رَمَعي. هل يوجد ارتفاع في درجة حرارتها؟».

- «لا. اسمعني. فيمَ تُفكِّر؟» سألته كريس «هل أصطحبها إلى طبيب نفسي أم ماذا؟».

- «كريس، لقد ذَكَرتِ واجبها المدرسي. كيف تبلي في الرياضيات؟».

- «لماذا؟».

ألح الطبيب: «كيف تبلي؟».

- «إنها بليدة. أقصد، صارت بليدة فجأة».

- «فهمت».

كرَّرت كريس سؤالها: «لِمَ تسأل؟».

- «في الواقع، هذا جزء من المُتلازمة».

- «مُتلازمة؟ أيُّ مُتلازمة؟».

- «لا شيء مقلق. أُفضِّل عدم الاسترسال في التخمين عبر الهاتف. أمعكِ قلم؟».

أراد أن يعطيها رقم طبيب باطني في واشنطن.

- «مارك، ألا تستطيع القدوم إلى هنا وفحصها بنفسك؟».

تذكَّرت چايمي ومرضه الذي طال. وقتها وصف طبيب كريس للفتى مضادًا حيويًا جديدًا واسع المجال. وفي الصيدلية المحلِّية، كان الصيدلي حذرًا وهو يحضر لها الدواء: «سيدتي، أنا لا أريد إثارة قلقك، لكن هذا الدواء... حسنًا، إنه حديث الطرح في السوق، وفي چورچيا اكتشفوا أنه يسبِّب فقر دم لا تنسُّجي للأطفال الصغار». وقد رحل چايمي بالفعل. مات. ومن يومها لم تعد كريس تثق في الأطباء. فقط في مارك، وحتَّى ذلك أخذ منها سنواتٍ.

- «مارك، ألا تستطيع؟».

- «لا، لن أقدر. لكن لا تقلقي. الرجل الذي أُوصي به عبقري. الأفضل في المجال. الآن أحضري قلمًا».

تردَّدت كريس للحظة ثم قالت: «معي واحد. ما اسمه؟».

كتبت الاسم والعنوان ورقم الهاتف.

نصحها الطبيب قائلًا: «اتَّصلي به ودعيه يلقي نظرة عليها ثم أخبريه أن يتَّصل بي. وانسي أمر الطبيب النفسي الآن».

- «هل أنت مُتأكِّد؟».

ألقى على مسمعها حديثًا عنيفًا بشأن استعداد العامة لتعرُّف المرض النفسي الجسدي، وفشلهم في تعرُّف العكس: إن مرض الجسد كثيرًا ما يُسبِّب مرض العقل. قال لها مُقترحًا على سبيل المثال: «الآن ماذا ستقولين لي إذا كُنتِ طبيبتي الباطنية وأتيتك شاكيًا من صُداع، وكوابيس

مُتكرِّرة، وغثيان، وأرق، وعدم وضوح الرؤية. وأيضًا أنني بشكلٍ عام أشعر بالانعزال، ويلُفُّني قلقٌ كالجحيم بخصوص عملي؟ هل ستقولين إنني عُصابي؟».

- «لست الشخص المُناسب لتسأله يا مارك. أنا أعلم أنك عُصابيًا».

- «تلك الأعراض التي ذكرتها لكِ هي نفسها أعراض وجود ورم في المخ يا كريس. نطمئن على سلامة الجسد أوَّلًا، وبعدها نرى ما الذي ينبغي عمله».

هاتفت كريس الطبيب وحجزت ميعادًا بعد ظهر اليوم. لقد أصبح وقتها ملكها حاليًا. التصوير انتهى، على الأقل بالنسبة إليها. لكن دينينجس ما زال يُشرف من بعيد على عمل «الوحدة الثانية»، وهي فريق عمل خاص يتولَّى مَهمة تصوير المشاهد الأقل أهمِّية، في الغالب يصوِّر لقطات واسعة بمروحية لمشاهد خارجية في جميع أنحاء المدينة، بالإضافة إلى مشاهد الحيل والبدلاء وتلك التي لا تتضمَّن أيًّا من الممثِّلين الرئيسيين. لكن دينينجس كان يريد كل قدم من بكرة الفيلم أن تكون مثاليَّة.

***

الطبيب في أرلينجتون، واسمه صامويل كلاين. في حين جلست ريجان شكسة ومُتنمِّرة في غرفة الفحص، أجلس كلاين أمها في مكتبه واستفسر منها عن تاريخ موجز للحالة. أخبرته بالمشكلة. استمع إليها وهو يومئ برأسه ويدوِّن ملاحظات مستفيضة في مُذكِّرته. وعندما أتت لذكر تفصيلة اهتزاز الفراش، لاحت على جبينه تكشيرة مُتشكِّكة، لكن كريس واصلت:

- «مارك بدا وكأنه يظن أن بلادة ريجان في الرياضيات لها دلالة مهمة. حسنًا، لِمَ ذلك؟».

- «أتعنين في فروضها المنزلية؟».

- «نعم، الفروض المنزلية. وتحديدًا الرياضيات».

- «حسنًا، لننتظر إلى أن أفحصها يا مدام ماكنيل».

استأذن الطبيب بعدها وأجرى فحصًا شاملًا لريجان، تضمَّن أخذ عيِّنات من بولها ودمها.

البول كان لاختبار وظائف الكليتينِ والكبد، بينما الدَّمِ لعددٍ من الفحوصات: السكري. وظيفة الغُدَّة الدَّرقية. عدد كرات الدَّم الحمراء للكشف عن فقر دم مُحتمل. عدد الكرات البيضاء لتحديد أيِّ أمراض غريبة في الدم.

عندما انتهى، جلس كلاين وتحدَّث مع ريجان، وراقب سلوكها. ثم عاد بعدها إلى مكتبه وبدأ في كتابة الدواء لها.

قال الطبيب لكريس وهو منهمك في الكتابة: «يبدو أنها مُصابة باضطراب فرط الحركة».

- «ماذا؟».

- «اضطراب يصيب الأعصاب. أو على الأقل هذا ما نظنه. نحن غير متأكِّدين بعد كيف يعمل تحديدًا، لكنه عادةً ما يظهر في المرحلة المُبكِّرة من المُراهقة. إنها تُظهر جميع الأعراض: النشاط الزائد، والعصبية، وأداءها في الرياضيات».

- «أجل، الرياضيات. لِمَ الرياضيات تحديدًا؟».

نزع الطبيب الورقة التي تحوي الوصفة الطبية من اللوح الأزرق الصغير وناولها إلى كريس قائلًا: «لأنه يؤثِّر على التركيز. لهذا وصفت لها ريتالين».

- «ماذا؟».

- «ميثيل فينيديت[1]».

- «أوه، أجل. ذاك».

- «عشرة ميلليجرامات. مرَّتين يوميًا. أنصح بواحدة في الثامنة صباحًا، والثانية في الثانية ظهرًا».

كانت كريس تتفحَّص الوصفة الطبية.

---

(1) عقار مُنبِّه خاص بالجهاز العصبي المركزي. يُستخدم في علاج اضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط والنوم القهري (التغفيق).

- «ما هو؟ أهو مُهدِّئ للأعصاب؟».
- «بل مُحفِّز».
- «مُحفِّز؟ إنها تُحلِّق بالفعل أعلى من طائرة ورقية!».

فسَّر كلاين: «إن حالتها ليست كما تبدو تمامًا. إنها نوعٌ ما من التعويض المُفرط، ردود فعلٍ مُبالغٍ فيها مُصاحبة للاكتئاب».

- «اكتئاب؟».

أومأ كلاين برأسه.

- «اكتئاب». كرَّرت كريس اللفظ وهي تنظر إلى أسفل مُفكِّرة.
- «حسنًا، لقد ذكرتِ مسألة والدها».

نظرت كريس لأعلى: «هل تظن أنني يجب أن أعرضها على طبيب نفسي يا دكتور؟».

- «أوه، لا. لننتظر ونرى ما الذي سيفعله الريتالين. أنا أؤمن أنه سيحل المشكلة. لننتظر أسبوعين أو ثلاثة».
- «إذًا أنت تعتقد أن الأمر كله مُتعلِّق بالأعصاب».
- «نعم، أرجِّح ذلك».
- «والأكاذيب التي ترويها؟ هل ستتوقَّف؟».

حيَّرتها إجابته التي جاءت في هيئة سؤال عمَّا إذا كانت تعرف عن ريجان أنها شتَّامة أو مُتلفِّظة ببذاءات في أيِّ وقتٍ مضى.

- «سؤال غريب. لا. قط».
- «حسنًا، كما ترين، ذلك شبيه بأشياءأشياء أخرى مثل كونها تكذب، وتصرُّفات غير المعهودة ممَّا أخبرتني به، لكن في اضطرابات عصبية بعينها يمكنها...».

قاطعته كريس: «انتظر لحظة. تمهَّل. من أين أتت لك فكرة أنها تتلفَّظ ببذاءات؟ أعني، هل هذا ما قصدته أم أنني أسأتَ الفهم؟».

حدَّق إليها كلاين بفضولٍ لحظةً قبل أن يُغامر قائلًا بحذر: «نعم، أقول إنها تستخدم ألفاظًا خارجة. ألم تكوني على دراية بالأمر؟».

- «أنا ما زلت على غير دراية بالأمر! ما الذي تتحدَّث عنه؟».

- «حسنًا، لقد فلت لسانها عندما كنت أتفحَّصها يا مدام ماكنيل».
- «أتمزح معي يا دكتور؟ ماذا قالت؟».
حاول كلاين التملُّص: «حسنًا، دعينا نقول فقط إن مُفردات قاموسها اللغوي جامحة إلى حدٍ ما».
- «حسنًا، على سبيل المثال؟ أعني، أعطني مثالًا!».
هزَّ كلاين كتفيه.
- «أتقصد كلمات بذيئة؟».
استراح كلاين قليلًا وقال: «أجل. لقد استخدمَتْ كلمات بذيئة».
- «وماذا قالت أيضًا؟ أعني، بالتحديد؟».
- «حسنًا، بالتحديد يا مدام ماكنيل، قالت لي ابنتك أن أبعد إصبعي اللعين عن فرجها».
شهقت كريس مصدومة: «هل استخدمت تلك الألفاظ؟».
- «حسنًا، الأمر ليس من غير المألوف يا مدام ماكنيل. ولو كُنت مكانكِ لم أكن لأقلق بخصوصه قط. كما قلت لكِ، إنه جزء من المتلازمة».
نظرت كريس إلى حذائها، وقالت وهي تهزُّ رأسها: «الأمر فقط عصيٌّ جدًّا على التصديق».
تفوَّهت بها بخفوت.
- «اسمعي، أنا أشك في أنها تفهم ما تقول من الأساس».
تمتمت كريس: «نعم، أظن ذلك. جائز».
نصحها كلاين قائلًا: «جربي الريتالين معها، ولنرَ كيف سيسير الأمر. وسأحبُّ أن ألقي نظرة عليها مرَّة أخرى بعد أسبوعين».
وعاد يتفحَّص جدوله الزمني على مكتبه وأردف: «لنرَ. لنجعل الميعاد القادم يوم الأربعاء الموافق السابع والعشرين. هل سيكون ذلك مُناسبًا؟».
- «أجل. بالتأكيد».
نهضت كريس من مِقعدها مقهورة ومُتجهِّمة، وأخذت وصفة الدواء وطوتها في جيب معطفها وهي تُكمِل: «نعم، بالطبع. السابع والعشرون سيكون مُناسبًا».

قال لها كلاين وهو يفتح أمامها الباب الذي يقود إلى الردهة: «إنني من أشد المعجبين بكِ».

توقَّفت كريس عند عتبة الباب، رأسها مُنكَّس، وبالها مشغول، وإصبعها يضغط برفق على طرفي شفتيها. التفتت إلى الطبيب وقالت له: «أمتأكد من عدم جدوى الطبيب النفسي يا دكتور؟».

- «لا أعرف. لكن أفضل التفاسير دائمًا أيسرها. لننتظر. لننتظر ونرى».

قالها كلاين وابتسم مُشجِّعًا. ثم أردف: «حاولي ألا تقلقي».

- «كيف؟».

***

بينما كانت كريس تقود عائدة إلى المنزل، سألتها ريجان عمَّا قاله لها الطبيب.

- «لقد قال إنكِ متوتِّرة فقط».

- «هذا كل شيء؟».

- «هذا كل شيء».

كانت كريس قد قرَّرت ألا تُحادثها عن الفحش الذي تفوَّهت به. بيرك السبب. لا بد أنها سمعت هذا من بيرك.

لكن لاحقًا، تحدَّثت كريس مع شارون بخصوص الأمر، وسألتها إذا ما كانت سمعت ريجان تتفوَّه بمثل هذه البذاءات من قبل.

قالت شارون مشدوهة قليلًا: «أوه، يا إلهي، لا. لم أسمعها قط. أعني، ولا حتَّى مؤخَّرًا. لكن أتعرفين، أظن أن مُدرِّسة الرسم قد أبدت ملاحظة عن الأمر».

- «أتقصدين مؤخَّرًا يا شارون؟».

- «الأسبوع الماضي. لكن تلك المرأة شديدة التحفُّظ. لذا حسبت أن ريجان رُبَّما تفوَّهت بـ»اللعنة» أو «تبًّا» فقط. أنت تعرفين.. أشياءأشياء من هذا القبيل».

- «أوه، بالمناسبة إذًا، هل تحدَّثتِ مع ريجان في أمور الدين يا شارون؟».

تدفَّق الدَّم إلى وجنتي شارون.

- «حسنًا، قليلًا. هذا كل شيء. أعني، من الصعب تجنُّب الموضوع يا كريس، إنها تطرح أسئلةً كثيرةً جدًّا و... حسنًا...» ثم بدرت منها هزَّة كتف مغلوبة على أمرها «الأمر ببساطة صعب. أعني، كيف سأجيبها دون أن أقول ما أعتقد نفسي أنه كذبة هائلة؟».

- «امنحيها اختياراتٍ مُتعدِّدة»

***

في الأيام التي سبقت حفل العشاء الذي رتَّبت كريس إقامته في منزلها، أضحت الأم القلقة صارمة المواظبة على مراقبة جرعات ريجان من عقار الريتالين. ولكن مع حلول عشية الحفل رغم ذلك، فشلت كريس في ملاحظة وجود أيِّ تحسُّن يطرأ عليها. في الحقيقة، كانت هناك علامات خفية على حدوث تدهوُر تدريجي: مزيدٌ من السهو، والبَذَاذَة، وشكوى واحدة من الغثيان. أما بخصوص تصرُّفات لفت الانتباه، وعلى الرغم من أن السلوكيات المُعتادة في الفترة الأخيرة لم تتكرَّر، بدا أن هناك تصرُّفات جديدة كُلِّيًّا: شكاوى من وجود رائحة كريهة ومُنفِّرة في غرفة ريجان. وبإصرارٍ من الفتاة، دخلت كريس الغرفة وتشمَّمت الهواء، وكما توقَّعت لم يلتقط أنفها أيَّ شيء.

سألتها ريجان مُتحيِّرة: «ألا تشمِّينها؟».

- «أتعنين أنكِ تشمِّينها في هذه اللحظة؟».

- «أوه، بالطبع!».

- «وكيف تبدو يا صغيرتي؟».

جعَّدت كريس أنفها وقالت: «مثل شيءٍ ما يحترق».

تشمَّمت كريس الهواء مرَّةً أخرى، هذه المرَّة بعمق أكثر.

- «ألا تشمِّينها؟».

- «أوه، بلى. استشعرتها الآن. لما لا نفتح النافذة قليلًا وندع الهواء يغمر الغرفة».

في الحقيقة لم تشم كريس شيئًا، لكن رأيها استقر على أن تُجاريها، على الأقل إلى أن يحين ميعاد المُقابلة مع الطبيب. كانت أيضًا مشغولة البال بعددٍ من الأمور الأخرى. أحدها ترتيبات حفل العشاء، وأخرى لها علاقة بالنص. على الرغم من أنها كانت لا تزال مُتحمِّسة بشأن مَهمَّة الإخراج، بدا أن حذرًا غريزيًا يموج في صدرها يمنعها من اتَّخاذ قرار حاسم. في هذه الأثناء، كان وكيل أعمالها يهاتفها يوميًّا بإلحاح. أخبرته أنها أعطت النص إلى دينينجس لأخذ رأيه، وقالت إنها تأمل أنه سيقرأه لا يتغذَّى عليه.

الأمر الثالث -الأكثر أهمِّية وإثارةً لقلق كريس- كان فشل مشروعين ماليين متتاليين. شراء سندات قابلة للتحويل من خلال الفائدة المدفوعة مُسبقًا، واستثمار في مشروع تنقيب عن النفط في ليبيا. المشروعان غامرت فيهما لتأمين دخل إضافي في مواجهة الضرائب الباهظة. لكن الأمور آلت إلى الأسوأ: آبار النفط تبيَّن أنها جافة، وحدث ارتفاع هائل وحاد في أسعار الفائدة حفَّز عمليات بيع واسعة في سوق السندات. تلك كانت الأمور التي سافر من أجلها مدير أعمالها التجارية إلى المدينة لمناقشتها معها. وصل الرجل يوم الخميس. واستمعت كريس إلى شروحاته وتقاريره حتى يوم الجمعة. وقرَّرت في النهاية -وفقًا لمسار الأعمال الذي عرضه عليها- إنه فكَّر وتصرَّف بحكمة، رغم أنه قطَّب جبينه عندما فتحت معه موضوع شراء سيَّارة فيراري.

- «تعنين.. سيَّارة جديدة؟».

- «لِمَ لا؟ أنت تعرف أنني قُدت واحدة من قبل في صورة دعائية. إذا راسلنا المصنع، وذكَّرناهم، يمكن أن يعطونا صفقة رابحة. سعرٌ خاص. ألا تظن ذلك؟».

لم يوافقها المدير، وحذَّرها من أنه يظن شراء سيَّارة الآن تبذيرًا في غير محله.

- «بين، لقد ربحت أكثر من ثمانمئة ألف دولارٍ العام الماضي وأنت

تُخبرني أنني لا أستطيع شراء سيَّارة لعينة! ألا تظن أن هذا مُثير للسخرية؟ أين ذهب كل المال؟».

ذكَّرها أن معظم أموالها موزَّعة لتخفيض الضرائب. ثم عدَّد لها أوجه الصرف المُختلفة التي تستنزف دخلها السنوي: ضرائب الدخل الاتِّحادية. ضريبة الدولة. الضريبة المُخمَّنة على الدخل المُستقبلي. ضرائب الممتلكات. عمولة وكيل أعمالها وعمولته وعمولة وكيلها الدعائي التي تُشكِّل مُجتمعة عشرين بالمئة من دخلها. ثم واحد ونصف بالمئة يذهب إلى صندوق الرعاية الاجتماعي السينمائي. مصاريف شراء الملابس المُنسجمة مع أحدث صيحات الموضة. رواتب ويلي وكارل وشارون ومُدبِّرة منزل لوس أنجلوس. مصاريف الرحلات والسَّفر. وأخيرًا، المصاريف الشهرية.

سألها بين: «هل ستصوِّرين فيلمًا جديدًا هذا العام؟».

هزَّت كريس كتفيها وقالت: «لا أعرف. هل يتوجَّب عليَّ؟».

- «نعم، أظن من الأفضل أن تفعلي».

بمرفقين مسنودين إلى ركبتيها، حملت كريس وجهه الحزين في راحتي كفَّيها، وحدَّقت إلى مدير أعمالها بكآبة، وسألته: «ماذا عن هوندا؟».

لم يُعطها ردًّا.

في وقتٍ لاحق من ذلك المساء، حاولت كريس نفض كل دواعي القلق من رأسها، وشغلت نفسها بتحضيرات حفل أمسية الغد.

قالت كريس إلى ويلي وكارل: «لنُحضِّر مقصفًا مفتوحًا للطعام بدلًا من توزيع أطباق رئيسية للمدعوِّين. يُمكننا إعداد مائدة طويلة في غرفة المعيشة، أليس كذلك؟».

أجابها كارل سريعًا: «فكرة جيِّدة جدًّا يا سيدتي».

- «حسنًا، ما رأيك يا ويلي؟ سلطة فواكه طازجة للتحلية؟».

أجابها كارل: «نعم، ممتاز يا سيِّدتي».

- «شكرًا يا ويلي».

كانت قد دعت خليطًا مُثيرًا من البشر. بالإضافة إلى بيرك («فالتأتِ رزينًا عليك اللعنة!») ومخرج الوحدة الثانية الشاب، توقَّعت قدوم أحد أعضاء مجلس الشيوخ وزوجته، وأحد روَّاد فضاء بعثة أبولو القادمة وزوجته، ويسوعيَّين من جامعة چورچ تاون، وجيرانها من المنزل المجاور، وماري چو بيرين وإلين كليري.

ماري چو بيرين عرَّافة روحانية بدينة شيباء الشعر. قابلتها كريس في عشاء البيت الأبيض وأحبَّتها على الفور. كانت قد توقَّعت أن تجدها حازمة وانتهارية، لكن كما أخبرتها المرأة في الحفل «لستِ كذلك على الإطلاق». في المقابل، كانت ودودًا ومتواضعة. أما إلين كليري فهي امرأة في منتصف العمر وأمينة سر وزارة الخارجية، وكانت تعمل في سفارة الولايات المتحدة في موسكو في أثناء جولة كريس في روسيا. وقد بذلت جهودًا حثيثة لإنقاذ كريس من عددٍ من الصعوبات والعوائق التي واجهتها في سفرها، ليس أقلَّها ما سبَّبته صراحة المُمثِّلة الأمريكية حمراء الشعر. تذكَّرتها كريس بالخير على مدار السنين، وحرصت على التواصل معها عندما أتت إلى واشنطن.

- «هاي يا شار. أيٌّ من القساوسة سيأتون؟».

- «لست متأكِّدة بعد. لقد دعوت الرئيس وعميد الكلِّية، لكنني أظن أن الرئيس سيبعث مندوبًا عنه. لقد هاتفتني مديرة أعماله في ساعة مُتأخِّرة من صباح اليوم وقالت لي إنه رُبَّما سيضطَّر إلى أن يسافر خارج المدينة».

سألتها كريس بفضولِ حذر: «من سيبعث؟».

- «دعيني أرى» ثم تفحَّصت عبر قصاصات عديدة من الملاحظات وأردفت «أجل. ها هو ذا. الأب چوزيف داير مُساعِدَهُ».

- «أوه».

أطلقتها كريس في إحباط.

ثم سألت: «أين راجس؟».

- «في الأسفل».

- «أتعرفين.. رُبَّما من الأفضل أن تبدئي في ترك آلتك الكاتبة تحت. ألا ترين ذلك؟ أعني، بهذه الطريقة ستتمكَّنين من مراقبتها وأنت تكتُبين. حسنًا؟ أنا لا أحب فكرة أن تكون وحيدة كل هذا الوقت».

- «فكرة جيِّدة».

- «جميل، افعليها لاحقًا. الآن اذهبي إلى البيت يا شار. مارسي بعض التأمُّل.. العبي مع الجياد».

مع قرب انتهاء التحضير والتجهيزات، وجدت كريس نفسها توجِّه اهتمامها وأفكارها القلقة إلى ريجان من جديد. حاولت مُشاهدة التلفاز. لم تستطع التركيز. شعرت باضطراب وعدم راحة. توجد غرابة في المنزل. سكون عَكِر. حضور ثقيل الوطء. مع انتصاف الليل، أضحى كل من في المنزل نيامًا.

تلك الليلة، لم تحدث قلاقل.

الفصل الرابع

حيَّت كريس ضيوفها في سُترةٍ خضراء ليمونية ذات أكمامٍ طويلة شبيهة بسُترات مُضيفات الطيران، وسراويل. كان حذاؤها وثيرًا ومُريحًا ويعكس آمالها عن الأمسية.

أوّل الحاضرين كانت الروحانية الشهيرة ماري چو بيرين، التي أتت بصحبة ابنها المراهق روبرت. بينما كان آخرهم الأب داير ذا الوجه المتورِّد. كان شابًا وضئيلًا، وذا عينين لعوبتين تطلّان من وراء نظّارة معدنية الإطار. عند مدخل المنزل، اعتذر لها عن تأخُّره. «لم أجد ربطة عُنُق مُناسبة». هذا ما قاله لكريس بوجهٍ خالٍ من التعبير. للحظة، حدَّقت إليه بانشداه في عدم فهم، ثم انفجرت ضاحكة. لقد بدأت الكآبة التي لازمتها طيلة اليوم في الانقشاع.

لعب الخمر لعبته المعتادة في إذابة التحفُّظ. ومع حلول الساعة العاشرة إلا الربع، كان الجميع متناثرين في أرجاء غرفة المعيشة يتناولون عشاءهم في مجموعات صغيرة، ويدور بينهم حديث حيويّ.

ملأت كريس صحنها من المِقصف المتنوِّع بالطعام المُبهَّر بالكاري، وبحثت في أرجاء الغرفة عن السيِّدة بيرين. ها هي زي. تجلس على الأريكة جوار الأب واجنر، عميد اليسوعية. لقد تكلَّمت كريس معه بشكلٍ موجز فقط. كان ذا رأسٍ أصلع يغزوه النَّمش، وطبع هادئ وحازم. جنحت كريس إلى الأريكة وافترشت الأرض، طاوية ساقيها أمام منضدة القهوة بينما كانت الخبيرة الروحانية تضحك بمرح.

- «أوه، بالله عليكِ يا ماري چو!».
قالها العميد مُبتسمًا، وهو يرفع شوكة طعام مليئة بالكاري إلى فيه.
ردَّدت كريس: «نعم، بالله عليكِ».
قال العميد: «أوه، مرحبًا! الكاري عظيم!».
- «ليس حارًّا جدًّا؟».
- «على الإطلاق، مضبوط تمامًا. ماري چو تُخبرني أنها تعرف قسًّا يسوعيًّا اعتاد أن يكون أيضًا وسيطًا روحانيًا».
قالت العرَّافة مَرِحة: «وهو لا يُصدِّقني!».
قال العميد مُصحِّحًا: «آه، معذرة. جُلُّ ما قُلته إن الأمر صعب التصديق».
سألت كريس: «أتعنين وسيطًا.. وسيطًا؟».
قالت ماري چو: «نعم بالطبع، ولما لا. لقد اعتاد حتَّى أن يرتفع في الهواء!».
قال اليسوعي بهدوء: «أوه، أنا أفعلها كل صباح».
سألت كريس السيِّدة بيرين: «أتعنين أنه كان يعقد جلسات تحضير أرواح؟».
أجابتها المرأة: «حسنًا، أجل. كان ذا شُهرة طاغية في القرن التاسع عشر. في الواقع، إنه الروحاني الوحيد في عصره الذي لم يُدن بالاحتيال قط».
علَّق العميد قائلًا: «وكما أخبرتكِ، لم يكن يسوعيًّا».
ضحكت العرَّافة وقالت: «أوه يا إلهي، لكن، ألم يكن كذلك في أيِّ وقتٍ مضى! في سنِّ الثانية والعشرين، انضم إلى اليسوعيين ووعد أنه لن يعمل وسيطًا مرَّةً أخرى، لكنهم طردوه خارج فرنسا» ثم ضحكت أكثر وأردفت: «وذلك بعد جلسة تحضير الأرواح التي عقدها في

قصر التويليري مُباشرةً. أتعرفان ماذا فعل؟ في منتصف الجلسة أخبر الإمبراطورة أنها على وشك أن تُمَس من قِبَل أيدي روح طفل على وشك التجسُّد بشكلٍ تام. عندما أعادوا تشغيل الأنوار فجأة» قالتها مُقهقهة «وجدوه جالسًا بقدمه العارية على ذراع الإمبراطورة! الآن، هل يمكنك تخيُّل الأمر!».

قال اليسوعي مُبتسمًا وهو يضع صحنه على المنضدة: «لا تأتي إليَّ باحثة عن خصومات على صكوك الغفران بعد ذلك يا ماري چو».

- «أوه، لتكن مُتَّسع الصَّدر. يوجد فرد فاسد في كل عائلة».

- «لقد كنا ندفع حصصنا مع باباوات آل ميديشي».

بدأت كريس تتكلَّم: «أتعرف، كانت لديَّ تجربة ذات مرَّة...».

قاطعها العميد: «هل ما تحكينه بمثابة اعتراف؟».

قالت كريس مُبتسمة: «لا، أنا لست كاثوليكية».

مازحت بيرين القس وهي تبتسم: «أوه، حسنًا، وكذلك اليسوعيون».

ردَّ عليها العميد بشكسٍ مُماثل: «يا للتشهير الدومينيكاني[1]». ثم وجَّه حديثه إلى كريس: «معذرة يا عزيزتي، ماذا كنتِ تقولين؟».

- «حسنًا، ذات مرَّة شاهدت شخصًا يرتفع في الهواء.. في بوتان».

ثم روت قصَّتها كاملة وأنهتها بسؤال: «أتظن أن الأمر ممكن؟ أعني، فعلًا؟».

أجابها عميد اليسوعية: «من يعرف؟» ثم هز كتفيه «من يعرف ماهية الجاذبية، أو المادة ذاتها؟ إذا تمادينا ووصلنا إلى ذلك».

---

(1) الرهبنة الدومينيكانية: رهبنة أسَّسها القديس دومينيك عام 1215 ميلادية، واعتمدها البابا هونوريوس الثالث عام 1216. بدأت نشاطها، في مدينة تولوز بفرنسا، وكانت أوَّل رهبنة كاثوليكية تأخذ على عاتقها التبشير بالعقيدة المسيحية، وأطلقت على نفسها «تنظيم الوُعَّاظ»، وهي مَهمة كانت تُعتبر من قبل وَقفًا على الأساقفة ومندوبيهم وامتيازًا لهم.

تدخَّلت السيِّدة بيرين قائلة: «أتريد رأيي؟».
قال العميد لها: «لا يا ماري چو. لقد نذرت نذر الفقر[1]».
تمتمت كريس: «وأنا كذلك».
سألها العميد مائلًا إلى الأمام: «ماذا قُلتِ؟»
- «أوه، لا شيء. بالمناسبة، يوجد شيء كنت أود أن أسألك عنه. أتعرف ذلك الكوخ الصغير في الباحة الخلفية للكنيسة القريبة». قالتها وأشارت بيدها إلى الاتِّجاه العام.
سألها: «كنيسة الثالوث المُقدَّس؟».
- «نعم، بالفعل. حسنًا، ما الذي حدث هناك؟».
قالت بيرين: «أوه، حسنًا. إنها المكان الذي حدث به القُدَّاس الأسود».
- «الـ ماذا الأسود؟».
- «القُدَّاس الأسود».
- «وما هذا؟».
قال العميد: «إنها تمزح».
قالت كريس: «نعم، أعرف. لكنني بلهاء. أعني، ما القُدَّاس الأسود؟».
- «حسنًا، بشكلٍ أساسي، هو تحريف للقُدَّاس الكاثوليكي واستهزاءٌ به».
فسَّر لها العميد: «إنه يرتبط بعبادة الشيطان».
- «يا للعجب! أتعني أنه يوجد شيء من هذا القبيل؟».
- «في الحقيقة، لا أستطيع تأكيد الأمر أو نفيه. رغم أنني قد سمعت إحصائية ذات مرَّة تقول بأن نحو خمسين ألف قُدَّاس أسود تُعقد كل عام في مدينة باريس».

(1) النذور الرهبانية في المسيحية ثلاثة: نذر العِفَّة، ونذر الطَّاعة، ونذر الفقر. وفقًا للنذر الأخير، يسلك الراهب طريق الفقر الاختياري ويتجرَّد عن الغنى اقتداءً بيسوع المسيح، الذي اختار في أثناء حياته أن يعيش فقيرًا، مُتبتِّلًا، مُطيعًا.

قالت كريس مُندهشة: «تعني في عصرنا هذا؟».

- «هذا مجرَّد أمر سمعت به».

قالت السيِّدة بيرين مازحة: «أجل، بالطبع، من الاستخبارات اليسوعية السرِّية».

قال العميد: «لا، على الإطلاق. إنها الأصوات في رأسي التي أخبرتني».

ضحكت المرأة.

ذكرت كريس: «أتعرف.. في لوس أنجلوس يسمع المرء قصصًا عديدة عن طوائف سحر وسحرة في الجوار، لطالما تعجَّبت ما إذا كان الأمر صحيحًا من عدمه».

قال العميد: «حسنًا، كما قلت، لم يتسنَ لي أن أعرف. لكنني أستطيع أن أدلَّك إلى الشخص الذي قد يعلم. چو داير. أين چو؟».

نظر العميد حوله.

- «أوه، ها هو هناك».

قالها وهو يومئ تجاه القس الآخر، الذي كان واقفًا عند المقصف مُعطيًا لهم ظهره، ويضيف مقدارًا آخر من الطعام إلى صحنه.

- «أيا چو؟».

التفت القس اليافع بوجهٍ جامدٍ: «أتناديني قداستك؟».

أشار إليه العميد بأصابعه أن تعال.

أجابه داير: «لحظة واحدة فقط»، قالها واستدار ليواصل هجمته على الطعام المُبهَّر بالكاري والسلاطة.

قال العميد في شغف وهو يرشف الخمر من كأسه: «إنه المُتشيطن الوحيد في الكهنوت لدينا. لقد واجهوا بعض وقائع التدنيس في كنيسة الثالوث المُقدَّس الأسبوع الماضي، وچو أخبرني أن واحدة منها ذكَّرته ببعض الأشياء التي اعتادوا فعلها في القُدَّاس الأسود، لذا أتوقَّع أنه يعرف شيئًا عن الموضوع».

سألت ماري چو بيرين: «ماذا حدث في الكنيسة؟».
قال العميد: «أوه، إنه أمرٌ مُقزِّز تمامًا».
- «هَلُم، قُل. لقد انتهينا جميعًا من عشائنا».
تهرَّب الرجل من الإجابة: «لا، رجاءً من فضلك. الأمر أعنف من اللازم».
- «أوه، هَلُم!».
سألها العميد: «أهذا يعني أنكِ غير قادرة على قراءة أفكاري يا ماري چو؟».
- «بلى، أستطيع. لكنني في الحقيقة لا أظنني جديرة بدخول قدس الأقداس ذاك!».
قال العميد: «حسنًا، إنه مثير للاشمئزاز حقًّا».
وصف القس لهما وقائع أعمال التدنيس. في الحادثة الأولى، عَثَر الحافظ لغرفة المُقدَّسات في الكنيسة على كومة من بُراز إنسان فوق قماش المذبح وأمام وعاء الخُبز مُباشرةً.
كشَّرت السيِّدة بيرين عضلات وجهها: «أوه، هذا مُقرف بالفعل».
- «حسنًا، الحوادث التي تلت كانت أسوأ».
أبدى العميد تلك الملاحظة، ثم استخدم المواربة وبعض العِبارات المُلطِّفة ليشرح كيف أن قضيبين ذكريين هائلي الحجم مصنوعين من الصلصال عُثِر عليهما ملصوقين إلى تمثال السيِّد المسيح المُنصَّب إلى يسار المذبح.
ثم اختتم كلامه: «أنلتِ كفايتكِ من التقزُّز؟».
لاحظت كريس أن الوسيطة بدت مُنزعجة تمامًا وهي تقول: «أوه، هذا يكفي. معذرة لأنني سألت. لنُغيِّر الموضوع».
قالت كريس: «لا، إنني مبهورة».
- «نعم بالطبع! لأنني شخصٌ باهر!».
اقترب منهم صاحب الصوت، كان هذا داير، يحمل صحن طعام

مُمتلئًا عن آخره في يدٍ، وبيده الأخرى أخذ يحوم فوق رأس كريس وهو يقول بوقار: «اسمعوا، أعطوني دقيقة واحدة وسأعود إليكم. أظن أنه يوجد شيء يتحتَّم عليَّ مُناقشته مع رائد الفضاء».

سأله العميد: «مثل ماذا؟».

حدَّق إليه داير بوجهٍ خالٍ من التعبير وأجابه: «الرحلة التبشيرية الأولى إلى القمر؟».

انفجر الجميع ضاحكين باستثناء داير.

كان أسلوبه في الدعابة يعتمد على إلقاء الفُكاهة بوجهٍ جامدٍ خالٍ من الانفعال.

قالت بيرين: «أنت ذو حجم مناسب تمامًا. يمكنهم حشرك في مُقدِّمة الصاروخ المخروطية».

صحَّح لها القس بوقار: «لا، الطلب لا يخصَّني. إنني أحاول ترتيب الأمر للأب إيموري» قالها بشكلٍ خاص للعميد، ثم التفت مرَّةً أخرى إلى المرأة واستطرد شارحًا: «إنه عميد الانضباط في الجامعة. القمر خالٍ من البشر وهذا ما يحبه. إنه يحب الأماكن الهادئة».

وبذات الوجه الجامد، نظر داير عبر الغرفة إلى رائد الفضاء وقال لهم: «اسمحوا لي».

ثم سار مُبتعدًا.

قالت بيرين: «لقد أعجبني».

وافقتها كريس: «وأنا أيضًا». ثم التفتت إلى العميد وقالت له مُذكِّرة: «لم تخبرني بعد بما يجري داخل ذلك الكوخ. أهو سرٌّ كبير؟ من القس الذي أراه دائمًا هناك؟ رجلٌ مُكفهرٌّ وغامض؟ يبدو وكأنه مُلاكم؟ هل تعرف من أقصد؟».

أومأ العميد خافضًا رأسه وهو يتمتم: «الأب كاريس». قالها بنبرةٍ خفيضةٍ وبعض الحسرة. ثم وضع كأس الخمر جانبًا وأخذ يُدوِّره بين أصابعه من جذعه وأردف: «لقد تلقَّى صدمة قاسية الليلة الماضية.. مسكين».

سألت كريس: «أوه، ماذا حدث؟».
- «تُوفِّيت والدته».
غمر كريس شعورٌ غامض بالحزن لم تستطع تفسيره، وقالت بهدوء: «أوه، آسفة».
واصل اليسوعي كلامه: «يبدو عليه أنه يتقبَّل الأمر بصعوبة شديدة. من الواضح أنها كانت تعيش بمفردها، وأظن أنها ماتت قبل أن يجدوها بأيام».
تمتمت السيِّدة بيرين: «أوه، كم هذا فظيع».
سألت كريس بجبينٍ مُقطَّب قليلًا: «من وجدها؟».
- «المُشرف على العقار السكني. أظن أنهم لم يكونوا ليجدوها إلى لحظتنا هذه إذا لم... حسنًا، لقد اشتكى جيرانها من صوت الراديو الذي لا ينقطع ليلًا ولا نهارًا».
قالت كريس بصوتٍ خفيض: «هذا محزن جدًّا».
- «اعذريني يا سيدتي».
نظرت كريس لأعلى لتجد كارل. كان يحمل صينية مُترعة بالخمور المُحلَّاة وبعض الكؤوس النحيفة.
- «حسنًا. ضعها هنا يا كارل. لا بأس».
اعتادت كريس تقديم الخمور المُحلَّاة لضيوفها بنفسها. كانت تشعر أن هذا يضيف بعض الألفة والحميمية، التي قد تكون مفقودة بخلاف ذلك. «حسنًا، لأرى الآن. سأبدأ بكما». قالتها للعميد والسيِّدة بيرين. قدَّمت لهما المشروب، ثم نهضت وتنقَّلت في أرجاء الغرفة تتلقَّى طلبات ضيوفها وتجلبها لهم، وفي الوقت الذي انتهت فيه من الدوران حول مدعوِّها، كانت التكتُّلات المختلفة من الأشخاص قد انتقلت إلى توليفات جديدة، باستثناء داير ورائد الفضاء، اللذين بديا أنهما تباسطا معًا إلى حدٍ كبير. سمعت كريس داير يقول: «لا، أنا لست قسًّا» واضعًا يده على كتف رائد الفضاء الذي كان يهتز في ضحكٍ مكتومٍ «إنني في حقيقة الأمر حاخام طليعي مُروِّع».

كانت كريس تقف بصحبة إلين كليري تستحضران ذكريات موسكو، عندما سمعت صوتًا حادًا مألوفًا يدوِّي من المطبخ.

أوه، يا للمسيح! بيرك!

كان يصيح بسيل من البذاءات في وجه أحدهم.

استأذنت كريس من ضيفتها وهرولت إلى المطبخ، حيث وجدت دينينجس يُقرِّع كارل بشراسة، بينما تبذل شارون محاولاتٍ عديمة الجدوى لإخماده.

هتفت كريس: «بيرك! كُفَّ عن هذا!».

تجاهلها المخرج تمامًا، وواصل نوبة هياجه. كان رُكنا فمه يُزبدان ويُرغيان باللُعاب، بينما يستند كارل في هدوء إلى حوض الأطباق عاقدًا ذراعيه، وعلى وجهه يلوح تعبير متبلِّد، وعيناه مُثبَّتتان على دينينجس لا تحيد.

صاحت كريس فيه: «كارل! هلَّا خرجت من هنا؟ تحرَّك! ألا ترى حالته؟».

لكن الرجل السويسري لم يتزحزح البتَّة إلى أن بدأت كريس في دفعه تجاه الباب.

- «الخنزير النازي!».

صاح بها دينينجس من خلف كارل، ثم التفت بحنان إلى كريس فاركًا كفَّيه وسألها بلطف: «الآن إذًا. ماذا لديك للتحلية؟».

- «التحلية؟».

قالتها كريس ولطمت جبينها بمؤخِّرة يدها.

ناح دينينجس بوقاحة: «حسنًا، أنا جائع».

الفتت كريس إلى شارون وقالت: «أطعميه! يجب أن أصطحب ريجان إلى فراشها» ثم واصلت «وإكرامًا للمسيح يا بيرك، هلَّا أحسنت التصرُّف بحق الجحيم؟ يوجد رُهبان في الخارج!».

تجعَّد جبين دينينجس وتوسَّعت عيناه باهتمامٍ مُفاجئ بدا حقيقيًا.

سألها دون خُبث: «أوه، أنتِ أيضًا لاحظي ذلك؟». رفعت كريس رأسها إلى أعلى وتنهَّدت بعمق وقالت: «لقد انتهيت هنا!». وغادرت المطبخ بخطواتٍ واسعة.

نزلت كريس إلى أسفل للاطمئنان على ريجان في غرفة اللعب في القبو، حيث قضت ابنتها اليوم كله، ووجدتها تلعب بلوح الويچا. بدت واجمة. ذاهلة. مُنفصلة عن الواقع. حسنًا، على الأقل ليست مُشاكسة. هكذا فكَّرت كريس مُشوَّشة، ثم اصطحبتها إلى غرفة المعيشة بأمل التزجية عنها قليلًا، وبدأت في تقديمها إلى ضيوفها.

قالت زوجة عضو مجلس الشيوخ: «أوه، يا لها من قُرَّةِ عين!».

بدا سلوك ريجان مُهذَّبًا بشكل غريب مع الجميع فيما عدا السيِّدة بيرين. فقد رفضت مُحادثتها أو مُصافحة يدها. لكن الوسيطة حوَّلت الأمر إلى دعابة وقالت لكريس وهي تبتسم وتغمز: «تعلم أنني دجَّالة مُدَّعية». لكن بعدها، وبلفتة فضولية مُمحِّصة، مدَّت الوسيطة ذراعها إلى الأمام وأمسكت بساعد ريجان وضغطته برقَّة كما لو أنها تتفحَّص نبضها. سحبت ريجان يدها سريعًا وتوهَّج وجهها بشرٍ حقود.

- «أوه يا عزيزتي. لا بد أنها مُتعبة جدًّا».

قالتها السيِّدة بيرين بشكلٍ عابر، لكنها استمرَّت في التحديق إلى ريجان بتقصٍ راسخ، وزعزعة لم تعلم مصدرها.

تمتمت كريس مُعتذرة: «إنها تشعر بتوعُّك نوعًا ما». ثم أردفت وهي تخفض بصرها إلى أسفل ناظرة لريجان: «أليس كذلك يا حبيبتي؟».

لم ترد ريجان. واستمرَّت في التحديق بالأرض.

لم يتبقَّ أحدًا كي تُقابله ريجان سوى عضو مجلس الشيوخ وروبرت، ابن السيِّدة بيرين، وقرَّرت كريس أنه من الأفضل تخطيهما، لذا أخذت ريجان إلى الدور العلوي ودسَّتها في الفراش.

سألتها كريس: «أتظنين أنكِ ستستطيعين النوم؟».

أجابتها ريجان بنبرة حالمة: «لا أعرف». ثم انقلبت على جانبها وأخذت تُحدِّق إلى الجدار بتعبيرٍ بارد.

- «أتريدينني أن أقرأ لكِ قليلًا؟».

هزَّت الفتاة رأسها نافية.

- «حسنًا إذًا. حاولي النوم».

انحنت كريس إليها وقبَّلتها، ومشت ناحية الباب وأغلقت مفتاح النور.

- «تصبحين على خيرٍ يا صغيرتي».

كانت كريس قد وصلت عتبة الباب بالكاد، عندما صاحت بها ريجان بصوتٍ هادئ قائلة: «ماما، ما الذي ألمَّ بي؟». بدت نبرتها خائفة جدًّا، ويائسة تمامًا، ولا تتناسب مع حالتها. للحظة شعرت كريس بزلزلة في قلبها وحيرة شديدة، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها. «الأمر مثل ما قلت لكِ يا راجس. أعصابك مُنهكة. كل ما تحتاجينه هو تناول تلك الحبوب لبضعة أسابيع وأنا مُتأكِّدة أنكِ ستتعافين. الآن، حاولي أن تنالي بعض الراحة يا حُلوتي، حسنًا؟».

لم تسمع ردًّا.. وانتظرت كريس.

كرَّرت سؤالها: «حسنًا؟».

همست ريجان إليها: «حسنًا».

فجأة شعرت كريس بالشُعيرات تنتصب على ساعدها، ففركته ونظرت حولها. برررر، الجو مُثلَّج في هذه الغرفة! من أين يتدفَّق تيَّار الهواء؟

اتَّجهت نحو النافذة وتفحَّصت زواياها، لكنها لم تعثر على شيء. انتقلت إلى ريجان. «أأنتِ دافئة بما يكفي يا صغيرتي؟».

لا جواب.

تحرَّكت كريس إلى الفراش. «أنتِ نائمة؟».

قابلتها عينان مُغلقتان، وأنفاسٌ عميقة.

خرجت كريس من الغرفة على أطراف أصابعها.

ترامى الغناء إلى مسمع كريس من موقعها في الردهة، ومع نزولها عبر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الدرج شاهدت -مُبتهجة- الأب داير يعزف البيانو بالقرب من النافذة الكبيرة في غرفة المعيشة، وهو يقود ثُلَّة تجمَّعت حوله في الترنُّم بأغنية مَرِحَة. بمجرَّد دلوف كريس إلى الغرفة، كان الجمع قد انتهى من الغناء لتوِّه.

«إلى أن نلتقي مرَّةً أخرى».

توجَّهت كريس مُتحمِّسة كي تنضم إلى المجموعة، لكن عضو مجلس الشيوخ وزوجته اعترضاها. كانا يحملان معطفيهما فوق ساعديهما وبدا عليهما الانفعال.

سألتهما كريس: «أتغادران مُبكِّرًا هكذا؟».

- «أوه، أعتذر لكِ بشدَّة يا عزيزتي، لقد حظينا بأمسية رائعة» قالها الرجل مُشرقًا «لكن مارثا المسكينة أصابها صُداع».

أَنَّت زوجة عضو المجلس قائلة: «أوه، أعتذر إليكِ بشدَّة، لكنني أشعر بتوعُّك شديد. هلَّا عذرتينا يا كريس؟ كان الحفل رائعًا».

قالت لهما كريس: «يحزنني جدًّا أن تغادرا».

في أثناء اصطحابها الزوجين إلى مدخل المنزل، استطاعت كريس سماع الأب داير في الخلفية يسأل: «هل يوجد أحد آخر يعرف كلمات أغنية «أراهن أنك آسف الآن يا طوكيو روز»؟».

وفي طريق عودتها إلى غرفة المعيشة، كانت شارون تخرج بهدوء من غرفة المكتب.

سألتها كريس: «أين بيرك؟».

- «في الداخل».

ردَّت شارون عليها وهي تُشير إلى غرفة المكتب وأردفت: «لقد غاب في النوم. ما الذي قاله عضو مجلس الشيوخ لكِ؟ أيُّ شيء مُحدَّد؟».

- «لا، لقد رحل وزوجته فقط».

- «فقط كذلك».

- «ماذا تعنين يا شار؟ ما الذي تحاولين قنصه؟».

- «أوه، حسنًا. إنه بيرك».

قالتها شارون مُتنهِّدة. ثم بنبرةٍ حذرةٍ حكت لها عن اللقاء بين بيرك وعضو مجلس الشيوخ، حيث أبدى له الأوَّل مُلاحظة عابرة بأنه على ما يبدو توجد «شعرة عانة غريبة تطفو في كأس الچين الخاص بي»، ثم التفت بعدها إلى الزوجة وأضاف بنبرة اتِّهامية غامضة «لم أر تلك الشعرة من قبل في حياتي! أتعرفينها؟».

شهقت كريس ثم قهقهت وهي ترفع عينيها إلى أعلى بينما استمرَّت شارون في شرح كيف أن رد فعل زوجة عضو المجلس المُحرَجة قد حثَّ واحدة من نوبات هياج دينينجس العارمة، والتي أعرب فيها عن «امتنانه اللا محدود» لوجود السياسيين، لأنه من دونهم «لن يستطيع المرء أن يُميِّز بسهولة من هم رجال الدولة كما ترين»، وعندما ابتعد عضو المجلس وهو ينفخ غاضبًا كاتمًا انفعاله، التفت المُخرج إلى شارون وقال مُنتصرًا: «أرأيتِ؟ لم ينزلق لساني؟ ألا توافقين معي أنني عالجت الموقف برزانة؟».

لم يسع كريس إلا الضحك وهي تقول: «حسنًا، دعيه ينام. لكن من الأفضل أن تمكثي معه في حالة إن استيقظ. هل تمانعين؟».

- «لا، بالطبع لا».

في غرفة المعيشة، كانت ماري چو بيرين تجلس على مقعدٍ منزوٍ. بدت مشغولة، وقلقة. همَّت كريس لأن تتَّجه إليها، لكنها عدَّلت رأيها وتوجَّهت نحو داير والبيانو. أوقف داير العزف ونظر إليها مُحيِّيًا: «حسنًا يا سيِّدتي الشابة، ما الذي يمكن أن نُقدِّمه لكِ اليوم؟ كما هو كائن، لقد خصَّصنا الليلة لعزف بعض التُساعيَّات».

ضحكت كريس مع باقي الثُلَّة المُلتفَّة حوله وهي تقول: «ظننت أنني سأحصل على سبق صحفي عمَّا يحدث في القُدَّاس الأسود. الأب واجنر أخبرني أنك الخبير».

صمت الحشد المُتجمِّع حول البيانو مُنصتًا باهتمام.

قال داير وهو يداعب مفاتيح البيانو من جديد: «لا، ليس تمامًا. لماذا تأتين إلى ذكر القُدَّاس الأسود الآن؟».

- «حسنًا، كان بعضنا يتحدَّث منذ قليل عن... حسنًا... عن تلك الأشياء التي وجدوها في كنيسة الثالوث المُقدَّس، و...».

قاطعها داير: «آه.. تقصدين أعمال التدنيس؟».

تدخَّل رائد الفضاء في الحديث قائلًا: «هاي، أيريد أحدكم إطلاعنا عمَّا تتحدَّثون عنه هنا؟ لقد ضعت».

قالت إلين كليري: «وأنا أيضًا».

رفع داير أصابعه عن البيانو ونظر عاليًا إليهم، وقال مُفسِّرًا: «حسنًا، لقد عثروا على بعض أعمال التدنيس في الكنيسة المجاورة».

سأل رائد الفضاء: «حسنًا، مثل ماذا؟».

نصحهم الأب داير: «انسوا الأمر. فقط لنقل إنه انطوى على بعض الأعمال المُشينة ولا نُزيد».

حثَّته كريس على المواصلة بقولها: «الأب واجنر يقول إنك أخبرتهم أن الأمر شبيه بما يحدث في القُدَّاس الأسود. لذا فضولي أُثير لمعرفة ما يجري في تلك الأشياء».

قال داير: «أوه، في الحقيقة أنا لست مُلمًّا بالأمر لهذه الدرجة. في الواقع، جُل ما أعرفه سمعته من چيب آخر في الجامعة».

سألت كريس: «ما الـ«چيب»؟».

- «اختصار لچيزويت[1]. الأب كاريس، إنه خبيرنا في كل تلك الأمور».

انتبهت كريس فجأة وقالت: «أوه، ذاك القس داكن البشرة من كنيسة الثالوث المُقدَّس؟».

سألها داير: «أتعرفينه؟».

---

(1) بالإنجليزية Jesuit: يسوعي.

- «لا، لقد أتى ذكره إلى مسمعي، هذا كل شيء».

- «حسنًا، على ما أتذكَّر لقد قدَّم ورقة بحثية عن الأمر. كما تعرفين، من الجانب النفسي».

سألته كريس: «ماذا تعني؟».

- «ماذا تعنين بماذا تعني؟».

- «أتقول إنه طبيب نفسي؟».

- «أوه، أجل، بالتأكيد. معذرة. لقد افترضتكِ تعلمين».

تدخَّل رائد الفضاء مُطالبًا بعض التوضيح بطريقة ودِّية: «اسمعوا، ليخبرني أحدكم بشيءٍ. ما الذي يحدث في القدَّاس الأسود؟».

هزَّ داير كتفيه قائلًا: «دعنا نقول مُمارسات مُنحرفة. شذوذ. فحش. تجديف. إنه مُحاكاة شرِّيرة للقُدَّاس الكاثوليكي، حيث بدلًا من الرب، يتزلَّفون إلى الشيطان، وأحيانًا يقدِّمون أُضحيةً بشرية».

ابتسمت إلين كليري برقة، وهزَّت رأسها ثم سارت مُبتعدة وهي تقول: «الأمر أصبح مُخيفًا جدًّا بالنسبة إليَّ».

لم تُعِرها كريس أهمِّية وسألت القس اليسوعي: «لكن كيف تسنَّت لك معرفة ذلك؟ حتَّى إن وُجِد شيءٌ مثل القُدَّاس الأسود، من يستطيع أن يقول ما الذي يحدث هناك؟».

قال داير: «حسنًا، أظن أنهم عرفوا معظم ما يقال عن طريق الأُناس الذين قُبِض عليهم واعترفوا بعدها».

- «أوه، بالله عليك». قالها العميد بعد أن انضم إلى جمع دون أن يلحظه أحدٌ، ثم أردف: «تلك الاعترافات لا تساوي شيئًا يا چو. أولئك الأشخاص عُذِّبوا».

قال داير لا مُباليًا: «فقط المُشاكس منهم».

حدثت مُتالية من الضحك العصبي المُتوتِّر. نظر العميد إلى ساعة معصمه. «حسنًا، أنا مُتأخِّرٌ بالفعل. ينبغي عليَّ الذهاب» قالها لكريس وأردف: «لديَّ قُدَّاس الساعة السادسة في كنيسة دالجرين».

ابتسم داير مُضيفًا: «وأنا لديَّ قُدَّاس البانچو».

ثم بدت عينا القسِّ مصدومتين عندما نقل بصره إلى جزء من الغرفة خلف ظهر كريس، وقال وقد استفاق فجأة من تأثير الخمر: «حسنًا، أعتقد أن لدينا زائرًا يا سيِّدة ماكنيل». لفظها مُحذِّرًا وهو يومئ برأسه. التفتت كريس إلى الوراء وشهقت عندما رأت ريجان في ثوب النوم تبول بغزارة فوق السجَّاد وهي تنظر بثبات إلى رائد الفضاء. مرَّت لحظة صمت، ثم رتَّلت الفتاة بعدها بعينين مُعطَّلتين وصوتٍ جاف لا حياة فيه: «سوف تموت هُناك في الأعلى».

- «أوه يا صغيرتي!».

هكذا صرخت كريس وهي تهرول إلى ابنتها بذراعين مفتوحتين.

- «أوه، راجس، عزيزتي! هَلُمي يا صغيرتي! هيا! لنصعد إلى فوق».

أمسكت كريس بيد الطفلة، وفي أثناء ما كانت تقودها بعيدًا نظرت من فوق كتفها ناحية رائد الفضاء شاحب اللون واعتذرت إليه راجفة: «أوه، أنا في غاية الأسف. إنها مريضة، لا بُد أنها سارت في أثناء النوم! إنها لا تعي ما تقول!».

ثم سمعت داير يقول لأحدهم: «يا للمسيح! رُبَّما ينبغي علينا الرحيل».

هتفت كريس إليه: «لا، لا، ابقوا! الأمر على ما يُرام! سأعود خلال دقيقة!».

توقَّفت كريس عند باب المطبخ المفتوح، وأعطت تعليمات إلى ويلي أن تعتني بالسجَّاد قبل أن تجف الرقعة ويتعذَّر محوها، ثم أخذت ريجان إلى حوض استحمامها في الدور العلوي، وحمَّمتها وبدَّلت لها ملابسها. «حبيبتي، لِمَ قُلتِ هذا؟»، كرَّرت كريس عليها السؤال أكثر من مرَّة، لكن لم يبدُ على ريجان الفهم، وبعينين شاخصتين إلى الفراغ، أخذت تُتمتم بسيلٍ من كلمات لا معنى لها.

وضعتها كريس في الفراش، وعلى الفور بدا أنَّ ريجان راحت في النعاس. انتظرت كريس إلى جوارها، مُستمعة إلى تنفُّسها المنتظم لبُرهة، ثم غادرت الغرفة بصمت.

أسفل الدرج، قابلت كريس شارون ومخرج الوحدة الثانية الشاب يساعدان دينينجس في مغادرة غرفة المكتب. كانا قد اتَّصلا بسيَّارة أجرة كي تشحنه إلى جناحه في فندق چورج تاون إن.

- «على رِسلكُما»، قالتها كريس لهما وهما يغادران المنزل مُمسكين بدينينجس، بينما ذراعاه مُرتخيتين فوق كتف كل واحد منهما. غمغم دينينجس واعيًا بالكاد: «اللعنة»، ثم انزلق عبر الضباب إلى السيَّارة المُنتظرة.

عادت كريس إلى غرفة المعيشة حيث ضيوفها، الذين أظهر جميعهم تعاطفهم معها في أثناء روايتها لأخبار مرض ريجان. وعندما أتت إلى ذكر أصوات النقر وظواهر «لفت الانتباه» لاحظت كريس أن الوسيطة الروحانية تُحدِّق إليها بإمعانٍ شديد. عند نقطة مُعيَّنة نظرت إليها كريس متوقِّعة منها التعليق، لكن بيرين لم تتفوَّه بشيء، وواصلت كريس روايتها.

سألها داير: «هل تسير كثيرًا في أثناء النوم؟».

- «لا، الليلة هي الأولى. أو على الأقل، الأولى التي لديَّ علمٌ بها. أظن أن للأمر علاقة بمسألة النشاط الزائد، ألا تظن ذلك؟».

قال القس: «أوه، حقًّا لا أعلم. لقد سمعت أن السير خلال النوم شائع مع بداية المراهقة، فيما عدا ذلك...» هزَّ كتفيه وتوقَّف لبرهة قبل أن يُردف «لا أعلم. من الأفضل أن تستشيري طبيبك».

خلال ما تبقَّى من النقاش، حافظت السيِّدة بيرين على صمتها، واستمرَّت في مُراقبة الشعلة المُتراقصة المُتَّقِدة في مدفأة غرفة المعيشة. لاحظت كريس أيضًا أن رائد الفضاء كان يُظهر هدوءًا مُماثلًا. ينظر إلى أسفل ناحية مشروبه، ويصدر أصواتًا خفيضة بين الحين والآخر تُبيِّن اهتمامه وانتباهه لما يُقال. إن رحلته المُرتقبة إلى القمر قد جُدولت خلال هذا العام.

- «حسنًا، كما قُلت، ذلك القُدَّاس ينتظرني».

قالها العميد وهو ينهض كي يُغادر، ممَّا حثَّ الجمع على رحيلٍ عام. نهض الجميع مُعربين عن امتنانهم للعشاء والأُمسية.

بالقرب من الباب، أمسك الأب داير يد كريس على نحوٍ جاد وسبر عينيها مُتسائِلًا: «أتظنين أنه يوجد دورٌ شاغر في أحد أفلامك لقسٍ قصير القامة جدًّا وبارع في عزف البيانو؟».

قالت كريس ضاحكة: «حتَّى إن لم يوجد، سأوصِّي أن يُكتب واحد خصِّيصًا لك يا أبت».

ودَّعته كريس وتمنَّت له ليلة دافئة وسعيدة.

كانت ماري چو بيرين وابنها آخر المُغادرين. حاولت كريس تعطيلهما عند الباب ببعض الثرثرة واللغو الفارغ. كان لديها شعور بأن الوسيطة تحجب فكرة ما في عقلها. لتُرجئ رحيلها، سألتها كريس عن رأيها في استخدام ريجان المُفرط للوح الويچا، وتعلُّقها برفيقها المزعوم القبطان هاودي.

سألت كريس: «أتظنين أن الأمر ينطوي على أيِّ ضرر لها؟».

ولأن كريس كانت تتوقَّع منها انصرافًا لا مُباليًا ولطيفًا، تفاجأت بشدَّة عندما قطَّبت السيِّدة بيرين جبينها وخفضت عينيها إلى أسفل. بدا أنها تُفكِّر، ثم بالوضعية نفسها، خطت المرأة إلى خارج الباب وانضمَّت إلى ابنها، الذي كان ينتظرها عند المدخل.

وعندما رفعت رأسها أخيرًا، كانت عيناها غائمتين.

قالت برفق: «لو كنت مكانكِ لأخذته بعيدًا عنها».

ثم ناولت مفاتيح السيَّارة إلى ابنها قائلة: «بوبي، شغِّل السيَّارة، الجو بارد».

أخذ الفتى المفاتيح، وأخبر كريس مُحرجًا أنه أحبَّها في جميع أفلامها، ثم سار مُبتعدًا في سرعة مُتَّجِهًا إلى سيَّارة موستانج قديمة وبالية تقف في نهاية الشارع.

كانت عينا أمه لا تزالان غائمتين.

قالت المرأة ببطء وبصوتٍ هادئ: «أنا لا أعرف ماذا تظنين بي. أُناسٌ عديدة تربط بيني وبين الروحانية. لكن هذا غير صحيح. أعتقد بالطبع أن

لديَّ هبة. لكنها ليست التنجيم. في الحقيقة، بالنسبة إليَّ الأمر يبدو طبيعيًا تمامًا. كوني كاثوليكية، فأنا أؤمن بأننا جميعًا نضع قدمينا بين عالمين. تلك القدم التي نعي وجودها تحتل دنيانا الزائلة، لكن بين الحين والآخر يتلقَّى شخصٌ غريب الأطوار مثلي بصيصًا من القدم الأخرى.. وتلك.. أعتقد أنها في عالم الأزل. حيث لا وجود للزمن، وحيث الماضي والمُستقبل يشكِّلان معًا حاضرًا مُمتدًا. لذا بين الفينة والأخرى، عندما أستشعر تنميلًا في القدم الأخرى، أؤمن بأنني أرى المستقبل. ورغم ذلك، من يدري، قد لا يكون الأمر كذلك» قالتها وهي تهزُ كتفيها «حسنًا، أيًا كان. الآن بخصوص التنجيم» وتوقَّفت لبُرهة مُنتقية كلماتها بعناية «التنجيم يختلف. ولقد حرصت على الابتعاد عنه. أظن أن التجريب فيه قد يكون خطرًا. وهذا يتضمَّن العبث مع لوح ويچا».

حتَّى هذه اللحظة، كانت كريس تظنها امرأة حصيفة وحسنة التمييز. لكن شيئًا ما في أسلوبها الآن سبَّب لكريس شعورًا زاحفًا مُنذرًا بشرٍّ. لذا حاولت تهوين الأمر.

قالت بابتسامة: «أوه، رويدك يا ماري چو. ألا تعرفين كيف تعمل ألواح الويچا تلك؟ إنها لا شيء سوى عقل الشخص اللا واعي. هذا كل ما في الأمر».

أجابتها بيرين: «نعم. رُبَّما. مُحتمل. الأمر برُمَّته قد يكون إيحاءً ذاتيًا. لكن في القصة تلو الأخرى التي أسمعها عن جلسات تحضير الأرواح، وألواح الويچا، وكل تلك الأمور... إنها تبدو دائمًا يا كريس وكأنها تُشير لانفتاح بوَّابة من نوعٍ ما. أوه، صدقيني يا كريس، أنا لا أريد التصديق في عالم الروح. لكنني أفعل رغمًا عني. وإذا كُنت على حق، فرُبَّما يكون الجسر بين العالمين هو ما ذكرتيه أنت لتوِّك.. العقل اللا واعي. كل ما أقوله إن بعض الأمور يبدو أنها تحدث. ويا عزيزتي، هناك مصحَّات مجانين في كل ركن من العالم تعج بأشخاصٍ انخرطوا في أعمال التنجيم».

- «هلُمِّي يا ماري چو، أتمزحين؟ أعني، ألستِ منهم؟».

مرَّت لحظة من الصمت. ثم من جديد بدأ الصوت الهادئ يسري في حُلكة الليل.

- «توجد أُسرة عاشت في ولاية باڤاريا في عام 1921. لا أتذكَّر اسمها، لكنها كانت مكوَّنة من أحد عشر فردًا. أظن أن بإمكانكِ تقصِّي الأمر من الصُحُف. فقط بعد مرور وقت قصير من محاولتهم عقد جلسة تحضير أرواح، فقدوا عقولهم جميعًا. كل واحد من الأحد عشر شخصًا انغمس في نوبة جنون عارمة، ثم أحرقوا كل شيء بالمنزل. وعندما تفحَّم الأثاث عن بكرة أبيه، بدأوا في إشعال النيران في ابن ابنتهم الصُغرى؛ رضيع عمره ثلاثة أشهر. كانت تلك اللحظة التي اقتحم الجيران فيها المكان وأوقفوهم».

ثم زفرت المرأة واختتمت روايتها قائلة: «العائلة بأكمها أُودعت في مصحَّة نفسية».

- «أوَّاه!».

شهقت بها كريس وهي تُفكِّر في القبطان هاودي، الذي بدا لها الآن تهديدًا حقيقيًّا مُستترًا. مرض عقلي. هل الأمر كذلك؟ شيءٌ ما.

- «كنت أعرف أنه ينبغي عليَّ عرضها على طبيب نفسي!».

قالت السيِّدة بيرين وهي تخطو إلى الأمام وتدخل في دائرة الضوء: «أوه، بحق السماوات! لا تكترثي لما أقول. فقط استمعي إلى نصيحة طبيبك». بدا أن هناك محاولة لطمأنتها تشيع في نبرة المرأة، لكنها لم تبدُ مُقنعة بالنسبة إلى كريس. أضافت بيرين وهي تبتسم: «إنني بارعة في التبصُّر بالمستقبل، لكن فيما يخص الحاضر فأنا لا حول لي ولا قوَّة». كانت حاليًا تتحسَّس محفظتها الصغيرة: «الآن، أين نظَّارتي؟ أترين؟ لقد وضعتها في غير مكانها. أوه، ها هي ذي». عثرت عليها ماري چو في جيب معطفها، وقالت وهي تضعها أمام ناظريها وتلقي نظرة على الواجهة العلوية من المبنى: «منزل جميل. يعطني شعورًا بالدفء».

قالت كريس: «يا للراحة الغامرة! للحظة ظننتكِ ستقولين لي إنه مسكون!».

نظرت السيِّدة بيرين إليها دون أن تبتسم.

ثم سألتها: «لماذا أقول لكِ شيئًا كهذا؟».

كانت كريس تتذكَّر صديقة لها، ممثلة شهيرة في بيڤرلي هيلز باعت منزلها لإصرارها على أنه مسكون بشبحٍ صاخب.

ابتسمت كريس في شحوب وقالت: «لا أعرف. كنت أمزح فقط».

طمأنتها السيِّدة بيرين بنبرة معتدلة: «إنه منزلٌ جيِّد وحميم. لقد أتيت إلى هنا من قبل. مرَّات عديدة».

- «حقًّا؟».

- «نعم، صديق لي امتلك المنزل من قبل، قائد أسطول في البحرية الأمريكية. أتلقَّى خطابات منه بين الحين والآخر. لقد أرسلوه مُجدَّدًا إلى البحر.. ذلك العزيز المسكين. لا أعرف إن كنت أفتقده أم أفتقد المنزل» قالتها مُبتسمة ثم أردفت «لكنكِ قد تقومين بدعوتي مرَّةً أخرى».

- «أوه يا ماري چو، لكم أحب أن أدعوكِ مُجدَّدًا. أنا أعنيها حقًّا. أنتِ شخصٌ رائع. اسمعي، هلَّا اتصلتِ بي الأسبوع القادم؟».

- «بالتأكيد، أريد الاطمئنان على حالة ابنتكِ».

- «هل معكِ الرقم».

- «أجل».

ما خطبها؟ تعجَّبت كريس. شيءٌ ما في نبرة الوسيطة لم يكن طبيعيًا.

قالت السيِّدة بيرين: «حسنًا، عمتِ مساءً. وشكرًا مرَّة أخرى على الأمسية البديعة».

نطقتها الوسيطة وبدأت تجدُّ في السير مُسرعة عبر الشارع، قبل حتَّى أن تُجيبها كريس.

راقبتها كريس ثم أغلقت الباب عندما شعرت أن إنهاكًا شديدًا يتملَّكها. يا لها من ليلة! هكذا فكَّرت كريس، ليلةٌ ليلاء!

ذهبت كريس إلى حجرة المعيشة ووقفت جوار ويلي التي كانت راكعة على ركبتيها بالقرب من بقعة البول تحاول تنظيف نسيج السجاد.

تمتمت ويلي: «وضعت عليها خلًا أبيض.. مرَّتين».

- «هل تزول؟».
- «رُبَّما ستفعل الآن. لا أعرف. سنرى».
- «لن تتأكَّدي إلا حين تجف».

أجل، يا لها من عبقرية أيَّتها المخمورة. تلك مُلاحظة عبقرية منك. بحق يهوذا، اذهبي إلى الفراش يا غريرة!

- «هيا يا ويلي، دعكِ منها الآن. اذهبي ونامي».
- «لا، سأنتهي أوَّلًا».
- «حسنًا إذًا. شكرًا لكِ. تصبحين على خير».
- «عمتِ مساءً يا سيِّدتي».

خطت كريس على الدرج صعودًا وهي تصيح مُخاطبة ويلي بالأسفل: «الطعام المُبهَّر بالكاري كان رائعًا يا ويلي. لقد أحبَّه الجميع».

- «شكرًا يا سيِّدتي».

تفحَّصت كريس ريجان في غرفتها ووجدتها لا تزال نائمة. ثم تذكَّرت لوح الويجا. هل تُخفيه؟ هل تتخلَّص منه؟ أوه، إن بيرين تصير عكرة حقًّا عندما يأتي الأمر إلى هذه الأشياء. إلا أن كريس كانت تعلم أن وجود رفيق لعب خياليٍ أمرٌ ضار وغير صحي.

نعم، رُبَّما ينبغي عليَّ التخلُّص منه.

لكن رغم هذا، كانت لا تزال مُتردِّدة. وبينما هي واقفة جوار الفراش وتُحدِّق إلى ريجان، تذكَّرت الواقعة التي حدثت عندما كانت ابنتها في سن ثلاث سنوات. الليلة التي قرَّر فيها هاورد أن الفتاة أصبحت كبيرة بما يكفي لتنام بدون زجاجة الرضاعة في فمها، تلك التي اعتادت الفتاة عليها. لقد أخذها منها في تلك الليلة، واستمرَّت ريجان في الصراخ حتَّى الساعة الرابعة صباحًا، وتصرَّفت بهستيرية لأيام عديدة تلت. خافت كريس من حدوث رد فعل مماثل الآن. من الأفضل الانتظار إلى أن أحكي الأمر برمَّته للطبيب النفسي. علاوة على ذلك، فكَّرت كريس، لم يبدُ أن لعقار الريتالين أيَّ تأثير.

لذا في النهاية، قرَّرت أن تنتظر وترى.

عادت كريس إلى غرفتها، ودسَّت نفسها في الفراش بآخر ذرَّة مجهود مُتبقِّية في جعبتها، وغابت في النعاس على الفور تقريبًا. ثم استيقظت على صوت ريجان الصارخ.

- «ماما، تعالي! تعالي بسرعة! أنا خائفة».

- «أنا قادمة يا راجس! قادمة!».

ركضت كريس عبر الردهة إلى حجرة ريجان وهي تنشج وتبكي. كان في الغرفة صوت صرير حشية فراش تتحرَّك صعودًا وهبوطًا.

صاحت كريس: «أوه يا صغيرتي، ما الأمر؟».

ثم مدَّت يدها وأضاءت نور الغرفة.

بحقالمسيح القدير!

تلوَّث وجه كريس بالدموع، والتوت قسماتها من الرعب. كانت ريجان تستلقي على ظهرها وجسدها مشدود عن آخره، وتتشبَّث بحافَّتي فراشها الضيِّق.. وتصرخ.. تصرخ.

- «أماه، لماذا يهتزُّ هكذا؟ أوقفيه! أنا خائفة! أوقفيه! أرجوكِ أوقفيه يا أمي».

هكذا صاحت الفتاة، بينما مراتب الفراش تهتزُّ وتنتفض بعنف يمينًا ويسارًا.

-2-

الحافَّة

في أثناء نومنا، يتساقط الألم الذي نعجز عن نسيانه قطرة تلو القطرة فوق القلب.. وحين يبلغ اليأس ذروته، تأتينا الحكمة، رغمًا عن إرادتنا، من خلال نعمة الربِّ المُروِّعة.

- إسخيلوس

الفصل الأول

أحضروها إلى مثواها الأخير في مقبرة جماعية مُكدَّسة تعوي فيها شواهد الأضرحة طلبًا لالتقاط أنفاسها.

كانت الجنازة مُوحِشة كحياتها. لم يحضر سوى أخويها من بروكلين، والبقَّال المجاور الذي طالما تباسط معها ومدَّد رصيد ديونها. أجهشَ داميان كاريس بالبكاء بحزنٍ بالغ لطالما أبقاه في غير مَحلِّه وهو يشاهدهم يهبطون بها إلى ظلام عالم لا نوافذ له.

- «آه... ديمي.. ديمي...».

قالها له عمٌّ مواسٍ وهو يضع ذراعه حول كتفه.

- «هوِّن عليك يا ديمي. إنها في الفردوس الآن. إنها سعيدة».

آه يا إلهي، فلتكن مشيئتك! آه يا إلهي، أرجوك! آه يا إلهي، أرجوك أن تقبلها في معيَّتك!

انتظر الرجال في السيَّارة في حين تريَّث هو جوار القبر. لم يكن يطيق فكرة أنها وحيدة.

في أثناء قيادتهم رجوعًا إلى محطَّة بنسلڤانيا، استمع داميان إلى حديثِ عَمِّيه عن مرضهما بلكنة المُهاجرين الكسيحة.

- «... انتفاخ رئوي... يجب أن أقلع عن التدخين... كنت على شفا الموت العام الماضي، أعلِمتَ بالأمر؟».

جاهدت موجات من الغضب الحانق لتتحرَّر من بين شفتيه، لكنه قمعها داخله شاعرًا بالخزي. نظر إلى خارج النافذة: كانوا يعبرون جوار

نزل الإغاثة الرئيسي، حيث كانت تذهب في أيام السبت في عز الشتاء القارس وتأتي باللبن وأجولة البطاطس في أثناء ما يكون هو نائمًا في فراشه، حديقة حيوان سنترال بارك، حيث اعتادت تركه في الصيف في أثناء تسوُّلها قرب نافورة المياه أمام فندق بلازا. بمرورهم من جوار الفندق، انفجر كاريس في البكاء، ثم خنق طوفان الذكريات داخله، ومسح بيده بَلَل الندم والحسرة اللاذعة. تعجَّب كاريس، لِمَ انتظر الحب داخله هذا الابتعاد، لِمَ انتظر اللحظة التي لم تعد تحتاج فيها إلى لمسة حانية، حين تقلَّصت حدود الاتِّصال وخفض جناح الذُّل إلى حجم بطاقة قُدَّاس جنائزي مطبوعة ومدسوسة داخل محفظته مطبوعًا عليها: تخليدًا للذكرى...

كان يعرف الحقيقة.. هذا الحزن الذي يعتصره قديم.

وصل إلى چورچ تاون في وقت العشاء، لكن بلا شهية. أسرع الخطى إلى داخل كوخه. جاء أصدقاؤه اليسوعيون مواسين ومُعزِّين، ومكثوا لفترةٍ وجيزة، ووعدوه بالصلاة لها. بعد العاشرة بقليل، ظهر چو داير مُتأبِّطًا زجاجة سكوتش، وعرضها عليه بفخر: «ماركة تشيفاز ريجال!».

- «كيف وفَّرت المال لشرائها. من صندوق النذور؟».
- «لا تكن أحمق، هذا سيُعدّ خرقًا لنذر الفقر».
- «من أين حصلت على المال إذًا؟».
- «لقد سرقته».

ابتسم كاريس وهزَّ رأسه وهو يخرج كوبًا وقدحَ قهوة من القصدير من حوض صغير في حمَّامه.

- «أنا أصدقك». قالها بصوتٍ أجش.
- «لم أرَ إيمانًا أعظم من هذا قط».

شعر كاريس بطعنة ألم مألوفة. لكنه نفضها عن روحه وأدار اهتمامه إلى داير، الذي كان جالسًا فوق الفراش يزيل ختم زجاجة السكوتش المُحكم. جلس كاريس بجانبه.

سأله داير: «أتريد إعفائي من ذنوبي الآن أم لاحقًا؟».

- «فقط صُبّ الشراب وسيعفي أحدنا الآخر».

ملأ داير كلًّا من الكوب والقدح عن آخرهما وهو يغمغم: «رئيس الجامعة يجب ألا يشرب الخمر. إنه بذلك يعطي قدوة سيِّئة. أحسب أنني أنقذته من إغواءٍ رهيب».

ابتلع كاريس السكوتش، لكن لا القصة. إنه يحفظ أساليب الرئيس عن ظهر قلب. إنه رجلٌ كيِّس وحسَّاس، ودائمًا ما يمنح بطرق غير مُباشرة. كان كاريس يعرف أن داير قد أتى كصديق، ولكن أيضًا كالمبعوث الشخصي للرئيس.

كان داير كريمًا معه.. جعله يضحك.. وتحدَّث عن الحفل وكريس ماكنيل.. زوَّده بنوادرَ جدُيدة عن انضباط اليسوعية الصارم. لقد شرب أقل القليل، لكنه استمر في إعادة ملء قدح كاريس، وعندما شعر أنه تخدَّر بما يكفي كي ينام، نهض من الفراش الضيِّق سامحًا لكاريس بالتمدُّد، وجلس فوق المكتب مواصلًا حديثه إلى أن أُغلق جِفنا كاريس، وأضحت تعليقاته همهمات غير مفهومة.

وقف داير وفك أربطة حذاء كاريس ونزعه عنه.

غمغم كاريس بلسانٍ ثقيل: «هل ستسرق حذائي؟».

- «لا، أنا أقرأ الطالع من خلال التجاعيد. الآن اخرس واخلد إلى النوم».

- «أنت لص يسوعي مُتسلِّق».

ضحك داير ضحكة خفيفة وقام بتغطيته بمعطف أخذه من خزانة الملابس.

- «اسمع، يجب على شخصٍ ما الاعتناء بدفع فواتير المكان. كل ما تفعلونه أنتم أيها الرفاق الآخرون هو الصلاة وهزّ مسابحكم لمدمني الخمر والمُشرَّدين في شارع إم».

لم يُعطِ كاريس جوابًا. كان تنفُّسه بطيئًا ومنتظمًا.

سار داير برفق إلى الباب وأغلق مُفتاح النور.

- «السرقة خطيئة».

هكذا غمغم كاريس في الظلام.

قال داير بنعومةٍ: «ميا كوبلا[1]».

انتظر الرجل بُرهة، ثم قرَّر في النهاية أن كاريس قد غاب في النعاس، فغادر الكوخ.

في منتصف الليل، استيقظ كاريس باكيًا. لقد حلم بأمه. كانت تقف بالقرب من واجهة عالية في مانهاتن، لقد رآها تخرج من محطَّة قطار الأنفاق. توقَّفت عند الحاجز وهي تحمل حقيبة تسوُّق بُنِّية من الورق وتبحث عنه وهي تُنادي باسمهُ. لوَّح كاريس لها. لكنها لم تره. هامت على وجهها في الشارع المُزدحم بالحافلات والشَّاحنات والجموع غير الودود. كانت تبدو خائفة. عادت إلى سُلَّم محطَّة قطار الأنفاق وبدأت في الهبوط.. وعندما غابت عن بصره ولم ينجح في العثور عليها، ومع تخيُّلهُ لها ذاهلة لا حول لها ولا قوَّة في متاهة الأنفاق تحت الأرض، جُن جنون كاريس، وركض عبر الشارع باكيًا وهو ينادي اسمها.

انتظر كاريس قليلًا كي يهدأ نحيبه، ثم مدَّ ذراعه مشوَّشًا باحثًا عن زجاجة السكوتش. جلس فوق الفراش الضيِّق يحتسي الخمر في الظلام. جاءتهُ الدموع قاهرة، مدرارة لا تتوقَّف. ذكَّره الأمر بطفولته.. هذا الحزن. تذكَّر المُكالمة الهاتفية من عمِّه:

- «ديمي، تلك الوذمة[2]، لقد أثَّرت على مُخِّها. إنها لا ترغب في السماح لأيِّ طبيب بالاقتراب منها. فقط لا تنفك عن الصراخ بأشياء. ديمي، إنها تتحدَّث إلى المذياع اللعين. يجب أن نذهب بها إلى بالڤيو

(1) إقرار رسمي بالخطأ أو الذنب. Mea Culpa عبارة لاتينية وتعني «الذنب ذنبي» أو «هذا خطئي».

(2) حالة مرضية، عبارة عن تجمع سائل زائد داخل نسيج عضو معين داخل الجسم، يعرف أيضًا بالاستسقاء.

يا ديمي. المُستشفى العادي لن يقبلها بحالتها تلك. أظن أنها بعد شهرين هناك ستستعيد عقلها من جديد، ثم سنُخرجها من هناك. حسنًا؟ اسمعني يا ديمي، لقد رتَّبنا الأمر بالفعل. لقد أعطوها حُقنة ثم أخذوها في سيَّارة الإسعاف هذا الصباح. لم نرغب في إزعاجك، لكن ستكون هناك جلسة استماع في المحكمة وسيتعيَّن عليك توقيع بعض الأوراق. ماذا؟ مُستشفى خاص؟ من يملك المال اللازم لذلك يا ديمي؟ أنت؟».

لم يتذكَّر كاريس كيف ولا متى غاب في النوم من جديد.

استفاق مشوَّشًا، مع ذكرى شبحية عن رشوح الدَّم من دماغه. هرع إلى دورة المياه، وحلق ذقنه واستحمَّ، ثم ارتدى ثياب الكهنوت. كانت الساعة الخامسة والنصف وخمس دقائق. فتح الباب المُفضي إلى كنيسة الثالوث المُقدَّس، ووضع عليه ثوب المراسم، وقدَّم قُدَّاسًا في المذبح على الجانب الأيسر.

صلَّى في يأسٍ قاتمٍ مُتمتمًا: «ميمنتو إتيام[1]... تذكَّر أمتك، ماري كاريس...».

عند باب خِباء المذبح شاهد وجه مُمرِّضة مصحَّة بالڤيو للأمراض العقلية مُقبِلًا، وسمع من جديد الصرخات الآتية من غُرفة العزل.

- «أنت ابنها؟».

- «نعم، أنا داميان كاريس».

- «حسنًا، لو كنت مكانك لما دخلت إليها الآن. إنها تُعاني نوبة».

نظر كاريس عبر الكوَّة إلى الغرفة عديمة النوافذ، ذات المصباح العاري المُدلَّى من السقف، والحوائط المُبطَّنة، والأثاث المعدوم إلا من فراشٍ صغير تتكوَّم أمه فوقه وهي تهذي وتُخرِّف وتعصف بعنف.

- «إننا نُصلِّي إليك. امنحها السكينة ومكانًا مُريحًا، واغمرها بالضوء والسلام...».

---

(1) باللاتينية Memento etiam: تذكَّر أيضًا.

عندما رأته وتلاقت عيناهما، صمتت على الفور، ثم نهضت من الفراش وسارت ببطء إلى كوَّة المُراقبة الزجاجية المُستديرة، وعلى وجهها تعبيرٌ حائر ومُتأذٍّ.

- «لِمَ فعلت ذلك يا ديمي؟ لِمَ؟».

كانت عيناها أكثر وداعة من أعين الحِملان.

غمغم كاريس وهو يُخفِض رأسه ويضرب صدره بقبضته: «أنيوس داي[1].. أيا حمل الله الذي رفع آثام العالم، امنحها الراحة...». بعد لحظات، عندما أغلق عينيه وحمل خبز المذبح، شاهد أمه في غرفة الاعتراف، كانت يداها الصغيرتان هامدتين فوق ساقيها وتتشابكان بلطف، وتعبير الحيرة والخنوع يغزو وجهها وهي تستمع إلى القاضي الذي يُفسِّر لها تقرير الطبيب النفسي من مصحَّة بالڤيو.

- «ماري، هل تفهمين ما أقول؟».

أومأت برأسها، ولم تجرؤ على فتح فمها. لقد سلبوها طقم أسنانها.

- «حسنًا، ما قولك بخصوص الأمر يا ماري؟».

أجابته بفخر: «ولدي، هو يتحدَّث نيابةً عني».

فلتت أنَّةٌ معذَّبة من بين شفتي كاريس وأحنى رأسه فوق الخبز. ضرب صدره بعنفٍ كما لو أنهُ السنوات التي يُريد أن يسترجعها، وغمغم: «يا رب، أنا لست أهلًا أن تدخل تحت سقفي، فقط قُل كلمة، وستبرأ روحي».

ضد كل منطق، وضد كل معرفة، كان يُصلِّي رغبةً في أن يوجد ثمة شخصٌ ما يسمع صلاته.

مكتبة الرمحي أحمد

لكنه لم يكن يُصدِّق.

بعد انتهاء القُدَّاس، عاد إلى الكوخ وحاول النوم، لكن بلا طائل.

في وقتٍ لاحق من الصباح، عرج عليه قسٌّ شاب لم يره من قبل دون ميعاد مُسبق. طرق الباب ونظر إلى الداخل عبر الباب الموارب. «أأنت

---

(1) باللاتينية Agnus Dei: حمل الله.

مشغول؟ هل يمكنني أن أُحادثك قليلًا؟». في عينيه عبٌ لا يهدأ. وفي صوته توسُّلٌ مُلِح. بغضهُ كاريس ونَفَرَ منهُ على الفور.

ثم قال بهدوء: «ادخل»، بينما يحتدم في داخله غضبٌ عارم من هذا الجزء من كيانه الذي كثيرًا ما يجعله عاجزًا أمام نداء شخصٌ ما، الجزء الذي لا يستطيع التحكُّم فيه، الذي يقبع داخله ملفوفًا كحبلٍ طويل، ينتظر استغاثة أحدهم ليُحرِّر نفسه ويهب لمساعدته. هذا الجزء لَم يكن يمنحه السكينة، ولا حتَّى في أثناء النوم. عند حواف أحلامه، كان يسمع دائمًا صوتًا يبدو كصرخة خافتة بعيدة من شخصٍ ما في محنة، ولمدة دقيقة بعد استيقاظه، كان يستشعر القلق ووخز الضمير من جرَّاء واجب ما لم يَوفِ به.

دلف القس الشاب المكان مُتردِّدًا، ومُتعثِّرًا، ويبدو عليه الحرج. قاده كاريس بأناةٍ. وقدَّم له لفافات التَّبغ، وقهوة سريعة التحضير. ثم أجبر نفسه على إظهار نظرة اهتمام تبدو صادقة عندما كشف الزائر الشاب مُتقلِّب المزاج النقاب تدريجيًّا عن مُشكلة مألوفة: الشعور الرهيب بالوحدة الذي يلُفُ الرُهبان.

من بين كل دواعي القلق التي مرَّت بكاريس بين مجتمع القساوسة، تلك تحديدًا أصبحت الأكثر انتشارًا. الانقطاع عن العوائل كما الانقطاع عن النساء. يسوعيون عديدون كانوا يخافون أيضًا من إظهار المودَّة لزملائهم وأبناء الكهنوت، كانوا يخشون إقامة صداقات حانية وعميقة المشاعر.

- «مثلًا، أشعر أحيانًا أنني أريد أن أضع ذراعي حول كتف أحد الزملاء، لكنني سريعًا ما أحجم خوفًا من أن يُظَنَّ بيَّ الظنون. أعني، أنت تسمع كل تلك القصص عن العديد من مثليي الجنس المُتخفِّين الذين ينجذبون إلى أخوية الكهنوت. لذا أنا أحجم عن الأمر فحسب. أنا حتَّى لا أذهب إلى حجرة أحدهم للاستماع إلى التسجيلات، أو تبادل الحديث، أو حتَّى للتدخين. الأمر ليس أنني خائفًا من أحدهم، أنا فقط أكون قلقًا من أن يبدأ هو في القلق بخصوصي».

شعر كاريس بالثِّقَل ينتقل ببطء من القس الشاب إليه. هو من دعاه للدخول، هو من سمح له بالكلام. كان يعرف أنه سيعود إليه مرارًا وتكرارًا ليلتمس بعض الراحة من شعوره بالانعزال والوحدة، ليجعل من كاريس صديقًا له، وعندما يُدرك أنه فعلها دون خوف أو ارتياب، رُبَّما سيتشجَّع ويبدأ في عقد صداقاتٍ مع الآخرين.

مع تزايد شعوره بالسأم، وجد كاريس نفسه ينجرف إلى حُزنهِ الخاص. رمق اللوحة التي أعطاها إياه أحدهم في عيد الميلاد المجيد السابق: أخي يتألَّم. أُشاطرهُ ألمه. أُلاقي الله فيه. لقاءً مُخفِقًا. لام كاريس نفسه. لقد مهَّد الطرق لعذاب أخيه، لكنه لم يذرعها بنفسه قط، أو هكذا يعتقد. كان يظن أن الألم الذي استشعره ألمه الخاص.

في النهاية نظر الزائر إلى ساعته. لقد حان وقت الغداء في قاعة طعام الحرم الجامعي. نهض من مكانه وتهيَّأ للمغادرة، ثم ألقى نظرة إلى غلاف الرواية القابعة على مكتب كاريس.

قال له: «أوه، لديك رواية الظلال».

سأله كاريس: «هل قرأتها؟».

هزَّ القس الشاب رأسه وقال: «لا، لم أفعل. أتنبغي عليَّ قراءتها؟».

قال كاريس كاذبًا: «لا أعرف. لقد انتهيت منها لتوِّي ولست مُتأكِّدًا من كوني فهمتها تمامًا».

ثم التقط الكتاب وناوله إياه مُردفًا: «أترغب في استعارته؟ أنا حقًّا أرغب في سماع رأي شخصٍ آخر».

قال اليسوعي وهو يتفحَّص النسخة من الطيَّة الداخلية للغلاف الواقي من الغبار: «أوه، حسنًا، بالتأكيد. سأحاول إعادتها لك في خلال يومين».

بدا أن مزاجه أصبح أكثر إشراقًا.

مع ارتفاع صوت صرير الباب الخارجي الذي أعلن رحيل القس الشاب، شعر كاريس بالراحة، والسلام. التقط كتاب الصلوات والأدعية وخرج إلى الفناء، حيث أبطأ من خُطاه وهو يتلو الأذكار والأدعية اليومية.

بعد الظهيرة، كان لا يزال لديه زائر آخر، راعي أبرشية كنيسة الثالوث المُقدَّس المُسِنّ، الذي جذب مقعدًا قُرب المكتب وقدَّم التعازي لوفاة والدة كريس.

قال بصوتٍ لا يخلو من لهجة أيرلندية ومُنغَّم كالصفير: «لقد صلَّيت من أجلها أكثر من مرَّة يا داميان، وصلَّيت لك أيضًا».

- «هذا اهتمام كبير منك يا أبت. أشكرك شكرًا جزيلًا».

- «كم كان عمرها؟».

- «سبعون سنة».

- «آه، حسنًا، هذا عمرٌ مديد جيِّد».

اعترت كاريس رجفة خافتة من الغضب. أوه، حقًّا؟

نقل بصره إلى بطاقة مذبح يحملها راعي الأبرشية معه، واحدة من ثلاث تُستخدم في طقوس القُدَّاس. كانت مُغلَّفة بطبقة من البلاستيك ومكتوبًا عليها جُزء من الصلوات التي يتلوها الكاهن. تعجَّب كاريس من سبب إحضار راعي الأبرشية لها، لكن سرعان ما جاءت الإجابة.

- «حسنًا يا داميان. لقد وجدنا واحدة أخرى من تلك الأشياء اليوم في الكنيسة. تعرف ما أقصد. المزيد من أعمال التدنيس».

أخبره راعي الأبرشية أن تمثال العذراء مريم المُنتصب في مذبح الجانب الأيسر قد طُلِيَ بالألوان لتبدو كمتبرّجة، ثم ناول كاريس بطاقة المذبح التي تُستخدم كمرجع في أثناء تلاوة الصلوات مواصلًا: «وبعدها، وُجِدت هذه مُباشرةً بعد مُغادَرَتك إلى نيويورك. أكان يوم السبت؟ نعم، نعم، كان كذلك. حسنًا، ألقِ نظرةً عليها، هلَّا تفضَّلت؟ لقدت تحدَّثت لتوي مع رقيب شُرطة، و... آه... حسنًا، لا تشغل بالك بذلك الآن. هلَّا ألقيت نظرة على البطاقة من أجلي يا داميان؟».

بينما تفحَّص كاريس البطاقة، شرح راعي الأبرشية أن أحدهم دسَّ ورقة مطبوعة تحت الغلاف. النص البديل -رغم أنه مليء بالشطب والأخطاء المطبعية والإملائية- كان مكتوبًا بلاتينية فصيحة وواضحة، ويصف

بتفصيلٍ دقيقٍ وفاحشٍ لقاء جنسٍ مثلي مُتخيَّل ومُمَارسَات سحاقية ماجنة تشمل مريم المجدلية والعذراء مريم المُباركة.

- «هذا يكفي الآن، لا تتحتَّم عليك قراءته كله».

قالها راعي الأبرشية وهو ينتزع البطاقة من يده كما لو أنه يخشى أن الأمر رُبَّما ينطوي على خطيئة. «طيِّب تلك لُغة لاتينية مُمتازة. أعني، إنها لا تخلو من أسلوبٍ رشيق. أسلوب كنيسة لاتينية. المُهم، الرقيب قال إنه تحدَّث إلى صديقٍ له، طبيب نفسي، وقد قال له إن الشخص الذي يرتكب كل تلك الأفعال، حسنًا، قد يكون قِسًّا، تعرف ما أقصد، قس مُعتلّ تمامًا. هل يمكن أن يكون مُحِقًّا؟».

فكَّر كاريس لبُرهة، ثم أومأ برأسه: «نعم، قد يكون كذلك. يتصرَّف بدافع التمرُّد، رُبَّما في حالة سرنمة[1] كاملة. لا أعرف يقينًا. لكن نعم، بالتأكيد، قد يكون الأمر كذلك».

- «هل يمكنك التفكير في أيِّ مُرشَّحين مُحتملين يا داميان؟».

- «لا أفهم ما ترمي إليه».

- «حسنًا، الآن، عاجلًا أو آجلًا سيأتون لرؤيتكم، ألست معي في ذلك؟ أعني، من بهم عِلَّة في الحرم الجامعي، إذا وُجِد أيُّهم. أتعرف أيَّ مُشتبه بهم يا داميان؟ أعني من يُظهِرون هذا النوع من الاعتلال».

- «لا يا أبت، لا أعرف».

- «لا، لا. لم أكن أعتقد أنك ستخبرني».

- «لا، لم أكن سأفعل، لكن علاوة على ذلك، السرنمة يا أبت وسيلة لتبديد أو تسوية أيِّ حالات صِراعٍ داخلي مُحتملة. والصورة المُعتادة لتلك التسوية تكون رمزية. لذا حقًّا لم أكن لأعرف. وإذا كان الفاعل بالفعل سائرًا في نومه، سيكون مُصابًا في الغالب بفُقدان ذاكرة رجعي كامل بخصوص ما فعله، حتَّى إنه لن يملك أدنى فكرة عن الأمر».

---

(1) حالة «المشي نومًا»، وتُسمَّى أيضًا روبصة.

سأله الراعي حَذِرًا: «ماذا لو أنت موجودٌ لتُخبره بذلك؟». لاحظ كاريس أنه يقولها وهو يمسك شحمة أذنه برفق.. لفتته المُعتادة كلما ظن أنه يُراوغ.

قال كاريس: «لا أعرف أحدًا ينطبق الوصف عليه».

- «نعم، أرى هذا. حسنًا، كما توقَّعت».

قالها ونهض وبدأ يتحرَّك نحو الباب وهو يستطرد: «أتعرف مثل من تتصرَّفون يا معشر الرفاق؟ مثل القساوسة!».

في أثناء ما ضَحِكَ كاريس بخفوتٍ، عاد راعي الأبرشية وترك بطاقة المذبح على مكتبه. «أفترض أنك تستطيع تدبُّر هذا الشيء؟ اجتهد». قالها وهو يستدير على عقبيه عائدًا في طريقه مرَّةً أخرى بكتفين مُحدَودِبَين من جراء تقدُّم العمر.

سأله كاريس: «هل تفحَّصوا بصمات الأصابع؟».

توقَّف الراعي المُسِنُّ ونظر خلفه قائلًا: «أوه، أشك في ذلك. فرغم كل شيء، تلك التي نسعها وراءها ليست جريمة، أليس كذلك؟ الأرجح أنه ليس سوى أحد أبناء الرعية المخابيل. ماذا تعتقد يا داميان؟ هل تظن أنه قد يكون شخصًا ما في الأبرشية؟ أتعرف، لقد بدأت أظن ذلك الآن. من فعلها ليس قِسًّا على الإطلاق. إنه شخصٌ ما وسط أبناء الرعية».

كان يجذب شحمة أذنه مرَّة أخرى وهو يقول: «ألا تظن ذلك؟».

- «لا أعرف يا أبت».

- «لا، لا. لم أعتقد أنك ستخبرني».

لاحقًا في ذلك اليوم، أُعفيَ كاريس من مهامِّه كمستشار، وانتُدِب إلى كلية الطب في جامعة چورچ تاون كمُحاضر في الطب النفسي. طُلِبَ منه أن يستريح.

الفصل الثاني

استلقت ريجان على ظهرها فوق فراش الفحص في عيادة دكتور كلاين وكل من ذراعيها وساقيها ممدودة إلى الخارج. أمسك كلاين قدمها بكلتا يديه، وثناها باتجاه الكَّاحل، وضغط عليها بقوَّة لبُرهة، ثم حرَّرها فجأة. عادت القدم إلى وضعها الطبيعي. كرَّر الطبيب الإجراء أكثر من مرَّة لكن دون أيِّ تفاوت في النتيجة. بدا عليه الاستياء. وعندما اعتدلت ريجان في جلستها فجأة وبصقت في وجهه، أمر الممرِّضة بمُلازمتها في الغرفة، ثم عاد إلى مكتبه للتحدُّث إلى كريس.

اليوم هو السادس والعشرون من أبريل. لقد كان خارج المدينة خلال يومي الأحد والإثنين، ولم تتمكَّن كريس من الوصول إليه إلا صباح اليوم، وقد قصَّت عليه الواقعة التي حدثت في الحفل، وارتجاف الفراش الذي لحق ذلك.

- «هل كان يتحرَّك حقًّا؟».

- «كان يتحرَّك».

- «كم استغرق الأمر؟».

- «لا أعرف. رُبَّما عشر، أو خمس عشرة دقيقة. أعني، هذا كل ما رأيته أنا. ثم بعدها تيبَّس جسدها تمامًا بشكلٍ ما وبلَّلت الفراش. أو رُبَّما تكون قد بلَّلته قبلها.. لا أعرف. لكنها سقطتْ نائمة مُباشرةً بعدها ولم تستيقظ حتَّى عصر اليوم التالي».

دخل كلاين مكتبه وهو يُفكِّر بعمق.

- «حسنًا. ما الأمر؟». هكذا سألته كريس. كانت نبرتها قَلِقَة. عندما أتته في المرَّةِ الأولى، ذكر لها أنه يشتبه بأن اهتزاز الفراش تُسبِّبُهُ نوبة تقلُّصات رَمَعِية، حالة من انقباض العضلات واسترخائها بالتناوب، وأن الشكل المُزمن المُتكرِّر لمثل هذه الحالة هو الرَمَعْ، والذي غالبًا ما يُشير إلى وجود ضرر في المخ.

- «حسنًا، الاختبار نتيجته سلبية».

قالها لها ثم وصف الإجراء، مُفسِّرًا أنه في حالات الرَمَع فإن ثني القدم وتحريرها بالتناوب من المُفترض أن يُحفِّز سلسلة من الانقباضات الرَمَعِية. لكن مع جلوسه إلى مكتبه، بدا القلق باديًا على وجهه.

سألها: «هل سقطت من قبل قط؟».

- «تقصد على رأسها مثلًا؟».

- «حسنًا، أجل».

- «لا، على حد علمي لا».

- «هل أُصيبت بأيٍّ من أمراض الطفولة؟».

- «المُعتاد: الحصبة والنُكاف والجُديري المائي».

- «ألديها تاريخ مرضي في المشي في أثناء النوم؟».

- «ليس حتَّى الآن».

- «الآن؟ هل مَشَت في الحفل وهي نائمة؟».

- «حسنًا، نعم. ظننت أنني أخبرتك. إنها لا تزال لا تعلم ما فعلته تلك الليلة. وتوجد أمورٌ أخرى أيضًا لا تتذكَّرها».

عادت ذكرى مُعيَّنة إلى عقل كريس. ريجان نائمة، وها هي مُكالمة هاتفية من الخارج من هاورد.

- «كيف حال راجس؟».

- «شكرًا جزيلًا لاتِّصالك بها في عيد ميلادها».

- «كنت عالقًا في يختٍ وسط البحر. لا تلوميني بحق المسيح! لقد اتَّصلت بها في اللحظة التي وصلت فيها الفندق».

- «أوه، نعم. بالتأكيد».
- «ألم تُخبرك؟».
- «أتحدَّثت إليها؟».
- «نعم. لهذا ظننت أنه من الأفضل أن أتَّصل بكِ. ما الذي يحدث لها بحق الجحيم يا كريس؟».
- «ماذا تقصد؟».
- «لقد نعتتني لتوِّها بـ «لاعق أعضاء ذكرية» وأغلقت السمَّاعة».

في أثناء ما كانت تسرد الواقعة لكلاين، أوضحت كريس أنه عندما استفاقت ريجان أخيرًا، لم تكن تتذكَّر المُكالمة الهاتفية ولا ما حدث في أمسية العشاء.

وضع كلاين فرضية: «إذًا رُبَّما لم تكن تكذب بخصوص مسألة تحريك الأثاث».
- «لا أفهمك».
- «حسنًا. لنقل إنها رُبَّما حرَّكته بنفسها في أثناء تلك الحالة الآلية. إنها مثل حالة الوَجد أو الغشية. الشخص لا يعرف أو يتذكَّر ماذا يفعل».
- «لكن في حُجرتها ذلك المكتب الثقيل جدًّا المصنوع من خشب الساج. لا بد أنه يزن نصف طن. أعني، كيف تمكَّنت من تحريك هذا الشيء؟».
- «القوَّة الاستثنائية أمرٌ شائع جدًّا في علم الأمراض».
- «أوه، فعلًا؟ كيف؟».

هزَّ كلاين كتفيه وقال: «من يدري. الآن، بخلاف ما قُلتِه لي، هل لاحظتِ أيَّ سلوك غريب آخر؟».
- «حسنًا، لقد صارت مُهملة وقذرة جدًّا».

كرَّر كلاين مُشدِّدًا: «غريب».
- «يا دكتور، بالنسبة إلى ريجان هذا غريب. أوه، انتظر لحظة الآن! انتظر! نعم، ذلك الأمر: هل تذكُر لوح الويجا الذي اعتادت أن تلعب به؟ القبطان هاودي؟».

أومأ الطبيب الباطني وقال: «رفيقها الخيالي».

- «حسنًا، الآن تستطيع سماعه».

انحنى الطبيب إلى الأمام عاقدًا ذراعيه فوق سطح المكتب، وقال مُضيِّقًا عينيه وبطريقة مُتأهِّبة: «تستطيع سماعه؟».

- «نعم، البارحة صباحًا، سمعتها تتحدَّث مع هاودي في غرفة نومها. أعني، كانت تتكلَّم، ثم تسكُت، كما لو أنها تلعب بلوح الويچا. لكن عندما اختلست النظر داخل الغرفة لم يكن يوجد أيُّ لوح ويچا، فقط راجس، وكانت تومئ برأسها يا دكتور، كما لو أنها توافق على ما يقول».

- «هل بدأت في رؤيته؟».

- «لا أظن ذلك. كانت تُميِّل رأسها إلى جانبها نوعًا ما، وهي الإيماءة التي تصدر منها وهي تستمع إلى الأغاني».

أومأ الطبيب برأسه مُستغرِقًا في التفكير: «نعم، نعم. فهمتك. ألاحظتِ أيَّ ظواهر أخرى كهذه؟ هل ترى أشياءأشياء؟ تشُم أشياءأشياء؟».

تذكَّرت كريس: «الرائحة، نعم. إنها لا تنفك عن شمِّ رائحة سيئة في غرفة نومها».

- «شيءٌ ما يحترق؟».

- «أجل، هذا صحيح! كيف عرفت ذلك؟».

- «حسنًا، أحيانًا يكون هذا عرضًا لنوع من الاضطراب في نشاط المخ الكهروكيميائي. في حالة ابنتك، الاضطراب يقع في الفص الصدغي. هنا، أترين» قالها وهو يضع إصبعه مُشيرًا إلى مُقدِّمة الجمجمة «في الجزء الأمامي من المخ. هذا الاضطراب يُسبِّب في أحيانٍ نادرة هلوسات غريبة، وتلك عادةً ما تسبق نوبة تشنُّج. أعتقد أن بسبب هذا يُظنُّ بالخطأ أنه فُصام في كثيرٍ من الأحيان. لكنه ليس فُصامًا: إنه ينتج عن تضرُّر في الفص الصدغي للمخ. وبما أن اختبار الرَمَع لم يأتِ بنتيجة حاسمة، أظن أنني أُحبِّذ إجراء اختبار EEG لها. قراءة تخطيط موجات الدماغ. الاختبار سيُطلعنا على نمط موجات مخِّها. إنه اختبار جيِّد جدًّا للكشف عن الأداء غير الطبيعي لوظائف المخ».

- «لكن، هل تظن أن هذا سبب المشكلة؟ الفص الصدغي؟»

- «حسنًا، إنها تُظهر أعراض المُتلازمة يا مدام ماكنيل. على سبيل المثال سوء هِندامها، المُشاكسة، سلوكها المُحرِج اجتماعيًا، تصرُّفاتها مسلوبة الإرادة، وبالطبع نوبات التشنُّج التي تجعل الفراش يهتز. عادةً، يتبع هذا تبوُّلٌ لا إرادي أو قيئ أو الاثنان، ثم النوم بعمقٍ بالغ».

سألته كريس: «أتريد إقامة الفحص الآن؟».

- «نعم. أعتقد أنه يجب علينا إجراؤه فورًا، لكنها ستحتاج إلى تخدير. إذا تحرَّكت أو اهتزَّت ستُفسِد النتائج. لذا، هل تسمحين لي بإعطائها خمسة وعشرين ميلليجرامًا من الليبريوم».

أجابته كريس راجفة: «بحق المسيح، افعل ما يتحتَّم عليك فعله».

رافقته كريس إلى غرفة الفحص. عندما رأته ريجان يُحضِّر إبرة الحَقَن، صرخت وملأت الغرفة بسيلٍ من الشتائم والألفاظ النابية.

توسَّلت كريس إليها: «أوه يا حبيبتي، هذا لمساعدتكِ!».

ثم أمسكت بها مُثبِّتةً إياها، بينما كلاين يُفرغ المِحقَن داخلها.

قال كلاين: «سأعود». وبينما كانت المُمرِّضة تجر عجلات جهاز تخطيط الدماغ، غادر الطبيب الغرفة لرؤية مريض آخر. عندما عاد بعد وقتٍ قصير، لم يكن عقار الليبريوم قد بدأ مفعوله بعد. بدا كلاين مُتفاجِئًا.

- «تلك جُرعة قوية تمامًا التي أخذتها». أبدى تلك الملاحظة لكريس.

حقنها بخمسة وعشرين ميلليجرامًا آخر، وغادر، ثم عاد، ليجد ريجان ليِّنة العريكة وطيِّعة الآن. ألصق أقطابًا مغموسة مُسبقًا في محلول ملحي بفروة رأسها، وقال لكريس مُفسِّرًا: «نضع أربعة أقطاب على كل جانب، هذا يتيح لنا تسجيل قراءة أمواج الدماغ من الفص الأيمن والأيسر ومن ثم مقارنتها. لماذا؟ حسنًا، الانحرافات قد تكون مهمة. على سبيل المثال، لديَّ مريض اعتاد أن يُهلوِس، كان يسمع أشياءأشياء ويرى أشياءأشياء. لقد وجدت تباينًا في أثناء مُقارنة قراءات موجات الفص الأيمن والفص الأيسر للمخ، واكتشفت أن الرجل يهلوس من جانب واحد فقط من دماغه».

قالت كريس مُندهشة: «هذا غريب!».

- «بالتأكيد هو كذلك. العين والأذن اليُسرى كانتا تعملان بشكلٍ طبيعيٍ، فقط الجانب الأيمن كان يتلقَّى رؤىً ويسمع أشياء. حسنًا، نحن مستعدُّون الآن. لنرى ما لدينا».

شغَّل كلاين جهاز قراءة مُخطَّطات الدماغ ثم أشار إلى الموجات الظاهرة على الشاشة الفلورية وقال شارحًا: «الآن، هذه صورة الجانبين مُجتمعين. ما أبحث عنه حاليًا هو «الموجات الشائكة» قالها وهو يرسم في الهواء خطوطًا مُدبَّبة «خصوصًا الموجات ذات المدى العالي جدًّا التي تأتي في مجموعات من أربعات أو ثمانيات في الثانية الواحدة. إذا وَجِدتْ تلك الموجات، إذًا فهو ضرر بالفص الصدغي».

فحص الطبيب أنماط موجات الدماغ بحرص، لكنه لم يعثر على أيِّ خلل إيقاعي، ولا نتوءات شوكية شاذَّة، ولا قباب مُسطَّحة. وعندما قارنها بالقراءات الطبيعية، أتت النتائج سلبية بدورها. قطَّب كلاين جبينه. لم يستطع الفهم. فكرَّر الفحوصات من جديد.

ولم يجد تغييرًا.

استدعى كلاين المُمرِّضة إلى الغرفة لتُعنى بريجان، وعاد إلى مكتبه بصحبة الأم. جلست كريس وقالت: «حسنًا، ما الموضوع إذًا؟».

بذراعين معقودتين إلى صدره، ومُستغرِقًا في التفكير، جلس كلاين فوق حافة المكتب وقال: «حسنًا، مُخطط موجات الدماغ كان سيثبت إنها تُعاني خللًا في الفص الصدغي، لكن غياب الخلل الإيقاعي في الموجات لا يُثبت بشكلٍ قاطعٍ إنها لا تُعاني من شيء. قد تكون هستريا.. لكن النمط قبل وبعد نوبة التشنّج لافت للنظر بشكلٍ كبير».

عقدت كريس حاجبيها وقالت: «أتعرف، أنت تواصل التلفُّظ بتلك الكلمة: «تشنّج». ما اسم ذلك المرض بالتحديد يا دكتور؟».

قال كلاين بهدوء واتزان: «حسنًا، هذا ليس مرضًا».

- «حسنًا إذًا، ماذا تُسمِّيه يا دكتور؟ أعني، تحديدًا».

- «إنه ما تعرفينهُ بالصرع».
- «آه، يا للمسيح!».
هدَّأها كلاين: «الآن، لا تجزعي. أرى أنك -مثل معظم العامة- تحملين انطباعًا مُبالغًا فيه عن الصرع، وفي الغالب مغلوطًا إلى حدٍ بعيد».
سألته كريس ناحبة: «أليس الصرع وراثيًا؟».
قال كلاين لها بهدوء: «تلك واحدة من الأساطير المنسوجة حوله. أو على الأقل، هذا ما يعتقده الأطبَّاء. انظري، عمليًا يمكن جعل أيَّ شخص يتشنَّج. فكما ترين، مُعظمنا وُلِدَ بسُدَّة مُقاومة عالية إلى حدٍ كبير ضد التشنَّجات، وبعضنا بسُدَّة مُنخفضة. لذا الفرق بينك وبين المصروع فرق في الدرجة. هذا كل شيء. مُجرَّد درجة. الصرع ليس مرضًا».
- «إذًا ما هو؟ هلوسة لعينة؟».
- «إنه اضطراب. اضطراب يمكن السيطرة عليه. وتوجد أنواعٌ عديدة منه يا مدام ماكنيل. على سبيل المثال، أنت تجلسين معي الآن، ولنقل إنكِ للحظة تُشدهين فجأة ويخلو عقلكِ ولا تستوعبين شيئًا، وتفوِّتين بعضًا ممَّا أقول. حسنًا، هذا نوعٌ من الصرع. إنها نوبة صرع حقيقية تمامًا».
- «أجل، حسنًا، لكن ليس هذا حال ريجان يا دكتور. أنا لا أُصدِّق هذا. وكيف يتسنَّى أن الأمر برمَّته بدأ يحدث فجأةً؟».
- «بانظري، معكِ حق. أعني نحن ما زلنا غير مُتأكِّدين من أن تلك حالتها. وأنا أضمن لكِ أنكِ رُبَّما تكونين مُحِقَّة منذ البداية. من المُرجَّح جدًا أن يكون الأمر بدني نفسي. لكنني أشك في هذا. ولإجابةِ سؤالكِ، أيُّ عدد من التغيُّرات في دالة المخ يمكن أن تُسبِّب تشنُّجات صرعية: القلق، أو الإرهاق، أو الضغط النفسي، أو حتَّى عزفٌ مُعيَّن على آلة موسيقية. كان لديَّ مريض لم يكن يصاب بنوبة إلا في الحافلة عندما يكون على بعد شارع واحد من منزله. حسنًا، في النهاية اكتشفنا المُحفِّز: ضوءًا مُتقطِّعًا يأتي من وراء خصاص سور خشبي أبيض وينعكس على نافذة الحافلة. الآن، في أيِّ وقت آخر من اليوم، أو إذا كانت الحافلة تسير

بسرعة مختلفة، لم يكن الرجل يصاب بالتشنُّجات. كان لديه تضرُّر في الدماغ، نُدبة في المخ سبَّبها أحد أمراض الطفولة. في حالة ابنتك، قد تكون النُدبة أمامية، في مُقدِّمة الفص الصدغي، وعندما تُضرب بواسطة نبضة كهربائية مُحدَّدة، وذات طول موجيٍّ مُعيَّن، وبشكل دوري، تُثير دفقة من ردود الفعل غير الطبيعية داخل نُقطة عميقة مُتمركزة في الفص الصدغي. هل تفهمين؟».

تنهَّدت كريس وقالت مُغتمَّة: «سأعتبر كلامك وأصدِّقه. لكنني سأخبرك بالحقيقة يا دكتور، أنا لا أفهم كيف يمكن لشخصيتها أن تتغيَّر بالكامل هكذا».

- «بالنسبة إلى اضطرابات الفص الصدغي، فالأمر شائع بشِدَّة. ويمكن أن تستمر الأعراض لأيام أو حتَّى أسابيع. وليس من النادر العثور على سلوك تدميري أو حتَّى إجرامي. تغيُّرات كبيرة تحدث في الحقيقة، لدرجة إنه منذ مئة أو مئتين سنة مضت كان الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات الفص الصدغي غالبًا ما يُشخَّصون على أنهم تحت سطوة مس شيطاني».

- «كانوا ماذا؟».

- «مُسيطر عليهم من قِبَل شيطان. تعرفين تلك الأمور. نوعٌ من التنويعة الخُرافية على انفصام الشخصية».

أغلقت كريس عينيها، وأحنت رأسها إلى قبضتها، وغمغمت في عُجالة: «أرجوك. قُل لي نبأً طيبًا».

- «حسنًا، لا تشعُري بالذعر الآن. إذا كان مرضها ضررًا بالدماغ، فهي بشكلٍ ما محظوظة. عِندها، سيكون كل ما علينا فعله هو إزالة النُدبة».

- «أوه، يا للروعة».

- «أو رُبَّما يكون الأمر مُجرَّد ضغط على المُخ. انظري، أود إجراء فحصًا لجمجمتها بالأشعة السينية. يوجد هنا طبيب أشعة في المبنى نفسه، وقد أستطيع إقناعه أن يُجري لها الفحص في التَّو. هل أتَّصل به؟».

- «اللعنة. نعم. هَاتِفَهُ. لنفعها».

هَاتَف كلاين الطبيب ورتَّب الأمر معه. أخبروه في العيادة أنهم سيستقبلونها على الفور. أغلق سمَّاعة الهاتف وبدأ في كتابة وصفة الدواء.

- «الغرفة واحد وعشرون في الطابق الثاني. سوف أتَّصل بك غدًا أو يوم الخميس. أود أخذ رأي خبير أعصاب. في الوقت الحالي، سأوقِف لها جرعات الريتالين. لنُجرِّب الليبريوم معها لفترة».

مزع الطبيب الوصفة الطبية من اللوح وناولها لكريس: «حاولي أن تظلِّي بالقرب منها يا مدام ماكنيل. في حالات السرنمة الذاهلة هذه -إذا كان الأمر كذلك- فمن المحتمل دائمًا أن تؤذي نفسها. هل غرفة نومك قريبة من غرفتها؟».

- «نعم».

- «هذا جيِّد. في الطابق الأرضي؟».

- «لا. الثاني».

- «أتوجد نوافذ كبيرة في غرفتها؟».

- «نعم واحدة. ما الأمر؟».

- «حسنًا، حاولى الإبقاء عليها مُغلقة، أو حتَّى اجعليهم يحكمون غلقها بقفل. في حالة السرنمة، قد تسقط منها. ذات مرَّة كان لديَّ...».

- «مريض». أنهت كريس عبارته بابتسامة ساخرة مُنهكة.

ابتسم كلاين ابتسامةً عريضةً وقال: «أعتقد أن لديَّ كثيرًا منهم، أليس كذلك؟».

- «نعم، واحد أو اثنان».

قالتها وأسندت رأسها إلى يدها وانحنت إلى الأمام مُفكِّرة.

- «أتعرف. لقد فكَّرت في شيءٍ آخر اللحظة فقط».

- «وما هو؟».

- «حسنًا، بعد النوبة مُباشرة، قلت إنها ستسقط نائمة على الفور. مثل ما حدث ليلة السبت. أعني، ألم تقل ذلك؟».

أومأ كلاين برأسه: «حسنًا، نعم قلت».

- «جميل. إذًا كيف في المرَّاتِ الأخرى التي أخبرتني فيها أن الفراش يهتز بدت مُستيقظة ومُستفيقة تمامًا؟».

- «أنت لم تُخبريني بذلك».

- «حسنًا، هذا ما حدث. كانت تبدو بخير. فقط جاءت إلى غرفتي وطلبت أن تنام بجواري».

- «هل حدث أيُّ بلل في الفراش؟ أو قيئ؟».

هزَّت كريس رأسها نافية: «كانت على ما يرام».

عقد كلاين حاجبيه وأخذ يقضم شفتيه برفق. وفي النهاية قال: «حسنًا، لنرى ماذا ستُظهِر الأشعة السينية».

توجَّهت كريس بريجان إلى طبيبة الأشعة وهي تشعر بالخِدر والاستنزاف، ومكثت جوارها في أثناء الجلسة، ثم اصطحبتها إلى المنزل. كانت تبدو هادئة بشكلٍ غريب من بعد الحقن الثاني، وأخذت كريس تبذل مجهودًا كي تنعشها.

- «أتريدين لعب الـ مونوبولي أو شيء ما يا حبيبتي؟».

هزَّت ريجان رأسها بوهن، ورمقت أمها بعينين زائغتين مُحملقتين في فراغٍ سرمدي، ثم قالت:

- «أشعر بنعاس كبير».

كان الصوت ينتمي إلى العالم نفسه الذي تسبُر عيناها أغواره. ثم استدارت وصعدت الدرج إلى غرفتها. لا بد أنه أثر الليبريوم، هكذا فكَّرت كريس وهي تُراقب ابنتها والقلق يعتصرها. ثم في النهاية تنهَّدت وتوجَّهت إلى المطبخ. صبَّت القهوة لنفسها وجلست إلى طرف طاولة المطبخ مع شارون.

سألتها شارون: «كيف سار الأمر؟».

- «أوه، يا للمسيح!».

بيدٍ راجفة ألقت ورقة وصفة الدواء على الطاولة وقالت: «من الأفضل

أن تتَّصلي بالصيدلية وتجلبي الدواء الموصوف هنا»، ثم أفهمتها ما قاله الطبيب «إذا وجدتيني مشغولة أو في الخارج يا شار، راقبيها جيِّدًا، هلَّا فعلتِ؟ لقد أخبرني كلاين...» ثم قطعت كلامها وقد استحضرت أمرًا فجأة.

- «لقد تذكَّرتُ شيئًا».

نهضت كريس من مكانها وصعدت إلى غرفة ريجان حيث وجدتها نائمة تحت الأغطية.

تحرَّكت كريس إلى النافذة، وأحكمت إغلاقها ثم نظرت من خلالها إلى أسفل. من موقعها البارز من جانب المنزل، كانت النافذة تطل مُباشرة على السُلَّم العمومي حاد الدرجات الذي يؤدي إلى شارع إم القابع بعيدًا في الأسفل.

يا إلهي، يجب أن أتَّصِل بصانع الأقفال فورًا!

عادت كريس إلى المطبخ وأضافت المُلاحظة إلى قائمة الأعمال اليومية التي كانت شارون تعمل عليها، وأعطت ويلي قائمة أصناف العشاء، ثم عاودت الاتِّصال بوكيل أعمالها بخصوص الفيلم الذي طُلب منها تولِّي إخراجه.

أراد الرجل أن يعرف: «ما رأيك في النص؟».

- «نعم، إنه عظيم يا إد. لنفعل الأمر. متى سيبدأ التصوير؟».

- «حسنًا، المقطع الخاص بكِ سيكون في يوليو، لذا يتحتَّم عليك البدء في التحضيرات على الفور».

- «تعني الآن؟».

- «نعم، أعني الآن. هذا ليس تمثيلًا فقط. ستنخرطين في كثيرٍ من تحضيرات ما قبل التصوير. سيتحتَّم عليك العمل مع مُصمِّم المناظر، ومُصمِّم الملابس، وفنَّاني التنميق، والمنتج، ويجب عليكِ أيضًا اختيار مُدير تصوير، ومونتير، والبدء في رسم لقطاتك على الورق. هلُمِّي يا كريس، أنتِ تعرفين ما يتطلَّبه الأمر».

زفرت كريس بتعاسة: «أوه، اللعنة!».
- «هل لديكِ مُشكلة؟».
- «نعم يا إد لديَّ. ريجان مريضة. مريضة جدًّا».
- «أنا آسف لسماع ذلك يا صغيرتي».
- «بالتأكيد».
- «ما خطبها يا كريس؟».
- «لم يعرفوا بعد. ها أنا أنتظر بعض الفحوصات. اسمع يا إد، أنا لا أستطيع تركها الآن».
- «ومن طلب أن تتركيها؟».
- «لا، أنت لا تفهم يا إد. يجب أن أمكُث معها في المنزل. إنها في حاجة إلى رعايتي. انظر، أنا فقط لا أستطيع شرح الأمر، إنه شديد التعقيد. لذا، لِمَ لا نُرجئ الأمر لفترة؟».
- «لن نستطيع. إنهم يحاولون حجز قاعة المسرح الغنائي خلال عطلة الكريسماس يا كريس. وأظنهم بدأوا الضَّغط الآن للانتهاء من التصوير مُبكِّرًا».
- «بحق المسيح يا إد، في مقدورهم الانتظار أسبوعين! بالله عليك!».
- «انظري، لقد أزعجتني طويلًا بخصوص رغبتك في الإخراج، والآن فجأة...»
- «نعم، أعرف أعرف. نعم. أنا أتوق للأمر بالفعل يا إد. أرغبه بشدَّة. لكنك يجب أن تُخبرهم أنني في حاجة إلى مزيدٍ من الوقت».
- «وإذا فعلت ذلك قد نفقد الاتِّفاق. الآن، هذا اعتقادي الخاص بالطبع. اسمعيني، إنهم لم يريدوكِ من الأساس، هذه ليست أنباءً جديدة. لقد وافقوا عليك إرضاءً لمور، وأظن أنهم إذا عادوا إليه وقالوا له إنها لم تكن متأكِّدة تمامًا فسوف يتراجع في طلبه. انظري، افعلي ما تشائين، أنا لا أهتم. الأمر لا ينطوي على مالٍ وفير إلا إذا حقَّق الفيلم نجاحًا مدويًا. لكن إذا كانت هذه رغبتك، فسأُكرِّرها عليك: إذا طلبت منهم التأجيل قد نفقد الاتِّفاق برمَّته. الآن إذًا، ماذا تريدين مني أن أخبرهم؟».

تنهدت كريس وقالت: «أوه، يا فتى!».
- «نعم، أعرف أن الأمر ليس سهلًا».
- «ليس سهلًا أبدًا. حسنًا، اسمع يا إد، رُبَّما لو...» قالتها كريس مُفكِّرة ثم هزَّت رأسها نافية «لا عليك يا إد. يجب عليهم الانتظار. ما باليد حيلة».
- «القرار قرارك».
- «أبلغني بردهم ما إن تعرفه».
- «بالتأكيد.. وآسف لمرض ابنتك».
- «شكرًا يا إد».
- «اعتنِ بنفسك».
- «وأنت أيضًا».
أنهت كريس المُكالمة وهي في حالة من الإحباط. أشعلت لفافة تبغ وقالت لشارون: «لقد تحدَّثت إلى هاورد بالمناسبة، هل أخبرتكِ؟».
- «حقًّا، متى؟ هل أبلغتِه بحالة ريجان».
- «نعم، وقلت له إنه يجب أن يأتي لرؤيتها».
- «وهل سيأتي؟».
أجابتها كريس: «لا أعرف. لا أظن».
- «لكنكِ تعتقدين أنه سيبذل جُهدًا في المحاولة».
تنهَّدت كريس قائلة: «نعم، أعرف. لكن يجب عليكِ فهم مُشكلتهُ النفسية يا شار».
- «ماذا تقصدين؟».
- «إنها كل ما دار ويدور في فلك «السيِّدة كريس ماكنيل»! راجس كانت جزءًا من الأمر. عندما دخلت حياتي خرج هو منها. أنا وراجس نتصدَّر أغلفة المجلات.. أنا وراجس نتصدَّر اللافتات الإعلانية.. الأم وابنتها.. التوأم الساحر» قالتها وهي تنفض رماد لفافة التَّبغ بنقرةٍ عصبيةٍ من إصبعها وأردَفَت «آه، أحمق، لا يعرف مقدار التشويش. إنها فوضى. من الصعب عليَّ الانخراط معه يا شار. ببساطة لا أستطيع».

أنهت كلامها ومدَّت يدها إلى الكتاب الذي تتأبَّطه شارون وقالت: «حسنًا، ماذا تقرئين؟».

قالت مُتداركة: «لقد نسيت. إنه لكِ. السيِّدة بيرين تركته».

- «هل أتت إلى هنا؟».

- «نعم، هذا الصباح. قالت إنها حزينة لأنها لم تجدك، وإنها ستكون خارج المدينة لفترة، لكنها ستُهاتفك ما إن تعود».

أومأت كريس برأسها وهي ترمق عنوان الكتاب: دراسة عن عِبادة الشيطان وما يتَّصل بها من ظواهر غيبية. فتحت كريس الكتاب لتجد مُلاحظة مُرفقة:

عزيزتي كريس،

حدث أن كنت في متجر كتب مكتبة جامعة چورچ تاون وانتقيت لكِ هذا الكتاب. إنه يحوي بعض الفصول عن القُدَّاس الأسود. لكن أرى أنه من الأفضل لكِ قراءته كله.. أظنكِ ستجدين مواضع أخرى بعينها مُثيرة للاهتمام. أراكِ قريبًا.

ماري جو.

قالت كريس: «يا لها من امرأة لطيفة».

- «نعم، هي كذلك».

تصفَّحت كريس الكتاب سريعًا وقالت: «ماذا ذَكَرَ عن القُدَّاس الأسود؟ يبدو مُعقَّدًا؟».

أجابت شارون: «لا أعرف. لم أقرأه».

- «هل منعكِ مُعلِّمكِ الروحي عن الأمر؟».

تمطَّت شارون وقالت: «لا، تلك الأمور تُثير ضجري».

- «أحقًا؟ إذًا ما حدث لعُقدة يسوع[1] الخاصة بكِ؟».

---

(1) عُقدة يسوع Jesus Complex: حالة عقلية، حيث يشعر المريض بأنه مُقدرٌ له أن يصبح مُخلِّصًا كالمسيح.

- «أوه، باللهِ عليكِ».

دفعت كريس الكتاب عبر الطاولة إلى شارون وقالت: «هاكِ، اقرئيه وأخبريني ماذا سيحدث».

- «لتعتريني الكوابيس؟».

- «ومن أجل ماذا تظنين أنكِ تتقاضين راتبك؟».

ردَّت ساخرة: «ظننت من أجل التقيؤ».

تمتمت كريس وهي تلتقط الجريدة المسائية: «أستطيع فعل ذلك بنفسي. كل ما عليكِ فعله هو أن تحشري نصائح مُدير أعمالك في حلقكِ وستتقيَّئين دمًا لمدة أسبوع» ثم نحَّت كريس الجريدة جانبًا فجأة وقالت «هلَّا فتحتِ المذياع يا شار؟ هاتِ محطَّة الأخبار».

تناولت شارون العشاء مع كريس، ثم غادرت المنزل بعدها للَّحاق بميعادٍ ما، ونست الكتاب خلفها. رأته كريس فوق الطاولة وفكَّرت في قراءته، لكنها شعرت في النهاية أنها مُنهكة تمامًا. لذا تركته فوق الطاولة وصعدت إلى الطابق الثاني. اطمأنت على ريجان التي كانت مُندسَّة تحت الأغطية ويبدو أنها ستواصل النوم طيلة الليل. تفحَّصت كريس النافذة مرَّة أخرى. إنها مُحكمة الغلق. عند مُغادرة الغرفة، حرصت كريس على أن تترك الباب مفتوحًا على اتِّساعه، وقبل أن تخلد إلى النوم في تلك الليلة فعلت الشيء نفسه مع باب غرفتها. بعدها، شاهدت جانبًا من فيلمٍ تليفزيوني، ثم غابت في النوم.

في الصباح التالي كان كتاب عِبادة الشيطان قد اختفى في ظروفٍ غامضة من فوق الطاولة.

لكن أحدًا لم يلحظ.

الفصل الثالث

علَّق طبيب الأعصاب الاستشاري صورة الأشعة السينية أمام الضوء مرَّةً أخرى، وبحث عن الحزوز التي من شأنها أن تبدو كما لو أن الجمجمة قُصِفَت كالنِحاس بمطرقةٍ صغيرة. كان دكتور كلاين يقف وراءه بذراعين معقودتين على صدره. لقد بحث كلاهما عن نُدبٍ أو تجمُّع سوائل، عن شذوذٍ مُحتمل في الغُدَّة الصنوبرية. كانا يتحقَّقان الآن من وجود علامات على تثقُّب الجمجمة، الانخسافات القحفية الواشية التي تشير إلى وجود ضغطٍ مُزمن داخل الجمجمة. لكنهما لم يعثرا عليها. كان اليوم هو الخميس 28 أبريل. خلع طبيب الأعصاب الاستشاري نظَّارته ووضعها بحرص في الجيب الصدري الأيسر لسُترته.

- «لا يوجد أيُّ شيء يا سام. لا شيء أستطيع تمييزه».

عبس وجه كلاين وأطرق بصره أرضًا وهو يهزُّ رأسه.

ثم قال: «غير منطقي».

- «أترغب في إعادة الفحص؟».
- «لا أُحبِّذ. أُفكِّر في إجراء بزلًا قَطَنيًّا».
- «فكرة صائبة».
- «في هذه الأثناء، أود رؤيتها».
- «ما رأيك، اليوم؟».
- «حسنًا، أنا...» قطعه رنين جرس الهاتف فقال: «اعذرني»، والتقط السَّمَّاعة.

- «السيِّدة ماكنيل على الخط، تقول إنها حالة طارئة».
- «أيُّ خط؟».
- «رقم 3».
ضغط الطبيب زِرَّ الإيصال وقال: «د. كلاين معكِ».
كان صوت كريس مُلتاعًا، وبدا أنها على شفا نوبة هستيرية.
- «أوه، بحق المسيح يا دكتور، إنها ريجان! أتستطيع القدوم فورًا؟».
- «حسنًا، ما الأمر؟».
- «لا أعرف يا دكتور، ولا أستطيع الوصف حتَّى. أرجوك تعال حالًا! تعال فورًا!».
- «أنا في الطريق!».
أغلق كلاين الخط معها، واستدعى موظَّفة الاستقبال على الهاتف: «سوزان، أخبري درينسر أن ينوب عني في مواعيد مرضاي».
أغلق كلاين السَّمَّاعة وبدأ في ارتداء سُترته، وقال: «إنها أم المريضة يا ديك. أتريد القدوم معي. إنها على الجانب الآخر من الجسر مُباشرةً».
- «ما زالت أمامي ساعة قبل أن أبدأ العمل على ما أظن».
- «جيِّد. هيَّا بنا».
وصلا هناك في ظرف دقائق، وعند مدخل الباب، حيَّاهم وجه شارون المُلتاع، وسمع الرجلان أنَّاتٍ وآهاتٍ وصرخاتٍ راجفة تأتي من غرفة ريجان.
أخبرتهما الفتاة: «أنا شارون سبنسر. تفضَّلا. إنها في الطابق الثاني».
قادتهما شارون إلى باب غرفة نوم ريجان، ثم فتحته قليلًا، ما جعله يُصدر صريرًا، ثم قالت: «كريس، الطبيبان وصلا!».
اندفعت كريس إلى الباب على الفور، وقسمات وجهها تلتوي من الرعب: «يا إلهي! ادخلا!». قالتها بصوتٍ مُرتعشٍ وأضافت: «ادخلا وانظرا ماذا تفعل!».
- «هذا دكتور...».

قطع كلاين التعريف بصديقه ما إن وقع بصره على ريجان. كانت في نوبةٍ عارمةٍ من الصراخ الهستيري. ذراعاها يختلجان، وبدا أن جسدها يرفع نفسه أُفُقيًا في الهواء الذي يعلو فراشها، ثم يُصرع أرضًا بوحشية فوق الحشية. كان الأمر يتكرَّر بسرعة، مرَّاتٍ ومرَّات.

بينما الفتاة تصرخ ذعرًا وألمًا: «أوقفيه! إنه يحاول قتلي! أوقفيه! أوقفيـــــــه يـــــــــــا أمـــــــــــي».

- «آه يا حبيبتي».

غصَّت كريس بالبكاء وهي تضع قبضتها في فمها وتعض عليها. ثم نقلت نظرة مُستجدية ومُتضرِّعة إلى كلاين.

- «ماذا يحدث يا دكتور؟ ما هذا؟».

هزَّ كلاين رأسه في عدم فهم وبصره مُثبَّت على ريجان بينما تتواصل الظاهرة أمام ناظريه. كانت ترتفع لنحو قدم في الهواء في كل مرَّة ثم تسقط بعدها بأنفاسٍ مُعذَّبة مُتقطِّعة، كما لو أن أيدٍ خفية ترفعها ثم تُلقيها أرضًا. ضغطت كريس فمها بكلتا يديها، وهي ترى بعينين شاخصتين حركات الصعود والهبوط تنتهي فجأة، وتبدأ ريجان في التَّلوِّي والاعوجاج والتثنِّي بشكلٍ محموم من جانب إلى آخر، وقد انحرفت عيناها إلى أعلى بحيث لم يعد يظهر سوى بيضاهما. «آااه... إنه يحرقني... يحرقني!». كانت تصيح بينما ساقاها تتقاطعان، ثم يُفضُّ تقاطعهما بشكلٍ خاطف. اقترب الطبيبان، واحد إلى كل جانب من الفراش، وبينما هي لا تزال تتلوَّى وتُعوَجّ، قوَّست ريجان رأسها إلى الوراء، كاشفة عن حنجرة متورِّمة ومُنتفخة، وفي أثناء ذلك بدأت تُتمتم بكلماتٍ مُستغلقة بصوتٍ حلقومي أجش: «... دحاالانا... دحاالانا...».

انحنى كلاين إلى أسفل ليتفحَّص نبضها.

قال برفق: «الآن، دعينا نرى ما خطبك يا عزيزتي».

فجأة، ترنَّح الرجل عبر الغرفة وتهاوى إلى الوراء من القوَّة الغاشمة التي طُوِّح بها بلطمة من ذراع ريجان، والتي جلست مُعتدلة فجأة، ووجهها يشوِّهه غضبٌ بشع.

- «هذه الخِنزيرة ملكي!».

هكذا جأرت الفتاة بصوتٍ غليظٍ وراعد.

- «إنها ملكي! ابتعد عنها! ملكي».

ثم تدفَّقت من حنجرتها ضحكة عاوية مُريعة، بعدها طُرحت على ظهرها كأن شخصًا ما دفعها بعنف. سحبت الفتاة ثوب نومها إلى أعلى كاشفة عن أعضائها التناسلية. «ضاجعاني! ضاجعاني!» بدأت تصرخ في الطبيبين، ثم بأصابع كلتا يديها أخذت تفرك فرجها في اهتياجٍ مسعور. بعد لحظة، خرجت كريس راكضة من الغرفة بنشيجٍ مكتوم، بعد أن وضعت ريجان أصابعها أمام شفتيها وبدأت في لعقهما.

مشدوهًا، ومُحملقًا تحت وطأة الصدمة، اقترب كلاين من الفراش مرَّةً أخرى، هذه المرَّة بحذرٍ، في الوقت الذي بدا فيه أن ريجان تحتضن نفسها، وذراعاها معقودتان، وتتحسَّسهما بكفَّيها.

كانت تُدندن بذاك الصوت المخشوشن الغريب، بينما كانت عيناها مُغلقتين كأنما تعيش لحظة من النشوة العارمة: «آه، نعم، يا لؤلؤتي... يا طفلتي... يا زهرتي... يا دُرَّتي...» ثم من جديد أخذت تتلوَّى وتتقلَّب من جانب إلى آخر، مُتأوِّهةٍ بمقاطع لا معنى لها مرارًا وتكرارًا، إلى أن اعتدلت فجأة بعينين مُتَّسعتين تُحملقان في هلعٍ يائس.

بعدها ماءت كهِرَّة.

ونبحت ككلب.

وصهلت كمُهر.

ثم انحنت بغتةً عند الخصر وبدأت في تدوير جذعها في حلقاتٍ سريعة وشاقَّة لا تنتهي. شهقت الفتاة في محاولة لالتقاط أنفاسها، وردَّدت باكية: «آه، أوقفوه. أرجوكم أوقفوه! هذا مؤلم! اجعلوه يتوقَّف! اجعلوه يتوقَّف! لا أستطيع التنفس!».

كان كلاين قد نال كفايته. أسند الطبيب حقيبته الطبية إلى النافذة، وسريعًا بدأ في تحضير حقنة.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ظلَّ طبيب الأعصاب قابعًا جوار الفراش، ورأى ريجان تسقط إلى الوراء كأنما من جراء نُهزة عنيفة، بينما شخصت عيناها وغابت في محجريهما مرَّة أخرى، وفي أثناء ما كان جسدها يتلوَّى من جانبٍ إلى آخر، بدأت تغمغم بنغماتٍ حلقية مُدغمة وسريعة. انحنى طبيب الأعصاب إلى الأمام وحاول تبيُّن ما تتفوَّه به. ثم رأى كلاين يشير إليه فاعتدل وركض نحوه سريعًا.

قال كلاين وهو يُمسك بالمحقن بحذر في الضوء القادم من النافذة: «سأعطيها ليبيريوم، لكن يجب أن تساعدني وتمسك بها».

أومأ طبيب الأعصاب برأسه، لكنه بدا مشغولًا. كان يُميِّل رأسه إلى جانبه محاولًا الاستماع إلى التَّمتمات الآتية من جهة الفراش.

همس كلاين: «ماذا تقول؟».

- «لا أعرف. مُجرَّد رطانة. مقاطع غير مفهومة».

إلا أن تفسيره الشخصي بدا وكأنه لم يكن يقنعه.

- «ومع ذلك تتلفَّظ بها وكأنها تعني شيئًا ما. إن لها إيقاعًا».

أومأ كلاين برأسه إلى الفراش، وبدأ الرجلان يقتربان من كلا الجانبين. مع اقترابهما، استحال وضع الطفلة المُعذَّبة إلى حالة تصلُّب صارم، كما لو أنها وقعت في القبضة المُتيبِّسة لمرض التيتانوس، والطبيبان اللذان توقَّفا جوار الفراش، التفتا ورمق أحدهما الآخر بنظرة ذات معنى. ثم حوَّلا نظرهما إلى ريجان مرَّةً أخرى عندما بدأت تقوِّس جسدها في وضعٍ مُستحيلٍ فيزيائيًّا، حانيةً إيَّاه إلى الوراء كالقوس إلى أن لامس جبينها باطنَ قدميها. كانت تصرخ من الألم.

حدَّق الطبيبان إلى بعضهما بعضًا بتكهُّنٍ حائر ومُتشكِّك. ثم أعطى كلاين إشارة إلى طبيب الأعصاب، لكن قبل أن يتمكَّن الاستشاري من الإمساك بها، ارتخى جسد ريجان فجأة وسقطت مُغشيًا عليها وبالت على الفراش.

انحنى كلاين فوق الفتاة وفتح جفنها، ثم تحسَّس نبضها.

قال بعدها مُغمغمًا: «ستغيب عن الوعي لفترة. أظن أنها تنتفض، ألستَ معي؟».

- «بلى، أظن ذلك».

- «حسنًا، لنأخذ بعض الاحتياط».

قالها وأفرغ المِحقن في ذراعها بحنكة.

سأله كلاين وهو يضع قطعة من اللاصق المُعقَّم مكان الحَقن: «حسنًا، ما رأيك؟».

- «الفص الصدغي. ونعم، بالتأكيد الفُصام احتمال قائم يا سام. لكن البوادر مُباغتة تمامًا. قلت لي ليس لها أيَّ تاريخ مرضي مُرتبط بالأمر، أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «نُوراسْتِينيَا[1]؟».

هزَّ كلاين رأسه نافيًا.

- «إذًا هستيريا رُبَّما؟».

قال كلاين: «لقد فكَّرت في ذلك».

- «بالطبع. لكن لا بد أنها فلتةٌ من فلتات الطبيعة كي تتمكن من ثني جسدها كما تطوَّعت وفعلتها، ألا تتَّفق معي في ذلك؟».

هزَّ رأسه نافيًا: «نعم، لا أتَّفق. أظن أن الأمر مرضي يا سام. قوَّتها الجسدية، وجنون الارتياب، والضَّلالات. الفُصام يضم هذه الأعراض. لكن تضرُّر الفص الصدغي يُبرِّر أيضًا التشنُّجات. يوجد شيءٌ واحد يزعجني كثيرًا رغم ذلك...».

تأخَّر قليلًا في شرح مقصده وعبس في حيرة.

- «وما هو؟».

- «حسنًا، في الحقيقة لست مُتأكِّدًا، لكن أظن أنني سمعت علامات

---

(1) وهن عصبي.

تدل على حالة تَفَارُق: «لؤلؤتي»... «طفلتي»... «زهرتي»... «الخنزيرة». لديَّ شعور أنها تتحدَّث عن نفسها. هل جاءك الانطباع نفسه، أم إنني أقرأ شيئًا بين السطور هنا؟».

أخذ كلاين يتفكَّر في السؤال وهو ينقر شفته السفلى بإصبعه، ثم أجاب: «حسنًا، في الحقيقة، لم يجُل الأمر بخاطري إلى لحظتنا هذه، لكن بعد أن أشرت إليه...» قالها وأحدث نخيرًا من حنجوره وبدا عليه التفكير العميق «قد يكون كذلك. نعم. أخمِّن أن هذا مُحتمل».

ثم تجاهل الفكرة بعدها وهو يُضيف: «حسنًا، سأجري لها بزلًا قَطَنيًّا الآن بينما هي غائبة عن الوعي، وعندها قد نعلم شيئًا ما، أيبدو هذا صحيحًا؟».

حرَّك طبيب الأعصاب رأسه مؤيِّدًا.

فتَّش كلاين حقيبته الطبية، ووجد فاتورة دسَّها في جيبه، وسأل طبيب الأعصاب: «هل ستمكُث؟».

رمق طبيب الأعصاب ساعة معصمه وقال: «نعم، بالتأكيد».

- «لنذهب ونتحدَّث مع الأم».

غادر الطبيبان الغرفة وسارا عبر الردهة.

برأسين مُنكَّسين، جلست كريس وشارون قُبالة حاجز السُلَّم. مع اقتراب الطبيبان منهما مسحت كريس أنفها بمنديلٍ ورقيٍ مُبلَّل ومكوَّر في يدها. كانت عيناها حمراوين وضيِّقتين من كثرة البكاء.

أخبرها كلاين: «إنها نائمة الآن، ومُخدَّرة بِشدَّة. من المحتمل ألا تستيقظ إلا بحلول الغد».

ردَّت كريس بوهن وهي تومئ برأسها برفق: «جيِّد.. انظر، أعتذر لكوني تصرَّفت كالأطفال هكذا».

شد كلاين من أزرها: «أنت تعالجين الأمور على ما يُرام. إنها محنة مُخيفة. بالمناسبة، هذا دكتور ريتشارد كولمان».

ابتسمت كريس إليه بوجهٍ بائس: «شكرًا لقدومك».

- «دكتور كولمان طبيب أعصاب».
- «أوه، حقًا؟ إذًا ماذا تظن».

سألته كريس وهي تنقل بصرها في حيرة بين الرجلين.

أجابها كلاين: «حسنًا، نحن ما زلنا نرتاب في الفص الصدغي، و...».

قاطعته كريس فجأة: «يا ليسوع، ما الذي تتحدَّث عنه بحق الجحيم! إنها تتصرَّف كمريضة نفسيًا، كأنها بشخصية مزدوجة أو شيءٍ من هذا القبيل! أعني...» قالتها وزفرت في يأس: «أوه!»، ثم لملمت شتات نفسها وخفضت جبينها إلى كفَّيها مُنهكة وأضافت: «أعتقد أنني متوتِّرة تمامًا». قالتها برفق وهي ترفع نظرة شاحبة ناحية كلاين «أعتذر بِشدَّة، ماذا قلت؟».

لكن طبيب الأعصاب هو من أجاب بهدوء: «سيِّدة ماكنيل، في تاريخ الطب كله، تم توثيق أقل من مِئة حالة انفصام شخصية. إنها حالة نادرة تمامًا. الآن، أعرف أن إغراء القفز إلى استنتاجات تُحيلنا إلى الطب النفسي قويًا، لكن أيُّ طبيب نفسي جدير بالمسؤولية سيستنفد أوَّلًا كل الاحتمالات الجسدية. هذا أسلم الإجراءات».

- «حسنًا إذًا، ما التَّالي؟».

قال كولمان: «مَبزَل قَطَني».

- «تعني من العمود الفقاري؟». قالتها كريس بنظرة يائسة.

أومأ الطبيب موضِّحًا: «ما تعذَّر ظهوره في الأشعة السينية وتخطيط موجات الدماغ قد يظهر هنا. على الأقل سيستنفد احتمالات مُعيَّنة أخرى. أريد القيام بالأمر الآن. هنا. في أثناء نومها. سأعطيها مُخدِّرًا موضعيًا بالطبع، لكن حركتها هي ما أحاول استبعاده».

سألته كريس بعينين مُنحرفتين في عدم فهم: «صحيح، كيف استطاعت القفز من فوق الفراش هكذا؟».

أجابها كلاين: «حسنًا، أعتقد أننا تناقشنا في الأمر من قبل. حالات مرضية بعينها قد تحث قوَّة غير طبيعية وتُسارع من الأداء الحركي».

- «لكنك قُلت إنك لا تعرف السبب».

أجابها كولمان: «حسنًا، يبدو أن قوَّتها الاستثنائية لها علاقة ما بالدافع، هذا كل ما نعرفه».

سأل كلاين كريس: «حسنًا، الآن، ماذا عن البزل؟ هل تسمحين لنا بالاستمرار في ذلك؟».

بكت فجأة وهي تُحدِّق إلى الأرض، وقالت بصوتٍ خفيض: «فلتفعلا. افعلا كل ما يلزم. فقط اجعلاها تتحسَّن».

سألها كلاين: «هل لي أن أستخدم هاتفك؟».

- «نعم، بالطبع. اذهب. يوجد واحد في غرفة المكتب».

- «أوه، بالمناسبة» قالها كلاين في الوقت الذي استدارت فيه كريس لتقودهما «إنها في حاجة إلى تغيير مُلاءات الفراش».

قالت شارون وهي تتحرَّك بعيدًا: «سأُغيِّرها على الفور».

سألت كريس الطبيبين وهما يتبعانها أسفل الدرج: «هل أعد لكما بعض القهوة؟ لقد أعطيت مُدبِّريَّ المنزل راحة لفترة الظهيرة، لذا سأعد بعضًا من القهوة سريعة الذوبان».

رفض الرجلان بتهذيب.

قال كلاين مُعلِّقًا: «أرى أنكِ لم تؤمِّني النافذة جيِّدًا بعد».

أخبرته كريس: «لا، لقد اتَّصلنا بالمختصِّين. سيأتون غدًا بمصاريع يمكن غلقها».

دلف ثلاثتهم حجرة المكتب، حيث قام كلاين بالاتِّصال بعيادته وأوعز إلى أحد مُساعديه الإتيان بالمعدَّات الطبية والعقاقير اللازمة إلى المنزل. «وجهِّز المعمل أيضًا لاختبار عيِّنة النخاع الشوكي. سأقوم بالأمر بنفسي بعد البزل».

بعدما أنهى المُكالمة، سأل كلاين كريس عمَّا حدث لريجان منذ آخر مرَّة رآها.

تأمَّلت كريس وهي تتذكَّر: «لنرى الآن، الثلاثاء الماضي.. لا، لم يحدث شيء يوم الثلاثاء، لقد صعدت مُباشرةً إلى غرفتها ونامت طيلة

الليل إلى الصباح التالي. و... أوه لا، انتظر» صحَّحت نفسها «لا، لم تفعل. نعم. ويلي ذكرت أنها سمعتها في المطبخ باكرًا جدًا. أتذكَّر أنني فرحت لكونها استعادت شهيَّتها. لكن أظن أنها عادت إلى الفراش بعدها، لأنها مكثت به بعد ذلك طيلة اليوم».

سألها كلاين: «هل كانت نائمة؟».

- «لا، كانت تقرأ على ما أظن. حسنًا، بدأت أشعر حينها براحة أكبر حيال الأمر برمَّته. أعني، لقد بدا أن الليبريوم هو ما تحتاجه بالفعل. كانت تبدو شاردة إلى حدٍ ما، وهذا أزعجني قليلًا، لكنه كان تقدُّمًا ضخمًا عمَّا مرَّت به. البارحة أيضًا لم يحدث شيء» ثم أضافت كريس «بعدها بدأ كل شيء. يا إلهي، هل بدأ ثانيةً!».

تذكَّرت كريس أنها كانت تجلس في المطبخ عندما ركضت ريجان أسفل الدرج واندفعت نحوها، وانكمشت خلف مقعدها وهي ترتعد خوفًا مُتشبِّثة بذراعيها وأخبرتها بصوتٍ عالٍ ومذعور أن القبطان هاودي يطاردها، ولا ينفك عن قرصها، ونخسها، ودفعها، والتلفُّظ ببذاءاتٍ إليها، وتهديدها بالقتل. «ها هو ذا». هكذا صرخت في النهاية وهي تُشير ناحية باب المطبخ. في اللحظة التالية سقطت على الأرض، وارتج جسدها بتشنُّجات عنيفة، واستمرَّت تكافح من أجل الهواء وتبكي وتقول إن هاودي يرفسها. ثم فجأة، هكذا قالت كريس للطبيبين، نهضت واقفة في منتصف المطبخ وبدأت تدور سريعًا «كالنحلة الدوَّارة»، واستمرَّت في حركتها هذه لدقيقة تقريبًا قبل أن تسقط أرضًا من الإعياء. وأنهت كريس كلامها مكروبة: «ثم فجأة، رأيت ذلك الـ... الكُره في عينيها، وقالت لي... لقد نعتتني بالـ... أوه، يا للمسيح!».

انفجرت كريس في نوبة من البكاء الهستيري.

انتقل كلاين إلى المشرب، وصبَّ كأسًا من الماء من الصنبور وعاد إلى كريس. كان نحيبها قد توقَّف.

- «أوه، اللعنة، أين التَّبغ؟». تنهَّدت راجفة وهي تمسح عينيها بمِفصَل أحد أصابعها.

ناولها كلاين الماء وحبَّة خضراء صغيرة.
ونصحها: «جربي هذه عوضًا».
- «أهذا مُهدِّئ؟».
- «أجل».
- «سآخذ اثنتين».
- «واحدة تكفي».
أشاحت كريس ببصرها وابتسمت بوهنٍ قائلة: «يا لك من مُسرف».
ابتلعت كريس حبَّة الدواء وناولت الطبيب الكأس الفارغة وهي تقول بلطف: «شكرًا لك»، ثم أسندت جبينها إلى أطراف أصابعها المرتعشة وهزَّت رأسها مُستطردة: «أجل، وهكذا بدأ الأمر» وأردفت نَكِدة «بدأت كل تلك الأشياء الأخرى. بدا الأمر وكأنها شخصٌ آخر».
سألها كولمان: «شخصٌ كالقبطان هاودي؟».
نظرت إليه كريس في حيرة. كان يرمقها بإمعانٍ شديد. سألته: «ماذا تعني؟».
هزَّ كتفيه: «لا أدري. هذا مُجرَّد سؤال».
شردت بعينيها ناحية المدفأة وقالت بهمَّة خائرة: «لا أعرف. شخصٌ ما وحسب. شخصٌ آخر».
مرَّت لحظة من الصمت، نهض كولمان بعدها. أخبرهما أن لديه موعدًا مع مريض آخر، ثم بعد بضع عباراتٍ مُطمئِنة، حيَّاهما مودِّعًا.
رافقه كلاين إلى باب المنزل. سأله كولمان: «هل ستتفحَّص مستوى السكَّر في الدَّم؟».
- «لا، فأنا مُجرَّد عبيط قرية روسلين».
ابتسم كولمان على استحياء: «أنا مُنزعج حيال هذا بدوري». ثم تطلَّع بعيدًا مُفكِّرًا، وهو يُمسِّد شفتيه وذقنه بإبهامه وأصابعه. «يا لها من حالة غريبة». أطال التفكير في صمت ثم غمغم مُستطردًا: «غريبة جدًّا».
التفت بعدها إلى كلاين قائلًا: «أطلعني على ما ستعرف».

- «ستكون في المنزل؟».
- «أجل. اتَّصل بي، حسنًا؟».
- «حسنًا».
لوَّح كولمان بذراعه مودِّعًا، وغادر.

***

عندما وصلت المُعدَّات بعدها بوقتٍ قصير، خدَّر كلاين منطقة عمود ريجان الفقاري موضعيًّا مُستخدمًا النوفوكين، واستخلص من بين فقراتها -على مرأى من كريس وشارون- السائل الشوكي وهو يراقب مقياس ضغط الدم بحذر. غمغم الطبيب: «الضغط طبيعي». عندما انتهى، ذهب إلى النافذة ورفع السائل أمام الضوء ليرى إن كان نقيًّا أم غائمًا. كان نقيًا.
رصَّ كلاين أنابيب السائل في حقيبته ثم قال:
- «أشك في أنها ستستيقظ، لكن في حال إن فعلت ذلك في مُنتصف الليل وأحدثت ضجَّة، رُبَّما ستحتاجين مُمرِّضة كي تُعطيها جرعة من المُخدِّر».
سألته كريس: «هل يمكنني فعل الأمر بنفسي؟».
- «ولِمَ لا تفعلها المُمرِّضة؟».
هزَّت كريس كتفيها، لم ترد إخباره بعدم ثقتها في الأطباء والمُمرِّضات. قالت ببساطة: «فقط أُفضِّل القيام بالأمر بنفسي».
حذَّرها كلاين: «حسنًا، قد يكون الحقن دقيقًا ويحتاج مهارة. فُقَّاعة هواء تتسرَّب في جسدها قد تكون في غاية الخطورة».
تدخَّلت شارون قائلة: «أوه، أنا ماهرة في الحقن. والدتي كانت تُدير دار تمريض في أوريجون».
سألتها كريس: «أوه، هل ستفعلين ذلك يا شار؟ هل ستقضين الليلة هنا؟».
أضاف كلاين: «حسنًا، ماذا عن الليالي القادمة... قد تحتاج إلى تغذية وريدية، بناءً على مدى تحسُّن حالتها».

- «هلَّا علَّمتني كيفية القيام بالأمر؟». سألته كريس وهي تُحدِّق إليه بقلق، ثم أضافت: «أريد القيام به».

أومأ كلاين برأسه قائلًا: «نعم، بالطبع. أظن أنني أستطيع».

كتب كلاين وصفة دواء تحتوي على ثورازين قابل للذوبان، ومحاقن للاستعمال مرَّة واحدة، وناولها لكريس قائلًا: «اجلبي الموصوف هنا على الفور».

ناولت كريس الورقة إلى شارون وقالت: «شار، هل يمكنك تولِّي هذه من أجلي؟ فقط اتَّصلي بالصيدلية وسيرسلون الدواء. أريد الذهاب مع الدكتور في أثناء إجرائه تلك الاختبارات» نقلت كريس بصرها إلى الطبيب وقالت بنبرة حزينة «هل تمانع؟».

لاحظ كلاين التضام المُحيط بعينيها، والنظرة القانطة، والارتباك. قال لها: «قطعًا لا أُمانع. أعرف كيف تشعرين. الشعور ذاته يخالجني عندما أتحدَّث إلى الميكانيكيين بخصوص سيَّارتي».

رمقته كري دون أن تتفوَّه بحرفٍ واحد.

وفي تمام الساعة 6:18 مساءً، غادرا المنزل.

***

في معمله داخل مبنى روسلين الطبي، أجرى كلاين عددًا من الفحوصات. في البداية قام بتحليل محتوى البروتين.

طبيعي.

ثم تعداد كُرات الدَّم الحمراء.

شرح كلاين لها: «وجود فائض من كرات الدم الحمراء يشير إلى نزيفٍ. بينما فائض كُرات الدم البيضاء يُشير إلى وجود عدوى». كان يبحث -بشكلٍ خاص- عن العدوى الفطرية التي في كثيرٍ من الأحيان تكون السبب وراء التصرُّفات الغريبة.

مرَّى أخرى، كان كل شيءٍ طبيعيًا.

في النهاية، فحص كلاين محتوى السكَّر المائع.

سألته كريس: «ما النتيجة؟».

أخبرها: «حسنًا، نسبة السكَّر الشوكي يجب أن تكون ثُلثي كمِّية إجمالي السكَّر في الدم. أيُّ رقم أدنى من هذا سيعني وجود مرض سببه أن البكتيريا تتغذَّى على سكَّر السائل الشوكي، وإذا كان الأمر كذلك، قد تكون مسؤولة عن الأعراض التي تُظهرها ابنتك».

لكنه فشل في العثور على أيِّها.

عقدت كريس ذراعيها وهزَّت رأسها: «ها نحن ذا مُجدَّدًا يا رفاق». هكذا غمغمت في كآبة.

أطال كلاين التفكير للحظات، ثم في نهاية المطاف التفت ونظر إلى كريس. ثم سألها: «هل تُبقين أيَّ مُخدِّرات في المنزل؟».

- «ماذا؟».

- «أمفيتامينات؟ إل إس دي؟».

هزَّت كريس رأسها نافية وقالت: «لا. هل تعي ما أقول؟ لا. لا أيُّ شيء من هذا».

أومأ كلاين مُتفهِّمًا ونظر إلى حذائه، ثم مُغتمًّا أعاد بصره إلى كريس وأخبرها: «أظن أن الوقت حان لاستشارة طبيب نفسي».

***

عادت كريس إلى المنزل في تمام الساعة 7:12 مساءً، وما إن فتحت الباب نادت بصوتٍ عالٍ: «شارون؟».

لم تسمع ردًّا. شارون ليست هنا.

صعدت كريس إلى غرفة ريجان ووجدتها تغط في نوم عميق دون حتَّى أن تتقلَّب في فراشها. لاحظت كريس وجود رائحة بول في الغرفة. نقلت بصرها من الفراش إلى النافذة. يا للمسيح، إنها مفتوحة على اتِّساعها! فكَّرت أن شارون لا بد فتحتها كي تُغيِّر من هواء الغرفة قليلًا. لكن أين هي الآن؟ أين ذهبت؟ اتَّجهت كريس نحو النافذة وأمسكت بمصراعيها وأحكمت غلقهما، ثم هبطت إلى الطابق السفلي مجدَّدًا في اللحظة التي دخلت فيها ويلي من الباب الأمامي.

- «مرحبًا يا ويلي، أحظيتِ بأيِّ متعة اليوم؟».
- «بعض التسوُّق يا سيِّدتي. وشاهدتُ فيلمًا».
- «أين كارل يا ويلي؟».
بدرت من ويلي إشارة لا مُبالية.
- «لقد سمح لي بمُشاهدة البيتلز هذه المرَّة. بمفردي».
- «أحسنتِ!».
- «نعم يا سيدتي».
قالتها ويلي ورفعت إصبعين إلى أعلى علامة النصر.
كانت الساعة 7:35 مساءً.

في الساعة 8:01، بينما كانت كريس في غرفة المكتب تتحدَّث هاتفيًا مع وكيل أعمالها، سمعت صوت الباب الأمامي يُفتح ويُغلق بعدها، واقترب صوت حذاءٍ ذي كعبٍ عالٍ، ثم رأت شارون تدلف إلى حجرة المكتب حاملة طرودًا كثيرة بين ذراعيها، ووضعتها على الأرض. بعدها ألقت شارون نفسها على مقعدٍ وثير وانتظرت ريثما تواصل كريس حديثها.

عندما انتهت كريس من مُكالمتها سألتها: «أين كنتِ؟».
- «أوه، ألم يُخبركِ؟».
- «أوه، من الذي لم يُخبرني؟».
- «بيرك، أليس موجودًا؟».
- «هل كان هنا؟».
- «أتعنين أنه لم يكن موجودًا عندما أتيتِ إلى المنزل؟».
قالت كريس: «أسمعيني، احكِ من البداية».

انتقدته شارون وهي تهزُّ رأسها في استهجان: «أوه، ذلك الأحمق. لم يستطع الصيدلي إرسال الدواء إليَّ، لذا عندما أتى بيرك إلى المنزل، فكَّرت أنه يستطيع البقاء قليلًا مع ريجان في حين أذهب أنا لجلب الثورازين» ثم هزَّت رأسها مرَّةً أخرى وأردفت «كان يجب عليَّ أن أعرف ذلك».
- «نعم، كان يجب عليكِ ذلك. وماذا ابتعتِ إذًا؟».

- «حسنًا، بما أنني فكَّرت أن أمامي مُتَّسعًا من الوقت، ذهبت لابتياع غطاء من (المشمَّع) لفراش ريجان».

- «هل أكلتِ؟».

- «لا. أُفكِّر في إعداد شطيرة سريعًا. أتريدين واحدة؟».

- «فكرة جيِّدة».

سألتها شارون وهما تسيران إلى المطبخ «كيف جاءت نتيجة الفحوصات؟».

أجابتها كريس في كآبة: «كلها سلبية. سيتحتَّم عليَّ عرضها على طبيب نفسي».

***

بعد تناول الشطائر واحتساء القهوة، علَّمت شارون كريس كيفية تجهيز وإعطاء المحقن. شرحت لها: «يوجد شيئان أساسيان. أن تتأكَّدي من عدم وجود أيٍّ فُقَّاعات هوائية.. وأن تتأكَّدي أنكِ أصبتِ الوريد. انظري، تسحبين قليلًا، هكذا» كانت تصف لها الأمر «وترين إذا ما صعد بعض الدَّم إلى المحقن».

لبعضٍ من الوقت، مارست كريس الإجراء على ثمرة جريب فروت، وبدا أنها تتقن الأمر تدريجيًّا. ثم في الساعة 9:28 مساءً، رن جرس الباب ففتحت كريس. كان القادم كارل. وفي أثناء مروره عبر المطبخ في طريقه إلى حجرته، ألقى تحيَّة المساء وعلَّق أنه نسيَ أخذ مُفتاحه.

قالت كريس لشارون: «لا أُصدِّق الأمر. إنها المرَّة الأولى التي يعترف فيها بارتكابه خطأً».

أمضت كريس وشارون الأُمسية تشاهدان التلفاز في غرفة المكتب. وفي الساعة 11:46، أجابت شارون رنين الهاتف، وقالت: «انتظر معي»، ثم ناولت السمَّاعة إلى كريس وأردفت: «تشاك».

كان هذا مُخرج الوحدة الثانية الشاب. بدا صوته جادًا وحزينًا: «هل سمعتِ بالأمر يا كريس؟».

- «لا، ماذا حدث؟».
- «حسنًا، إنه مؤسف».
- «مؤسف؟».
- «بيرك مات».

كان مخمورًا.. وتعثَّرت خطاه.. وسقط عبر مصفوفة الدرجات الحادَّة المُجاورة لمنزلها. لقد رآه أحد المُشاه المارين في شارع إم وهو يتخبَّط بلا هوادة إلى ليلٍ بلا قرار. دُقَّ عُنُقه. هذا الوضع الملتوي الدامي كان مَشهَدهُ الأخير.

سقطت سمَّاعة الهاتف من راحة يدها، وأخذت كريس تبكي في صمت. ثم نهضت واقفة بلا اتِّزان. ركضت شارون إليها، وأمسكتها، وأغلقت السمَّاعة، ثم قادتها إلى الأريكة.

- «كريس، ما الأمر؟ ماذا حدث؟».
- «بيرك مات!».
- «أوه، يا إلهي يا كريس! لا! كيف؟».

لكن كريس هزَّت رأسها. لم تقدر على الكلام. واستمرَّت في البكاء والنشيج.

ثم بعدها، تحدَّثت المرأتان لساعاتٍ طويلة. شربت كريس كثيرًا. واستدعت ذكرياتها مع دينينجس. الآن ضحكت. والآن بكت. إلا أنها استمرَّت في التنهُّد قائلة: «آه يا إلهي.. بيرك المُسنّ المسكين... بيرك المسكين...».

راودها حلمها عن الموت من جديد.

بعد الخامسة صباحًا بقليل، كانت كريس تقف مشوَّشة المزاج خلف المشرب مُستندة إلى كوعيها، ورأسها مُنكَّس، وعيناها شديدتي الحزن، وهي تنتظر عودة شارون من المطبخ ببعض الثلج. ثم في النهاية سمعتها قادمة.

- «ما زلت لا أصدِّق الأمر». قالتها شارون وهي تدخل الغرفة.

نظرت كريس إلى أعلى، ثم إلى الجانب، وتجمَّدت في مكانها من الذعر.

بجسدٍ كالقوس مُحدَودَب إلى الوراء، ورأسٍ يكاد تلمس قدميها، انزلقت ريجان على أطرافها الأربعة في وضعٍ مقلوب كالعنكبوت، وهي تتلظَّى مُباشرةً خلف شارون. كان لسانها يخفقُ بسرعة داخل وخارج فمها وهي تهس بصوتٍ كالصفير مُحرِّكة رأسها ذهابًا وإيابًا مثل الكوبرا.

مشلولة الحركة، رمقت كريس المشهد وقالت: «شارون؟».

توقَّفت شارون، وكذا فعلت ريجان. استدارت شارون ولم ترَ شيئًا. ثم صرخت بعدها وهي تقفز بعيدًا عندما شعرت بلسان ريجان يخرج طويلًا ويتحسَّس كاحلها.

لطمت كريس خدَّها بكفِّها، وشحب وجهها واستحال رماديًّا من الهلع.

- «اتَّصلوا بالطبيب وأخرجوه من فراشه فورًا! أحضروه حالًا».

أينما تحرَّكت شارون، لاحقتها ريجان.

الفصل الرابع

الجمعة 29 أبريل. انتظرت كريس في الردهة خارج غرفة النوم، في حين ما كان د. كلاين يفحص ريجان باهتمام شديد مصحوبًا بطبيب نفس وأعصاب ذائع الصيت.. وأخذ الرجلان يُراقبانها طيلة نصف الساعةِ تقريبًا. كانت ترفُس. تدور. تُمزِّق شعرها. وبين الحين والآخر تضغط كفَّيها إلى أذنيها كما لو أنها تحجب ضجيجًا مُفاجئًا يصم الآذان. كانت تجأر بكل أنواع الشتائم والبذاءات. وتصرخ من الألم. ثم في النهاية دسَّت وجهها في الفراش، وضمَّت ساقيها إلى معدتها، وبدأت تئِن بهدوء وطريقة غير مفهومة.

أشار طبيب الأمراض العقلية إلى كلاين كي يقترب، وهمس له: «دعنا نُخدِّرها، لربما استطعت التحدُّث إليها». أومأ الطبيب الباطني موافقًا وحضَّر جرعة تعادل خمسين ميليجرامًا من الثورازين. بيد أن ريجان بدا أنها استشعرت اقتراب الطبيبين من الفراش، فاستدرت سريعًا لمُقابلتهما، وعندما حاول الطبيب النفسي الإمساك بها صرخت في شرٍ مُستطير. عضته. قاومته. أبقته بعيدًا. وفقط عندما استدعيا كارل لمساعدتهما تمكَّن ثلاثتهم من إبقاء ريجان ثابتة قدر المستطاع كي يستطيع كلاين إفراغ المحقن في جسدها.

تبيَّن أن الجرعة غير كافية، لذا حُقنت بخمسين ميليجرامًا أخرى. انتظروا بُرهة.. وسرعان ما أضحت ريجان ليِّنة العريكة. ثم بدت حالمة. ثم بغتةً رمقت الطبيبين في انشداهٍ ذاهل.

قالت في بُكاءٍ وخوف: «أين أمي؟ أريد أمي!». بإشارة من رأس الطبيب النفسي، غادر كلاين الغرفة.

- «ستأتي أمك في غضون ثوانٍ يا عزيزتي». قالها الطبيب النفسي إلى ريجان بوداعة، وجلس على الفراش وهو يُلمِّس على رأسها: «اهدئي، اهدئي. الأمور على ما يُرام يا عزيزتي. أنا طبيب».

- «أريد ماما!».

- «أمك ستأتي. إنها قادمة. أتشعرين بألمٍ يا عزيزتي؟».

أومأت ريجان برأسها والدموع تنهمر سيلًا من عينيها لتغرق وجهها.

- «أطلعيني أين يا صغيرتي، أين موضع الألم؟».

قالت باكية: «في كل مكان!».

- «أوه، يا صغيرتي».

- «ماما!».

اندفعت كريس إلى الفراش واحتضنتها، وأخذت تُقبِّلها وتُطمئنها وتُهدِّئها. ثم شاعت الدموع في وجه كريس بدورها من الفرح.

- «لقد عُدتِ يا راجس! عُدتِ! هذه ذاتك الحقيقية!».

أخبرتها ريجان وهي تنشج: «أوه يا ماما، إنه يؤذيني، أرجوكِ اجعليه يتوقَّف عن أذيَّتي! حسنًا يا ماما؟ أرجوكِ؟».

حدَّقت كريس إليها في حيرة، ثم التفتت إلى الطبيبين مُتضرِّعة بعينين مُلتاعتين، وسألتهما: «ما خطبها؟ ما هذا؟».

قال الطبيب النفسي بلطف: «إنها مُخدَّرة بشدَّة».

- «أتعني أن...».

قاطعها سريعًا وقال: «سنرى».

ثم وجَّه كلامه إلى ريجان: «هل تستطيعين إخباري ماذا ألمَّ بكِ يا عزيزتي؟».

أجابته ريجان باكية: «لا أعرف! لا أعرف! لا أعرف لماذا يفعل بي هكذا! لقد اعتاد أن يكون صديقي قبل ذلك!».

- «من هذا يا ريجان؟».

- «القبطان هاودي! ثم بعدها شعرت بوجود شخصٍ ما داخلي! يُجبرني على الإتيان بأشياء».

- «القبطان هاودي؟».

- «لا أعرف!».

- «شخص؟».

أومأت ريجان.

- «أخبريني من هو؟».

- «لا أعرف!».

- «حسنًا إذًا. لنحاول شيئًا يا ريجان. ما رأيك لو لعبنا لعبة صغيرة؟».

قالها ومدَّ يده إلى جيبه وأخرج حُلية كُرة لامعة تتدلَّى من سلسلة فِضِّية طويلة، وسألها مُردفًا: «هل رأيت فيلمًا من قبل حيث يقومون بتنويم شخص ما إيحائيًّا؟».

بعينين مُتَّسعتين، أومأت ريجان برتابة.

- «حسنًا، أنا مُنوِّمٌ إيحائيٌ يا ريجان. صِدقًا يا عزيزتي. أنا أنوِّم النَّاس طيلة الوقت. أستطيع فعلها حقًا. هذا بالطبع إذا سمحوا لي. الآن أنا أرغب في تنويمك يا ريجان، هذا سيساعدك على الشفاء. أجل، هذا الشخص داخلك سيُظهر نفسه. أتوافقين على تنويمك إيحائيًّا؟ أترين، إن ماما هنا، إنها تجلس جوارك تمامًا».

نظرت ريجان إلى كريس مُتسائلة.

حثَّتها كريس: «هلُمِّي يا صغيرتي، فلتفعليها. لنحاول».

التفتت ريجان إلى الطبيب النفسي وأومأت مُجيبة بصوتٍ خانع: «حسنًا. لكن قليلًا فقط».

ابتسم الطبيب، ثم التفت سريعًا إلى الوراء، إلى مصدر صوت آنية فُخَّارية تنكسر من خلفه. لقد سقطت مِزهريَّة إلى الأرض من فوق المكتب حيث كان يسند كلاين ساعده الآن. نظر الرجل إلى ذراعه وإلى الشظايا أسفله في حيرة، ثم انحنى ليجمعها.

قالت له كريس: «لا عليك يا دكتور، ويلي ستعتني بالأمر».

تساءل الطبيب النفسي: «هل يمكنك إغلاق خصاص النافذة من أجلي يا سام؟ وارخِ الستائر أيضًا».

غرقت الغرفة في الظلام، وأمسك الطبيب النفسي السلسلة بين أطراف أصابعه وبدأ في أرجحتها ذهابًا وإيابًا بحركة طفيفة. ثم سلَّط عليها شعاع قلمه الضوئي فلمعت. وبدأ في ترتيل طقوس التنويم: «الآن راقبي هذه الكُرة يا ريجان.. استمرِّي في مُراقبتها.. وقريبًا ستشعرين بجفنيك يُصبحان أثقل فأثقل...».

في خلال لحظات قصيرة جدًّا، بدا أن ريجان تغوص عميقًا في تيه غيبوبة تنويمية.

غمغم الطبيب لأمها: «إنها سهلة الانقياد تمامًا»، ثم وجَّه كلامه إلى الفتاة: «هل أنت مرتاحة يا ريجان؟».

- «نعم».

هكذا أجابته الفتاة في صوتٍ رقيقٍ وهامس.

- «كم سِنُّك يا ريجان؟».

- «اثنتا عشرة».

- «هل توجد ذاتٌ ما داخلك؟».

- «أحيانًا».

- «متى؟».

- «في أوقاتٍ مُختلفة».

- «هل هو شخص؟».

- «نعم».

- «من هو؟».

- «لا أعرف».

- «القبطان هاودي؟».

- «لا أعرف؟».

- «أهو رجل؟».
- «لا أعرف».
- «لكنه موجود».
- «نعم».
- «أهو موجود الآن؟».
- «لا أعرف».
- «إذا طلبت منه أن يجيبني، هل ستسمحين لي؟».
- «لا!».
- «لِمَ؟».
- «لأنني خائفة».
- «من ماذا؟».
- «لا أعرف!».
- «ريجان، إذا جعلتيه يتحدَّث إليَّ أظن أنه سيغادر. ألا تريدين أن يتركك؟».
- «بلى».
- «دعيه يتحدَّث إذًا. هل ستسمحين له؟».

مرَّت بُرهة طويلة من الصمت، ثم قالت في النهاية: «نعم».

تَنَشَّقَ الطبيب النفسي نفسًا عميقًا ثم قال بحزم: «أنا الآن أتحدَّث إلى الشخص الذي يعيش داخل ريجان. إذا كنت موجودًا، فأنت منوَّم بِشدَّة وتجب عليك إجابة جميع أسئلتي». لبُرهة، صمت الطبيب كي يسمح للاقتراح بأن يسري في عروق ريجان، ثم كرَّر قوله: «إذا كنت هناك، فأنت منوَّم بِشدَّة وتجب عليك إجابة جميع أسئلتي. أظهر نفسك وأجبني الآن. هل أنت حاضر؟». لحظة صمت، ثم حدث شيءٌ غريب: أضحت أنفاس ريجان كريهة الرائحة فجأة. باتت ثقيلة وعميقة، مثل الجدول. استطاع الطبيب النفسي اشتمامها من مسافة قدمين، فسلَّط شعاع قلمه الضوئي على وجه ريجان.

بعينين مُتَّسعتين ووجهٍ مصدوم، رفعت كريس كفَّها إلى فمها لوأد شهقة كادت أن تفلت وهي تُشاهد ملامح ريجان تتشوَّه مُستحيلة إلى قناع قبيح وشرير. التوت شفتاها وشُدَّتا في اتِّجاهين مُعاكسين، وتدلَّى لسانٌ متورِّم من فمها. بدت كمُستذئِبة.

سأل الطبيب النفسي: «هل أنت الشخص الذي يعيش في ريجان؟».

أومأت الفتاة.

- «من أنت؟».

أجابت بصوتٍ حلقي: «دحاالانا».

- «هل هذا اسمك؟».

إيماءة أخرى.

- «هل أنت رجل؟».

قالت: «لجا».

- «هل أنت تُجيب؟».

- «لجا».

- «لو كانت هذه «نعم» أومئ برأسك».

أومأت ريجان.

- «هل تتحدَّث لغةً أعجمية؟».

- «لجا».

- «من أين أتيت؟».

- «برّ».

- «أتقول أنك أتيت من البرّ[1]؟».

أجابت ريجان: «بـرلانـمـتـيـتـاانـاال».

صمت الطبيب النفسي للحظات، وبعد تفكيرٍ سريع قرَّر الإتيان بمحاولة أخرى: «سأطرح عليك أسئلةً الآن، وستجيب بحركة من رأسك: إيماءة تعني «نعم»، وهزَّة نافية تعني «لا». هل تفهم ما أقول؟».

---

(1) في النص الإنجليزي، معكوس حروف كلمة «رب» God هو Dog «كلب».

أومأت ريجان.

سألها: «هل لإجاباتك معنى؟». نعم.

«هل أنت شخصٌ عرَفَتهُ ريجان من قبل؟». لا.

«شخصٌ تعرفهُ في العموم؟». لا

«هل أنت شخصٌ من ابتكارها؟». لا.

«هل أنت حقيقي؟». نعم.

«جانب من شخصية ريجان؟». لا.

«هل كنت جانبًا من شخصيتها من قبل؟». لا.

«هل تحبَّها؟». لا.

«لا تحبها». نعم.

«تكرهها؟». نعم.

«بسبب شيء ما فعلته؟». نعم.

«هل تلومها على طلاق والديها؟». لا.

«هل للأمر علاقة بوالديها؟». لا.

«بصديق؟». لا.

«لكنك تكرهها؟». نعم.

«هل تُعاقب ريجان؟». نعم.

«ترغب في أذيَّتها؟». نعم.

«تريد أن تقتلها؟». نعم.

«إذا ماتت، هل ستموت أنت أيضًا؟». لا.

أقلقته الإجابات، وخفض عينيه مُفكِّرًا. أصدرت حشية الفراش صريرًا وهو ينقل وزنه فوقها. في هذا الصمت الخانق، أتت أنفاس ريجان خشنة كالصَّدأ، كما لو أنها تخرج من مِنفاخٍ مُنتِنٍ وعَفِن. بدت قريبة وغريبة في الآن ذاته. وشرِّيرة. رفع الطبيب النفسي بصره مرَّةً أخرى نحو ذلك الوجه البشع المُعوَج، ولمعت عيناه بالاحتراز وهو يسأل:

- «هل يوجد ما تستطيع ريجان فِعلَهُ كي تتركها وشأنها؟». نعم.

- «هل يمكنك إخباري ما هو؟». نعم.
- «هل ستخبرني». لا.
«لكن...».

فجأة، شهق الطبيب النفسي من الألم، في الوقت نفسه الذي لاحظ فيه -في عدم تصديقٍ مذعور- أن ريجان تعتصر خصيتيه بيدٍ فولاذية أمسكته كبُرثُن من حديد. بعينين مُتَّسعتين عن آخرهما ونظرة حادة مذهولة وتنضح بالألم، كافح الرجل لتحرير نفسه، لكنه لم يستطع، ونعق من الوجع المُعذِّب: «سام! ساعدني يا سام!».

ساد الهرج والمرج، وماجت الغرفة في الفوضى.

قفزت كريس نحو مُفتاح النور.

ركض كلاين إلى الأمام.

وبرأسٍ مُنزلق إلى الخلف، قوقأت ريجان بطريقة شيطانية، ثم عَوَت كالذِئاب.

لطمت كريس مُفتاح النور، ثم استدارت لترى ما بدا وكأنه شريط فيلم مُغبَّش بالأبيض والأسود يعرض كابوسًا مُجسَّدًا بالسرعة البطيئة: ريجان والطبيبان يتلوَّون فوق الفراش في تحابُكٍ مُحتدم من الأذرع والسيقان. عراكٌ ملتو. سيلٌ من اللعنات والشتائم. ثم ذَلِكُما العواء والعويل، وتلك الضحكة البشعة. ريجان تقبع[1] وتنخر كالخنزير. ريجان تصهل كالحصان. ثم تزداد سرعة شريط الفيلم مع ارتجاج هيكل الفراش واهتزازه بعنف من جانب إلى آخر في الوقت الذي تغيب فيه عينا ريجان في محجريهما، ثم زعقت الفتاة بصيحة مذعورة بتَّارة مزَّعت الضمَّادة الطرية الدامية من أسفل عمودها الفقاري.

بعدها مُباشرةً، انهارت ريجان وسقطت مُغشيًا عليها.

وشيءٌ ما لا يوصف بكلمات قد غادر الغرفة.

---

(1) القباع: صوت الخنزير.

لفترةٍ من الوقت، لم يتحرَّك أحدٌ. ثم ببطء وبحرص، فكَّ الطبيبان تشابُكهما. ثم نهضا وحدَّقا إلى ريجان دون أن ينبسا بكلمة. بعدها اقترب كلاين من الفراش بلا أدنى تعبير على وجهه، وقاس نبض ريجان، ثم بارتياح وبطء ودِعَة فرد الغطاء فوقها، وأشار برأسه إلى كريس والطبيب النفسي. غادر الجميع الغرفة وهبطوا الدرج إلى حجرة المكتب، ولفترة إضافية من الوقت، لم يتكلَّم أحدٌ. كريس جالسة على الأريكة، وكلاين والطبيب النفسي بالقرب منها على المقعدين المُقابلين اللذين يطوِّقان فراغ الغرفة. كان الطبيب النفسي مُستغرَقًا في أفكاره، ويضغط شفتيه وهو يرمق منضدة القهوة في شرود. ثم تنهَّد في النهاية، ورفع بصره إلى كريس في الوقت الذي حرَّكت عينيها إليه وقابلت خطَّ رؤيته بنظرة مُحترِقة.

سألته بهمسةٍ مُضناةٍ ومهزومة: «ماذا يجري بحق الجحيم؟».

- «هل لاحظتِ اللغة التي تفوَّهت بها؟».

هزَّت كريس رأسها نافية.

- «هل تعتنقين أيَّ مُعتقدات دينية؟».

- «لا».

- «وابنتك؟».

- «لا».

بدءًا من اللحظة طرح الطبيب النفسي مجموعة مطوَّلة من الأسئلة تتعلَّق بتاريخ ريجان النفسي، وعندما انتهى أخيرًا، بدا عليه الانزعاج.

سألته كريس: «ما الأمر؟»، بينما أصابعها البيضاء تقبض وتُرخي قبضتها عن المنديل المكوَّر القابع في كفِّها «ما الذي ألمَّ بها يا دكتور؟».

بدا الطبيب النفسي مُراوغًا وهو يقول: «حسنًا، الأمر مُحيِّر إلى حدٍّ ما، وبصراحة تامة، ستكون عدم مهنية كبيرة مني إذا حاولت تشخيص حالتها بعد اختبارٍ مُقتضب جدًّا كهذا».

لكن كريس كانت مُلحَّة: «لا بد أنك كوَّنت فكرةً ما».

مُداعبًا جبينه وناظرًا إلى أسفل، زفر الطبيب النفسي تنهيدة عميقة من

صدره، ثم لان ونظر إلى أعلى وقال في إذعان: «حسنًا. أعرف أنكِ قلقة جدًّا، لذا سأذكر لكِ بعض الانطباعات. لكنها انطباعاتٍ مؤقّتة، اتفقنا؟».

مالت كريس إلى الأمام، وأومأت في توتُّر: «بالتأكيد. حسنًا. ما هي؟». كانت أصابعها قابعة في حجرها تعبث في المنديل صانعة من أهدابه ما يشبه حبَّات مِسبحة قُطنِية.

أخبرها الطبيب النفسي: «باديءٌ ذي بدء، من غير المُحتمل تمامًا أنها تدَّعي الأمر أو تُزيِّفه، أليس كذلك يا سام؟» أومأ كلاين برأسه موافقًا، فأكمل الطبيب النفسي: «ونحن على قناعة بذلك لعِدَّة أسباب. مثلًا، التواءات جسدها المؤلمة وغير الطبيعية. أما أبرز الأمور هو تبدُّل أساريرها عندما كُنَّا نتحدَّث إلى الشخص المزعوم الذي تظن أنه يسكنها. حدوث تأثير نفسي كهذا غير المحتمل إلا إذا كانت تقتنع صِدقًا في هذا الشخص. هل تتابعينني؟».

أجابته كريس: «نعم. أظن ذلك. فيما عدا نقطة واحدة لا أفهمها، من أين يأتي هذا الشخص؟ أعني، المرء لا ينفك يسمع بـ «ازدواج الشخصية»، لكنني لم أُصادف قط أيَّ تفسير حقيقي».

- «حسنًا، وكذا الجميع بدورهم. نحن نستخدم مفاهيم وألفاظًا كالـ «وعي» و»العقل» و»الشخصية» طيلة الوقت، لكننا في الحقيقة لا نعلم معناها بعد. لذا فحين أبدأ الكلام عن شيءٍ كازدواج الشخصية أو الشخصية المُتعدِّدة، فكل ما لدينا هي بضع نظريات تُثير عددًا من الأسئلة أكثر ممَّا تُقدِّم إجابات. فرويد كان يعتقد أن العقل الواعي يقمع بشكلٍ ما أفكارًا ومشاعر بعينها، لكنها تظل حيَّة وتتنفَّس في عقل الشخص اللاّ واعي. وتظل قويَّة جدًّا في الواقع، وتستمر في السعي وراء تجسيد وإظهار نفسها من خلال مُختلف الأعراض النفسية. الآن هذه المواد المكبوتة، أو دعينا نُسمِّيها المواد المُتفارقة، فكلمة تفارُق تشير إلى الانشقاق عن تيَّار الوعي السائد. هل أنتِ معي؟».

- «نعم. استمر».

- «جيِّد. حسنًا، عندما تكون هذه المواد قويَّة بالقدر الكافي، أو عندما تكون شخصية المريض مُشوَّشة وضعيفة، قد تكون النتيجة ذُهانًا فِصاميًّا» ثم أردف مُنبِّهًا «الآن هذا ليس ازدواج شخصية. الفُصام يعني تكسُّرًا في الشخصية. لكن عندما تُصبح المواد المُتفارقة قويَّة بما يكفي كي تلتصق معًا بطريقة أو بأخرى، ولتُعيد ترتيب العقل اللا واعي للمرء، فإنها تعمل أحيانًا بشكل مُستقل كشخصية مُنفصلة. بعِبارةٍ أخرى، تستولي على وظائف الجسم».

- «وهذا ما تظن أنه يحدث مع ريجان؟».

- «حسنًا، تلك نظرية واحدة. يوجد غيرها كثيرًا. بعضها ينطوي على مفهوم الهروب إلى الجهالة، الهروب من صراع أو أزمة شعورية. ابنتك ليس لها أيَّ تاريخ فُصامي مرضيّ، وتخطيط موجات الدماغ لم يُظهر نمط موجات العقل الذي يتماشى معه. لذا هذا يتركنا في النطاق العام للهستيريا».

كريس غمغمت: «لقد انتابتني الأسبوع الماضي».

ابتسم الطبيب النفسي القَلِق بخفوت وأكمل: «الهستيريا نوع من العُصاب تتحوَّل فيه الاضطرابات الشعورية إلى اضطرابات جسدية. الآن، في أنواعٍ مُحدَّدة منها يحدث التفارُق. في الوهن النفسي على سبيل المثال، يفقد المرء وعيه بتصرُّفاته. إنه يرى ما يفعله لكنه يحيله إلى شخصٍ آخر. وتكون فكرته عن الشخصية الأخرى ضبابية، لكن ريجان تبدو مُحدَّدة. وبالتالي نأتي إلى ما اعتاد فرويد تسميتهُ بـ»اضطراب التَّحويل»، وهو شكل من أشكال الهستيريا، والذي يُغذِّيه الشعور اللا واعي بالذنب والحاجة إلى تلقِّي العقاب. التفارُق يكون السِّمة الأبرز هنا، وحتَّى تعدُّد الشخصيات. تلك المُتلازمة قد تتضمَّن أيضًا تشنُّجات شِبه صرعية، وهلاوس، وإثارة حَرَكِية مُفرِطة».

استمعت إليه كريس بإمعان، قسمات وجهها مضغوطة وعيناها نصف مغلقتين بإجهاد محاولِة الفهم. قالت له: «حسنًا، هذا يبدو شبيهًا جدًّا

بحالة ريجان، ألا تظن ذلك؟ رُبَّما باستثناء تفصيلة الشعور بالذنب. أعني، ما الذي قد تشعر بالذنب تجاهه؟».

- «حسنًا، الرد التقليدي لا بد أن يتضمَّن واقعة الطلاق. الأطفال غالبًا ما يشعرون بأنهم هم المنبوذون، وأحيانًا يفترضون في عقولهم مسؤولية كاملة عن رحيل أحد الآباء، لذا قد ينطبق الأمر على حالة ابنتك. هنا أنا أُفكِّر في أعراض رُهاب الموت، وهو اكتئاب عُصابي يرتبط بإطالة التفكير في مسألة موت البشر» اتَّسعت عينا كريس وهي تستمع إلى الطبيب وهو يواصل «في الأطفال، ستَجِدينه مصحوبًا بعُقدة ذنب لها علاقة بالتوتُّر الأُسري، وفي كثيرٍ من الأحيان الخوف من فقد أحد الآباء. الأمر يولِّد نوبات من الغضب والإحباط الكثيف. بالإضافة إلى ذلك، ليس من الضرورة أن يكون الإحساس بالذنب في هذا النوع من الهستيريا واضحًا للعقل الواعي. بل إنه قد يكون حتَّى ذلك النوع من الذنب الذي ندعوه بالـ «المُبهم»، ما يعني إنه لا يتَّصل بشيءٍ مُحدَّد».

- «إذًا مسألة الخوف من الموت تلك...».

- »رُهاب الموت».

- «نعم، صحيح، هو ما قُلت. أهو مرضٌ وراثي؟».

أشاح الطبيب ببصره بعيدًا بشكلٍ طفيف كي لا يفضح فضوله حول السؤال، وأجاب: «لا لا أظن».

أحنت كريس رأسها وهزَّتها قائلة: «لا أستطيع استيعاب الأمر. أنا حائرة» ثم رفعت بصرها، وقد برزت أخاديدُ رقيقة في نسيج جبينها وهي تردف: «أعني، من أين أتت تلك الشخصية الجديدة؟».

نقل إليها الطبيب بصره من جديد وقال: «حسنًا، أُكرِّر، هذا مُجرَّد تخمين. لكن بافتراض إنها حالة هستيريا تَحويلية (عُصاب هستيري)، إذًا فالشخصية الأخرى ببساطة هي الجلَّاد الذي يتولَّى مَهمَّة العقاب. لأن إذا عاقبت ريجان نفسها بنفسها، فهذا سيعني اعترافها بالذنب. لكنها تريد الهروب من هذا الاعتراف. ومن ثم، تنشأ الشخصية الأخرى».

- «وذلك ما حدث معها؟ هذا ما تظنه؟».
- «كما قلت. لست مُتأكِّدًا».
بدا أن الطبيب النفسي ينتقي كلماته جيِّدًا كأنه ينتقي حجارة مُستوية وكاملة الاستدارة ليقذفها على صفحة بُحيرة خامدة وهو يقول: «من غير المُعتاد إلى حدٍ ما أن يستطيع طفل في سِنِّها تجميع وتنظيم مكوِّنات شخصية جديدة. وبالطبع، حسنًا، لدينا تلك الأمور المُحيِّرة الأخرى. على سبيل المثال، أداءها مع لوح الويجا من شأنه الإلماح إلى قابلية كاسحة للإيحاء، ومع هذا -كما هو واضح- أنا لم أنوِّمها إيحائيًّا حقًّا قط» قالها وهزَّ كتفيه وأردف «رُبَّما هي قاومت. لكن الشيء المُدهش واللافت للنظر فعلًا هو النُضج المُبكِّر للشخصية الجديدة. تلك الشخصية ليست في الثانية عشرة من عُمرها على الإطلاق. إنها أكبر بكثير. وأيضًا توجد تلك اللغة التي تحدَّثت بها...» ثم تقهقر صوته إلى الخلف وهو يرمق المدفأة بإمعان ويردف «بالطبع توجد حالة مُشابهة، لكننا لا نعلم كثيرًا عنها».
- «ما هي؟».
التفت الطبيب إليها: «حسنًا، إنها نوعٌ من السرنمة، وفيها يُبدي المريض معارف أو مهارات لم يتعلَّمها في حياته قط، وحيث تكون نيَّة الشخصية الأخرى» توقَّف للحظة، ثم أردف «حسنًا، تكون مُعقَّدة بشكلٍ رهيب» وقال مُضيفًا بعدها «وقد قُمت بتبسيط الأمر بصورة مُبالغ فيها». في الحقيقة، لم يُكمل الطبيب إفادته خوفًا من إزعاج كريس دون مُبرِّر: إن نيَّات الشخصية الثانية -هكذا كان من المُفترض أن يُخبرها- تنصبُّ على تدمير الأولى.
- «حسنًا إذًا، ما بيت القصيد؟».
- «وَعِرًا إلى حدٍ ما. إنها في حاجة إلى فحصٍ مُكثَّف بواسطةِ فريقٍ من المُتخصِّصين: أسبوعين أو ثلاثة من الدراسة المُركَّزة في أجواءٍ إكلينيكية، مكان مثل مُستشفى بارنجر في دايتون».
أدارت كريس نفسها بعيدًا، ونكَّست رأسها.

سألها الطبيب النفسي: «أهنالك مُشكلة؟».

هزَّت رأسها نافية وقالت في دِعة وتجهُّم: «لا، أنا فقط فقدتُ الأمل. هذا كل شيء».

- «معذرة، لا أفهمك».

- «تلك قصة طويلة».

اتَّصل الطبيب بمُستشفى بارنجر، ووافقوا على قبول ريجان في اليوم التالي. غادر الطبيبان المنزل. ابتلعت كريس مرارة ذكرى دينينجس المُلِحَّة، وعادت تُفكِّر من جديد في الموت والديدان والعدم والوحدة التي لا تُوصف بكلمات. الهُجُوع والصَّمت والعتمة التي تنتظر أسفل الأرض. لا حراك، ولا تنفُّس، ولا شيء على الإطلاق. هذا كثير... هذا كثير. خفضت كريس رأسها وبكت باقتضاب. ثم مسحت عنها دموعها.

***

استعدادًا للرحلة، وقفت كريس في غرفة نومها تختار جُمَّة من الشعر المُستعار للتخفِّي في مدينة دايتون عندما بزغ كارل عند مدخل الباب الموارب. يوجد شخصٌ ما يريد رؤيتها، هكذا أخبرها.

- «من؟».

- «مُحقِّق».

- «مُحقِّق؟ ويريد رؤيتي؟».

- «نعم يا سيِّدتي».

ناولها كارل بطاقة صغيرة. كانت تُعلن الاسم: ويليام إف كيندرمان. مُلازم أوَّل من إدارة المباحث. الكلمات مطبوعة بخطٍّ مُزخرف ورفيع يُشير أن من اختاره تاجر تُحف لا مُحقِّق، بينما في ركن البطاقة تنزوي كلمات بخطٍ أصغر كأنها منبوذة: قسم جرائم القتل. رفعت كريس بصرها إلى كارل وضيَّقت عينيها في شك وقالت: «هل يحمل معه شيئًا يبدو كأنه نص سينمائي؟ تعرف ما أعني، مظروف مُقوًّى ضخم أو شيءٌ من هذا القبيل؟».

اكتشفت كريس مع مرور الأيام أنه لا يوجد شخص في العالم لا يملك روايةً أو نصًّا أو فكرة لأحدهما أو كلاهما مدسوسة بعيدًا داخل درج مكتب أو في جَورب عقلي. وكان على ما يبدو أنها تجتذب هؤلاء كما يجتذب القساوسة المُشرَّدين والسكارى.

هزَّ كارل رأسه قائلًا: «لا يا سيِّدتي».

مُحقِّق. هل للأمر علاقة ببيرك؟

عثرت كريس على الرجل يتخاذل في مشيته عند مدخل المنزل الرئيسي، وطَرْف قُبَّعته اللَّيِّنة المُتعرِّجة تُمسكه أصابع مُمتلِئة قصيرة تلمع أظافرها المُشذَّبة بعناية حديثًا. كان بدينًا، في أوائل الستينيات من عُمره، وله خَدَّان مُترهِّلان يلمعان بالدِّهن. كان يرتدي سراويل مُجعَّدة، ضيِّقةً من الخصرِ وفضفاضةً بعدها، أسفل مِعطف من الصوف الخشن عتيق الطراز يتدلَّى طويلًا وواسعًا. مع اقتراب كريس منه، أخبرها المُحقِّق بصوتٍ نُفَّاخي مبحوح وهامس: «أستطيع تمييز هذا الوجه في أيِّ طابور مُشتبهين يا سيِّدة ماكنيل».

سألته كريس: «وهل أنا في واحدٍ؟».

- «أوه، يا إلهي! أوه، لا! بالطبع لا! هذا مُجرَّد كلام نمطي اعتدت قوله» هكذا أكَّد لها، ثم أضاف «اسمعيني، أأنت مشغولة؟ لنُرجئ الأمر إلى الغد إذًا. نعم، سآتِ مرَّة أخرى غدًا».

استدار المُحقِّق إلى الخلف كأنَّما هو على وشك المُغادرة عندما صاحت كريس بعصبية: «ما الأمر؟ أهو بيرك؟ بيرك دينينجس؟». بدا أن هدوء المُحقِّق الليِّن واللا مُبالي قد شدَّ بطريقةٍ ما نوابض توتُّرها.

التفت الرجل وعاد إليها، مُحدِّقًا في اغتمام بعينين بُنيَّتين ناديتين وذابلتين بدتا تُحملقان على الدوام في عصورٍ مضت.

قال لها: «يا لها من خَسارة مُفجعة. خُسارة».

سألته كريس دون مواربة: «هل قُتِل؟ أعني، بما أنك شُرطي في قسم جرائم القتل. هل أنت هنا لهذا السبب؟ بيرك قُتِل؟».

كرَّر المُحقِّق: «لا، لقد أخبرتك. الأمر روتيني. أنت تعرفين أنه رجلٌ مُهم جدًّا، ونحن لم نستطِع غض الطرف عن الأمر فحسب. فقط لم نستطِع» ثم كرَّر بنظرة عاجزة وهزَّة من كتفيه «على الأقل نود طرح سؤالًا أو سؤالين. هل سقط؟ هل دفعه شخصٌ ما؟» أخذ يُعدِّد الأسئلة وهو يطرحها بتحريك رأسه من جانب إلى آخر وبيدٍ مرفوعة تتَّجه راحتها إلى الخارج. ثم هزّ كتفيه وهمس بصوتٍ مبحوح: «من يدري؟».

- «هل سُرِق؟».

- «لا، لم يُسرق يا سيِّدة ماكنيل. لم يُسرق قط. لكن من يحتاج دافعًا هذه الأيام؟» كانت يدا المُحقِّق تتحرَّكان باستمرار، كقُفَّازاتٍ رخوة تتلقَّى أوامرها من أصابع مُحرِّك عرائس ضَجِر. «هذه الأيام، الدافع -بالنسبة إلى القاتل- يُشكِّل عِبئًا، بل رُبَّما رادعًا» ثم هزَّ رأسه في حسرة واستطرد «إنها تلك المُخدِّرات. كل تلك المُخدِّرات» ثم نقر على صدره بطرف إصبعه قائلًا «صدِّقيني. أنا أب، وعندما أرى ما آلت إليه الأمور، يتحطَّم قلبي. حقًّا. هل لديكِ أطفال؟».

- «نعم. واحد».

- «ابن أم ابنة؟».

- «ابنة».

- «باركها الرب».

- «ما رأيك، لما لا تأتي إلى مكتبي».

قالتها له كريس وهي تستدير لتُريه الطريق وهي قلقة بشِدَّة من سماع ما عليه أن يقوله بخصوص دينينجس.

- «مدام ماكنيل، هل لي أن أثقل عليكِ بطلب؟».

توقَّفت كريس والتفتت لتواجهه بنظرة قاتمة ومُنهكة متوقِّعة أنه يريد توقيعًا شخصيًا منها لأبنائه. إنهم لا يطلبونه لأنفسهم قط، دائمًا لأولادهم. قالت بُلطف في محاولة لإخفاء نفاد صبرها: «نعم، بالطبع». أشار المُحقِّق ووجهه يُظهر أثر امتعاضة: «إنها معدتي. هل لديكِ أيَّ مياه غازية؟ إذا كان الأمر سيزعجك، فلا عليكِ».

أجابت كريس بابتسامة خافتة مُقتضبة: «لا، لا إزعاج على الإطلاق. اسحب لنفسك مقعدًا في غرفة المكتب» أشارت كريس وهي تستدير وتتَّجه إلى المطبخ «أظن توجد واحدة في الثلاجة».

- «لا، سأرافقك إلى المطبخ».

قالها المُحقِّق وهو يتبعها بمشية مُتهادية وأردف: «أكره عندما أكون مُزعجًا».

- «ليس في الأمر إزعاج».

- «لا، حقًا، أنتِ مشغولة. سآتِ معكِ. ألديكِ أطفال؟» سأل المُحقِّق وهو في طريقه إليها «لا، صحيح» قام بتصحيح نفسه سريعًا «لديكِ ابنة. لقد أخبرتني. هذا صحيح. ابنة واحدة. كم سِنّها؟».

- «لقد بلغت الثانية عشرة لتوِّها».

- «آه، إذًا ليس لديكِ ما يدعو للقلق. ليس بعد. لكن لاحقًا، يجب أن تحترسي» كان يهزّ رأسه «عندها سترين كل أنواع الاضطرابات تتزايد يومًا بعد يوم. أمرٌ غير معقول! لا يُصدَّق! مجنون! أتعرفين، لقد نظرت إلى زوجتي منذ يومين فقط، أو رُبَّما أسبوعين، لقد نسيت.. وقلت لها، يا ماري، العالم، العالم بأكمله» كان قد رفع يديه في إيماءة شاملة «يُعاني من انهيارٍ عصبيٍ جسيم».

دخلا إلى المطبخ، حيث كان كارل يُنظِّف ويُلمِّع مُقدِّمة الفرن. لم يلتفت أو يهتم بوجودهما.

لهث المُحقِّق قائلًا بينما كريس تفتح الثلاجة: «يا له من أمرٍ مُحرجٍ حقًّا».

لكن بصره انجذب إلى كارل، وأخذ يتفحَّص سريعًا وبتساؤل مؤخِّرة رأس الخادم كطائر خبيث ينزلق خفيضًا فوق صفحة بُحيرة. أكمل المُحقِّق: «ها أنا أُقابل نجمة سينمائية مشهورة، لأطلب منها زجاجة مياه غازية. إنها أضحوكة».

كانت كريس قد عثرت على الزجاجة وتبحث الآن عن فتَّاحة الأغطية. قالت له: «أتريد بعض الثلج؟».

- «أوه، لا. سادة تكفي».

فتحت كريس الزجاجة، وأحضرت كأسًا، وصبَّت المياه الغازية الفوَّارة فيها.

قال المُحقِّق بنظرةٍ خافتةٍ مولعةٍ بالذكريات: «أتذكرين ذلك الفيلم الذي مثَّلتِ به الذي يُدعى ملاك؟ لقد شاهدتهُ ست مرَّات».

- «إذا كنت تبحث عن الجاني، فعليك بالمُخرج».

- «أوه، لا، لا، لقد كان مُمتازًا حقًا. لقد أحببته! فقط...».

قاطعته كريس: «تعال، يمكننا الجلوس هنا».

كانت تشير إلى زاوية الإفطار التي تَحِدُّها النافذة، والتي تضم منضدة مصنوعة خشب الصنوبر المُقسَّى بالشمع، ومقاعد مزوَّدة بوسائد منقوشة بأنماط الزهر.

أجابها المُحقِّق: «نعم، بالطبع».

جلسا إلى الطاولة وناولته كريس المياه الغازية.

قال لها: «أوه، أجل، أشكرك».

- «لا عليك. كنت تقول؟».

- «أوه، نعم، الفيلم.. لقد كان رائعًا. حقًّا. إنه مؤثِّر جدًّا. لكن رُبَّما يعيبه شيءٌ واحد صغير» تجرأ المُحقِّق وهو يردف «عيب وحيد ضئيل يكاد لا يُلاحظ. آه، وأرجوكِ صدِّقيني، في مثل هذه الأمور، أنا من العوام ليس إلا، اتفقنا؟ مُجرَّد مُشاهد عادي. فما علمي أنا؟ ومع ذلك، بدا لي أن الموسيقى التصويرية تقف في طريق بعض المشاهد. كانت مُقحمة بشدَّة» حاولت كريس ألا تتململ من نفاد صبرها بينما المُحقِّق يستطرد في جدية، عالقًا في الحماس المُتزايد لوجهة نظره: «ولم تنفك عن تذكيري أن هذا فيلم. تعرفين ما أقصد؟ كالكثير من زوايا التصوير المُتكلِّفة تلك أيضًا. كانت مُشتِّتة تمامًا. بالمناسبة، بخصوص الموسيقى، المؤلِّف الموسيقي، هل سرق ألحانه، رُبَّما من مندلسون(1)؟».

(1) فيليكس مندلوسن بارتولدي، موسيقار ألماني وقائد أوركسترا في الحقبة الرومانتيكية المبكرة.

بدأت كريس في نقر أصابعها برفق على الطاولة، لكنها توقَّفت بغتةً حاليًا. أيُّ نوعٍ من المُحقِّقين هذا؟ هكذا تساءلت، ولماذا يرمق كارل باستمرار؟

قالت كريس بابتسامة خافتة: «نحن لا نطلق على الأمر سرقة، بل نُسمِّيها تحيَّة. لكنني سعيدة أن الفيلم أعجبك. من الأفضل أن تشرب هذا» ثم أضافت بإيماءة إلى كأس المياه الغازية «الصودا بدأت تختفي».

- «نعم، بالتأكيد. إنني ثرثارٌ كبير. اعذريني».

رافعًا الكأس كما لو كان نخبًا، أفرغ المُحقِّق البدين محتوياته في جوفه، وإصبعه الخنصر ترتفع في الهواء بأناقة.

قال زافرًا: «آه، جيِّد. هذا طيِّب». عندما وضع الكأس من يده وقع بصره بإعجاب على تمثال الطائر الذي صنعته ريجان. كان التمثال يتوسَّط الطاولة حاليًا، ومنقاره الطويل يطفو بشكلٍ هزلي أعلى رجَّاجات الملح والفلفل الأسود.

قال باسمًا: «إنه ظريف جدًّا. لطيف حقًّا» ثم نظر إلى كريس مُتسائلًا: «أنتِ من صنعه؟».

- «ابنتي».

- «جميل جدًّا».

- «اسمعني، أكره أن أكون...».

- «أجل، أجل. أعرف. أنت مشغولة جدًّا. سؤال إضافي أو سؤالان ونكون انتهينا. في حقيقة الأمر، هو سؤال واحد فقط. هذا كل شيء. وسأرحل بعدها». كان ينظر إلى ساعة معصمه كما لو أنه يتلهَّف المُغادرة إلى موعدٍ مهم، ثم بدأ كلامه: «بما أن السيِّد دينينجس انتهى من التصوير في الحي، كنا نتساءل إذا ما كان يزور شخصًا ما ليلة الحادث. الآن، باستثنائكِ بالطبع، هل لديه أصدقاء أُخر في الجوار؟».

أخبرته كريس: «أوه، كان في منزلي ليلتها».

ارتفع حاجبا المُحقِّق إلى أعلى كمنجلين: «أوه، حقًّا؟».

ثم سألها: «بالقرب من وقت وقوع الحادث؟».

- «متى وقع؟».

- «في السابعة وخمس دقائق مساءً».

- «نعم إذًا، أظن ذلك».

- «حسنًا، هذا يحسم الأمر إذًا» قالها المُحقِّق وأومأ برأسه وهو يُحرِّك مقعده كما لو أنه يستعد للنهوض، ثم أردف: «كان ثملًا، كان راحلًا، وقد سقط عبر الدرجات. نعم، هذا يحسم الأمر قطعًا. مع ذلك اسمعيني، فقط من أجل التوثيق في المحضر، هل تستطيعين إخباري الوقت الذي غادر فيه المنزل تقريبًا؟».

بإمالة من رأسها تفحَّصته كريس مُثمِّنةً إيَّاه باندهاشٍ مُعتدل. كان يتحسَّس جسد الحقيقة كالأعزبِ المُنهك الذي يَجِس الخضر والفاكهة بيدٍ غير مُحنكة في السوق.

أجابته: «لا أعرف. لم أره».

بدا المُحقِّق حائرًا: «لا أفهم».

- «حسنًا، لقد جاء ورحل في أثناء غيابي عن المنزل. كنت في عيادة طبيب في روسلين».

أومأ المُحقِّق وقال: «آه، الآن فهمت. أجل، بالطبع. لكن كيف عرفتِ أنه كان هنا إذًا؟».

- «أوه، حسنًا، شارون قالت...».

قاطعها: «شارون؟».

- «شارون سبنسر. إنها سكرتيرتي».

- «أوه».

- «كانت في المنزل عندما عرج بيرك، وقد...».

- «هل أتى لرؤيتها؟».

- «لا، لقد جاء من أجلي».

- «أجل، تابعي أرجوك. اعذريني على المُقاطعة».

- «كانت ابنتي مريضة وقد تركته شارون هنا بينما ذهبت لابتياع الدواء، وبوقت رجوعي إلى المنزل، كان قد رحل».

- «وكم كانت الساعة حينها من فضلك؟ أتذكُرين؟».

هزَّت كريس كتفيها ولَوَت شفتيها قائلة: «السابعة والربع رُبَّما، أو السابعة والنصف».

- «ومتى غَادَرْتِ المنزل؟».

- «في السادسة والربع».

- «ومتى غَادَرَتْ السيِّدة سبنسر؟».

- «لا أعلم».

- «خلال فترة مُغادرة السيِّدة سبنسر ووقت عودتك من الخارج، من كان في المنزل بالإضافة إلى السيِّد دينينجس وابنتك؟».

- «لا أحد».

- «لا أحد؟ هل تركت طفلة مريضة بمفردها؟».

أومأت كريس بتعبيرٍ خامد.

- «لا خدم؟».

- «لا، ويلي وكارل كانا...».

- «من هذان؟».

شعرت كريس فجأة بالأرض تميد تحت قديمها عندما أدركت أن المُقابلة الودود تتحوَّل إلى استجوابٍ صارم.

- «حسنًا، ها هو كارل». قالتها كريس مُشيرة برأسها، ونظرها مُثبَّت بوهن على ظهر الخادم المُستمر في تنظيف وتلميع الفرن. ثم أردفت: «وويلي زوجته، إنهما مُدبِّرا منزلي». تلميع.. لِمَ كل هذا التلميع؟ لقد نُظِّفَ الفرن ولُمِّعَ بالكامل في الليلة السابقة.

واصلت كريس: «لقد أخذا طيلة فترة بعد الظهيرة عُطلة يومها. وعندما عُدتُ إلى المنزل لم يكونا قد عادا بعد. لكن ويلي بعدها...». توقَّفت كريس ونظرها مُثبَّت على ظهر كارل.

حثَّها المُحقِّق: «ماذا فَعَلَتْ ويلي؟».

التفتت كريس إليه وهزَّت كتفيها قائلة: «أوه، في الحقيقة، لا شيء».

مدَّت كريس يدها والتقطت لفافة تبغ، فأشعلها كيندرمان لها.

ثم سألها: «إذًا فابنتك فقط هي التي تعرف ميعاد مُغادرة بيرك دينينجس المنزل».

- «هل كان حادثًا حقًّا؟».

- «أوه، بالطبع. هذا مُجرَّد تقصٍّ اعتيادي يا سيِّدة ماكنيل. قطعًا. إن صديقك دينينجس لم يُسرق، فماذا يمكن أن يكون الدَّافع؟».

قالت كريس في اغتمام: «بيرك بارع في تقريع الناس بلسانه. رُبَّما جَذَبَهُ شخصٌ ما وضربه أعلى الدرج».

- «هذا النوع من الطيور، هل له اسم؟ لا أستطيع التفكير فيه. لا بد أنه شيءٌ ما». كان المُحقِّق يداعب تمثال ريجان وعندما لاحظ أن كريس ترمقه بإمعان أبعد يده وبدا عليه الحرج.

- «اعذريني، أعلم أنكِ مشغولة. حسنًا، دقيقة واحدة وسننتهي. الآن بخصوص ابنتك، هل يمكنها معرفة متى غادر السيِّد دينينجس».

- «لا. لقد كانت مُخدَّرة بشدَّة».

- «آه، يا للأسف. يا له من أسف». سقط جفنا المُحقِّق في اهتمام وسأل: «هل الأمر خطير؟».

- «أجل، أخشى أنه كذلك».

رفع يده في كياسة: «هل لي أن أسأل...؟».

- «لم نعلم بعد».

قال المُحقِّق مُحذِّرًا: «احترسي من تيَّارات الهواء. الرياح في الشتاء -عندما يكون المنزل دافئًا- هي بُساط سحري للبكتيريا. لقد اعتادت أمي قَول ذلك. رُبَّما هي خرافة شعبية. رُبَّما. لا أعلم. لكن لأكون صادقًا، الخرافة بالنسبة إليَّ مثل قائمة الطعام في مطعم فرنسي فاخر: إنها تمويه مُعقَّد وبرَّاق لحقيقة لن تستطيعي ابتلاعها بخلاف ذلك، رُبَّما مثل الفاصوليا البيضاء التي يقدِّمونها دومًا أينما طلبتِ شريحة هامبرجر».

شعرت كريس بذاتها تسترخي.. هذا الاستطراد الحميمي الطريف أشعرها بالراحة.. ها قد عاد كلب السانت برنارد المُسالم ذو المظهر الثمل لإنقاذها.

كان المُحقِّق يشير إلى الأعلى، نحو السقف: «أهذه هي يا سيِّدة ماكنيل؟ غرفة نوم ابنتك؟ تلك التي تحوي النافذة الضخمة البارزة التي تطل على تلك الدرجات؟».

أومأت كريس: «نعم، هذه غرفة ريجان».

- «أبقي النافذة مُغلقة على الدوام وستتحسَّن حالتها».

على نقيض توتُّرها منذ لحظات، كانت كريس تُكافح حاليًا لمنع نفسها من الضحك. قالت له: «نعم، سأفعل. في الحقيقة، إنها مُغلقة جيِّدًا بالمصاريع طيلة الوقت».

- «نعم، «درهم وقاية»» اقتبس المُحقِّق جزءًا من الحكمة الشهيرة واعظًا وهو يغمس يدًا مُمتلئة وقصيرة في جيب معطفه، عندما وقع بصره على أطراف أصابع كريس التي بدأت تنقر على الطاولة مُجدَّدًا. قال لها: «آه، أنت مشغولة. حسنًا، لقد انتهينا. فقط سأدوِّن مُلاحظات قصيرة من أجل السجلَّات الرسمية، لقد انتهينا». من جيب معطفه، أخرج الرجل مُخطَّطًا ورقيًا مُجعَّدًا لمسرحية سيرانو دي برچراك من منهج مدرسة ثانوية، والآن بدأ يُفتِّش في جيبٍ خارجيٍ، واستخرج قلم رصاص أصفر قصيرًا جدًّا بدا طرفه المُدبَّب وكأنه شُحِذَ إما بسكين أو بنصل مقص، ثم وضع مُخطَّط المسرحية مستويًا على الطاولة وهو يُعيد تجاعيد الورق إلى وضعها، ثم أمسك القلم بالغ القِصَر فوقه لاهثًا: «فقط سآخذ منك اسمًا أو اثنين، لا أكثر ولا أقل. الآن، هل الاسم سبنسر يبدأ بحرف c؟».

- «أجل».

- «حرف c». كرَّر المُحقِّق وراءها وهو يكتب الاسم في الهامش. ثم سأل: «ومُدبِّرا المنزل؟ اسمهما چوزيف وويلي...؟».

- «لا. كارل وويلي إنجستورم».

- «كارل. أجل. هذا صحيح. كارل إنجستورم». كتب الأسماء في النص الدَّاكن السميك. «الآن، حسب ما أذكر» زفرها بصوتٍ مبحوح وهو يُدير المُخطَّط بحثًا عن مساحة بيضاء يكتب عليها ثم أردف: «أوه، لا. انتظري! لقد نسيت! نعم. مُدبِّرا المنزل. قُلتِ متى عادا إلى المنزل؟».

- «لم أقل. كارل، متى عُدت الليلة الماضية؟».

هكذا صاحت به كريس. أدار الرجل السويسري رأسه في غموض، ثم قال: «كنت في المنزل في التاسعة والنصف تمامًا».

- «نعم. هذا صحيح. لقد نسيت مُفتاحك» قالتها كريس وأعادت بصرها إلى المُحقِّق وأردفت: «أتذكَّر أنني نظرت إلى الساعة المُعلَّقة في المطبخ عندما سمعت صوت جرس الباب».

طرح المُحقِّق سؤالًا على كارل: «هل شاهدتِ فيلمًا جيِّدًا. أنا لا أذهب لمُشاهدة أيَّ فيلم اعتمادًا على رأي النُّقاد» ثم أضاف إلى كريس بنبرة هامسة «أعتمد على آراء الناس.. الجمهور».

أخبر كارل المُحقِّق: «شاهدت بول سكوفيلد في فيلم الملك لير».

- «آه، لقد شاهدت هذا الفيلم! إنه مُمتاز».

تابع كارل: «شاهدته في مسرح الجوزاء. عَرض السادسة مساءً. ثم استقللت الحافلة بعدها مُباشرةً من أمام المسرح و...».

رفع المُحقِّق يده مُعترضًا: «من فضلك، لا داعي لكل هذه التفاصيل. لا، أرجوك لا».

- «أنا لا أُمانع».

- «حسنًا، إذا كنت مُصِرًّا».

- «ترجَّلت من الحافلة في تقاطع جادة ويسكونسن وشارع إم. في التاسعة والثُّلث على ما أظن. ثم سرت عائدًا إلى المنزل».

أخبره المُحقِّق: «اسمع، لم تكن مُضطرًّا لتخبرني بذلك. لكن شكرًا لك على أيِّ حال. إنها مُراعاة بالغة منك. بالمناسبة، هل أعجبك الفيلم؟».

- «أجل، كان جيِّدًا».

- «نعم، هذا رأيي أيضًا. إنه استثنائي. حسنًا، الآن...» التفت المُحقِّق مرَّة أخرى إلى كريس وعاد للكتابة على المُخطَّط مُستطردًا «لقد أهدرت وقتك. لكنها وظيفتي. هذا هو التناقض المُحزن في الأمر. أوه حسنًا، لحظة واحدة وسنكون انتهينا» قالها مُطمئِنًا، ثم أضاف «مأساة... مأساة...» كان يخط شظايا مُتناثرة في هوامشه «بيرك دينينجس، يا له من موهوب. ورجلٌ خبير في طباع الناس أيضًا، أنا مُتأكِّد من ذلك، يعرف كيف يتعامل معهم. كثيرٌ من الأشخاص قادرون على إظهار عمله إما بمظهر جيِّد أو رُبَّما بمظهر سيئ. المصور، ومُهندس الصوت، والمؤلِّف الموسيقي، فضلًا عن ذكر المُمثِّلين، سامحيني. من فضلك صحِّحيني إن كنت مُخطِئًا، يبدو لي أنه يجب على المُخرج البارز هذه الأيام أن يكون مُعالجًا نفسيًا أيضًا مع فريق العمل. هل أنا مُخطئ؟».

- «لا، لستَ مُخطِئًا، لأننا جميعًا غير مُستقرين».

- «حتَّى أنتِ؟».

- «بالذات أنا. لكن دينينجس كان بارعًا في هذا، في الإبقاء على روحك المعنوية مُرتفعة» ثم هزَّت كتفيها في خجل «لكنه بالطبع لديه مزاج مُتقلِّب وحاد مُحبَّب جدًّا».

عدَّل المُحقِّق من وضع المُخطَّط وقال: «آه، حسنًا، رُبَّما يكون كذلك مع الشخصيات البارزة. أُناسٌ في حجمه» كان يُخطُّ من جديد على الورق وهو يُكمل «لكن المهم هو الناس العادية، الأشخاص الذين يتولَّون التفاصيل الصغيرة، والتي إن لم يتولَّوها بدقَّة ستتحوَّل إلى مشاكل كبيرة. ألا تظنين ذلك؟».

رمقت كريس أظافر أصابعها وقالت وهي تهزُّ رأسها: «عندما يترك بيرك العنان لنفسه، لا يُميِّز قط. لكنه يكون لئيمًا فقط حين يُكثِر من الشراب».

- «جميل جدًا. لقد انتهينا. قُضي الأمر». كان كيندرمان يخِطُّ حرفًا أخيرًا عندما تذكَّر فجأة شيئًا.

- «أوه، لا، انتظري. آل إنجستورم. هل ذهبا وعادا معًا؟».

أجابت كريس في اللحظة التي أدار فيها كارل رأسه ليجيب وقالت: «لا، ويلي ذهبت لمشاهدة فيلم للبيتلز. لقد دَلَفَت إلى المنزل بعد دقائق فقط من قدومي».

قال كيندرمان: «أوه، حسنًا، لِمَ طرحت هذا السؤال؟ إنه لا علاقة له بأيِّ شيء».

قالها وطوى المُخطَّط ووضعه برفقة القلم الرصاص في جيب معطفه الداخلي. ثم تنهَّد بارتياح: «حسنًا، هذا كل شيء. عند عودتي إلى المكتب، لا شك أنني سأتذكَّر شيئًا كان ينبغي عليَّ السؤال عنه. نعم، الأمر دائمًا ما يحدث معي. أوه، حسنًا، أيًّا كان. سأتَّصل بك حينها».

نهض المُحقِّق واقفًا وتبعته كريس وهي تقول: «حسنًا، سأكون خارج المدينة لمدَّة أسبوعين».

طمأنها المُحقِّق: «لا أطيق الانتظار» كرَّرها مرَّتين وهو يُحدِّق إلى المنحوت بابتسامةٍ وَلِعة «آه، إنه لطيف جدًّا، يا للطافته».

ثم انحنى فوقه وأمسك به وأخذ يداعب منقار الطائر بإبهامه، ووضعه مكانه بعدها واستعدَّ للرحيل.

سأل المُحقِّق كريس وهي تُرافقه إلى الباب الأمامي: «هل لديكِ طبيب جيِّد؟ أعني لابنتك».

قالت كريس بوجهٍ كالح: «في الحقيقة، لدي مجموعة كافية منهم. على أيِّ حال، سأصطحبها للفحص في مُستشفى يُفترض أنها بارعة في القيام بما تقومون به أنتم معشر الشرطة، ولكن مع الڤيروسات».

- «لنأمل أن يكونوا أكثر براعة يا سيِّدة ماكنيل. هل هي خارج البلدة، تلك المُستشفى؟».

- «أجل، هي كذلك. إنها في أوهايو».

- «وهل هي جيِّدة؟».

- «سنرى».

- «أبقيها بعيدًا عن تيَّارات الهواء».

كانا قد بلغا باب المنزل الأمامي.

- «حسنًا، أستطيع القول إن مُقابلتك كانت شرفًا لي» قالها المُحقِّق ثم أردف بخطورة وهو يقبض قُبَّعته من طرفها بكلتا يديه «لكن في ظلِ الظروف الحالية...» أحنى رأسه قليلًا وهزَّها ثم نظر إليها «أنا شديد الأسف».

بذراعيها معقودتين على صدرها، خفضت كريس رأسها وقالت بهدوء: «شكرًا لك. شكرًا جزيلًا».

فاتحًا الباب، خطا المُحقِّق إلى الخارج، ووضع قُبَّعته على رأسه واستدار ونظر إلى كريس قائلًا: «حسنًا، حظًّا طيِّبًا مع ابنتك».

ابتسمت كريس في إنهاك: «حظًّا طيِّبًا مع العالم».

أومأ المُحقِّق برأسه في دفءٍ وأسى، ثم التفت إلى يمينه، واستنشق الهواء، وسار مُتهاديًا عبر الطريق. راقبته كريس وهو يقترب من سيَّارة الدورية التي كانت تقف قرب الزاوية. رفع يده على حين غرة مُمسكًا بقُبَّعته مع هبَّة ريح مُفاجئة جاءت من الجنوب وجعلت أطراف معطفه الواسع تُرفرف كالعلم. خفضت كريس نظرها وأغلقت الباب.

***

عندما جلس على مقعد الرُكَّاب في سيَّارة الدورية، التفت كيندرمان ونظر إلى الخلف حيث المنزل، لقد ظنَّ أنه لاحظ حركة ما عند نافذة ريجان، هيئة رشيقة وسريعة تحرَّكت بشكلٍ خاطف إلى الجانب، ثم إلى خارج مجال الرؤية. لم يكن مُتأكِّدًا. لقد رآها بالكاد وبسرعة كبيرة جدًّا تكاد تكون لا شعورية. استمرَّ في النَّظر ولاحظ أن مصراعيَّ النَّافذة مفتوحان. غريب. لقد أخبرته كريس أنهما مُغلقان على الدوام. لبُرهة من الوقت، واصل المُحقِّق تحديقه. لم يظهر أحد. بعبوسٍ حائر، خفض بصره وهزَّ رأسه، ثم فتح صندوق سيَّارة الدورية الداخلي، وأخرج مدية مُتعدِّدة النصال ومظروف أدلَّة، ثم أرخى أصغر نصل منها، ووضع إبهامه داخل المظروف، واستخرج من تحت ظفره فُتاتًا مجهريًّا لصلصال أخضر

كشطه خلسةً من تمثال ريجان. عندما انتهى، زمَّ المظروف حاكمًا غلقه ووضعه في جيب معطفه، وقال للسائق: «حسنًا، هيَّا بنا».

ابتعدا ببطء عن الرصيف، وفي أثناء قيادتهما عبر شارعِ بروسبكت، قال كيندرمان للسائق مُحذِّرًا: «على رسلك»، كان قد لاحظ الازدحام يتراكم أمامهما. ثم خفض رأسه، وأغلق عينيه، وأمسك بعظمة أنفه بأصابع مُنهكة، ثم تنهَّد في إحباط: «آه، يا إلهي. يا له من عالم. يا لها من حياة».

***

لاحقًا في تلك الليلة، عندما حَقَنَ د. كلاين ريجان بخمسين ميليجرامًا من السبارين ليضمن هدوءها خلال الرحلة إلى مدينة دايتون في أوهايو، وقف كيندرمان في مكتبه مُتجهِّمًا وراحتا يده تضغطان سطح مكتبه في أثناء تمعُّنه في أجزاءٍ مُحيِّرة من البيانات، داخل الغرفة التي لا يُنيرها سوى شعاعٍ واهنٍ ينبعث من مصباحِ مكتبٍ عتيقٍ، وينعكس باهرًا على فوضى من التقارير المُبعثرة. كان يظن أنَّ الأمر يساعده على تضييق محور تركيزه. بدت أنفاسه غليظة وثقيلة في العتمة. وأخذ بصره ينتقل هنا، وبعدها هناك، ثم استنشق نفسًا عميقًا وأغلق عينيه. لنُجري تصفيَّات بيعٍ عقلية! هكذا أوعز نفسه، كما كان يفعل دائمًا عندما يرغب في تصفية ذهنه وترتيب أفكاره من أجل الحصول على وجهة نظر طازجة. يجب أن ينفد كل شيء! ثم فتح عينيه بعدها، وأعاد النَّظر في تقرير الطبيب الشرعي حول وفاة دينينجس:

... تمزُّق في النُخاع الشوكي، وتهشُّم في الجمجمة والعنق، بالإضافة إلى رضوضٍ وجروحٍ وسحجاتٍ عديدة. تمدُّد في جلد العُنق، تورُّمات كَدَميَّة في جلد العُنُق، قطع في عضلة العُنُق، والعضلة القصِّيَّة الخُشائيَّة، والطَّاحلة، وشِبه المُنحرفة، والعديد من عضلات الرقبة الأصغر، مع كسرٍ في العمود الفقاري والفقرات وتمزُّق في كُلٍ من الأربطة الشوكية الأمامية والخلفية...

نظر خارج النَّافذة إلى المدينة الغارقة في الظلام. كانت قُبَّة مبنى الكابيتول مُضاءة في إشارة إلى أن مجلس الشيوخ يعمل في وقتٍ مُتأخر. من جديد أغلق المُحقِّق عينيه، مُستعيدًا مُحادثته مع طبيب الحيِّ الشرعي في الساعة 11:55 مساءً، ليلة موت دينينجس.

- «هل يمكن أن تكون سقطة؟».

- «آه، حسنًا. هذا غير مُرجَّح تمامًا. العضلة القصِّيَّة الخُشائيَّة والعضلة شبه المُنحرفة وحدهما كفيلتان باستبعاد الاحتمال. أيضًا يجب إذا افترضنا ذلك أن نتجاهل تهتُّك الأوصال العديدة في العمود الفقاري العُنُقي، فضلًا عن الأربطة التي تعقد العظام معًا».

- «أريد معرفة رأيك ببساطة ووضوح. بأيِّ طريقة، هل الأمر مُمكن؟».

- «نعم. الرجل كان مخمورًا، وتلك العضلات في حالة ارتخاء إلى حدٍ ما بلا شك. رُبَّما إذا كانت قوَّة الاصطدام الأوَّلي عنيفة بما فيه الكفاية...».

- «كأن يسقط من ارتفع ثلاثين أو أربعين قدمًا قبل الارتطام مثلًا؟».

- «حسنًا، أجل. وبالإضافة إلى ذلك، إذا حُشِر رأسه في شيءٍ ما بعد الارتطام مُباشرةً... أو بطريقة أخرى، لو حدث تداخلٌ فوري مع دوران الرأس مع الجسد الطبيعي كوحدةٍ واحدة، عندها رُبَّما، أقول رُبَّما فقط، قد تحصل على هذه النتيجة».

- «هل يمكن أن يكون شخص آخر قد فعلها؟».

- «نعم. لكنه يجب أن يكون رجلًا قويًا بشكل استثنائي».

راجع كيندرمان رواية كارل إنجستورم عن مكان وجوده وقت موت دينينجس. كان وقت العرض مُتطابقًا، وكذلك جدول مواعيد حافلة العاصمة لتلك الليلة. لكن علاوة على ذلك، سائق الحافلة التي ادَّعى كارل أنه استقلَّها من أمام المسرح ترك الخدمة عند تقاطُع جادة ويسكونسن مع شارع إم، المكان الذي صرَّح كارل أنه ترجَّل فيه نحو الساعة التاسعة والثلث. لقد حدث تغيير في مناوبة السائقين، والسائق الذي ترك الخدمة قد سجَّل وقت وصوله إلى نُقطة التبادل في التاسعة وثماني عشرة دقيقة

بالتحديد. وبعد، قَبعَ على مكتب كيندرمان سجل تُهمة جنائية رُفعت ضد إنجستورم في 27 أغسطس عام 1963، تزعم أنه سرق كمِّية من الأدوية الناركوتية على مدى أشهر من منزل طبيب في بيڤرلي هيلز حيث كان يعمل هو وويلي وقتها.

وُلِد في 20 أبريل عام 1921، في زيورخ بسويسرا. تزوَّج بويلي ني برارون في 7 سبتمبر عام 1941. له ابنة تدعى إليڤيرا ولدت في مدينة نيويورك في 11 يناير عام 1943 عنوانه الحالي غير معروف. المُدَّعى عليه...

ما تبقَّى وجده المُحقِّق مُحيِّرًا:

الطبيب الذي اعتُبرت شهادته شرطًا لازمًا لنجاح المُحاكمة أسقط التُهمة فجأة ودون تفسير.

لِمَ فعل ذلك؟

وبعد أن عُيِّن آل إنجستروم بعدها بشهرين فقط من قِبَل كريس ماكنيل، أعطاهما الطبيب توصية طيِّبة.

لِمَ فعل ذلك؟

لقد سرق إنجستروم الدواء قطعًا، لكن بالرغم من ذلك فشل الفحص الطبي الذي عُقِد وقت التهمة في إعطاء أدنى إشارة إلى أن الرجل كان مُدمنًا، أو حتَّى مُتعاطيًا عاديًا.

لِمَ لا؟

مُبقيًا على عينيه مُغلقتين، تلى المُحقِّق بصوتٍ خفيض مُستهل قصيدة لويس كارول «ثرثرة»: «إنه الليل والغرائر نشطة، تخدش وتفتح ثقوبًا في جانب التَّل...». كانت تلك حيلة أخرى من حيل كيندرمان لتصفية ذهنه. عندما انتهى من الدندنة، فتح عينيه وثبَّت بصره على قُبَّة الكابيتول. كان يحاول الإبقاء على عقله خاويًا، ورغم ذلك، وكالعادة، وجدها مَهمَّة مُستحيلة. مُتنهِّدًا، رمق المُحقِّق تقرير أخصائي الشرطة النفسي حول التدنيسات الأخيرة في كنيسة الثالوث المُقدَّس: «... تمثال... فالوس...

فضلات بشرية... داميان كاريس». الكلمات السابقة جميعها شُدِّد أسفلها باللون الأحمر. أخذ صفير أنفاسه يخفُت تدريجيًا إلى أن استحال صمتًا تامًا، ومدَّ يده مُلتقطًا منشورًا أكاديميًا عن الشعوذة، وانتقل إلى الصفحة التي عُلِّمت بدبُّوس أوراق:

القُدَّاس الأسود... شكل من أشكال عبادة الشيطان، الطَّقس يتكوَّن بشكلٍ رئيسي من (1) عِظة «الخُطبة» حول ممارسة الشَّر في المجتمع، (2) الجماع مع الشيطان (يُشاع أنه مؤلم، قضيب الشيطان يوصف بأنه «جليدي ومُثلَّج»)، و(3) مجموعة متنوِّعة من الانتهاكات ذات طبيعة جنسية في المُجمل. مثلًا، يُجرى تحضير قُربان مُشاركة (مُركَّب من طحين، وبراز، ودم الحيض، وقيح)، وبعد ذلك يُشق ويُستخدم كفرج صناعي، ثم يتناوب عليه الكهنة مُضاجعينه بشراسة وهم يهذون بأنهم يغتصبون العذراء والدة الرب، أو أنهم يهتكون عرض المسيح باللواط. وفي سياقٍ آخر لهذه المُمارسات، يُولَج تمثال السيِّد المسيح في مهبل فتاة، في الوقت نفسه الذي يُجرى فيه إدخال القربان إلى دُبُرها، ثم يسحقه الكاهن وهو يصيح بعبارات تجديف، ويقتحم فرج الفتاة هاتكًا عرضها. أيضًا تلعب صور السيِّد المسيح ومريم العذراء دورًا مُتكرِّرًا في الطقوس. صورة العذراء مثلًا، يُعاد رسمها لإعطائها مظهرًا ماجنًا وداعرًا، ويزوَّد جسدها بأثداءٍ يمتصَّها الطَّائفيون، وأيضًا مُجسَّم فرج يخترقه قضيب أحيانًا. تماثيل المسيح تزوَّد بفوالس ضخمة يمتصَّها كلٌ من الرجال والنساء، وتستخدم أيضًا لإيلاجها في فروج النساء ودُبُر الرجال. أحيانًا، بدلًا من التمثال، يُربط إنسانٌ إلى صليب، ويستخدم عوضًا عنه، وعندما يقذف المني يُجمع في كأسٍ دَنِسة مُكرَّسة لذلك، ويستخدم بعدها في صنع القربان، الذي يُعَد للنشر على المذبح وتغطيته بالبراز. هذا...

قلب كيندرمان الصفحات حتَّى وصل إلى فقرة مُسطَّرة باللون الأحمر تتعلَّق بالقتل الطقسي، وأخذ يقرأها ببطء وهو يقضم الجلد الميِّت عن

إصبعه السبَّابة. وعندما انتهى تجهَّم وجهه وهزَّ رأسه، ثم رفع نظرة مُتأمِّلة إلى المصباح العتيق. ثم أغلقه وغادر مكتبه.

وقاد سيَّارته إلى المشرحة.

***

كان المُلازم الشاب الجالس إلى المكتب يمضغ شطيرة هامبرجر بالجبن ويُبعد الفُتات عن لغز الكلمات المُتقاطعة أمامه عندما اقترب كيندرمان منه.

زفر المُحقِّق بصوتٍ أجش: «دينينجس».

أومأ المُلازِم برأسه، وملأ سريعًا الحروف الخمسة في العمود الأُفُقي، ثم نهض مُصطحبًا شطيرته وسار عبر الممر الطويل.

قال باقتضاب: «من هنا». تبعه كيندرمان وقُبَّعته في يده، مُتتبِّعًا رائحة الخردل وبذور الكروياء الخافتة حتَّى وصل إلى صفوفٍ من خزائن التبريد.. إلى الخزائن عديمة الأحلام التي تُستخدم لإيداع العيون فاقدة البصر.

توقَّفا عند الخزينة رقم 32. سحب المُلازم فاقد الحس الصندوق إلى الخارج، وقضم شطيرته لتسقط قشرة خُبز مُلوَّثة بالمايونيز على الغطاء الذي استحال رماديًّا. وقف كيندرمان مُحدِّقًا، ثم بعدها، أزاح الغطاء ببطءٍ ورفق ليكشف ما شاهده من قبل لكنه يأبى تصديقه بعد: كانت رأس دينينجس مقلوبة بالكامل إلى الخلف وتنظر إلى الاتِّجاه المُعاكس.

الفصل الخامس

داخل النطاق الأخضر الدَّافئ القابع في حرم جامعة چورچ تاون، هرول داميان كاريس وحيدًا حول مضمارٍ بيضاويٍ مُمهَّد مُرتديًا سراويل كاكية قصيرة وتيشيرت قُطني غارق في عرق العافية. أمامه في الأعلى، فوق تلَّة صغيرة، تنبض قُبَّة المرصد الفلكي المطلية بالجير الأبيضِ مع إيقاع خطواته الواسعة، بينما من خلفه تتراجع كلية الطب بعيدًا مع الثَّرى الذي يتخلخل أسفل قدميه واكتراثه المُتناقص بالأشياء. منذ إعفائه عن مهامه، يأتي داميان إلى هنا يوميًّا، طاويًا الأميال ومُطاردًا النوم. لقد تمكَّن من ضبطه تقريبًا، استطاع بالكاد تهدئة الحزن الذي عصر قلبه بقبضةٍ قاسيةٍ كالوشمِ العميقِ. عندما يركض إلى أن يشعر بأنه على وشك الوقوع مُغشيًا عليه من الإعياء، تصير قبضة الألم أقل صرامة وأحيانًا تختفي.. لبعض الوقت.

عشرون دورة.

أجل، هذا أفضل. أفضل بكثير. باقٍ اثنتان.

بعضلات ساقٍ قوية تنبض بالدم والألم، وصلادةٍ مُستأسِدةٍ مُستفيضةٍ، ضرب كاريس الأرض بعنف مُلتفًّا حول المُنعطف عندما لاحظ شخصًا ما يجلس على دكَّة عند حافة المضمار، حيث ترك منشفته وحُلَّته الرياضية. كان رجلًا بدينًا في مُنتصف العمر يرتدي مِعطفًا واسعًا وقُبَّعة طريَّة مُجعَّدة. بدا وكأنه يراقبه. أهو كذلك حقًّا؟ أجل. كان بصره يتبع كاريس أينما خطى.

أسرع القس خُطاه، مُنهيًا لفَّته الأخيرة بأشواطٍ واسعة، ثم تباطأ لاهثًا بعدها مع مروره جوار دَكَّة دون أن تفلت منه لمحة جانبية، بينما يداه تتَّكان على جانبيه الخافقين برفق. جيشان صدره العضلي وكتفاه ضغطا معًا قميصه قصير الكُمَّين، مُشوِّهين كلمة الفلاسفة المطبوعة على المُقدِّمة بحروفٍ كانت سوداء من قبل، لكنها الآن بهتت بفعل الغسل المُتكرِّر.

نهض الرجل في المعطف الفضفاض وبدأ في الاقتراب منه.

- «الأب كاريس؟». هكذا صاح به كيندرمان بصوتٍ أجش.

التفت القس وأومأ باقتضاب مُضيِّقًا عينيه في ضوء الشمس الحارق وهو ينتظر وصول المُحقِّق إليه، وأشار إليه كي يُرافقه عندما بدأ في التحرُّك مرَّةً أخرى. «هل تمانع؟ سأُصاب بشدٍ عضلي إذا توقَّفت» نطقها لاهثًا.

- «لا، على الإطلاق». قالها المُحقِّق وهو يهزُّ رأسه بإشارة تعزوها الحماسة، وهو يدسُّ يديه في جيبي معطفه. كانت مسافة السير من موقف السيَّارات قد أنهكته.

سأله اليسوعي: «هل، هل التقينا من قبل؟».

- «لا يا أبت. لم نتقابل. لكنهم قالوا إنك تبدو كمُلاكم. قالها لي قسٌّ ما في مبنى الإقامة، لقد نسيت...» قالها مُخرِجًا محفظته «أنا فاشل مع الأسماء».

- «وما اسمك؟».

- «مُلازم أوَّل ويليام إف كيندرمان» ثم أبرز إثبات هويَّته «قسم جرائم القتل».

- «حقًّا؟».

قالها كاريس وهو يتفحَّص شارته وبطاقة الهويَّة بفضولٍ صبياني ساطع. ثم أظهر وجهه المتورِّد والمُتصبِّب عرقًا نظرة بريئة توَّاقة وهو يلتفت إلى المُحقِّق قائلًا: «ما الأمر إذًا؟».

أجابه كيندرمان باندهاش من اكتشف شيئًا لتوِّه في أثناء تفحُّصه لقوَّة بنية اليسوعي: «أتعرف شيئًا يا أبت؟ أنت حقًّا تُشبه المُلاكمين! اعذرني،

لكن تلك النُدبة التي تعلو عينك بقليل» كان يُشير إليها «تُشبه تلك التي حظى بها مارلون براندو في فيلم عند ضفَّة الماء. نعم يا أبت، تمامًا كمارلون براندو! لقد أعطوه نُدبة» كان يصوِّر الأمر له، جاذبًا عينه من طرفها «جعلت عينه تبدو كأنها نصف مُغلقة، وغامضة قليلًا طيلة الوقت، وحزينة إلى حدٍ ما. حسنًا، هذا أنت» ثم أضاف مُتمِّمًا «مارلون براندو، أُيخبرك الناس بهذا يا أبت؟».

- «وهل يخبرك الناس أنك تبدو كبول نيومان؟».
- «دائمًا. وصدِّقني، داخل هذا الجسد، يُصارع السيِّد نيومان للخروج. المكان مُزدحم جدًا. يوجد داخلي أيضًا كلارك جيبل».

بنصف ابتسامة، هزَّ كاريس رأسه ونظر بعيدًا.

سأله المُحقِّق: «هل مارست المُلاكمة من قبل؟».

- «أوه، قليلًا فقط».
- «أين؟ في الجامعة؟ هنا في البلدة؟».
- «لا، في نيويورك».
- «آه، توقَّعت ذلك! مُسابقات القُفَّازات الذهبية! هل أنا على حقٍّ؟».

أخبره كاريس بابتسامة جانبية: «لقد ترقَّيت إلى نقيب لتوِّك. الآن إذًا، كيف يمكنني مُساعدتك يا حضرة المُلازم؟».

- «سِر ببطء». قالها المُحقِّق مُشيرًا إلى حنجوره: «انتفاخٌ رئوي».
- «أوه، معذرة. بالطبع».
- «هل تُدخِّن؟».
- «أجل».
- «يجب ألا تفعل».
- «انظر، علام يدور الأمر يا حضرة المُلازم. هل يمكننا الاختصار؟».
- «أجل. بالطبع. كنت أستطرد كالعادة. عفوًا. هل أنت مشغول؟ هل أُقاطعك؟».

رمق كاريس كيندرمان بنظرة جانبية من جديد، وابتسامة مذهولة في عينيه: «تُقاطع ماذا؟».

- «حسنًا، صلاة ذهنية رُبَّما».
- «أظن أنك ستترقَّى إلى نقيب قريبًا، أتعرف ذلك؟».
- «اعذرني يا أبت، هل فاتني شيء؟».
هزَّ كاريس رأسه: «أشُك في أنك تفوِّت شيئًا على الإطلاق».
- «ماذا تعني يا أبت؟ ماذا؟».
أوقف كيندرمان سيرهما وبذل جُهدًا هائلًا كي لا يبدو مُرتبكًا، لكن رؤيته عيني اليسوعي المُجعَّدتين، جعلته يخفض رأسه ويضحك في أسى: «آه، حسنًا، بالطبع... أنت طبيب نفسي. من أُمازح؟ انظر، إنها عادة لديَّ يا أبت. اللَّزوجة، إنه الأسلوب الكيندرماني: لزوجة محضة. حسنًا، سأكُف عنها الآن وأخبرك مُباشرةً بفحوى الأمر كله».
قال كاريس: «أعمال التدنيس».
قال المُحقِّق بهدوء: «إذًا، لقد أهدرتُ طبعي اللَّزج هباءً».
- «معذرة».
- «لا عليك. لقد استحققت هذا» ثم أضاف مُؤكِّدًا «نعم، الأمور التي وقعت في الكنيسة، ورُبَّما أمرٌ إضافي كذلك يا أبت».
- «أتعني جريمة قتل؟».
- «أجل. أُلْكُمْني مرَّةً أخرى أيُّها الأب كاريس. أنا أستمتع بالأمر».
هزَّ كاريس كتفيه: «أوه، حسنًا، الأمر واضح. أنت من قسم جرائم القتل».
- «لا عليك يا مارلون براندو. أيُخبرك الناس أنك مُتحاذقٌ نوعًا ما بالنسبة إلى قسٍّ؟».
تمتم كاريس: «الذنب ذنبي».
على الرغم من أنه كان يبتسم، شَعَرَ بندمٍ لأنه رُبَّما قلَّص من ثِقةِ المُحقِّق بنفسه. لم يكن يقصد ذلك، والآن شعر ببعض البهجة من الفرصة السانحة أمامه ليبدو مُبلبلًا. «ما الرَّابط؟» قالها وهو حريص على تجعيد جبينه «لا أفهم».

قرَّب كيندرمان وجهه من وجه القِس وقال: «اسمعني يا أبت، هل يمكن الإبقاء على ما سأقول سرًّا بيننا؟ مثل مسألة الاعتراف، إذا جاز القول؟».

أجابه كاريس: «نعم، بالطبع. ما الأمر؟».

- «أتعرف المُخرج الذي كان يصوِّر الفيلم هنا يا أبت؟ بيرك دينينجس؟».

- «نعم. رأيته».

قال المُحقِّق مُومئًا: «رأيته! وهل تعرف أيضًا كيف مات؟».

هزَّ كاريس كتفيه: «حسنًا، فقط ما قرأته في الصُحُف...».

- «هذا مجرَّد جزءٌ من الأمر».

- «أوه؟».

- «نعم. مجرَّد جزء. اسمع، ماذا تعرف عن السِّحر؟»

التوت قسمات كاريس في حيرةٍ وصاح: «ماذا؟».

- «اصبر واستمع. أنا أحاول الوصول إلى شيءٍ ما».

- «آمُل ذلك».

- «الآن إذًا. السِّحر. هل الموضوع مألوف لك؟ أعني، من طَرَف السَّحرة، لا طَرَف مُطارديهم».

ابتسم كاريس قائلًا: «أجل. لقد كتبت عنه ورقة بحثية ذات مرَّة. من الجانب النفسي».

- «أوه، حقًّا؟ أوه، هذا رائع! عظيم! تلك علاوة أيها الأب براندو! في إمكانك مُساعدتي أكثر ممَّا تصوَّرت. اسمعني...» قالها مُقتربًا وهو يمسك بذراع اليسوعي وهما يلتفَّان حول زاوية ويقتربان من دَكَّة أخرى «حسنًا، أنا من العوام ولم يكن تعليمي جيِّدًا تمامًا. أعني سابقًا يا أبت. لكنني أقرأ. أعرف ما يقولون عن الرجال العصاميين، وكيف إنهم نماذج مروَّعة من العمالة غير الماهرة. لكن بالنسبة إليَّ -وسأتحدَّث بصراحة- فإني لستُ خجلًا تمامًا. على الإطلاق. أنا...» فجأة أوقف استرساله،

وخفض عينيه، وهزَّ رأسه قائلًا «اللزوجة. لا أستطيع السيطرة عليها» ثم نظر إلى أعلى «اعذرني. أنت مشغول».

- «أجل. أنا أبتهل».

قالها اليسوعي بطريقة جافة وبلا انفعال، لذا أوقف المُحقِّق سيرهما مرَّة ثانية وسأله: «أأنت جاد؟»، ثم أجاب سؤاله بنفسه: «لا»، ثم توجَّه نحو الأمام مرَّة أخرى وواصلا سيرهما.

قال كيندرمان: «سأختصر. أعمال التدنيس، هل تُذكِّرك بأيِّ شيءٍ له علاقة بالسِّحر؟».

- «نعم. يجوز. بعض الطقوس تُستخدم في القُدَّاس الأسود».
- «مُمتاز. الآن بخصوص دينينجس. لقد قرأت كيف مات؟».
- «نعم، لقد سقط عبر تلك الدرجات «هيتشكوكية الطراز»».
- «حسنًا، سأخبرك. ومن فضلك. الأمر سريٌّ تمامًا».
- «بالتأكيد».

بدا الألم على وجه المُحقِّق ما إن لاحظ أن كاريس لا ينتوي الاستراحة فوق الدَّكَّة. لذا توقَّف فتوقَّف القس معه.

قال بحزن: «هل تُمانع؟».

- «ماذا؟».
- «أيمكننا التوقُّف؟ رُبَّما الجلوس؟».
- «أوه، بالطبع». قالها وبدأ في العودة أدراجه نحو الدَّكَّة.
- «ألن تُصاب بشدٍ عضلي؟».
- «لا، أنا الآن على ما يُرام».
- «مُتأكِّد؟».
- «نعم. مُتأكِّد».

أراح كيندرمان جسده الضخم فوق الدَّكَّة، وزفر بعُمق تنهيدة راضية. قال: «آه. هذا أفضل بكثير. الحياة ليست تمامًا كرواية ظلام في ظهيرة».

- «حسنًا إذًا. الآن، بيرك دينينجس، ماذا عنه؟».

رمق المُحقِّق حذاءه وقال: «آه، أجل، دينينجس، بيرك دينينجس، بيرك دينينجس...» ثم رفع بصره ونظر إلى كاريس، الذي كان يمسح العرق عن جبينه بطرف منشفته. قال المُحقِّق في النهاية بهدوءٍ واتِّزان: «بيرك دينينجس أيها الأب الطيِّب، عُثر عليه عند قاع ذلك الدرج، في تمام الساعة السابعة وخمس دقائق، ورأسه مُلتوٍ تمامًا عكس الاتِّجاه الطبيعي».

تناهت إلى مسمعيهما أصوات صياح ضعيفة آتية من ملعب البيسبول حيث يتدرَّب فريق الجامعة. خفض كاريس منشفته وثبَّت نَظَرَهُ على المُلازم وقال: «ألم تحدث الإصابة بسبب السَّقطة؟».

هزَّ كيندرمان كتفيه وقال: «بالتأكيد هذا مُحتمل».

أنهى له القس عبارته مُفكِّرًا: «لكنه مُستبعد».

- «إذًا ماذا يتبادر إلى ذهنك في سياق أعمال السِّحر؟».

جلس كاريسٍ على الدَّكَّة بجوار كيندرمان، وبصره يشرد في تأمُّل. ثم التفت إلى المُحقِّق وقال: «هذه -من المُفترض- الطريقة التي يكسر بها الشيطان أعناق الساحرات. أو على الأقل، هكذا تقول الأسطورة».

- «أهي أسطورة؟».

أجابه القس: «أوه، حسنًا، بالطبع. على الرغم من أن بعض الناس قد ماتت بهذه الطريقة. أفترض أنهم على الأرجح يكونون أعضاء جماعة من السَّحرة الذين إمَّا انشقُّوا أو أفشوا أسرارًا» ثم حدَّق بعيدًا وأضاف «لا أعلم بالضبط. هذا مُجرَّد تخمين» ثم أعاد نظره إلى المُحقِّق قائلًا «لكنني أعرف أنها دومًا علامة مُسجَّلة لوقائع القتل الشيطانية».

- «بالضبط يا أبت! بالضبط! تذكَّرت العلاقة من جريمة وقعت في لندن. ولقد مرَّ على الأمر الآن يا أبت نحو أربع أو خمس سنوات فقط. تذكَّرت قراءتي الواقعة في الصُحُف».

- «نعم، قرأت الشيء نفسه. لكنني أظن أن الأمر اتضح أنه خُدعة».

- «نعم، هذا صحيح. لكن في هذه الحالة، على الأقل، تستطيع رؤية علاقة ما، رُبَّما بالإضافة إلى الأمور التي حدثت في الكنيسة. قد يكون

شخصًا مُختلًا يا أبت، شخصًا حاقدًا على الكنيسة.. تمرُّدٌ جاهل، رُبَّما».

مُنحنيًا إلى الأمام، وبكفَّين مُتشابكين، أدار القس رأسه ورمق المُحقِّق بنظرة مُثمِّنة: «ماذا تقصد؟ قسٌّ مريض؟ أهذا اشتباهك؟».

- «أنت الخبير النفسي. أنت من يُفترض أن يُخبرني».

أدار كاريس رأسه مُحدِّقًا أمامه، ثم قال مُفكِّرًا: «حسنًا، بالتأكيد واضح أن أعمال التدنيس مَرَضِيَّة. وإذا كان دينينجس قد قُتِلَ، فحسنًا، القاتل سيكون مريضًا بدوره».

- «ورُبَّما لديه بعض المعرفة بالسِّحر؟».

مُتأمِّلًا، أومأ كاريس: «نعم، مُحتمل».

- «إذًا، من تنطبق عليه الشروط يعيش أيضًا في المجاورة ولديه صلاحية دخول الكنيسة ليلًا؟».

التفت كاريس وحدَّق إلى كيندرمان بنظرةٍ ثابتة، ثم مع صوت فرقعة مضرب التفت مرَّة أخرى لرؤية لاعب يميني نحيف وطويل ينجح في التقاط الكُرة.

غمغم كريس: «قسٌّ مُختل. مُحتمل».

- «اسمع يا أبت، من فضلك! أعرف أن الأمر صعب عليك. أتفهَّم هذا. لكن من بين كل القساوسة في هذه الجامعة، أنت الطبيب النفسي، أليس كذلك؟».

التفت كاريس نحوه قائلًا: «لا، لقد حدث تغيير في التكليف».

- «أوه، حقًّا؟ في نصف العام الدراسي؟».

- «هكذا الكهنوت».

- «بافتراض.. بالتأكيد أنت تعرف من كان مريضًا ومن لم يكن، أليس كذلك؟ أعني، هذا النوع من المرض. لا بُد أنك ستعلم به».

- «لا، ليس بالضرورة يا حضرة المُلازم. على الإطلاق. في الحقيقة، كنت سأنتهي كحادثة بدوري إذا عَلِمت. أنا لست مُحلِّلًا نفسيًا. كل ما أفعله هو التشاور وتقديم النصيحة. بالإضافة لهذا، ليس لديَّ علمٌ بأيِّ شخص تنطبق عليه الأوصاف».

ميَّل كيندرمان فكَّه وقال: «آه، أجل. أخلاق الطبيب. إذا كنت تعلم، فلن تُفشي سرًّا».

- «بلى، لم أكن سأفعل».

- «بالمناسبة -واعلم أنني أقولها بصورة عابرة ليس إلا- هذا الميثاق اعتُبِرَ غير قانونيّ في الآونة الأخيرة. لا أُريد إزعاجك بالحقائق يا أبت، لكن طبيبًا نفسيًا من ولاية كاليفورنيا المُشمسة أُودِع مؤخَّرًا السجن لإحجامه عن إخبار الشُرطة بما يعرف عن أحد مرضاه».

- «أهذا تهديد؟».

- «لا تتحدَّث بارتياب. الأمر لا يعدو كونه مُلاحظة عابرة».

نهض كاريس ونظر إلى أسفل نحو المُحقِّق: «يمكنني دائمًا إخبار القاضي أنها كانت مسألة اعتراف».

قال ساخرًا، ثم أضاف: «دون مواربة».

رمقه المُحقِّق مُتجَهِّمًا، ثم سأله: «أتريد اللعب بخشونة يا أبت؟».

ثم نظر بعيدًا إلى ملعب البيسبول وأضاف: ««أب»؟ أيُّ «أب؟»؟» ثم زفر «أنت يهودي يحاول أن يندمج، لكن دعني أخبرك، لقد تماديت في الأمر إلى حدٍ كبير».

قهقه كاريس وهو ينهض من مكانه على الدَّكَّة.

- «أجل، اضحك» قالها المُحقِّق وهو يرفع بصره رامقًا كاريس بمزاجٍ مُتقلِّب وأردف «هيا، تفضَّل، تمتَّع يا أبت. اضحك كما تشاء» لكنه ابتسم بعدها، وبدا شكسًا وسعيدًا بنفسه وهو يرفع بصره إلى كاريس وهو يُضيف «هذا يُذكِّرني بامتحان القبول في الشُّرطة. عندما خُضتهُ، كان أحد الأسئلة يقول «ما السُّعار وكيف يمكن أن تتصرَّف معه؟»، أجاب أحدهم «السُّعار[1] هو القساوسة اليهود، وأود لو أفعل أيَّ شيء في جعبتي لهم»».

---

(1) يستخدم المؤلف هنا التشابه بين كلمتي Rabies وRabbis الإنجليزيتين. الأولى تعني السُّعار، أو داء الكلب، والثانية تعني الحاخامات أو الأحبار اليهود.

قالها كيندرمان ثم رفع يده في الهواء «صدقًا! هذا ما حدث! أقسم لك!».

ابتسم كاريس بدفء وقال: «هيا بنا، سأرافقك إلى سيَّارتك. هل أوقفتها في ساحة الانتظار؟».

رفع المُحقِّق بصره إليه، مُحجمًا عن التحرُّك، وسأله في إحباط: «إذًا، فقد انتهينا؟».

وضع القس ساقه فوق الدَّكَّة، وانحنى إلى الأمام مُريحًا ذراعه على رُكبته، وقال: «اسمع، أنا حقًّا لا أتستَّر على أحد. حقًّا. إذا كنت أعرف القس الذي تبحث عنه، فعلى الأقل كنت سأُلمِّح لك أن مثل هذا الرجل موجود دون الإفصاح عن اسمه. ثم -أعتقد- سأرفع بعدها تقريرًا بالأمر إلى المقاطعة. لكنني لا أعرف أيَّ شخص يقترب حتَّى من الرجل الذي تبحث عنه».

- «آه، حسنًا».

قالها كيندرمان وهو ينظر إلى أسفل داسًّا يديه مرَّةً أخرى في جيبي معطفه، ثم أضاف: «لم أفكر قط أن الفاعل كاهن في المقام الأول. ليس تمامًا».

أنهى كيندرمان كلامه ورفع بصره مُشيرًا برأسه إلى مرآب سيَّارات الحرم الجامعي المُنخفض، وقال: «لقد أوقفت سيَّارتي هناك».

ثم نهض وبدأ يمشي، مُتتبِّعًا المسار الذي يقود إلى مباني الحرم الجامعي الرئيسية. واصل المُحقِّق كلامه: «ما أرتاب فيه حقًا... إذا تفوَّهت بالأمر بصوتٍ عالٍ ستنعتني بالجنون» قالها وهو يهزُّ رأسه «كل تلك الجماعات وتلك الطوائف التي ترتكب جرائم قتل دون سبب، تبدأ في جعلك تُفكِّر بأشياء غريبة» ثم أضاف مُتحسِّرًا «كي تواكب العصر هذه الأيام، يبدو أنه يتحتَّم عليك أن تكون مُختلًّا بعض الشيء». ثم التفت إلى كاريس وسأله وهو يُشير برأسه إلى صدر القس اليسوعي: «ما ذلك الشيء على قميصك؟».

- «ماذا تقصد؟».

- «الكتابة على القميص. «الفلاسفة». إلام تُشير؟».
أخبره كاريس: «آه، لقد شاركت في بعض الدورات العام الماضي. في إكليريكية وودستوك في ماريلاند. كنت ألعب في فريق بيسبول العوام، وكان اسمنا الفلاسفة».
- «آه، فهمت. وماذا عن فريق الأرستقراطيين؟».
- «اللاهوتيون».
بابتسامة خافتة، خفض المُحقِّق بصره إلى الأرض وقال مُتأمِّلًا: «النتيجة: اللاهوتيون ثلاثة، والفلاسفة اثنان».
- «لا. الفلاسفة ثلاثة، واللاهوتيون اثنان».
- «أجل، بالطبع، هذا ما قصدت قوله».
- «بالطبع».
قال المُحقِّق مُفكِّرًا: «أشياء غريبة. غريبة جدًّا. اسمعني يا أبت» قالها مُلتفتًا نحو كاريس «اسمعني أيها الطبيب. هل أنا مجنون، أم رُبَّما توجد رابطة سحرة في المنطقة في وقتنا الحالي؟ أعني هذه الأيام».
قال كاريس ساخرًا: «أوه، بالله عليك».
- «آها! إذًا الاحتمال قائم!».
- ««إذًا الاحتمال قائم»؟ كيف؟».
- «حسنًا يا أبت، سأرتدي عباءة الطبيب الآن» هكذا أعلن المُحقِّق وهو يُشير في الهواء بإصبعه السبابة، ثم أردف «أنت لم تقُل لا، لكنك تُصر على أن تكون مُتحاذقًا مرَّة أخرى. تلك آلية دفاعية. أنت تخاف من أن تبدو ساذجًا: قسٌّ يؤمن بالخرافات أمام كيندرمان العلماني. لقد تجسَّد عصر العقل في شخصي وها هو يسير الآن جوارك. حسنًا، انظر إلى عيني مُباشرةً وأخبرني أنني مُخطئ! هيَّا، انظر! لا تستطيع النظر!».
أدار كاريس رأسه ليرمق المُحقِّق الآن باحترام وظنِّية مُتزادة: «لِمَ، تلك فطانة كبيرة! جيد جدًّا!».
قال كيندرمان: «حسنًا إذًا، سأسألك مرَّةً أخرى: هل وجود رابطة سحرة في المنطقة أمرٌ مُحتمل؟».

أدار كاريس بصره إلى الممر، وبدا عليه التفكير.

ثم قال في النهاية: «حسنًا، في الحقيقة لا أعلم. لكن توجد مُدن أوروبية قيل بحدوث قُدَّاسات سوداء بها».

- «أتعني، هذه الأيام؟».

- «أوه، أجل. في الواقع مركز عبادة الشيطان في أوربا موجود في مدينة تورينو الإيطالية. وهو الأمر الغريب».

- «لماذا غريب؟».

- «إنه المكان الذي يُحتفظ فيه بكفن السيِّد المسيح».

- «أنت تقصد عبادة الشيطان كما كانت تحدث في العصور السالفة، أليس كذلك يا أبت؟ لقد قرأت عن تلك الأشياء بالمصادفة، عن الجنس والتماثيل والأمور الأخرى التي لا أعرف من يعلم ماهيتها حقًّا. لا أتعمَّد إثارة اشمئزازك، لكن بالمناسبة، لكن هل يفعلون كل تلك الأشياء حقًّا؟ أهذا حقيقي؟».

- «لا أعلم».

- «فقط أريد رأيك يا أبت. تكلَّم بأريحية. أنا لا أُخفي جهاز تسجيل».

نظر كاريس إلى المُحقِّق وابتسم له ابتسامة سقيمة وساخرة، ثم أعاد بصره مرَّة أخرى إلى المسار قائلًا: «حسنًا إذًا. أعتقد أن الأمر حقيقي، أو لنقل فقط إنني أظن ذلك، ومعظم حُججي تستند إلى علم الأمراض. القُدَّاس الأسود يحدث بالطبع. لكن كل من يشارك في هذه الأشياء أُناسٌ مُضطربون تمامًا، ومُضطربون بطريقة خاصة جدًّا. يوجد اسم طبي لهذا النوع من الاضطرابات، في الحقيقة يُدعى: التشيطُن، وهو يصف حالة الأشخاص الذين لا يتمكَّنون من الاستمتاع بالجنس والوصول إلى النشوة إلا إذا تضمَّنت مُمارساتهم أفعالًا تجديفية. لذا أعتقد...».

- «تقصد «تظن»».

- «نعم، لذا أظن أن القُدَّاس الأسود كان يُستخدم كمُبرِّر فقط».

- «ما زال يُستخدم».

- «كان وما زال».

ردَّد المُحقِّق بنبرة جافة: «كان وما زال. وما اسم الاضطراب النفسي الذي يجعل الشخص يرغب دائمًا في أن تكون الكلمة الأخيرة له؟».

قال القس مُبتسمًا: «كاريسمانيا».

- «شكرًا لك. تلك كانت فجوة في جدار معارفي الهائل بالعجائب والغرائب. في هذه الأثناء، وأرجو أن تعذرني، ماذا عن تلك الأشياء المُتعلِّقة بتماثيل المسيح والعذراء؟».

- «ماذا عنها؟».

- «أهي حقيقية؟».

- «حسنًا، أظن أن ما سأقوله قد يثير اهتمامك بصفتك رجل شرطة» بدأ اهتمام اليسوعي العلمي يُستثار وينشط، ونما أسلوبه ليصير أكثر حيوية وهو يضيف «ما زالت سجلَّات الشُرطة في باريس تحمل قضية الرَّاهبين من ذلك الدير القريب...» ثم حَكَّ مؤخِرة رأسه محاولًا التذكُّر «نعم، ذلك الموجود في مدينة كريبي» قالها في النهاية وهزَّ كتفيه وهو يردف «حسنًا، أيًا كان. ديرٌ في بلدةٍ قريبة. على أيِّ حال، لقد توجَّه الرَّاهبان إلى نزلٍ ما، وأخذا يجادلان بخصوص رغبتهما في الحصول على فراشٍ لثلاثة أفراد. هما، وتمثال العذراء مريم المُباركة بالحجم الطبيعي الذي يحملانه معهما».

زفر كيندرمان وقال: «آه، هذا صادم».

- «أنا لا أمزح، هذا دليل على أن ما قرأته يستند إلى وقائع حقيقية».

- «حسنًا، قد تكون أمور الجنس حقيقية، هذا أستطيع فهمه، تلك قصة أخرى تمامًا. لا عليك بها. لكن ماذا عن القتل الطقسي يا أبت؟ أهو حقيقة؟ أخبرني بالله عليك! أتُستخدم دماء الأطفال الرُضَّع؟».

كان المُحقِّق يُلمِّح إلى شيءٍ آخر قرأه في الكتاب عن أعمال الشعوذة، يصف كيف أن الكاهن المطرود كنسيًا يشُق أحيانًا في أثناء القُدَّاس الأسود ذراع رضيع حديث الولادة وتُصَب دِماؤه في كأسٍ ثم تُنذر وتُستخدم في صنع القُربان المُقدَّس.

واصل المُحقِّق: «هذا يشبه القصص التي اعتادوا سردها عن اليهود، وكيف كانوا يسرقون الأطفال المسيحيين ويشربون دماءهم، اعذرني، لكن قومك من حكوا كل تلك القصص».

- «إذا كنا فعلنا ذلك، فاغفر لي».

- «امض ولا تُخطئ ثانيةً. لقد أبرأتك».

مثل ظِل الألم الوجيز الذي يلح على الذاكرة، طفا شيءٌ ما مُظلم -شيءٌ حزين- فوق نظرة القس الخاوية. فأدار رأسه ونظر بعيدًا وغمغم: «أجل، هذا صحيح».

- «حسنًا، ماذا كنت تقول؟».

قال كاريس: «حسنًا، أنا لا أعلم حقًّا أيَّ شيءٍ عن القتل الطقسي. ليس لديَّ أدنى علم بتلك التفصيلة. لكنني أعرف أن إحدى القابلات في سويسرا اعترفت بقتل ثلاثين أو أربعين رضيعًا واستخدامهم في القُداس الأسود» ثم ألمح بهزَّة من كتفيه «أوه، حسنًا، رُبَّما تكون قد عُذِّبت للإدلاء بهذا الاعتراف. لكنها قطعًا روت قصة مُقنعة. لقد وصفت كيف كانت تُخفي إبرة طويلة ورفيعة في كُمِّ ردائها، كي تستطيع -وهي تستقبل الرضيع- إخراجها وغَرسِها في جمجمة الطفل من الأعلى، ثم إخفاءها مُجدَّدًا دون أن تترك أثرًا» قالها كاريس وهو يلتفت رامقًا كيندرمان «ويبدو الرضيع كما لو كان جهيضًا. هل سمعت عن التعصُّب الذي اعتاد الكاثوليك الأوروبيون مُمارسته ضد القابلات؟ حسنًا، هكذا بدأ».

- «آه، يا إلهي!».

- «أجل، القرن العشرون ليس مؤمَّنًا ضد الجنون، لكن...»

قاطعه المُحقِّق: «انتظر الآن، انتظر دقيقة! تلك القصص، مثلما قلت، رويت عن طريق أشخاص رُبَّما تعرَّضوا للتعذيب، أليس كذلك؟ إذًا فلا يُمكن الاعتماد عليها من الأصل. لقد وقَّع الأشخاص الاعترافات، ثم لاحقًا، ملأ أصحاب المصالح الحاقدون الفراغات بنفسهم. أعني، لم يوجد أيُّ أمر مثول أمام المحكمة، ولا إبلاغ مُسبق بمقولة الرَّب لفرعون «دع قومي وشأنهم»؟».

- «صحيح جدًّ. لكن أيضًا العديد من الاعترافات أتت طواعية».
- «ومن يتطوَّع لفعل مثل هذه الأشياء».
- «أشخاص معتدُّون بأنفسهم ومختلُّون عقليًّا».
- «آه، مصدر موثوق آخر!».
- «أوه، حسنًا، رُبَّما كنت مُحِقًّا بشأن ذلك أيضًا أيها الملازم. أنا فقط ألعب دور محامي الشيطان».
- «أنت تلعبه ببراعة».
- «انظر، يوجد شيء نميل أحيانًا إلى أن ننساه، وهو أن الناس الذُهانيين بما يكفي للاعتراف بمثل هذه الأمور، قد يكونون أيضًا ذُهانيين بما يكفي لارتكابها. على سبيل المثال، أساطير المستذئبين. حسنًا، إنها مُنافية للعقل: لا أحد يستطيع التحوُّل إلى ذئب، لكن ماذا عن شخص مُضطَّرب تمامًا بحيث لا يظن فقط إنه مُستذئَب، بل يتصرَّف كمُستذئَب؟».
- «حسنًا، هل هذه نظرية أيها الأب الطيِّب أم حقيقة؟».
- «حقيقة. كان يوجد رجل يدعى ويليام ستومف، أو رُبَّما كان اسمه الأول كارل. لا أتذكَّر. على أي حال، كان ألمانيًا يعيش في القرن السادس عشر ويظن نفسه مستذئبًا، وقتل رُبَّما عشرين أو ثلاثين طفلًا».
- «أتقول إنه -بين قوسين- يا أبت، اعترف بالأمر؟».
- «نعم، لقد اعترف وأظن أن اعترافه صحيح. عندما أمسكوه، كان يأكل دماغي ابنتيّ صهره».

من ملعب البيسبول الذي تغمره أشعة شمس أبريل، أتى صدى صوت اصطدام الكُرة بالمضرب واضحًا تمامًا، متبوعًا بصيحاتٍ تشجيعية. «هيَّا يا برايس، لننكحه، هيَّا هيَّا، اسرع!».

كانا قد وصلا إلى ساحة انتظار السيَّارات. لبُرهة وجيزة من الوقت سارا في صمتٍ، وعندما وصلا إلى سيَّارة الدورية، التفت المُحقِّق ونظر إلى القس بنظرة حزينة ومزاجية سائلًا: «إذًا، من الذي أبحث عنه يا أبت؟».

أجابه كاريس: «مريض نفسي ومدمن مُخدِّرات... رُبَّما».

مُحدِّقًا إلى رصيف المُشاه، فكَّر المُحقِّق مليًّا في الأمر، ثم أومأ في صمت: «نعم، صحيح يا أبت. أجل. قد يكون كذلك» ثم رفع بصره وقد بدا مُبتهجًا الآن «اسمع يا أبت، إلى أين أنت ذاهب؟ أتريد أن أقلَّك إلى مكانٍ ما؟».

- «لا، أشكرك يا حضرة المُلازم. المسافة قصيرة مشيًا».

قال المُحقِّق وهو يُشير إليه لركوب مقعد السيَّارة الخلفي: «لا عليك! استمتع! ستستطيع إخبار أصدقائك أنك أخذت جولة في سيَّارة شرطة. سأوقِّع لك على شهادة تُثبت ذلك. سيحسدونك. هيَّا الآن، اركب!».

بإيماءة وابتسامة نصف حزينة، قال القس: «حسنًا»، ثم انزلق إلى مقعد السيَّارة الخلفي بينما التفَّ المُحقِّق وجلس إلى جواره من الناحية الأخرى. قال المُحقِّق بأنفاسٍ مُتقطِّعة قليلًا: «جيد جدًّا. وبالمناسبة أيها الأب الطيب، لا توجد مسافة قصيرة مشيًا. على الإطلاق».

ثم التفت إلى الشرطي الجالس إلى المقود وقال: «انطلق».

- «إلى أين يا سيِّدي؟».

- «إلى شارع 36، ثم إلى منتصف شارع بروسبكت، الجانب الأيسر من الشارع».

عندما أومأ السائق برأسه وبدأ في قيادة السيَّارة إلى خارج ساحة الانتظار، أدار كريس نظرة تحمل تساؤلًا خفيفًا إلى المُحقِّق، وقال: «كيف تعرف مكان إقامتي؟».

- «أليس هذا عنوان مقر الإقامة اليسوعية؟ أولست يسوعيًا؟».

أدار كاريس رأسه ونظر عبر الزجاج الأمامي في أثناء ما اتَّجهت سيَّارة الدورية ببطء نحو بوَّابات الحرم الجامعي، وقال برفق: «بلى، صحيح». لقد نقل مسكنه من فناء كنيسة الثالوث المُقدَّس إلى مقر الإقامة اليسوعية قبل أيام قليلة، على أمل أن يُشجِّع هذا الرجال الذين قدَّم لهم النصح والمعونة على مواصلة الاستعانة به.

- «أتحب الأفلام أيها الأب كاريس؟».

- «نعم، أحبها».
- «هل شاهدت الملك لير الذي قدَّمه بول سكوفيلد؟».
- «لا، لم أشاهده».
- «لقد شاهدته. لديَّ دعوات».
- «خيرٌ لك».
- «أحصل دومًا على دعوات لأفضل العروض. لكن السيِّدة كيندرمان شاخت مُبكِّرًا جدًّا، ولا ترافقني قط».
- «هذا مؤسف».
- «أجل. أكره أن أكون بمفردي. أتعرف، بعد انتهاء الفيلم أحب الحديث عنه.. مُناقشته.. نقده».

صامتًا، أومأ كاريس برأسه، ثم نظر إلى أسفل حيث تقبع يداه الكبيرتان اللتان يضعهما مُتشابكتين بين ساقيه. مرَّت اللحظات. ثم سأله كيندرمان بنبرة صوت حزينة نوعًا: «هل ترغب في مُشاهدة فيلم معي في وقتٍ ما؟ سيكون مجانيًّا».

- «نعم، أعرف. لديك دعوات».
- «هل ترغب في ذلك؟».
- «كما قال إلوود بي داود في فيلم هارفي، «متى؟»».
- «أوه، سأتَّصل بك». قالها المُحقِّق وقد تهلَّلت أساريره.
- «حسنًا، اتَّصل بي. سيسعدني ذلك».

كانوا قد خرجوا من بوَّابات الحرم الجامعي، واخذوا المُنعطف يمينًا ثم يسارًا وصولًا إلى مقر الإقامة وأوقفوا السيَّارة. فتح كاريس باب السيَّارة من ناحيته، والتفت إلى المُحقِّق قائلًا: «شكرًا على الجولة». ثم ترجَّل من السيَّارة وأغلق الباب، وأسند ساعديه على دعامة النافذة المفتوحة مُردفًا: «معذرة لأنني لم أكن خير مُعين».

قال المُحقِّق: «لا، لقد أعنتني بالفعل. وشكرًا لك. في غضون ذلك، سأهاتفك بخصوص الفيلم. سأفعل حقًّا».

قال كاريس: «سأكون في انتظارك. اعتن بنفسك الآن».

- «سأفعل. وأنت أيضًا».

سحب كاريس نفسه بعيدًا عن السيَّارة، وشدَّ قامته، واستدار كي يمضي في طريقه عندما سمع «يا أبت، انتظر». التفت كاريس ليجد كيندرمان يترجَّل من السيَّارة ويشير إليه كي يعود إليه. عاد كاريس، والتقى بكيندرمان على جانب الطريق. أخبره المُحقِّق: «اسمع يا أبت، لقد نسيت. لقد غاب موضوع البطاقة عن ذهني تمامًا. تعرف ماذا أقصد، البطاقة المكتوب عليها باللاتينية؟ تلك التي عُثر عليها في الكنيسة».

- «نعم، بطاقة المذبح».

- «أيًّا كان. هل لا تزال موجودة؟».

- «نعم، أحتفظ بها في غرفتي. كنت أتفحَّص الكتابة اللاتينية، لكنني انتهيت منها الآن. أتريدها؟».

- «قد تقودنا إلى شيءٍ ما. أجل، هل يمكنني الحصول عليها؟».

- «بالطبع. انتظرني وسآتيك بها الآن».

- «ممنونٌ لك».

في أثناء انتظار كيندرمان مُستندًا إلى سيَّارة الدورية، صعد القس اليسوعي سريعًا إلى طابق غرفته، وجلب البطاقة، ووضعها داخل مظروفٍ مقوًّى، وعاد إلى الشارع وناول المظروف إلى كيندرمان.

- «هاك».

قال كيندرمان وهو يتفحَّص المظروف: «شكرًا لك يا أبت. أُفكِّر في أنها قد تحمل بعض بصمات الأصابع» ثم رفع بصره إلى كاريس في ارتباكٍ بادئ وقال «أوه! هل أمسكت بالبطاقة أيا كيرك دوجلاس مُستعيدًا دورك في فيلم قِصَّة بوليسية؟ بلا قُفَّازات؟ بيدين عاريتين».

- «أقرُّ بذنبي».

قال كيندرمان مُتبرِّمًا وهو يهزُّ رأسه وينظر إلى كاريس بأسفٍ: «ودون تفسير، أنت مُعفى منه أيها الأب براون. لا عليك، قد نستطيع استخلاص

شيء منها رغم كل شيء» ثم رفع المظروف مُضيفًا «بالمناسبة، لقد قلت إنك درست هذا الشيء؟».

أومأ كاريس قائلًا: «نعم».

- «واستنتاجك؟ إنني أنتظره بفارغ الصبر».

أخبره كاريس: «لم أستطِع تحديد شيء بعينه. باستثناء أن أيًا كان الدَّافع وراء هذا، رُبَّما كراهية للمذهب الكاثوليكي، أو أيَّ شيء، من يعرف؟ فمن فعلها رجلٌ مُضطربٌ تمامًا».

- «وكيف عرفت أنه رجلٌ؟».

هزَّ كاريس كتفيه ونظر بعيدًا، وتتبَّع بصره شاحنة نقل جعة ماركة جانثر تعبر الشارع هادرة فوق حجارة الطريق. ثم قال: «أوه، حسنًا، لم أعرف».

- «هل يمكن أن يكون الفاعل مُراهقًا أخرق؟».

أعاد كاريس بصره إلى كيندرمان مرَّة أخرى وقال: «لا».

ثم أضاف: «بسبب اللغة اللاتينية».

- «اللاتينية؟ أوه، تعني المكتوبة على بطاقة المذبح».

- «أجل. لغته اللاتينية لا تشوبها شائبة يا حضرة المُلازم، وبالإضافة إلى هذا، لها أسلوب مُحدَّد لا لبس فيه، وهو ذاتي تمامًا».

- «وهذا يعني؟».

- « يعني أن أيًا من كتب هذا الكلام فهو يُفكِّر باللاتينية».

- «وهل هذا في مقدور القساوسة؟».

قال كاريس مُستَخِفًّا: «أوه، بالله عليك».

- «فقط جاوب السؤال، أيها الأب المذعور».

أدار كاريس بصره إلى كيندرمان، وبعد بُرهة، قال مُعترفًا: «حسنًا، أجل. في فترة ما في أثناء إعدادنا نتعلَّم اللاتينية. على الأقل اليسوعيون ورُبَّما بعض الرُتَب الأخرى. في إكليريكية وودستوك، كنا نأخذ دورات الفلسفة باللاتينية».

- «ولِمَ هذا؟».

- «من أجل حصافة الفكر. إنها تُبيِّن الفروق الدقيقة والاختلافات الماكرة التي لا تستطيع الإنجليزية التعامل معها».

- «آه، فهمت».

بدت سيماء الخطورة على وجه القس فجأة، واحتدَّت نظرته، ثم قرَّب وجهه من وجه المُحقِّق قائلًا: «اسمع أيها المُلازم، هل يمكنني إخبارك بمن أظن أنه فعلها حقًّا؟».

انعقد حاجبا المُحقِّق في اهتمام كبير، وقال: «أجل، من!».

- «الآباء الدومينيكان. اذهب وتحقَّق منهم».

قالها كاريس وابتسم، ثم استدار ومضى في طريقه، صاح المُحقِّق به: «لقد كذبت عليك! أنت تُشبه سال مينيو[1]!».

التفت كاريس ولوَّح إليه بشكلٍ ودِّي مُبتسمًا، ثم فتح باب مقر الإقامة ودلف، بينما في الخارج وقف المُحقِّق بلا حراك عند جانب الطريق، وهو يُحدِّق فيه مُخمِّنًا، وغمغم: «إنه يهمهم كشوكة رنَّانة معقودة أسفل الماء». لثوانٍ قليلة إضافية استمر في التحديق إلى مدخل مقر الإقامة مُستغرِقًا في تفكيره. ثم استدار فجأة، وفتح باب سيَّارة الدورية الأمامي المجاور للسائق، وجلس على المقعد مُغلقًا الباب وأمر السائق: «ارجع إلى القيادة العامة. أسرِع. اخرق القوانين».

***

كانت حجرة كاريس الجديدة في مقر الإقامة اليسوعية قليلة الأثاث: رفوف كُتُب مُدمجة في الجدار، فراش وحيد، مقعدان مُريحان، بالإضافة إلى مكتب مزوَّد بمقعد خشبي مُستقيم الظهر. فوق المكتب، قبعت صورة لأمه، وعلى الحائط فوق الفراش، عُلِّق صليبٌ معدنيٌّ برونزي اللون كأنه توبيخٍ صامت. بالنسبة إلى كاريس، كانت الحجرة الضيقة تُغنيه عن

---

(1) Sal Mineo (1939 - 1976) ممثل مسرحي وسينمائي أمريكي شهير، مات مقتولًا.

العالم. لم تكن المُمتلكات تعني له الكثير، فقط كان يهتم بنظافة ما يملك. استحمَّ، مُغتسلًا بنشاط، وارتدى تيشيرت أبيض وسراويل كاكية، ثم سار مُتمهِّلًا لتناول العشاء في قاعة طعام الكهنة، حيث لاحظ وجود الأب داير محمر الوجنتين. كان يرتدي قميصًا طويل الأكمام مرسومًا عليه الكلب سنوبي الكارتوني، ويجلس وحيدًا إلى طاولة في ركن القاعة. اقترب كاريس لينضم إليه.

- «مرحبًا يا داميان».

- «مرحبًا يا چو».

واقفًا أمام مِقعده، بارك كاريس نفسه وأغمض عينيه وهو يُتمتم في سرعة صلاة النعمة، ثم جلس إلى الطاولة وفرد منديل المائدة على ساقيه.

سأله داير: «كيف حال الكسول؟».

- «ماذا تعني؟ أنا أعمل».

- «مُحاضرة وحيدة في الأسبوع؟».

- «إنه الكيف لا الكم. ما العشاء؟».

- «ألا تشمُّهُ؟».

قال كاريس عابسًا: «أوه يا للجحيم، أهو يوم الكلب؟».

كان العشاء يتكوَّن من السجق والكرنب المُخلَّل.

قال داير: «إنه الكم لا الكيف»، ثم، في أثناء ما مدَّ كاريس يده إلى إبريق الحليب، حذَّره القس الشاب بهدوء: «لم أكن لأفعلها إن كنت مكانك» قالها وهو يدهن رغيفًا كاملًا من الخبز الأبيض بالزبد ثم أردف «أترى الفقاقيع؟ إنه مليء بالملح الصخري[1]».

- «أنا في حاجة إليه».

---

(1) في الماضي، أُشيع أن الراهبات اللاتي كُن يُدِرن دور الأيتام يضعون الملح الصخري أو نترات البوتاسيوم في حليب الصبية لتثبيط فورانهم الجنسي حتَّى لا يغتصبوا الفتيات الصغيرات في دور الأيتام.

عندما قلب كاريس كوبه كي يملأه، سمع صوت مِقعد يُسحب، وانضم أحدهم إلى طاولتهما.

قال الوافد الجديد مُشرقًا: «حسنًا، أخيرًا انتهيت من قراءة الكتاب».

رفع كاريس بصره وشعر بالاستياء على الفور، شعر بالثِقَل الناعم الساحق، بالضغط على العظام عندما تعرَّف القس الشاب الذي أتى إليه مؤخَّرًا طالبًا النصح، القس الذي لم يكن ناجحًا في عقد صداقاتٍ جديدة.

سأله كاريس كما لو كان مُهتمًا: «أوه، وما رأيك فيه؟». ووضع جانبًا إبريق الحليب كما لو كان كُتيِّبًا لتُساعية[1] مكسورة.

تحدَّث القس الشاب كثيرًا، وبعد نصف الساعة، أخذ داير يتنقَّل بين المناضد، مُشيعًا الضحك في قاعة الطعام. نظر كاريس إلى ساعته وسأل القس الشاب: «أترغب في ارتداء دِثارٍ والتمشِّي قليلًا في الطريق؟ أحب مشاهدة الغروب كل ليلة إن استطعت».

وسرعان ما كانا يستندان إلى السور الحديدي عند قمَّة الدرجات التي تنحدر وَعِرة إلى شارع إم. نهاية يوم. التمعت أشعة الشمس اللاهبة ببهاء على سُحُب السماء الغربية، قبل أن تتكسَّر إلى بُرادة ذهبية قُرمزية تتناثر فوق مياه النهر الآخذة في الإعتام. ذات مرَّة، قابل كاريس الله في هذا الموضع. كان هذا قبل وقتٍ طويل. وكحبيبٍ مهجور، ظَل يحتفظ بموعده وميقاته.

مُرتشفًا بهاء المشهد، قال القس الشاب: «إنه جميل جدًا. حقًّا».

- «نعم، هو كذلك».

***

دقَّت ساعة الحرم الجامعي مُعلنة السابعة مساءً. في السابعة وثلاث

---

(1) تُساعية Novena: فعل أو صلاة تكريس فردية وجماعية نشأت في المسيحية المُبكِّرة، تتواصل طقوسها لمُدة تسعة أيام مُتتالية، ويمارسها غالبًا أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وكذلك الكنيسة الأنجليكانية، والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، والكنيسة اللوثرية.

وعشرين دقيقة، كان المُلازم أوَّل كيندرمان يتفحَّص صورة التحليل الطيفي التي أظهرت تطابقًا بين الطلاء الذي كشطه من تمثال ريجان والطلاء المكشوط من تمثال مريم العذراء الذي جرى تدنيسه. وفي الثامنة وسبع وأربعين دقيقة، في أحد الأحياء الفقيرة في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة، خرج كارل إنجستورم جامد المشاعر من المبنى السكني الذي يعج بالفئران، وسار مسافة ثلاث بنايات إلى الجنوب مُتَّجهًا نحو محطة الحافلات حيث انتظر لمدة دقيقة بوجهٍ خالٍ من التعبير، ثم أمسك أحد عواميد الإنارة بكلتا يديه وتكوَّم جواره، وهو يغص بالدموع.

في هذه الأثناء، كان المُلازم كيندرمان يُشاهد فيلمًا.

الفصل السادس

في يوم الأربعاء الموافق الحادي عشر من شهر مايو، عادوا إلى المنزل. وضعوا ريجان في الفراش، ووضعوا أقفالًا على المصاريع، ونزعوا جميع المرايا من حجرة نومها وحمَّامها.

«... أخشى أن لحظات إدراكها أضحت أقل فأقل، والآن يوجد حجب كامل لوعيها في أثناء النوبات. هذا أمر غير مألوف، ويبدو أنه يستبعد احتمال الهستيريا الحقيقية. في هذه الأثناء، تُظهر الفتاة عرضًا أو اثنين ممَّا يندرج تحت مجال ما نُسمِّيه ظواهر الخوارق اللا شعورية...».

جاء د. كلاين، وحضرت كريس وشارون وهو يشرح لهما إجراءات التغذية السليمة بمُغذِّيات سوستچن التكميلية. لقد أصرَّ على وضع الأنابيب الأنفية المِعَدِية لها.

- «في البداية...»

أجبرت كريس نفسها على النظر، لكن دون الاصطدام بوجه ابنتها. على الإنصات إلى الكلمات التي يقولها الطبيب، وإبعاد تلك التي سمعتها في المستشفى.

- «الآن لقد ذكرتِ أن لا وجود للدين تمامًا يا سيِّدة ماكنيل، أليس كذلك؟ الفتاة لم تتلقَّ تعاليمَ دينية قط؟».

- «أوه، رُبَّما فقط مفهوم «الله»، تعرف ما أعني، بشكلٍ عام. لماذا تسأل؟».

- «حسنًا، لسببٍ واحد. محتوى مُعظم نوبات هذيانها -بخلاف تلك

الرطانة التي تتلفَّظ بها- له صبغة دينية. الآن، من أين تظنين أنها اكتسبت ذلك؟».

- «حسنًا، أعطني أمثلة أوَّلًا».

- «حسنًا إذًا: «لقد وصفت مُمارسة المسيح والعذراء مريم الجنس الفموي بوضع 69». هذا على سبيل المثال».

أدخل كلاين الأنبوب إلى معدة ريجان وهو يُشدِّد قائلًا في حزم: «في البداية، يجب أن تتحقَّقي من أن السائل لم يدخل إلى رئتها»، كان يتحدَّث وهو يضغط الأنبوب كي يكبح تدفُّق السوستچن.

- «وإذا وجدتيه...».

- «... هذه مُتلازمة لنوع من الاضطراب نادرًا ما يُشاهد هذه الأيام، إلا بين الثقافات البدائية. نحن ندعوه استحواذ السرنمة. بصراحة تامة، نحن لا نعرف كثيرًا عنه باستثناء أنه يبدأ نتيجة بعض الصراع أو الشعور بالذنب، ويقود في النهاية إلى اعتقاد المريض بأن كيانًا غريبًا قد استحوذ على جسده. روح، إذا سمحتِ باللفظ. في الماضي، عندما كان الاعتقاد في الشيطان قويًا إلى حدٍ كبير، ظُنَّ عادةً أن الكيان المُتملِّك شيطانٌ. بينما في الحالات الحديثة نسبيًا، فإن المُستحوِذ عادةً ما يُظنُّ أنه روح شخص ميِّت، ويكون عادةً شخصًا عرفه المريض في حياته أو رآه، ويكون قادرًا على تقليد صوته وسلوكيَّاته، وحتَّى مُحاكاة ملامح وجهه في بعض الأحيان النادرة».

بعد مُغادرة د. كلاين المنزل مُكفهرًّا، اتَّصلت كريس بوكيل أعمالها وأخبرته بصوتٍ لا حياة فيه بأنه قطعًا لن تقوم بإخراج فيلم «أمل». ثم هاتفت السيِّدة بيرين بعدها، ووجدتها خارج المنزل. وضعت كريس السمَّاعة بجزعٍ مُتزايد. من في مقدوره مُساعدتها؟ تساءلت كريس يائسة. هل يوجد أحدٌ؟ شيءٌ؟ ماذا؟

- «الحالات التي يظن المريض فيها أن مُتلبِّسهُ روح شخص ميِّت تكون أكثر استجابة للعلاج. لا توجد ثوراتٍ غاضبة في معظم هذه الحالات، أو

نشاط زائد وإثارة حركية. ومع ذلك، في النوع الرئيسي الآخر من استحواذ السرنمة، تكون الشخصية الجديدة شريرة دومًا، وشديدة العدوانية تجاه الأولى. ويكون هدفها الأساسي، في الواقع، إيذاءها وأحيانًا قتلها».

أُوفدت مجموعة من أحزمة القمع التي تُستخدم لتقييد المرضى إلى المنزل المُطل على شارع بروسبكت، ووقفت كريس -مُمتقعة ومنهوكة القوى- تُشاهد كارل وهو يزمُّها إلى الفراش أوَّلًا، ثم إلى معصمي ريجان. وعندما اقتربت كريس لدس وسادة أسفل رأس الفتاة، اعتدل الخادم السويسري ونظر بشفقة إلى وجه الطفلة الخَرِب، وسأل: «هل ستكون على ما يُرام؟».

لم ترد عليه. وفي أثناء ما كان يتحدَّث، سحبت شيئًا من أسفل الوسادة ورفعته إلى عينيها المذهولتين. ثم انقضَّ بصرها على كارل وقالت في حِدَّة: «كارل، من الذي وضع هذا الصليب هنا؟».

- «المُتلازمة ما هي إلا تجسيدٌ لصراع داخلي ما، أو شعور بالذنب، لذا نحن نحاول التوصُّل إليه، لفهم طبيعته. حسنًا، إن أفضل إجراء مع حالة مثل هذه العلاج بالتنويم الإيحائي. لكن، لا يبدو أننا قادرون على تطبيقه معها. لذا حاولنا معها التحليل النفسي الإذهالي، لكن يبدو إنه طريقٌ مسدود آخر».

- «إذًا ماذا بعد؟».

- «بشكلٍ أساسي، سننتظر مرور الوقت. ستتعين علينا فقط مواصلة المحاولة ثم الأمل في حدوث تغيير. في الوقت الحالي، يجب أن تظل نزيلة المُستشفى».

عثرت كريس على شارون في المطبخ تضبط وضع آلتها الكاتبة فوق المنضدة. لقد جلبتها لتوِّها من غرفة اللعب السُفلية. بينما ويلي كانت قد انتهت من تقطيع الجزر من أجل اليخنة.

بموجة واضحة من التوتُّر والإجهاد في صوتها، سألت كريس: «هل أنتِ من وضع الصليب أسفل الوسادة يا شار؟».

ظهر الارتباك على شارون وهي تقول: «ماذا تعنين؟».

- «ألم تفعلي؟».

- «كريس، أنا لا أعلم ما الذي تتحدَّثين عنه! انظري، لقد أخبرتك من قبل يا كريس، أخبرتك ونحن في الطائرة، كل ما قلته لريجان عن الدين أشياء مثل «الله خلق العالم»، ورُبَّما أمور عن...».

- «حسنًا يا شارون. أنا أُصدِّقك، لكن...».

صاحت ويلي مُدافعة عن نفسها: «أما أنا، فلم أضعهُ!».

انفجرت كريس فجأة: «اللعنة، أحدهم وضعه هناك!».

بعدها التفتت إلى كارل الذي دخل المطبخ وفتح باب الثلَّاجة. صاحت كريس به بحدَّة: «كارل».

أجابها كارل بهدوء دون أن يلتفت إليها: «نعم يا سيِّدتي». كان يكوِّم بعض مُكعَّبات الثلج داخل منشفة وجه.

- «حسنًا، سأسألك مرَّةً أخرى» قالتها كريس بصرامةٍ حازمةٍ وصوتها يقف بالكاد عند حافة الصراخ «هل وضعت هذا الصليب اللعين أسفل وسادة ريجان؟».

أجابها كارل وهو يُلقي بمكعَّب ثلج آخر داخل المنشفة: «لا يا سيِّدتي. لم أفلعها. ليس أنا».

صرخت كريس وهي تستدير إلى ويلي وشارون: «هذا الصليب اللعين لم يذهب بمفرده إلى هناك. عليكم اللعنة! الآن، أيُّكم يكذب؟ انطقوا!».

توقَّف كارل عمَّا يفعل والتفت ليسبر غور كريس. لقد جمَّدت ثورتها المُفاجِئة الغرفة، والآن انهارت المرأة فجأة إلى أحد المقاعد وهي تبكي وتداري دموعها بيدين مُرتعشتين.

قالت مُرتجفة وهي تنشج: «أوه، أنا آسفة. أنا لا أعرف ماذا أفعل! أوه، يا إلهي، لا أعرف!».

بينما وقف كارل وويلي صامتين بلا حراك، تحرَّكت شارون خلف كريس وبدأت في تدليك رقبتها وكتفيها بيدين مُريحتين وهي تقول: «هوِّني عليك. الأمر ليس بهذا السوء».

مسحت كريس دموعها بظهر كُمَّها وقالت: «نعم، أظن أن أيًا كان من فعلها» ثم عثرت على منديلٍ في جيبها وأفرغت أنفها فيه مُواصِلَة «أيًا كان من فعلها فهو يُحاول تقديم المُساعدة».

- «اسمعني، سأخبرك مُجدَّدًا ومن الأفضل لك تصديق الأمر. أنا لن أضعها في مصحَّة مجاذيب».

- «سيِّدتي، إنها ليست...».

- «لا يهُمَّني ماذا تدعونها! لا محالة! لن أدعها تغيب عن ناظريَّ!».

- «أنا آسف لكِ بشدَّة. كلنا كذلك».

- «نعم، صحيح. يا للمسيح، ثمانية وثمانون طبيبًا وكل ما تستطيعون إخباري به بكل هُرائكم هذا هو...!».

مزَّقت كريس ورق السلوفان عن علبة تبغ زرقاء ماركة جولواز، وأخرجت اللُّفافة الفرنسية، ونفثت أنفاسًا قليلة منها، ثم أطفأتها سريعًا في منفضة التَّبغ، وصعدت إلى الدور العلوي لتتفقَّد ريجان. مع فتحها الباب، وفي ظلام الغرفة، لاحظت هيئة رجل يجلس على الكُرسي الخشبي مُستقيم الظهر، جوار فراش ريجان، ويديه ممدوتين إلى جبينها. اقتربت كريس أكثر، لتكتشف أنه كارل. مع وصولها إلى الفراش، لم ينظر الرجل إليها، ولم يتكلَّم، بل أبقى بصره مُثبَّتًا على الفتاة. كان يوجد شيءٌ في يده التي تستريح على جبين ريجان. ما هو؟ ثم لاحظت أنه كيس ثلج صُنع على عجالة.

مصدومة ومُتأثِّرة، أثنت كريس على السويسري الصَّارم بنظرة حانية لطالما أخفقت فيها، لكن عندما لم يتحرَّك الرجل أو يُعير وجودها انتباهًا، استدارت على عقبيها وغادرت الغرفة في صمت. ذهبت إلى المطبخ في الدور السفلي وجلست إلى منضدة الإفطار، واحتست بعض القهوة وبصرها يشرد بعيدًا، ثم باندفاعٍ مُفاجئ، نهضت وأسرعت الخُطى إلى حُجرة المكتب المكسوَّة بخشب الكرز.

- «يرتبط الاستحواذ بالهستيريا ارتباطًا ضئيلًا، خصوصًا وأن أصل

المُتلازمة ينبع دائمًا من الإيحاء الذاتي. رُبَّما تكون ابنتك قد سمعت عن الاستحواذ، وصدَّقت فيه، ورُبَّما عَلِمَت بعضًا من أعراضه، ولهذا يقوم عقلها اللا واعي بتنفيذ المُتلازمة. هل تفهميني؟ الآن، إذا أمكننا التأكُّد من هذا بشكلٍ قاطع، وبما أنكِ ما زلتِ رافضة إيداعها المصحَّة، فقد ترغبين في محاولَة شيء سأقترحه عليكِ. هذا الأمر في ظني ينطوي فقط على فُرصة ضئيلة للعلاج، لكنها لا تزال فُرصة"

- «أوه، حسنًا، أخبرني إيَّاها بحق السماء! ما هي؟».

- «هل سمعتِ من قبل عن طرد الأرواح يا سيِّدة ماكنيل؟».

لم تتعرَّف كريس جيِّدًا على الكتب التي تتراص في المكتبة، فهي مُجرَّد جزء من المفروشات التي جاءت مع البيت حين استأجرته. وها هي قد بدأت في تفحُّص العناوين مِن كثب.

- «إنها مجموعة من الطقوس المُحدَّدة تقادمت بشدَّة الآن وعفا الزمن عليها، وخلالها كان الحاخامات والقساوسة يحاولون إخراج الأرواح الشريرة. فقط الكاثوليك لم يهجروها بعد، لكنهم يبقون عليها سِرًّا وفي الظل إلى حدٍ كبير كأنها تُسبِّب نوعًا من الإحراج لهم على ما أظن. لكن بالنسبة إلى شخص يعتقد حقًّا أنه مستحوذٌ عليه، فيتحتَّم عليَّ الاعتراف أن نتائج الطقوس تكون مُدهشة حقًّا، واعتادت أن تنجح في الحقيقة، وإن لم يكن للسبب الذي يعتقدونه. إنها ببساطة قوَّة الإيحاء. اعتقاد الضحية في التلبُّس يجعله يحدث، وبالطريقة نفسها، اعتقادها في قوَّة طرد الأرواح يمكن أن تجعله يختفي. إنها.. أرى أنكِ مُتجهِّمة. حسنًا، بالطبع، أعرف أن الأمر يبدو شاذًا وبعيد الاحتمال. لذا دعيني أُخبرك بشيء مُشابه نعرف يقينًا أنه حقيقة. الأمر له علاقة بسُكَّان أستراليا الأصليين. هؤلاء يقتنعون أنه لو أن ساحرًا ما ألقى عليهم «شعاع موت» من بُعد، فإنهم سيموتون قطعًا. وفي حقيقة الأمر، هم يموتون بالفعل! فقط يستلقون أرضًا ويموتون ببطء. والشيء الوحيد القادر على إنقاذهم، في أغلب الأوقات، شكل مُماثل من الإيحاء: شعاع مُضاد من ساحرٍ آخر».

- «هل تقترح عليَّ الذهاب بابنتي إلى مُعالج روحاني؟».
- «كمُكابدة أخيرة، ومحاولة يائسة، نعم.. أظن أن هذا ما أعنيه بالضبط. خذيها إلى قسٍّ كاثوليكي. أعرف أن تلك نصيحة غريبة نوعًا، ورُبَّما محفوفة ببعض الخطر، إلا إذا تمكَّنا من التأكُّد تمامًا من أن ابنتك لم تعرف أيَّ شيء عن الاستحواذ، وتحديدًا طرد الأرواح، قبل أن تظهر عليها أيَّ أعراض. هل تظنين أنها رُبَّما قرأت عن الموضوع بطريقةٍ ما؟».
- «لا».
- «شاهدت فيلمًا عن الأمر؟ أو سمعته في الإذاعة؟ أو التلفاز؟».
- «لا».
- «قرأت الأناجيل رُبَّما؟ العهد الجديد؟».
- «لا، لم تفعل. لِمَ تسأل؟».
- «لأن بعضها ذُكِرت به قصص عن الاستحواذ، وطرد الشياطين من قِبَل المسيح. وأوصاف الأعراض المذكورة في الواقع هي نفسها التي تحدث في روايات الاستحواذ هذه الأيام، لذا...».
- «اسمعني، هذا لن يحل شيئًا، حسنًا؟ فقط انس الأمر! هذا كل ما كان ينقصني، أن يسمع أبوها أنني استدعيت...».

انتقلت أصابعها باحثة من كتاب إلى آخر، دون العثور على شيء، حتَّى... مهلًا! عادت عيناها سريعًا إلى عنوانٍ في الرَّف السُفلي. إنه الكتاب عن الشعوذة الذي أرسلته ماري چو بيرين لها. انتزعته كريس من مكانه، وانتقلت سريعًا إلى فهرس المحتويات، ومرَّرت طرف إصبعها ببطء عبر القائمة إلى أن توقَّفت فجأة وفكَّرت، ها هو! ها هو ذا! اعترت جسدها رجفة من صحة احترازها. هل كان أطباء مُستشفى بارنجر على حق بعد كل شيء؟ هل هذا السَّبب؟ هل التقطت ريجان اضطرابها وأعراضها عبر الإحياء الذاتي من بين دفَّتي هذا الكتاب؟

عنوان الفصل: «حالات الاستحواذ».

توجَّهت كريس إلى المطبخ حيث تجلس شارون تقرأ مُلاحظتها

الشخصية من مُفكِّرة مفتوحة وهي تكتب خطابًا على الآلة الكاتبة. رفعت كريس الكتاب وقالت: «هل قرأتِ هذا يا شار؟».

سألتها شارون وهي تواصل الكتابة: «قرأت ماذا؟».

- «هذا الكتاب عن الشعوذة».

توقَّفت شارون عن الكتابة، ونقلت بصرها إلى كريس والكتاب وقالت: «لا، لم أفعل»، وعادت إلى عملها.

- «ألم تريه قط؟ لم تضعيه على الرَّف في حجرة المكتب؟».

- «لا».

- «أين ويلي؟».

- «في السوق».

أومأت كريس ووقفت تُفكِّر في صمت، ثم صعدت من جديد إلى غرفة نوم ريجان، حيث كارل ما زال ساهرًا جوار فراش ابنتها.

- «كارل!».

- «نعم يا سيِّدتي».

رفعت كريس الكتاب: «هل وجدت هذا الكتاب مصادفة في أيِّ مكان وأخذته ووضعته مع باقي الكُتُب في المكتبة؟».

التفت مُدبِّر المنزل إلى كريس، بوجهٍ جامد، ونقل بصره إلى الكتاب، ثم أعاده إليها: «لا يا سيِّدتي. لم أفعل». قالها وأعاد بصره إلى ريجان مرَّة أخرى.

حسنًا إذًا، قد تكون ويلي.

عادت كريس إلى المطبخ، وجلست إلى المنضدة، وفتحت الكتاب على فصل الاستحواذ، وبدأت تبحث عن أيِّ شيء ذي علاقة، أيِّ شيء ظن الأطباء في مُستشفى بارنجر أنه يُشكِّل شرارة بداية أعراض ريجان. وقد كان. لقد عثرت عليه.

الظاهرة المعروفة بالاستحواذ مُشتقَّة مُباشرةً من الاعتقاد في الشياطين، وهي حالة يؤمن فيها أفرادٌ كُثُر بأن أجسادهم وعقولهم تم

اجتياحها والسيطرة عليها من قِبَل شيطان (وهو النوع الأكثر شيوعًا خلال الفترة قيد البحث) أو روح شخصٍ ميِّت. لا توجد أيُّ فترة تاريخية، أو ربع من ربوع العالم، لم تُرصد فيه هذه الظاهرة، وبشكل مُتكرِّر وثابت إلى حدٍ ما، ورغم هذا لم تزل الظاهرة في حاجة إلى تفسيرٍ وافٍ. منذ دراسة تروت كونستانتين الحاسمة التي نُشرت أوَّل مرَّة عام 1921، لم يُضف إلى جسد الظاهرة المعرفي سوى معلومات شحيحة جدًّا، على الرغم من التقدُّم الكبير في علم النفس.

قطَّبت كريس جبينها. لم تُفسَّر بشكل وافٍ بعد؟ لقد انتقل إليها انطباع مُختلف من الأطباء في مُستشفى بارنجر.

ما نعرفه يمكن تلخيصه كالآتي: أشخاصٌ كُثُر في أوقاتٍ مُختلفة مرُّوا بتحوُّلاتٍ جذرية هائلة، إلى درجة أن من حولهم شعروا إنهم يتعاملون مع شخصٍ آخر. ولم تقتصر تلك التغيُّرات على الصوت والسلوكيات وسِمات الوجه والحركات المُميِّزة للشخص فقط، بل يظن الشخص المُصاب نفسه مُنفصلًا تمامًا عن ذاته الأصلية، وأن له اسمًا -سواء بشري أو شيطاني- وتاريخًا خاص به وحده. في أرخبيل الملايو، حيث يُعَد الاستحواذ في عصرنا الحالي حدثًا يوميًا وشائعًا، تقوم روح الشخص الميِّت المُتلبِّسة بجعل الشخص المُستحوذ عليه يُحاكي صوتها وإيماءاتها وسلوكيَّاتها بشكلٍ مُذهل، لدرجة أن أقارب المتوفي لا يتمالكون أنفسهم وينفجرون بالبكاء. لكن بصرف النَّظر عمَّا يُسمَّى بـ «الاستحواذ الظاهري»، وهي تلك الحالات التي يُثبَت في نهاية المطاف إنها إما زائفة أو إنها وسواس قهري أو هستيريا، تكمن المُشكلة أساسًا في تفسير الظاهرة. التفسير الروحاني هو الأقدم، وهو انطباع قد تُعزِّزه حقيقة أن الشخصية المُتطفِّلة تستطيع الإتيان بأفعالٍ غريبة تمامًا عن الشخصية الأولى. في النوع الشيطاني من الاستحواذ، على سبيل المثال، قد يتحدَّث «الشيطان» بلُغاتٍ تجهلها الشخصية الأولى.

ها هي! رطانة ريجان! أهي محاولة اختلاق لُغة؟

واصلت كريس القراءة سريعًا.

... أو يُجسِّد مُختلف الظواهر الخارقة، كالتحريك عن بُعد على سبيل المثال: أي تحريك الأجسام دون استخدام القوَّة المادية المُباشرة.

أصوات النقر؟ ارتجاف الفراش؟

في حالات استحواذ أرواح الموتى، توجد ظهورات غريبة، مثل القصة النمساوية عن الراهب الذي -في أثناء الاستحواذ عليه- أصبح فجأة موهوبًا وبارعًا في الرقص، على الرغم من إنه لم يُعرف عنه أنه راقص في أيِّ مُناسبة قبل الاستحواذ. تلك التجلِّيَّات تكون مُثيرة للإعجاب في بعض الأحيان، لدرجة أن يونج، عالم النفس، بعد دراسته إحدى الحالات، استطاع أن يُقدِّم فقط تفسيرًا جزئيًّا لما كان مُتأكِّدًا من أنه «لم يكن احتيالًا»...

عبست كريس. هذه النغمة مُثيرة للقلق.

وقد لجأ ويليام چيمس، أعظم عالم نفس أنتجته أمريكا على الإطلاق، إلى افتراض «معقولية التفسير الروحي للظاهرة»، وذلك بعدما درس مِن كثب ما سُمِّيَ بـ «أعجوبة واتسكا»، وهي فتاة مُراهقة من مدينة واتسكا بولاية إيلينوي لم يعُد يُمكن تمييز شخصيتها عن فتاة أخرى تُدعى ماري روف توفِّيت في مصحَّة مجانين الولاية قبل اثني عشر عامًا من واقعة الاستحواذ.

مُنغمسة في الكتاب، لم تسمع كريس قرع جرس الباب، ولم تسمع توقُّف صوت كتابة شارون على آلتها الكاتبة، وتوجُّهها إلى المدخل لإجابة القادم.

عادةً ما يُعتقد أن أصول النمط الشيطاني من الاستحواذ تعود إلى المسيحية المُبكِّرة، لكن الأمر في حقيقته أن كلًا من الاستحواذ وطرد الأرواح يسبقان زمن المسيح. المصريون القدماء وكذلك أقدم حضارات نهري دجلة والفُرات أعتقدوا أن الاضطرابات الجسدية والروحية يُسببِّها غزو شياطين للجسم. الفقرة التالية، على سبيل المثال، تستعرض صيغة

لطرد الأرواح استُخدمت لمواجهة سقم الأطفال في مصر القديمة: «ارحل يا من تأتي في الظلام، يا ذا الأنف المُقوَّسة إلى الخلف، يا ذا الوجه المقلوب. هل أتيت لتُقبِّل هذا الطفل؟ لن أسمح لك بتقبيله...».

- «كريس؟».
- «أنا مُنهمكة يا شار».
- «يوجد مُحقِّق من إدارة جرائم القتل يريد رؤيتك».
- «أوه، يا للمسيح يا شارون، أخبريه أن...» قالتها كريس وقاطعت نفسها فجأة، ثم نظرت إلى أعلى وأضافت: «أوه، بالتأكيد يا شارون. أخبريه أن يأتي. دعيه يدخل».

غادرت شارون الغُرفة وبقيت كريس وحدها تُحدِّق إلى صفحات الكتاب شاردة، يجتاحها هاجسٌ غامضٍ ومُتزايد من الخوف. صوت الباب يُغلق. صوت خطواتٍ قادمة إلى الغُرفة. إحساس الانتظار. انتظار؟ انتظار ماذا؟ مثل الحلم الزاهي الذي لا يستطيع المرء تذكُّره، شعرت كريس بترقُّب شيئًا بدا مألوفًا لكنه غير مُحدَّد مع ذلك.

بقُبَّعته مُغضَّنة بين يديه، دخل الرجل الغرفة برفقة شارون مُراعيًا الموقف وأنفاسه تُصفِر. قال كيندرمان وهو يقترب: «أنا آسف جدًّا حقًّا. نعم، أعلم أنكِ مشغولة. أرى هذا. يا لي من مُزعج».

سألته كريس: «كيف حال العالم؟».

- «في حالة يُرثى لها. كيف حال ابنتك الآن؟».
- «كما هي».

مُتنفِّسًا بصعوبة، كان كيندرمان يقف حاليًا قرب الطاولة، وعيناه تتدلَّيان كعيني كلب صيد، لكن بدا فيهما الاهتمام: «أنا آسف جدًا. انظري. لا تقلقي. أعني، أعرف أن ابنتك مثار قلق. الله وحده يعلم عندما كانت ابنتي الصغيرة چولي مُصابة بالـ... ماذا كان؟ ما اسمه؟ لا أستطيع التذكُّر. إنه...».

قاطعته كريس: «لِمَ لا تجلس؟».

- «أوه، حسنًا، أشكرك بشدَّة».

زفرها المُحقِّق في امتنان وهو يُريح جسده الضخم على مقعدٍ مُقابل لشارون، وقد واصلت الأخيرة الكتابة مُتغافلة عمَّا يجري أمامها.

سألته كريس: «معذرة، ماذا كنت تقول؟».

- «حسنًا، ابنتي، كانت.. أوه، حسنًا، لا. لا يهم. إذا بدأت فلرُبَّما سأحكي لكِ قصة حياتي برُمَّتها، وقد تستطيعين صُنع فيلمًا عنها. لا، حقًّا، أنا جاد! إنها مُذهلة! إذا عرفتِ فقط نصف الأشياء المخبولة التي اعتادت أن تحدُث في عائلتي، فلسوف... لا، لا عليك. حسنًا، سأحكي لك أمرًا واحدًا! كانت أُمي تصنع لنا طبقًا من سمك الجفيلتي كل يوم جمعة، حسنًا؟ طيلة الأسبوع -وأنا أعني الأسبوع برُمَّته- لا أحد فينا يستطيع الاغتسال، لأن أُمي تضع سمك الشبوط حيًّا في حوض الاستحمام، ويظل السمك يعوم جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا، لأن أمي كانت تقول إن هذا يُساعد على خروج السموم من جسده. أعني، حقًّا، من يعرف! قد يكون سمك الشبوط كله يُفكِّر طيلة هذا الوقت في أفكارٍ انتقامية وشريرة وشيطانية! حسنًا، يكفي هذا. حقًّا. الضحك مُفيد بين الفينة والأخرى فقط كي يمنعنا من البُكاء».

استمرَّت كريس في مُراقبته مُنتظرة.

قال المُحقِّق وهو ينظر إلى الكتاب عن الشعوذة القابع بين يديها: «آه، أنت تقرئين! من أجل فيلم؟».

- «لا، فقط لإزجاء الوقت».

- «هل هو كتابٌ جيِّد؟».

- «لقد بدأت فيه لتوِّي».

غمغم كيندرمان: «شعوذة» بينما رأسه يميل بزاوية طفيفة وهو يقرأ عنوان الكتاب في أعلى الصفحة.

سألته كريس: «حسنًا إذًا، ماذا تفعل؟».

- «نعم، معذرة. أنت مشغولة. حسنًا، سأكُف. كما قلت، لن أزعجك ما لم...».

- «ما لم ماذا؟».

شبَّك المُحقِّق يديه فوق الطاولة وبدا مُغتمًّا فجأة وهو يقول: «حسنًا، يبدو أن بيرك...».

- «اللعنة!».

قالتها شارون بعصبية وهي تنزع خطابًا من براثن الآلة الكاتبة، وتُكوِّر الورق بيديها ثم تُلقيه برعونة إلى سلَّة مُهملات مجاورة لقدم كيندرمان. أدار كيندرمان وكريس رأسيهما مُحدِّقين إليها، وعندما لاحظتهما السكرتيرة قالت: «أوه، معذرة! لم أكن أعلم أنك هنا!».

سألها كيندرمان: «أأنت الآنسة فنستر؟».

صحَّحت شارون له: «سبنسر»، ثم دفعت مقعدها إلى الوراء ونهضت لاستعادة الخطاب المُجعَّد من الأرض وهي تُغمغم: «لم أدَّعِ قط إنني ماهرة في الرمي كيوليوس إرڤينج».

- «لا عليكِ، لا عليكِ».

هكذا أخبرها المُحقِّق وهو ينحني إلى الأرض جوار مقعده، ويُمسك بالورقة المُجعَّدة.

ردت شارون وهي تتوقَّف وتعود إلى مِقعدها: «أوه، أشكرك».

سألها كيندرمان: «اعذريني، أنت السكرتيرة؟».

- «شارون، هذا...» قالتها كريس والتفتت إلى كيندرمان مُتسائلة «معذرة، قلت لي ما اسمك؟».

- «كيندرمان. ويليام إف كيندرمان».

- «هذه شارون.. شارون سبنسر».

بإيماءة مُجاملة وميلٍ من رأسه قال المُحقِّق لشارون: «تشرَّفت بمعرفتك». كانت شارون الآن مُنحنية إلى الأمام وترمقه بفضول وهي تُريح ذقنها فوق ذراعيها المعقودتين فوق الآلة الكاتبة.

أضاف المُحقِّق: «وربَّما في إمكانك مُساعدتي؟».

بذراعين معقودتين كما هما، نهضت شارون وقالت: «أنا؟».

- «نعم، رُبَّما. في ليلة وفاة السيِّد دينينجس، لقد ذهبتِ إلى الصيدلية وتركتِهِ بمُفرده في المنزل، أليس كذلك؟».

- «حسنًا، ليس تمامًا. ريجان كانت هنا».

فسَّرت كريس: «تلك ابنتي».

- «كيف تتهجينها؟».

قالت كريس: «ر ي ج ا ن».

قال كيندرمان: «اسمٌ جميل».

- «شكرًا».

التفت المُحقِّق مرَّة أخرى إلى شارون وقال: «الآن، هل جاء دينينجس تلك الليلة لرؤية السيِّدة ماكنيل؟».

- «أجل، هذا صحيح».

- «هل كان يتوقَّع رجوعها قريبًا؟».

- «نعم، لقد أخبرته أنني أتوقَّع عودتها قريبًا جدًّا».

- «جميل جدًا. ومتى غادرتِ المنزل؟ هل تتذكَّرين؟».

- «لنرى. لقد كنت أشاهد الأخبار، لذا أظن... أوه لا، انتظر. أجل، هذا صحيح. أتذكر انزعاجي لأن الصيدلي قال لي إن فتى التوصيل عاد إلى منزله، فقلت له: «أوه، بالله عليك» أو شيئًا من هذا القبيل، لأن الساعة كانت لا تزال السادسة والنصف. ثم جاء بيرك بعد ذلك بنحو عشر أو عشرين دقيقة».

استنتج المُحقِّق: «إذًا كمتوسط، كان يجب أن يصل إلى هنا في السادسة وخمس وأربعين دقيقة، أليس كذلك؟».

سألته كريس: «علام كل هذا إذًا؟».

كان التوتُّر الغامض الذي شعرت به يتزايد.

- «حسنًا، الأمر يثير الأسئلة يا سيِّدة ماكنيل. أن يأتي إلى المنزل، لنقل، في السابعة إلا الرُبع، ثم يُغادر بعدها بعشرين دقيقة فقط...».

هزَّت كريس كتفيها قائلة: «أوه، حسنًا، هذا بيرك. هذا ما هو عليه».

سألها كيندرمان: «وهل كان ما هو عليه أيضًا أن يرتاد الحانات في شارع إم؟».

- «لا. على الإطلاق. بقدر علمي لا».

- «بالتأكيد. توقَّعت هذا. لقد تفحَّصت الأمر بنفسي. لذا، لم يكن لديه سبب أن يكون عند قمَّة تلك الدرجات المجاورة لمنزلك بعد مُغادرته المكان هنا. وألم تكن عادته أيضًا استقلال سيَّارة أجرة من أمام منزلك عند مُغادرته؟».

- «نعم، بالتأكيد كان سيفعل ذلك. على الأقل، هذا ما اعتاد فعله».

- «لذا على المرء التساؤل إذًا، لِمَ لم يفعل؟ لماذا أو كيف انتهى به المطاف هناك في تلك الليلة؟ وعلى المرء التساؤل أيضًا لماذا لم تُظهر سجلَّات شركات سيَّارات الأجرة أيَّ اتِّصال من هذا المنزل في تلك الليلة، باستثناء السيَّارة التي أقلَّت السيِّدة سبنسر من هنا، تحديدًا في السابعة وسبع وأربعين دقيقة».

بصوتٍ مُستنزفٍ ومنزوع الرغبة، قالت كريس بخفوت: «لا أعرف».

أخبرها المُحقِّق: «أجل، لا أظن أنكِ تعرفين. في الوقت الحالي، لقد أصبحت المسألة خطيرة إلى حدٍ كبير».

قالت كريس وهي تتنفَّس بضحالة: «من أيِّ جهة؟».

روى كيندرمان لها: «تقرير الطبيب الشرعي يُشير إلى أن احتمال موت دينينجس طبيعيًّا بهذه الطريقة ما زال قائمًا ومقبولًا تمامًا. لكن...».

- «هل تريد أن تقول إنه قُتِل؟».

- «حسنًا، يبدو أن وضع الـ...» قالها كيندرمان ثم أحجم مُتردِّدًا «معذرة، هذا قد يكون مُؤلمًا جدًّا».

- «هات ما عندك».

- «وضعية رأس دينينجس والقطع المُحدَّد الذي مزَّق عضلات الرقبة قد...».

أجفلت كريس وأغلقت عينيها وهي تقول: «يا إلهي!».

- «أجل. مثلما قُلت، الأمر مؤلم جدًّا. أنا شديد الأسف. حقًّا. لكن كما ترين، ذلك الوضع -أظن من الأفضل تخطِّي التفاصيل- لا يُمكن أن يحدث إلا لو كان السيِّد دينينجس قد طار لمسافة كبيرة قبل اصطدامه بالدرجات، رُبَّما عشرين أو ثلاثين قدمًا على سبيل المثال قبل أن يبدأ في التدحرُج عبر الدرج إلى نهايته. لذا سأتحدَّث بصراحة. توجد احتمالية واضحة بأن رُبَّما...» قالها كيندرمان مُلتفتًا إلى شارون التي ما زالت تعقد ذراعيها على صدرها، وتستمع إليه مشدوهة وبعينين مُتَّسعتين. «حسنًا، اسمحي لي أن أسألك شيئًا أوَّلًا يا آنسة سبنسر، أين كان السيِّد دينينجس عندما غادرتِ المنزل؟ مع الطفلة؟».

- «لا. كان هنا في الأسفل، في حجرة المكتب يُعد شرابًا لنفسه».

التفت كيندرمان إلى كريس مُتسائِلًا: «رُبَّما ابنتك تستطيع التذكُّر إذا كان السيِّد دينينجس قد دخل حُجرتها تلك الليلة؟».

- «لماذا تسأل؟».

- «هل تستطيع ابنتك التذكُّر؟».

- «كيف؟ كما أخبرتك، لقد كانت مُخدَّرة بِشدَّة و...».

- «نعم، نعم. لقد أخبرتِني بالفعل. هذا صحيح. أنا أتذكَّر. لكن رُبَّما تكون قد استيقظت».

قالت كريس: «لا. لم تفعل».

- «هل كانت مُخدَّرة أيضًا في آخر مرَّة تحدَّثنا فيها؟».

- «نعم».

- «أظن أنني رأيتها بالقُرب من النافذة يومها».

- «حسنًا، أنت مُخطئ».

- «جائز. رُبَّما. أنا لست مُتأكِّدًا».

- «اسمع، لماذا تسأل كل هذه الأسئلة؟».

- «حسنًا، كما كنت أقول، يوجد احتمال كبير أن يكون المُتوفي مخمورًا بِشدَّة ليلتها وقد تعثَّر وسقط من النافذة في حُجرة نوم ابنتك، أليس كذلك؟».

- «مُحال. في المقام الأوَّل، تلك النافذة مُغلقة دومًا. بالإضافة إلى ذلك، بيرك مخمور دائمًا، لكنه لم يفقد وعيه قط. لقد اعتاد أن يُخرج أفلامه وهو مخمور. وأخيرًا، كيف يُمكن أن يتعثَّر ويسقط من نافذة؟».

- «هل كنت تتوقَّعين قدوم شخصٌ آخر في تلك الليلة؟».

- «شخصٌ آخر؟ لا».

- «هل لديكِ أصدقاءٌ يمرُّون عليكِ دون ميعاد مُسبق؟».

- «بيرك فحسب».

خفض المُحقِّق رأسه وأخذ يهُزَّها: «الأمر غريبٌ جدًّا»، ثم تنهَّد مُتعبًا «مُحيِّرٌ تمامًا». في النهاية أدار بصره إلى كريس وقال: «يأتي المتوفي للزيارة، ويمكث عشرين دقيقة فقط دون أن يراكِ، ثم يرحل تاركًا طفلة صغيرة مريضة بشِدَّة؟ وبصراحة، كما ذكرتِ أنتِ، من المُستبعد أن يكون سقط من تلك النافذة. بالإضافة إلى أن سقطة كهذه لن تلوي رقبته إلى الوضع الذي عثرنا عليها فيه، رُبَّما باستثناء احتمال واحد بالمئة، أو بالأحرى في الألف». توقَّف المُحقِّق بُرهة ثم أشار برأسه إلى الكتاب عن الشعوذة وسأل: «هل قرأتِ في هذا الكتاب عن القتل الطقسي؟».

اعترتها رجفة مُتزايدة، وقالت بصوتٍ خافت: «لا».

قال كيندرمان: «رُبَّما ليس في هذا الكتاب. ومع ذلك، سامحيني، سوف أذكر الأمر فقط كي يحثَّك على التفكير أكثر. لقد عُثر على السيِّد دينينجس المسكين وعُنُقه ملوي إلى الوراء في أسلوب قتل طقسي دائمًا ما يُنسب إلى ما يُسمَّى بالشياطين يا سيِّدة ماكنيل».

شحُبت بشرة كريس بشكلٍ واضح.

- «مُختلٌّ ما قتل السيِّد دينينجس و...» توقَّف كيندرمان وسأل: «هل يوجد خطبٌ ما؟».

كان قد لاحظ التوتُّر في عينيها، وشحوبها المُفاجئ.

- «لا. لا يوجد شيء. أكمل».

- «أنا مُضطَّر. حسنًا، في البداية لم أُخبرك لأنني فضَّلتُ إعفاءك من

الألم. أيضًا، قد يكون الأمر في حقيقته حادثة بالفعل. لكنني أستبعد ذلك. تسألينني عن حدسي؟ أو رأيي؟ أنا أؤمن بأنه قُتِلَ بواسطة رجل قوي. هذه نُقطة أولى. الكسور في جمجمته -وهي النقطة الثانية- بالإضافة إلى الأشياء العديدة التي ذكرتها، من شأنها أن تجعل من المُحتمل جدًّا -مُحتمل وليس مؤكَّدًا- أن يكون المُخرج قد قُتِل وأُلقيَ بعدها من نافذة حجرة ابنتك. لكن لم يكن يوجد أحد سوى ابنتك وقتها. إذًا كيف يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ حسنًا، لا يوجد إلا حلٌ واحد: أن يكون شخصٌ ما قد أتى خلال فترة رحيل الآنسة سبنسر ووقت رجوعك. أليس كذلك؟ لذا سأسألك مرَّة أخرى، من فضلك: من يُحتمل أن يكون قد أتى؟».

أحنت كريس رأسها وقالت: «بحق يهوذا الكاهن، أمهلني لحظة!».

- «أجل، أنا آسف. الأمر مُؤلم. وقد أكون مُخطِئًا بالكامل. لكن هل ستُفكِّرين معي الآن؟ من يُحتمل أن يكون قد أتى؟».

برأسٍ ما زال مُنكَّسًا، قطَّبت كريس جبينها مُفكِّرة لبعض الوقت، ثم نظرت إلى أعلى قائلة: «لا. أنا آسفة. لا يوجد أيَّ شخص أستطيع التفكير فيه».

أدار كيندرمان بصره إلى شارون قائلًا: «إذًا رُبَّما يوجد شخصٌ تستطيعين أنتِ التفكير فيه؟ شخصٌ ما يأتي إلى هنا لرؤيتك؟».

- «أوه، لا. لا يوجد أحد».

سألتها كريس: «هل مُربِّي الخيل يعرف مكان عملك؟».

رفع كيندرمان حاجبيه في دهشة: «مُربِّي الخيل؟».

أوضحت كريس: «إنه صديق شارون».

هزَّت شارون رأسها نافية وقالت: «إنه لم يأتِ إلى هنا قط. بالإضافة لذلك، لقد كان في بوسطون في تلك الليلة يحضر مؤتمرًا ما».

سألها كيندرمان: «أهو بائع؟».

- «بل مُحام».

- «آه» ثم التفت إلى كريس مُتسائلًا: «والخادمان؟ هل يزورهما أحدٌ؟».

- «لا. على الإطلاق».
- «هل كُنت تنتظرين وصول طرد في ذلك اليوم؟ شُحنة ما؟».
- «لماذا؟». مكتبة الرمحي أحمد
- «السيِّد دينينجس كان -أنا لا أُريد التحدُّث عن متوفي بسوء- لكن كما قُلتِ أنت، يُصبح في نوبات سُكرِه، حسنًا، لنقل غضوبًا، وقادرًا بلا شك على إثارة الغيظ والغضب. في هذه الحالة، رُبَّما يكون قد غَضِب من عامل توصيل أتى بطردٍ ما. لذا، هل كُنت تتوقَّعين قدوم أيَّ شيء؟ ملابس من مغسلة التنظيف الجاف؟ بقالة؟ خمور؟ طرد؟».
- «لا أعرف. كارل من يتولَّى كل هذه الأشياء».
- «آه، بالطبع».
- «هل تُريد أن تسأله؟ فلتفعل».

تنهَّد المُحقِّق في عبوس. ثم مال إلى الوراء بعيدًا عن الطاولة، ودسَّ يديه في جيبي معطفه وهو يلقي بنظرة كئيبة إلى كتاب أعمال الشعوذة. «لا يهم. لا يهم. إنه احتمال بعيد. وابنتك مريضة جدًّا، و... حسنًا، يكفي هذا الآن».

ثم أشار بإيماءة الانصراف وأردف: «وهو كذلك. انتهى الاجتماع» ثم نهض مُضيفًا «شكرًا لكِ على وقتكِ» هذه قالها لكريس، ثم التفت إلى شارون قائلًا «شرفٌ لي أن ألتقي بكِ يا آنسة سبنسر».

أجابته شارون بنظرة شاردة تُحدِّق إلى الفراغ: «وأنا أيضًا».

أخذ كيندرمان يُردِّد وهو يهزُّ رأسه: «مُحيِّر. غريب جدًّا. غريب جدًّا جدًّا». كان غارقًا في فكرة مُلِحَّة مُعيَّنة. نظر إلى كريس وهي تنهض من مقعدها وقال: «حسنًا، معذرة لأني أزعجتك دون داعٍ».

قالت كريس له: «هلم، سأصحبك إلى الباب».

بدا كل من صوتها وملامح وجهها مكظومًا.

- «أوه، من فضلك، لا تُزعجي نفسك».
- «لا إزعاج على الإطلاق».

- «حسنًا، إذا كُنتِ مُصرَّة».
قال المُحقِّق وهما يتحرَّكان خارجين من المطبخ: «أوه، بالمناسبة، أعرف أنها مُجرَّد فُرصة في المليون، لكن هل يمكن أن تسألي ابنتك إذا ما كانت رأت السيِّد دينينجس في حُجرتها تلك الليلة؟».
- «اسمعني. لا يوجد سبب واحد يجعله يرغب في الصعود إلى الأعلى في المقام الأوَّل».
- «نعم أعرف هذا. أُدرك أن هذا صحيح. لكن إذا لم يسأل أطباء بريطانيون بعينهم «ما هذا الفطر؟»، لم يكن سيوجد البنسلين في عصرنا هذا. ألست على حق؟ من فضلك اسأليها. هل ستفعلين؟».
- «حسنًا، عندما تتحسَّن حالتها بما يسمح. سأسألها».
- «لا يُمكن أن يُضيرها الأمر».
كانا قد وصلا إلى باب المنزل الأمامي.
- «في هذه الأثناء...» واصل المُحقِّق كلامه، لكنه تلعثم، ووضعه إصبعين على شفتيه، وقال مُحرجًا «اسمعي، أكره أن أطلب منكِ هذا. أرجوك سامحيني».
توتَّرت كريس متوقِّعة صدمة جديدة، وشعرت بذلك الوخز التبصُّري مُجدَّدًا يتدفَّق في مجرى دمائها.
سألته: «ماذا؟».
- «من أجل ابنتي... هل يُمكنني أن أحظى بتوقيعك؟».
احمرَّت وجنتا المُحقِّق الآن. وبعد مرور لحظة من الدهشة، كادت كريس أن تضحك من إحساسها بالراحة.. تضحك على حالها وعلى اليأس وعلى الطبيعة البشرية.
- «أوه، بالطبع! أين القلم؟».
استجاب كيندرمان فورًا: «ها هو ذا!» ثم أخرج قلمًا من جيب معطفه وهو يدس يده الأخرى في جيبٍ آخر مُخرجًا بطاقة دعوة ناولها إلى كريس قائلًا: «ستُجن فرحًا».

سألته كريس وهي تُسند البطاقة إلى حافة الباب وترفع القلم استعدادًا للكتابة: «ما اسمها؟». استشعرت كريس تردُّدًا ثقيلًا يأتي من خلفها عندما لم تسمع سوى أنفاس الرجل. نظرت إلى الوراء، ورأت في عيني كيندرمان وحُمرة وجهه توتُّرًا ناجمٌ عن صراع داخي مُحتَدِم.

قال كيندرمان في النهاية: «لقد كذبت» ثم بدت عيناه يائسة وجريئة في الآن ذاته وهو يُفسِّر «التوقيع من أجلي. اكتبي الإهداء إلى ويليام. ويليام إف كيندرمان. إنه مكتوب على الظهر».

رمقته كريس بمودَّة شاحبة غير متوقَّعة، ثم تحقَّقت من هجاء اسمه، وكتبت: ويليام إف كيندرمان، أنا أحبك. كريس ماكنيل. ثم ناولته البطاقة، ووضعها الرجل في جيبه دون قراءة المحتوى.

قال لها خَجِلًا: «أنت سيِّدة لطيفة جدًّا».

- «شكرًا. وأنت رجل لطيف بدورك».

بدا أكثر خجلًا وهو يقول: «لا، لست كذلك. أنا مصدر إزعاج دائم» ثم أضاف وهو يفتح الباب «لا تكترثي لما قلت اليوم. ركِّزي اهتمامك على ابنتك».

أومأت كريس وقد عاد الجزع والقنوط ينهشانها مع خروج كيندرمان إلى باحة المدخل الواسعة المُنخفضة والمُسيَّجة بسياج من الحديد الأسود. التفت المُحقِّق إليها، وفي ضوء الشمس استطاع مُلاحظة الانتفاخات والهالات السوداء التي تُظلِّل ما تحت عيني نجمة السينما. ارتدى قُبَّعته وقال مُذكِّرًا: «ولكنك ستسألينها؟».

قالت له: «سأفعل. أعدك».

- «حسنًا إذًا، إلى اللقاء. واعتنِ بنفسك».

- «وأنت كذلك».

أغلقت كريس الباب واستندت إليه مُغلقة عينيها، ثم فتحتهما على الفور تقريبًا عندما سمعت رنين جرس الباب. التفتت سريعًا وفتحته، لتجد كيندرمان يلوي قسمات وجهه مُعتذرًا.

- «أنا لا أُحتمل. أعتذر بشِدَّة. لقد نسيت قلمي».

نظرت كريس إلى أسفل ووجدت أن القلم ما زال في يدها، فابتسمت في شحوب وناولته إلى المُحقِّق.

قال لها: «وشيءٌ آخر. نعم، إنه تافه، أعلم هذا. لكنني أعلم أنني لن أنام الليلة من التفكير في وجود مجنون أو مُدمن ما طليق بسبب أنني لم أُغطِ كل نقطة مهما صغرت. هل تظنين أنني سأستطيع النوم، لا، لا. نعم الأمر يبدو غبيًا، لكن اعذريني، فقط يجب عليَّ التأكُّد. هل تظنين أنه يُمكنني التحدُّث إلى السيِّد إنجستورم؟ الأمر بخصوص عُمَّال التسليم، السؤال عن عُمَّال التسليم».

قالت كريس وهي توسع من فتحة الباب: «بالتأكيد، تعال. يمكنك التحدُّث إليه في المكتب».

- «لا، أنت مشغولة. أنت سيِّدة لطيفة جدًّا ولكن هذا يكفي. يمكنني التحدُّث إليه هنا.. هنا جيِّد.. هنا على ما يُرام».

قالها وأراح ظهره مُستندًا إلى حديد السِّياج.

قالت كريس وهي تبتسم بخفوت: «إذا أصررت. أظن أنه مع ريجان في الدور العلوي. سأبعثه إليك على الفور».

- «أنا مُمتن».

أغلقت كريس الباب، وبعد بُرهة قصيرة فتحهُ كارل.

هبط كارل إلى الباحة ويده تمسك بمقبض الباب مُبقيًا عليه مواربًا. سأل كارل المُحقق بلا انفعال وهو ينتصب شامخًا بقامته الطويلة، ناظرًا إليه بعينين واضحتين وباردتين: «نعم؟».

- «لديك الحق في التزام الصمت» هكذا حيَّاه كيندرمان، ثم واصل تلاوة حقوقه في إيقاعٍ خامدٍ وسريع «إذا تنازلت عن هذا الحق، فكل ما تقوله قد -وسوف- يُستخدَم ضدك في المحكمة، لديك الحق في التحدُّث مع مُحام، وفي أن يحضر معك مُحام في أثناء الاستجواب. إذا كنت ترغب في ذلك ولا تستطيع دفع أقساط المُحامي، ستُعيِّن لك المحكمة مُحاميًا، هل تفهم كل الحقوق التي تلوتها عليك؟».

غرَّدت الطيور من فوق أغصان الشجرة العتيقة المجاورة للمنزل، بينما ترامت إلى مسمعيهما أصوات الزحام الناعمة التي تأتي من شارع إم كطنين نحلٍ آتٍ من مرجٍ بعيد.

لم يرجف جفنٌ لكارل وهو يقول: «أجل».

- «هل ترغب في التخلِّي عن حقك في التزام الصمت؟».

- «نعم».

- «هل ترغب في التخلِّي عن حقك في التحدُّث إلى مُحامٍ وأن يكون حاضرًا في أثناء الاستجواب؟».

- «نعم».

- «هل ذكرت في وقتٍ سابق أنك في ليلة الثامن والعشرين من أبريل، ليلة وفاة المُخرج البريطاني بيرك دينينجس، كنت تحضر فيلمًا يُعرض في مسرح الفنون الجميلة؟».

- «نعم».

- «في أيِّ وقت دخلت المسرح؟».

- «لا أتذكَّر».

- «لقد ذكرت من قبل أنك حضرت عرض الساعة السادسة. هل يُساعدك هذا على التذكُّر؟».

- «أجل، عرض الساعة السادسة. أتذكَّر».

- «وقد شاهدت العمل -الفيلم- من بدايته؟».

- «نعم».

- «وغادرت مع انتهاء الفيلم؟».

- «نعم».

- «ليس قبلها؟».

- «لا. شاهدت الفيلم كله».

- «بعدما غادرت المسرح استقللت حافلة العاصمة من أمامه، وترجَّلت عند تقاطع شارع إم مع جادة ويسكونسن في التاسعة والثلث مساءً تقريبًا؟».

- «نعم».
- «وسرت إلى المنزل؟».
- «سرت إلى المنزل».
- «وقد عُدت إلى السكن نحو الساعة التاسعة والنصف مساءً؟».
أجابه كارل: «لقد عُدت في التاسعة والنصف بالضبط».
- «هل أنت مُتأكِّد؟».
- «أجل. لقد نظرت إلى ساعتي. أنا مُتأكِّد».
- «وقد رأيت الفيلم بأكمله إلى نهايته؟».
- «نعم، أخبرتك بهذا».
- «إجاباتك تُسجَّل إلكترونيًّا يا سيِّد إنجستورم، لذا، أريدك أن تكون واثقًا منها تمامًا».
- «أنا كذلك».
- «هل أنت على بيِّنة بالمُشاجرة التي حدثت بين الحاجب والراعي المخمور في آخر خمس دقائق من عرض الفيلم؟».
- «نعم، أتذكَّرها».
- «هل تستطيع أن تُخبرني بسببها؟».
- «الرجل.. كان مخمورًا ويشيع الفوضى».
- «وماذا فعلوا معه في النهاية؟».
- «ألقوه إلى الخارج».
- «مثل هذه الفوضى التي تذكُرها لم تحدُث. هل تعرف أيضًا إنه في أثناء عرض الساعة السادسة مساءً حدث عُطلٌ فنِّي استمر قرابة خمس عشرة دقيقة مُسببًا انقطاع في عرض الفيلم؟».
- «لا. لا أعرف».
- «هل تذكر صيحات الاستهجان من الجمهور؟».
- «لا، لم يحدث شيء. لا عُطل فنِّي».
- «هل أنت مُتأكِّد؟».

- «لم يحدث شيء».

- «بل حدث. كما ورد في سِجِلِّ مُشغِّل آلة العرض فإن الفيلم لم ينتهِ في الثامنة وأربعين دقيقة في تلك الليلة، بل في الثامنة وخمس وخمسين دقيقة تقريبًا، ما يعني أن أبكر حافلة من أمام المسرح لم تكن لتقِلَّك إلى تقاطع شارع إم مع جادة ويسكونسن في التاسعة والثلث، بل التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، وبِناءً على ذلك فإن أقرب وقت يمكن أن تكون عُدت فيه إلى المنزل هو العاشرة إلا خمس دقائق، لا التاسعة والنصف، كما شهدت السيِّدة ماكنيل أيضًا. هل يمكنك الآن التعليق على عدم الاتِّساق المُحيِّر هذا؟».

لم يفقد كارل اتِّزانه ولو للحظة، بل تمسَّك برباطة جأشه وهو يرد: «لا، لن أُعلِّق».

حدَّق المُحقِّق إليه في صمت، ثم تنهَّد ونظر إلى أسفل وهو يوقف جهاز التسجيل المدسوس في بطانة معطفه. أبقى كيندرمان على بصره مُنخفِضًا لبُرهة، ثم رفعه مُجدَّدًا إلى كارل، وبدأ يُحدِّثه في نبرة مُنهكة لكن مُتفهِّمة: «يا سيِّد إنجستورم، جريمة خطيرة قد تكون ارتُكِبَت هنا. وأنت موضع اشتباه. السيِّد دينينجس اعتاد أن يُسيء مُعاملتك، لقد عرفت هذا من مصادر أخرى. ومن الواضح أنك كذبت بشأن مكان وجودك في وقت حدوث الوفاة. الآن، يحدث أحيانًا أن يقول رجلٌ متزوِّج إنه في مكانٍ ما بينما هو ليس كذلك. لِمَ لا؟ فنحن بشر. هل لاحظت أنني رتَّبت أن يكون حديثنا مُنفرِدًا؟ بعيدًا عن الآخرين؟ بعيدًا عن زوجتك؟ أنا لا أُسجِّل ما تقول الآن. الجهاز مُغلق. يمكنك الوثوق بي. إذا حدث أن كُنت مع امرأة أخرى غير زوجتك في تلك الليلة، فيُمكنك إخباري، وسأتقصَّى الأمر، وستخرج من هذه الورطة. أما زوجتك، فلن تعرف شيئًا. الآن أخبرني، أين كنت وقت وفاة دينينجس؟».

ومض شيءٌ في أعماق عيني كارل، لكنه تلاشى على الفور مع إصراره القول بشفاهٍ مزمومة: «في دار العرض».

رمقه المُحقِّق بثبات، دون أن يتحرَّك، وبلا صوت باستثناء أنفاسه التي تُصفِر، ومرَّت الثواني. ثم بعدها سأله كارل بصوتٍ تشوبه رعشة خافتة: «هل ستُلقي القبضِ عليَّ؟».

لم يُجبه المُحقِّق، بل استمرَّ في التحديق إليه دون أن يرمش له جفن، وعندما بدا أن كارل سيتفوَّه بشيءٍ ثانيةً، أبعد المُحقِّق جسده عن السور فجأة، وتحرَّك في اتِّجاه سيَّارة الدورية المتوقِّفة والسائق الذي ينتظر، وهو يرمق الموجودات من حوله على اليمين واليسار كسائح جديد على المدينة. من مكانه عند الباحة، راقبه كارل، بملامح جامدة وغير مُبالية، بينما فتح كيندرمان باب سيَّارة الدورية، ومدَّ يده إلى عُلبة المناديل الورقية الموضوعة على لوحة القيادة، واستخرج منديلًا وتمخَّط فيه وهو ينظر عبر النهر بلا اكتراث كما لو أنه يُفكِّر في تناول الغداء في محل هوت شوبي المُلحق بفندق الماريوت. ثم دلف إلى سيَّارة الدورية دون أن ينظر إلى الوراء.

مع ابتعاد السيَّارة وانعطافها إلى زاوية شارع خمسة وثلاثين، نظر كارل إلى اليد الطليقة التي لم تكن تُمسك بمِقبض الباب.

كانت ترتعش.

***

عندما سمعت كريس صوت الباب الأمامي يُغلق، كانت تجلس في حجرة المكتب مُكتئِبة وغارقة في أفكارها السوداء، وتصب لنفسها ڤودكا بالثلج. وقع خطوات يترامى إلى مسمعيها. كارل يصعد إلى الدور العلوي. التقطت كريس كأسها ورشفت منه، ثم ببطء تحرَّكت إلى المطبخ بعينين زائغتين وهي تُقلِّب خمرها بإصبعها السبابة. يوجد شيءٌ خطأ بشكلٍ رهيب. كان وهج الفزع الآتي قد تسرَّب في وعيها أكثر فأكثر، كالضَّوءِ الذي يتسرَّب من تحت عتبة باب إلى رواقٍ مُظلمٍ ما خارج الزمن. ما الذي يقبع وراء الباب؟ خافت كريس من فتحه والنظرِ إلى ما ورائه.

دخلت المطبخ، وجلست إلى الطاولة، وتجرَّعت من كأسها وهي

تتذكَّر في حُزن عبارة كيندرمان «أظن أنه قُتِل بواسطة رجلٍ قوي». خفضت كريس بصرها ونظرت إلى الكتاب عن الشعوذة. يوجد شيءٌ ما فيه أو بخصوصه. ما هو؟ الآن، صوت خطوات خفيفة تهبط السُلَّم. إنها شارون عائدة من حُجرة ريجان. إنها تدخل المطبخ، تجلس إلى الطاولة، وتُلقِّم اسطوانة الآلة الكاتبة طراز IBM ورقة جديدة.

- «إحساسٌ مُريب». هكذا غمغمت شارون وهي تُريح أصابعها برفق فوق لوحة المفاتيح، بينما عيناها على مسوَّدة المُلاحظات المسنودة إلى جانبها.

ناظرةً إلى الفراغ، استمرَّت كريس في رشف شرابها، ثم وضعت الكأس وأعادت بصرها إلى غلاف الكتاب.

يوجد حضور غير مُريح عالِق في الغرفة.

سبرت كريس الصمت بصوتٍ مُنهك وخفيض وعيناها لا تزالان ترمقان مُلاحظاتها: «يوجد العديد من ملاهي الهيبيين الليلية في شارعي إم وويسكونسن، وهي تضم كثيرًا من المُدمنين والمُنجِّمين وغيرهم. الشُرطة تُسمِّيهم «كلاب جهنم». أتعجَّب إذا كان بيرك قد...».

انفجرت كريس فيها فجأة: «أوه، بحق الخراء يا شار! انسي الأمر فحسب، هلَّا فعلتِ؟ يكفيني ما بي من أمور مع راجس! هلَّا كففتِ من فضلك؟».

مرَّت لحظة صمت، بدأت بعدها شارون في نقر مفاتيح الآلة الكاتبة بوتيرة غاضبة، بينما أسندت كريس مرفقيها إلى سطح الطاولة ودفنت وجهه في كفَّيها. ثم بغتةً، دفعت شارون مِقعدها إلى الوراء، وصرَّ احتكاك الخشب بالخشب، ثم نهضت مُندفعة وخطت إلى خارج المطبخ وهي تقول بنبرة باردة: «كريس، سأتمشَّى قليلًا!».

صاحت بها كريس بوجهٍ ما زال مدفونًا في كفَّيها: «جيِّد! وابتعدي عن شارع إم بحقِّ الجحيم».

- «سأفعل».

- «وشارع إن أيضًا».

سمعت كريس صوت الباب الأمامي يُفتح ثم يُغلق. تنهَّدت وأنزلت يديها ونظرت إلى أعلى. شعرت بلطمة من النَّدم. لقد امتصَّت تلك الهبَّة العاطفية التوتُّر من داخلها. لكن ليس كله. وعلى الرغم من خفوته، وعند حافة وعيها، ظلَّ ذلك الوهج المشؤوم المُنذز بسوء. سِدِّي عليه الطريق! استنشقت كريس نفسًا عميقًا وحاولت التركيز في قراءة الكتاب. وجدت الصفحة التي كانت قد انتهت إليها، وبنفاد صبر آخذ في التزايد، بدأت في تقليب الصفحات بعُجالة، باحثة ومُختلسة النظر إلى أوصافٍ بعينها من شأنها أن تُطابق حالة ريجان. «... مُتلازمة الاستحواذ الشيطاني... حالة فتاة بسِنٍّ ثماني سنوات... شذوذ... أربعة رجال أقوياء لمحاولة تقييدها...».

تجمَّدت كريس وهي تُقلِّب الصفحة.

تبع ذلك الأصوات. إنها ويلي تدلف إلى المطبخ بالبقالة.

- «ويلي؟» نادت عليها كريس بنبرة جافة وعيناها لا تحيدان عن الكتاب.

أجابتها ويلي: «نعم يا سيِّدتي. أنا هنا».

كانت تضع أكياسًا مليئة بالبقالة على المنضدة البيضاء. رفعت كريس كتاب الشعوذة نصف المغلق وهي تُثبِّت نفسها بأصابعٍ مُرتعشة قليلًا، ثم بعينين باهتتين وتعبيرٍ جامد وصوتٍ مُسطَّح سألتها: «ويلي، هل أنتِ من وضع الكتاب في حجرة المكتب؟».

اقتربت ويلي أكثر وضيَّقت عينيها وهي تنظر إلى الكتاب، ثم أجابت وهي تلتفت إلى حيث وضعت البقالة: «أجل يا سيِّدتي. أجل. أنا من وضعه».

سألتها كريس بصوتٍ لا حياة فيه: «أين وجدتيه يا ويلي؟».

أجابت ويلي وهي تُخرج المشتريات من الأكياس وتضعها على طاولة المطبخ: «في الدور العلوي، في حجرة النوم».

واصلت كريس التحديق بثبات إلى صفحات الكتاب، ثم نقلت بصرها إلى المنضدة، وبعدها إلى أعلى في اتِّجاه غرفتها، وقالت: «أيُّ غرفة يا ويلي؟».

- «غرفة الآنسة ريجان يا سيِّدتي. وجدته تحت الفراش وأنا أُنظِّف».

بصوتٍ مُخدَّر، وعينين مُتَّسعتين وتحدِّقان بثباتٍ، نظرت كريس إلى أعلى وقالت: «متى وجدتيه؟».

- «عندما ذهب الجميع إلى المُستشفى يا سيِّدتي. وأنا أشفط غبار الغرفة بالمكنسة الكهربائية».

- «ويلي.. هل أنت مُتأكِّدة تمامًا؟».

- «نعم، مُتأكِّدة».

عادت كريس تنظر إلى صفحات الكتاب لبُرهة دون حراك، دون أن يطرف لها جفن، دون أن تتنفَّس، بينما اجتاحت ذاكرتها صورة نافذة مفتوحة في غرفة ريجان ليلة الحادث الذي أودى بحياة دينينجس، وأنشبت مخالبها في عقلها كطيرٍ جارح. حدث هذا وهي ترى الآن وتتعرَّف مشهدًا مألوفًا لدرجة مُخدِّرة، وهي تنظر إلى صفحة الكتاب اليُمنى وقد اقتُطع من حافتها شريطًا طوليًا من الورق.

فجأة.. رفعت كريس رأسها إلى أعلى.. هناك فوضى تجتاح غُرفة ريجان. يوجد قرعٌ سريعٌ وصاخب وله صدى كابوسي مرعب، ويبدو هائلًا ومكتومًا في الآن ذاته، كمطرقة تقصِف جِدارًا من الحجر الجيري في أحشاء مقبرة قديمة ما.

ريجان تصرخ متوسِّلة في ألم وذعر!

كارل يصرخ في ريجان غاضبًا ومرعوبًا!

انطلقت كريس كالرصاصة خارجة من المطبخ.

يا الله! ماذا يحدث؟ ما هذا!

ركضت كريس إلى الدرج مسعورة، واندفعت إلى الطابق الثاني، ومنه إلى غرفة ريجان حيث سمعت ضربة. شخصٌ ما يترنَّح، شخصٌ ما يسقط

إلى الأرض، بينما ابنتها تصرخ بملء حنجرتها: «لا! أوه، لا! لا تفعل! أوه لا، أرجوك»، وكارل يخور.. لا! لا، هذا ليس كارل! يوجد شخصٌ آخر ذو صوت عميق وهادر يرغي ويزبد ويتوعَّد!

هرولت كريس عبر الرواق وسقطت في نهايته مُقتحمة غُرفة ريجان، ثم شهقت وهي تقف مُتجذِّرة في حالة صدمة، بينما يهدر القرع بصوتٍ جسيم راجفًا خلال الجدران. كارل يتمدَّد فاقد الوعي على الأرض بالقرب من المكتب، بينما ريجان بساقين مفتوحتين عن آخرهما تستلقي فوق فراشٍ يرتجف بعنف، وعيناها مُتَّسِعتان من الرعب وتجحظان من وسط وجهٍ مُلطَّخ بالدماء التي تسيل من أنفها حيث مُزِعت أنابيب التغذية الأنفية المِعَدية بغلظة من مكانها. كانت عيناها تُحدِّقان جَزِعة في صليب أبيض بلون العظم تمسكه بيديها في الهواء فوق جسدها، وتوجِّهُهُ بشكل مُباشر نحو فرجها.

- «لا، أرجوك! أوه، لا، أرجوك!».

هكذا كانت ريجان تصرخ بينما يداها تجلبان الصليب أقرب رغمًا عن إرادتها، وهي تُجاهد مُحاولة إيقافه.

- «ستفعلين ما آمُرك به يا قذرة! ستفعلينها».

كانت الكلمات والصوت الذي يجأر يخرجان من ريجان، في صوتٍ أجش وحَلْقي ومليء بالسُّم، بينما في ومضة خاطفة تحوَّلت ملامحها وتعابيرها بشكلٍ بشع إلى تلك الذات الشيطانية الوحشية التي أعلنت عن نفسها في أثناء جلسة التنويم الإيحائي. وعلى مرأى من كريس المصعوقة، أخذت الأصوات والوجوه تتبدَّل وتتعاقب سريعًا.

- «لا».

- «ستفعلينها!».

- «لا! أرجوك لا!».

- «ستفعلينها أيَّتها المومس الصغيرة، أو سأقتلك!».

ثم الآن، بعد أن عادت ذاتها إلى ريجان، وبعينين شاخصتين مُحدِّقتين

كما لو أنها تحجم عن الاندفاع إلى نهاية شنيعة، فغرت فاها وصرخت إلى أن تلبَّستها الشخصية الشيطانية من جديد، وغمرتها بالكامل، وغرقت الغرفة فجأة برائحة نتنة تملأ الأنوف، وبرودة جليدية بدا وكأنها تتسرَّب من الجدران، وقد انتهت أصوات القرع، ثم تحوَّلت صرخة ريجان المرعوبة الثاقبة للسمع إلى ضحكة غليظة عاوية حاقدة مُظفَّرة وهي تطعن فرجها بالصليب، مرَّة وثانية وثالثة، مُمارسة به الجنس بشراسة ضارية وهي تزأر بذلك الصوت العميق الخشن الذي يصم الآذان.

- «أنتِ ملكي الآن يا عاهرة، أيتها البقرة النتنة! نعم، فليُضاجعك يسوع.. فليُضاجعك، فليُضاجعك».

تسمَّرت كريس مذعورة في مكانها، ويدها تضغطان وجنتيها بقوة مؤلمة، بينما دوت الضحكة الشيطانية العالية مرَّة ثانية وضجَّت بالفرح بينما يتفجَّر الدَّم من فرج ريجان كثيفًا ويُغرق الملاءة البيضاء. ثم فجأة، ومن جرَّاء صرخة هائلة وجارحة خرجت من حنجرة ريجان، اندفعت كريس إلى الفراش وأمسكت الصليب بتهوُّر، لتُقابلها ريجان بوجهٍ يشتعل بالغضب، تتلوَّى قسماته بشكلٍ جحيمي، ثم مدَّت يدها وقبضت شعر كريس وجذبت رأسها بعنف إلى أسفل، ضاغطة وجهها بحزم إلى فرجها الدامي، وأخذت تُلطِّخه بالدماء بتموُّجات فاحشة من عظام حوضها.

- «آآآآه، الأم الخنزيرة الصغيرة».

هكذا غَنِجَت ريجان بصوتٍ حلقيٍ شَبِق، وواصلت: «إلعقيني، إلعقيني، إلعقيني! آآآآآآه!». ثم بعدها، جذبت اليد التي كانت تُبقي على كريس مُنخفضة رأسها عاليًا، بينما بالذراع الأخرى لطمتها لطمة هائلة في صدرها أرسلت كريس لتتدحرج عبر الغرفة وتصطدم بالجدار بقوَّة كاسحة، بينما تضحك ريجان هُزوًا.

تكوَّمت كريس على الأرض ذاهلة من الفزع. دوَّامة من الصور، من الأصوات في الغرفة، دوَّخت بصرها وأفقدتها التركيز، بينما أذناها تطنَّان عاليًا بمُشتِّتاتٍ فوضوية وهي تحاول رفع نفسها، دافعة جسدها إلى أعلى

بيديها. مُترنِّحة، نظرت كريس نحو الفراش، نحو ريجان التي تُعطيها ظهرها وهي تَلِج الصليب برفق واستمتاع إلى فرجها، دخولًا وخروجًا، وذلك الصوت العميق الرخيم يأن في تلذُّذ: «آآآه، تلك خنزيرتي الحبيبة، أجل.. أجل يا خنوصتي الحلوة، يا...».

بدأت كريس في الزَّحف مُتألِّمة نحو الفراش، ووجهها مُلطَّخٌ بالدِّماء، وعيناها لا تزلان زائغتين، وأطرافها تتوجَّع، ثم انكمشت فجأة في هلع غير مسبوق، وتراجعت مُرتابة وهي تظن أنها رأت بشكلٍ مشوَّش، كما الرؤية عبر ضبابٍ متموِّج، ابنتها تدير رأسها بالكامل إلى الاتِّجاه المُعاكس ببطء وبلا هوادة من فوق جِزعٍ ثابت لا يتحرَّك، حتَّى في النهاية وجدت كريس نفسها تنظر مُباشرةً إلى عينين شبيهتين بعيون الثعالب.. عيني بيرك دينينجس الغاضبتين.

وقال الصوت: «هل تعلمين ماذا فَعَلَتْ؟ فتاتك الدَّاعرة؟».

استمرَّت كريس في الصراخ إلى أن فقدت الوعي.

-3-

الهاوية

فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟».

- إنجيل يوحنا 6:30-31

أَنْتُم لَمْ تُؤْمِنُوا، رَغْم أَنَّكُمْ رَأَيْتُمُونِي...

- إنجيل يوحنا 6:36-37

الفصل الأول

وقفت كريس تنتظر مُتململة على ممشى جسر كي وذراعاها تتدلَّيان من فوق السُّور، بينما تتهادى إلى مسمعيها أصوات حركة مرور كثيفة ومتقطِّعة، حيث تنعق أبواق سيَّاراتٍ يقودها سائقون حاملون همومهم اليومية المُعتادة من خلفها، بينما تحتك مصادم السيَّارات ببعضها بعضًا مُحدثة كشوطًا لا يكترث أحدٌ لها.

لقد اتَّصلت بماري چو، وكَذِبت عليها.

- «ريجان بحالة جيِّدة. بالمناسبة، كنت أُفكِّر في إقامة حفل عشاء صغير آخر. قُلتِ لي ما اسم ذلك الطبيب النفسي اليسوعي؟ لقد فكَّرت في دعوته إلى...».

صَعَدَت إلى سمعها ضحكة مرحة من الأسفل: عاشقان شابان يرتديان الچينز ويقضيان وقتًا طيبًا في زورق مُستأجر. بلفتة عصبية وخاطفة، نفضت كريس الرماد عن لُفافة التَّبغ الأخيرة التي تحملها، ورَنَت أعلى الممشى باتِّجاه الحي. أحدهم يُسرع نحوها، يرتدي سراويل كاكية وسُترةً زرقاء. ليس قِسًّا. ليس هو. نظرت مرَّة أخرى إلى النهر الجاري بالأسفل، إلى قِلة حيلتها التي تسري في أعقاب الزورق الأحمر الزَّاهي. استطاعت قراءة الاسم المكتوب على جانبه: نزوة.

الخطوات تقترب. الرجل مُرتدي السُترة والسراويل القُطنية يقترب منها، وقد بدأ يُبطئ من إيقاعه مع وصوله إليها. من مُحيط رؤيتها الجانبية، رأته يُريح ساعده فوق سور الجسر، فأشاحت ببصرها سريعًا في اتِّجاه فرچينيا. أهو مُعجبٌ آخر؟ أو رُبَّما ما هو أسوأ؟

- «كريس ماكنيل؟».

ألقت كريس عقب لفافة التَّبغ إلى النهر، وقالت ببرود: «واصل سيرك، وإلا أُقسم لك سأُنادي شُرطيًّا!».

- «سيِّدة ماكنيل، أنا الأب كاريس».

شُدهت كريس، ثم احمرَّت خجلًا، والتفتت مُرتجَّة سريعًا إلى الوجه المُرضَّض الجاسئ.

- «أوه يا إلهي! أوه، معذرة». قالتها وهي تجذب نظَّارتها الشمسية في ارتباك، ثم أعادتها على الفور إلى وجهها بينما تسبُر العينان الحزينتان الداكنتان أغوار عينيها.

- «كان يجب أن أُخبِرك أنني لن آتي بالزِّي الرسمي».

بدا الصوت مُهَدهِدًا، ويُحرِّرها من العبء. كان القس يمسك الحاجز بيدين ضخمتين حسَّاستين باديتي العروق كأيدي تماثيل مايكل أنجلو.

قال مواصلًا كلامه: «ظننت أن الأمر سيساعد على جعل اللقاء أكثر خصوصية. بدا لي أنكِ قلقة جدًّا إزاء إبقاء الأمر طي الكتمان».

ردَّت كريس قائلة: «أظن أنه بالأحرى كان ينبغي عليَّ القلق إزاء عدم إظهار نفسي بمظهر الحمقاء. فقط لقد ظننتك...».

- «إنسانٌ؟». هكذا أنهى كاريس لها عبارتها بابتسامة جانبية خافتة.

نظرت إليه كريس نظرة ذات معنى وكأنها تحاول تثمينه، ثم أومأت بعدها وردَّت ابتسامته بمثيلتها وهي تقول: «أجل. أجل. لقد عرفت هذا أوَّل مرَّة رأيتك فيها».

- «ومتى كان ذلك؟».

- «في الحرم الجامعي، في أثناء تصوير الفيلم. أمعك لُفافة تبغ يا أبت؟».

مدَّ كاريس يده إلى جيب سُترته وقال: «هل يمكنك تدخين واحدة بلا «فلتر»؟».

- «حاليًا، يُمكنني تدخين حبلٍ».

- «براتبي الحالي، كثيرًا ما أفعل ذلك».

أومأت كريس مُتفهِّمة وهي تبتسم في حزم.

ثم غمغمت وهي تسحب لفافة تبغ من الرُزمة التي مدَّ القس يده بها: «أجل، أعرف. نذر الفقر».

مدَّ كاريس يده إلى جيب سراويله ليُخرج أعواد الثقاب، ثم قال: «نذر الفقر له منافعه».

- «أوه حقًّا؟ مثل ماذا؟».

- «إنه يجعل مذاق الحبل أفضل».

قالها من جديد نصف مُبتسم وهو يراقب يد كريس التي تُمسك بلفافة التَّبغ. كانت ترتعش، ولفافة التَّبغ تختلج باهتزازاتٍ غير مُنتظمة. لذا دون أن ينتظر أخذها كاريس من يدها ووضعها بين شفتيه وأحاط عود الثقاب بكفَّيه وأشعل اللفافة ونفث منها، ثم ناولها إلى كريس مرَّة أخرى قائلًا: «هكذا أسهل كثيرًا. النسيم يهب بكثافة بسبب كل تلك السيَّارات».

حدَّقت إليه كريس من جديد، بامتنان هذه المرَّة، بل رُبَّما بأمل. لقد وَعَتْ تصرُّفه. «شكرًا يا أبت». قالتها كريس ثم نظرت إليه وهو يُشعل لنفسه لفافة أخرى من طراز كاميل، لكنه نسيَ ضم يديه معًا. وعندما انتهى ونفث الدخان، أسند الاثنان مرفقيهما إلى الحاجز.

- «من أين أنت أيها الأب كاريس؟ أقصد، منشؤك».

قال لها: «نيويورك».

- «وأنا أيضًا. لكن رغم هذا لا أنتوي العودة إلى هناك أبدًا. ماذا عنك، هل تُفكِّر في ذلك؟».

قاوم كاريس غصَّة صعدت في حلقه وقال: «لا، لا أنتوي»، ثم أجبر نفسه على إظهار ابتسامة مُقتضبة وهو يردف: «لكنني لستُ من يتَّخذ تلك القرارات».

هزَّت كريس رأسها ونظرت إلى الناحية الأخرى وقالت: «يا الله، يا لي من غبية. بالطبع، أنت قس، ويتحتَّم عليك الذهاب إلى حيث يبعثونك».

- «هذا صحيح».
- «كيف يُمكن لطبيبٍ نفسي أن يتحوّل إلى قسٍّ؟».
كان كاريس مُتلهِّفًا لمعرفة المُشكلة الطارئة التي ذكرتها عندما اتَّصلت به في مقر إقامته. كانت تُمهِّد لنفسها، لقد شعر بهذا. لكن لِمَ؟ يجب ألا يتعجَّلها. الأمر سيأتي من تلقاء نفسه.
قال مُصحِّحًا لها بكياسة: «في الحقيقة، الأمر جاء بالعكس. لقد أوفدني المُجتمع...».
- «ماذا؟».
- «مُجتمع يسوع. إن لفظة يسوعي اختصار له».
- «أوه، فهمت».
- «لقد أوفدني المُجتمع إلى كلية الطب والتدريب النفسي».
- «أين؟».
- «أوه، حسنًا. إلى هارڤارد، وچونز هوبكنز.. أماكن كهذه».
أدرك القس فجأة أنه يريد إثارة إعجابها. لماذا؟ هكذا سأل نفسه مُتعجِّبًا. ثم فجأة تراءت له الإجابة القادمة من فترة صباه، من الأحياء الفقيرة، من شُرفات المسارح التي تصطف أسفل الجانب الشرقي للمدينة. ها هو ديمي الصغير يقف مع نجمة سينمائية.
أومأت كريس برأسها مؤمِّنة وقالت: «لا بأس».
- «نحن لا ننذر نذورًا في فقر الفكر».
استشعرت كريس بعض الانزعاج، فهزَّت كتفيها، والتفتت مواجهة النَّهر وهي تقول: «انظر، الأمر فقط أنني لا أعرفك بعد، و...» قطعت عبارتها وهي تسحب نفسًا عميقًا وطويلًا من لُفافة التَّبغ، ثم نفثته وهي تُطفئ العقب في الحاجز الحديدي وتلقي به إلى النهر، ثم أردفت «أنت صديق الأب داير، أليس كذلك؟».
- «بلى».
- «هل أنتما مُقرَّبان؟».

- «مُقرَّبان جدًّا».
- «هل تحدَّث إليك عن الحفل؟».
- «الذي أُقيم في منزلك؟».
- «الذي أُقيم في منزلي».
- «أجل، قال إنكِ بدوتِ له بشرًا مثلنا».

فوَّتت كريس مُلاحظته، أو تجاهلتها، وسألت: «هل تحدَّث عن ابنتي؟».

- «لا، لم أعرف أن لديكِ ابنة».
- «إنها في الثانية عشرة من عمرها. ألم يأتِ على ذكرها قط؟».
- «لا».
- «ولا ماذا فعلت؟».
- «لم يذكرها قط».
- «القساوسة يبقون أفواههم مُحكمة الغلق إذًا. أليس كذلك؟».

أجابها كاريس: «ليس بالضرورة، قد يتكلمون».

- «وعلام يعتمد الأمر؟».
- «على القس نفسه».

من أقاصي أطراف وعي كاريس، تهادى تحذيرٌ قديم من النساء اللاتي لديهن انجذاب عُصابي للكهنة، النساء اللاتي يرغبن -دون وعي وتحت غطاءٍ من بعض المُشكلات الأخرى- في إغواء بعيدي المنال.

- «اسمعني، أعني أن الأمر يشبه مسألة الاعتراف. ليس مسموحًا لك التحدُّث عن الأمر، أليس كذلك؟».
- «بلى».

سألته كريس: «وفضلًا عن الاعتراف؟ أعني، ماذا لو...» أضحت يداها الآن قلقة وترتعش «لديَّ فضول. أنا... لا. لا. أريد أن أعرف حقًّا. أعني، ماذا لو افترضنا أن الشَّخصَ مُجرمٌ.. قاتلٌ رُبَّما أو أيَّ شيءٍ آخر، تعرف ما أقصد؟ إذا جاء إليك طالبًا المُساعدة، هل تُبلغ عنه؟».

هل تسعى إلى التوبة؟ هل تنفض عنها شكوكها وتحاول سلوك طريق الهداية؟ كان كاريس يعلم أنه يوجد أشخاص يُقدِمون إلى الخلاص كما لو أنه جسرٌ واهٍ يُخيِّم فوق هاوية.

أجابها كاريس: «إذا جاء إليَّ طالبًا المُساعدة الروحية. فإجابتي ستكون لا».

- «لن تُسلِّمه إلى الشُرطة؟».

- «لا، لكنني سأحاول حَثَّه على تسليم نفسه».

- «وماذا ستفعل إذا طُلب منك عقد جلسة طرد أرواح».

مرَّت لحظة طويلة حدَّق فيها كاريس إليها بإمعان، ثم قال في النهاية: «أستميحك عذرًا؟».

- «إذا وُجِدَ شخص يتلبَّسهُ شيطانٌ ما، كيف ستتصرَّف إذا طُلب منك إجراء طقس طرد أرواح؟».

نظر كاريس بعيدًا، ثم استنشق نفسًا عميقًا، وأعاد بصره إليها وهو يقول:

- «أوه، حسنًا، في البداية يجب عليكِ وضعه في آلة زمن وإعادته إلى القرن السادس عشر».

قطَّبت كريس حاجبيها في حيرة، وقالت: «ماذا تعني؟».

- «حسنًا، ما تذكرينه لم يعد يحدث».

- «أوه حقًّا؟ منذ متى؟».

- «منذ متى؟ منذ أن علمنا بوجود المرض العقلي والفُصام وازدواج الشخصية. كل تلك الأشياء التي علَّموني إياها في هارڤارد».

- «هل تمزح؟».

بدا صوت كريس مُتهدِّجًا في أثناء تلفُّظها عبارتها الأخيرة. بدا يائسًا ومُتحيِّرًا. ونَدِمَ كاريس فورًا على شطوحه. من أين أتى ذلك الرَّد اللاذع؟ هكذا تعجَّب القس، لقد اعتلى لسانه غير مدعوٍّ.

قال في نبرة أكثر لُطفًا هذه المرَّة: «كثيرٌ من الكاثوليك المُتعلِّمين لم

يعودوا يؤمنون بالشيطان. أما بالنسبة إلى ما يتعلَّق بالاستحواذ، فمنذ أن انضممت إلى اليسوعيين لم أُقابل قسًّا واحدًا مارس طرد الأرواح ولو مرَّة واحدة في حياته. ولا واحد».

قالت كريس مُندفعة فجأة بحِدَّة مريرة خائبة الرجى: «هل أنت قسٌّ حقًّا أم مُجرَّد صورة نمطية لأحدهم؟ أعني ماذا عن كل تلك القصص التي يعج بها الإنجيل، التي يُمارس فيها المسيح طرد كل تلك الشياطين؟».

أجابها كاريس عفويًا باحتدام: «اسمعي، إذا صرَّح يسوع وقتها أن أولئك الأشخاص الذي يُفترض أنهم ممسوسون هم في الحقيقة مرضى فُصام، وهو الأمر الذي أقتنع به، كانوا سيصلبونه على الأرجح ثلاث سنوات باكرًا».

- «أوه، حقًّا» قالتها كريس وهي تضع يدًا مُرتجفة على نظَّارتها الشمسية، وضخَّمت صوتها في محاولة للسيطرة عليه وهي تردف «حسنًا أيها الأب كاريس، من الواضح أن شخصًا قريبًا جدًّا مني وعزيزًا جدًّا عليَّ يتخطَّفه شيطانٌ، وهو في حاجة إلى إجراء طقس طرد أرواح. فهل ستفعلها؟».

بالنسبة إلى كاريس، بدا الأمر برُمَّتِه غير حقيقيٍ فجأة: جسر كي، الازدحام المروري، متجر هوت شوبي على الضفة الثانية من النهر بمخفوقات حليبه المُثلَّج، بينما جواره تقف نجمة سينمائية تطلب منه التعزيم وطرد الأرواح. في أثناء ما وقف كاريس مكانه يُحدِّق إليها مُتلمِّسًا جوابًا، نزعت كريس عنها نظَّارتها الشمسية الضَّخمة الداكنة، فأجفل القس مصدومًا من مدى احمرار هاتين العينين، من اليأس المتوسِّل النَّازف من المُقلتين المُضنتين. وأدرك فجأة أن المرأة جادَّة فيما تقول.

قالت كريس في تضرُّعٍ: «أبونا كاريس. إنها ابنتي. ابنتي!».

قال لها على نحوٍ مُهدِئ: «هذا أدعى إذًا كي تنسي بشأن عقد عمليَّة طرد أرواح، و...».

- «لماذا؟» هكذا هبَّت كريس بغتةً بصوتٍ مسحوق وحاد وشديد الاضطراب «أعطني سببًا! يا إلهي، أنا لا أفهمك!».

أمسك كاريس بساعدها محاولًا تهدئتها وقال لها: «أوَّلًا، هذا الشيء قد يجعل الأمور أسوأ».

لوَت كريس قسماتِ وجهها وهي تقول في ارتياب: «أسوأ؟».

- «أجل، أسوأ. هذا صحيح. إن طقوس طرد الأرواح موحية بشكلٍ خطير. إنها قادرة على زرع فكرة الاستحواذ في نفس الشخص إن لم تكن موجودة من قبل، وفي حالة وجودها مُسبقًا، فقد تسهم في تعزيزها».

- «لكن...».

قاطعها كاريس متجاوزًا: «وثانيًا، قبل موافقة الكنيسة الكاثوليكية على إجراء طقس طرد الأرواح، فإنها تُجري تحقيقًا مُفصَّلًا كي تتأكَّد من وجود ما يُبرِّره، وهذا يأخذ وقتًا. في هذه الأثناء، ابنتك...».

- «ألا تستطيع فعلها بنفسك؟».

كانت شَفة كريس السفلى ترتعش قليلًا حاليًا، وعيناها تغرورقان بالدموع.

- «اسمعيني، أيُّ قس لديه القدرة على الطَّرد، لكن يجب أن يحدث الأمر بموافقة الكنيسة، وبصراحة، نادرًا ما يُسمح بذلك، لذا...».

- «ألا يمكنك فحصها على الأقل؟».

- «حسنًا، كطبيب نفسي، أجل أستطيع، لكن...».

صرخت كريس فجأة: «إنها في حاجة إلى قس!». كانت ملامحها تشتعل بالخوف والغضب، ثم واصلت: «لقد أخذتها إلى كل طبيب مُعالِج نفسيٍّ لعينٍ داعرٍ في العالم، وجميعهم أرسلوني إليك، الآن تُرسلني بدورك إليهم؟».

- «لكن ابنتك...».

- «بحق يسوع المسيح، ألا يوجد من يُنجِدني؟».

انجرفت الصَّرخة البِكر التي تُوقِف القلب فوق صفحة النهر، وفَزِعَت من جرائها الطيور التي تسعى فوق ضِفَّتيه المعشوشبتين فطارت إلى السماء مرفرِفة بألف جناح، صائحة بألف نعيب.

- «أوه يا رب، فليساعدني أحد!». هكذا ناحت كريس وهي تبكي وتنشج متداعية إلى صدر كاريس: «أوه، ساعدني من فضلك! أرجوك! أرجوك ساعدني!».

نظر كريس نحوها، ثم رفع يدًا مُطَمئِنَة ووضعها على رأسها تحت بصر رُكَّاب السيَّارات العالقين في الازدحام المروري من خلفهما، الذين حدَّقوا خارج نوافذهم ليرمقوهما بلا مُبالاة بليدة.

قال لها كاريس: «هوِّني عليك. الأمر على ما يُرام».

كان فقط يرغب في تهدِئتها وامتصاص هلعها. أتحكي له عن ابنتها؟ بل هي من في حاجة إلى عون طبيب نفسي.. هكذا ظن.

قال لها مُطمئِنًا: «اهدئي. سأذهب لزيارتها. سأذهب معكِ في التوِّ. هَلُمِّي، هيا بنا».

***

سمح لها كاريس أن تقوده إلى المنزل في صمت. كان إحساس عدم التصديق والانفصال عن الواقع ما زال يُلازمه. وأخذ يُفكِّر في المُحاضرة التي سيُلقيها غدًا في كلية الطب في جامعة جورج تاون. ما زالت أمامه مَهمَّة إعداد مُذكِّراته.

مع صعودهما درجات باحة المنزل الأمامية، نظر كاريس إلى ساعة معصمه التي أشارت إلى السادسة إلا عشر دقائق. ثم تطلَّع عبر الشارع إلى مقر الإقامة اليسوعية مُدرِكًا أنه فوَّت العشاء.

- «أبونا كاريس؟».

التفت القس إلى كريس، التي كانت على وشك إدارة المُفتاح في قفل مقبض الباب، لكنها تردَّدت واستدارت إليه قائلة: «ألا تظن أنه من الأفضل أن ترتدي رداء الكهنوت الخاص بك؟».

نظر كاريس إليها بشفقةٍ حاول مُداراتها. وجهها وصوتها، لكم بديا عاجزين وطفوليين لا قوَّة فيهما.

قال لها: «هذا خطر جدًّا».

- «حسنًا».

استدارت كريس وبدأت تفتح الباب، وعندها شعر كاريس بشيءٍ ما: تحذير بارد وممضّ سرى في عروقه مُحتكًّا بجدران مجرى دمائه كجزيئاتٍ جليدية حادَّة.

- «أبونا كاريس؟».

رفع القس بصره. لقد دخلت كريس المنزل.

وقف القس مُحجمًا لحظة، ثم ببطء وعن عمد، كما لو أنه قد اتَّخذ قرارًا للقيام بذلك، تحرَّك قِدمًا، خاطيًا إلى داخل المنزل وشعورًا بدنو النهاية يلُفُّه.

سَمِعَ كاريس اهتياجًا مسعورًا يأتي من الدور العلوي. صوتًا عميقًا وهادرًا يلهج ببذاءاتٍ، ويُهدِّد يتوعَّد في غضب وكراهية وتثبيط. جافلًا، التفت كاريس إلى كريس بنظرة رَوِعَة. كانت المرأة ترمقه بثبات. ثم تحرَّكت قِدَمًا. تبعها كاريس إلى أعلى الدرج ثم عبر الردهة إلى حيث يقف كارل برأسٍ مُنكَّسٍ وذراعين معقودتين في مواجهة باب غُرفة ريجان مُباشرة. من هذه المسافة القريبة، كان الصوت الآتي من الغرفة عاليًا جدًّا لدرجة أنه بدا كأنه مُضخَّم إلكترونيًّا. لاحظ القس الحيرة والخوف في عيني كارل الذي كان يُراقب اقترابهما، وأدرك الجزع في صوته المُتهدِّج الذي تحدَّث به إلى كريس قائلًا: «إنها لا تُريد القيود». التفتت كريس إلى كاريس وقالت: «لحظة واحدة وسأعود إليك». كانت الكلمات تخرج ثقيلة من طيَّات روحٍ بالية. راقبها كاريس وهي تستدير وتمشي عبر الردهة وصولًا إلى غرفتها، ثم دخلتها وتركت الباب مفتوحًا خلفها. أدار كاريس بصره إلى كارل. كان مُدبِّر المنزل ينظر إليه باهتمام شديد، وسأله: «هل أنت قس؟».

أومأ كاريس برأسه، ثم نظر سريعًا نحو باب غُرفة نوم ريجان. كان الصوت الهائج قد حلَّ محلَّه خوارٌ حاد بدا كما لو أنه خوار ثورٍ يافع. بعدها لَمَسَ شيئًا ما يد كاريس، فنظر إلى أسفل.

كانت كريس تقول: «هذه هي؟ هذه ريجان». لقد ناولته صورة للفتاة وها هو ينظر إليها الآن. طفلة صغيرة شديدة الجمال، صاحبة ابتسامة عذبة.

قالت كريس بنبرة حالمة: «لقد صُوِّرت تلك الصورة منذ أربعة أشهر مضت».

ثم أخذت الصورة من بين يديه ونظرت باتِّجاه باب الغرفة وأردفت: «يمكنك الآن الدخول وإلقاء نظرة على وجهها حاليًا». أراحت كريس ظهرها إلى الجدار جوار كارل، وتفوَّهت يائسة وبهدوء وهي تعقد ذراعيها إلى صدرها بنظرة كسيرة: «سأنتظرك هنا».

سألها كاريس: «من معها بالغرفة؟».

رفعت كريس بصرها إليه وقالت بوجهٍ جامد: «لا أحد».

ثبَّت كريس بصره إلى نظرتها المسكونة بالرعب، ثم استدار عابسًا إلى باب غُرفة النوم، وما إن أمسك بمقبض الباب، توقَّفت بغتةً الأصوات الآتية من الداخل. في ظل هذا الصمت النَّاغز، تردَّد كاريس لحظة، ثم ببطء دلف إلى الغرفة، لكنه أجفل وكاد أن يعود أدراجه من رائحة الغائط المُتراكم النَّتنة اللاذعة التي لفحت وجهه ومنخريه كعصفٍ ملموس. كابحًا جماح اشمئزازه، أغلق كاريس الباب من خلفه، ثم تسمَّرت عيناه ذاهلة على الشيء الذي كان يُدعى ريجان من قبل.. على المخلوق الذي يستلقي على ظهره فوق الفراش ورأسه يستند إلى الوسادة، بينما عيناه اللتان تنتفخان داخل تجاويفهما الفارغة تلتمع بمكرٍ نزق وذكاءٍ مُلتهب، وتبرق بالاهتمام والنكاية، وقد تسمَّرتا على عينيه مُراقبتهما بكثافة، وهما تغليان في وجهٍ تحوَّل إلى قناعٍ عظمي قُدَّ من حقدٍ لا يُمكن استيعابه. نقل كاريس بصره إلى الشعر الغزير المُعقَّد بكثافة، إلى الأطراف الضَّامرة والبطن المُنتفخ البارز على نحوٍ بشع، ثم أعاد نظره إلى العينين. كانت ترقُبانه.. تحصرانه.. وتتحرَّكان الآن مع حركته نحو المكتب والمقعد القريبين من النافذة الضَّخمة البارزة. جاهد كاريس كي يبدو صوته هادئًا،

بل دافئ وحميمي وهو يقول: «مرحبًا يا ريجان»، ثم التقط المقعد وقرَّبه من الفراش وهو يردف: «أنا صديق أمك، وقد أخبرتني أنكِ مريضة جدًّا جدًّا» ثم جلس وسألها مُستطردًا «هل تظنين أنكِ راغبة في إخباري ما خطبك؟ أنا أريد مساعدتِك».

لمعت عينا ريجان بشراسة دون أن تطرف، بينما تساقط لُعابٌ يميل إلى الصفرة من ركن فمها وأغرق ذقنها، ثم امتدَّت شفتاها وشُدَّت في ابتسامة وحشية هازئة خرجت من فم مقوَّس: «جميل، جميل، جميل» قالتها في سخرية شامتة جعلت الشُعيرات تنتصب على مؤخَرة عُنُق كاريس بسبب الصوت الذي خرج غليظًا وكثيفًا بالتهديد والقوَّة. «إذًا هو أنت... أنت من أرسلوه!» وواصلت مُستمتعة «حسنًا، لا شيء يُخيفنا منك على الإطلاق».

أجاب كاريس: «هذا صحيح، فأنا صديقكِ وأرغب في مساعدتك».

تذمَّرت ريجان قائلة: «إذًا فُك هذه القيود». ثم طوت ساعديها واستطاع كاريس أن يُلاحظ الآن أنهما مُقيَّدان بمجموعة مُزدوجة من الأحزمة.

- «هل القيود غير مُريحة بالنسبة لكِ؟».

- «بالتأكيد. إنها مصدر إزعاج. مصدر إزعاج جحيمي».

تلألأت العينان بمكرٍ في لهوٍ عابثٍ غامض.

لاحظ كاريس آثار خدش على وجه ريجان، وتمزُّقات عديدة على شفتيها حيث المكان الذي من الواضح أنها عضَّتهما فيه.

قال لها: «أخشى أنكِ قد تؤذين نفسكِ يا ريجان».

زأرت الفتاة: «أنا لست ريجان». كانت تتحدَّث وهي تكشف عن تلك الابتسامة المشدودة البشعة ذاتها، التي خمَّن كاريس الآن أنها تعبيرها الدائم. كم يبدو تقويم أسنانها مُتناقضًا مع هذا الوجه الكريه! هكذا فكَّر القس. ثم قال وهو يومئ برأسه: «آه، فهمت. حسنًا إذًا، رُبَّما من الأفضل أن نُعرِّف نفسينا أوَّلًا. أنا داميان كاريس. من أنت؟».

- «أنا الشيطان».

أومأ كاريس مؤمِّنًا: «آه، جميل. الآن يُمكننا التحدُّث».

- «مُحادثة قصيرة؟».
- «إذا رغبت بالأمر».
قالت ريجان وبعض اللُعاب يسيل من ركن فمها: «نعم، أشتهي هذا. لكن كما تُلاحظ فأنا لا أستطيع الكلام بأريحية بينما أنا مُقيَّد بهذه الأحزمة. فكما تعرف، أنا قضيت وقتًا طويلًا في روما، لذا تعوَّدت على الإشارة واستخدام يداي في الحديث يا كاريس. الآن إذًا، تكرَّم بنزع هذه القيود».
يا له من نُضجٍ مُبكِّر في أسلوب الحديث واختيار العبارات، هكذا فكَّر كاريس. ثم انحنى في كُرسيه إلى الأمام بمزيجٍ من الدهشة والاهتمام المهني وسأل: «لقد قلت إنك الشيطان؟».
- «أؤكد لك».
- «لماذا إذًا لا تخفي هذه القيود من الوجود ببساطة؟».
- «هلُم يا كاريس، يا لها من طريقة مُبتذلة لإظهار القوَّة. فبعد كل شيء، أنا الأمير! «أمير هذا العالم»، كما قال عني شخصٌ غريبٌ جدًّا ذات مرَّة[1]. لا أتذكَّر تمامًا من كان» قالها وبدت منه ضحكة مكتومة، أردف بعدها «أنا أُفضِّل الإقناع عن استعراض القوَّة يا كاريس. التكاتُف. التفاعل الاجتماعي. علاوة على ذلك، إذا نزعت قيودي بنفسي، فأنا أُحرمك أداء عمل خيري».
مُذهل! هكذا فكَّر كاريس، ثم ردَّ بعدها: «لكن العمل الخيري فضيلة، وهو ما يرغب الشيطان في منعه. لذا فأنا بإحجامي عن فك القيود أُساعدك في حقيقة الأمر. ما لم...» ثم هز كتفيه مواصلًا «ما لم تكن بالطبع الشيطان، وفي هذه الحالة قد أُفكِّر في فكِّها».
- «يا لك من ماكرٍ كالثعالب يا كاريس. آه لو كان العزيز هيرودس هنا كي يستمتع بالأمر».
حدَّق كاريس إليه مُضيِّقًا عينيه باهتمام مُتزايد. هل تتلاعب بالكلمات وتُلمِّح إلى نعت المسيح لهيرودس بـ «ذلك الثعلب»؟

(1) إشارة إلى بولس الطرسوسي، أو بولس الرسول.

سأل كاريس: «أيُّ هيرودس؟ يوجد اثنان. هل تتحدَّث عن مَلِك اليهودية؟».

- «لا. أتحدَّث عن رئيسِ رُبع الجليل[1]». هكذا صاحت ريجان في وجه كاريس بصوتٍ عالٍ وهي تعصف إليه بازدراءٍ مُحرِق، ثم فجأة عادت تبتسم مرَّة أخرى وهي تتملَّقه بذلك الهمس الخافت الشرير: «أرأيت كيف تُغضبني تلك القيود اللعينة. فُكَّهَا. فُكَّها وسأطلعك على المُستقبل».

- «يا له من إغواء».

- «إنها لُعبتي».

- «لكن كيف سيتسنَّى لي التأكُّد أنك تقرأ المُستقبل حقًّا؟».

- «لأنني الشيطان أيها الرَّدف!».

- «نعم، أنت تدَّعي ذلك، لكنك لم تُعطني دليلًا».

- «أنت فاقد الإيمان».

تصلَّب كاريس وتوقَّف برهة. «فاقد الإيمان بماذا؟».

- «بي يا عزيزي كاريس، بي!».

يوجد شيءٌ ما خبيثٌ وساخر يتراقص في هاتين العينين.

ثم أردفت: «رغم كل هذه البراهين، رغم كل هذه العلامات في السماء».

كان كاريس يُسيطر بالكاد على رباطة جاشة وهو يُجيب: «حسنًا، أمرٌ بسيط جدًّا قد يقنعني. مثلًا، الشيطان يعرف كل شيء، أليس كذلك؟».

- «نعم، ليس كذلك. في حقيقة الأمر، أنا تقريبًا أعرف كل شيء يا

---

(1) رئيس الرُّبع: لقب كان يطلق على من يحكم رُبع مملكة، وفي الكتاب المقدس يُقصد به كل من كان واليًا على مُقاطعة في الإمبراطورية الرومانية، كبيرة كانت أم صغيرة. وقد ذكر العهد الجديد ثلاثة من هؤلاء الحكام وهم: هيرودس رئيس رُبع على الجليل، وفيلبس رئيس رُبع على إيطورية وتراخونيتس، وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية. من باب التعظيم كان رئيس الرُّبع يُدعى ملكًا أو أميرًا في بعض الأحيان. (من دائرة المعارف الكتابية المسيحية).

كاريس. هل ترى مدى الظُلم؟ إنهم لا ينفكُّون عن نعتي بالغرور، لكنني لست كذلك. الآن إذًا، ما الذي ترمي إليه أيُّها الثَّعلب الماكر؟ ابصق إليَّ ما لديك».

- «حسنًا، لقد فكَّرت أننا قد نضع مدى معرفتك تحت الاختبار».

- «جميل جدًّا. كيف سنفعلها إذًا؟» قالها الشيء الذي أصبحته ريجان، ثم أردف وعيناه تنتفخان بسُخرية لعوب: «أكبر بُحيرة في أمريكا اللاتينية بُحيرة تيتيكاكا في بيرو! هل يفي هذا الغرض؟».

- «لا، يجب أن أسألك شيئًا الشيطان فقط يستطيع معرفته».

- «آه، فهمت. مثل ماذا؟».

- «أين ريجان؟».

- «إنها هنا».

- «أين «هنا»؟».

- «داخل الخنزيرة الصغيرة».

- «دعني أراها».

- «لماذا يا كاريس؟ هل تشتهي مُضاجعتها؟ فُكَّ هذه القيود وسأدعك تفعل ما تشاء».

- «أريد التأكُّد من أنك تُخبرني الحقيقة. دعني أراها».

- «إن فرجها طريٌّ وغض» قالتها ريجان في شبق ولسانها المخملي المُتدلي يلعق شفتيها الجافتين المُتشقِّقتين، ثم أردفت «لكنها مُتحدِّثة رديئة. أنصحك بشدَّة أن تبقى برفقتي».

هزَّ كاريس كتفيه في لا مُبالاة قائلًا: «حسنًا، من الواضح أنك لا تعرف أين هي، لذا من الواضح أيضًا أنك لست الشيطانَ».

- «بـــل أنـــــا هـــو!». هكذا جأرت ريجان بوجهٍ يُشوِّههُ الغضب وهي تنتفض أمامًا بشكلٍ مُفاجئ. ارتجف كاريس رعبًا من الصوت الهادر الذي قرقع في الغرفة وانعكس عن الجدران.

- «أنـــــا هـــو!».

- «إذًا دعني أرى ريجان. هذا سيثبت الأمر».
- «توجد طُرق أفضل بكثير! سأُريك! سأقرأ عقلك».
ثم اهتاج المخلوق الذي كانتهُ ريجان أكثر وبشكلٍ محموم وهو يقول: «فكِّر في رقم بين واحد ومِئة!».
- «لا، هذا لن يُثبت أيَّ شيء. يجب أنا أرى ريجان».
ضحك الشيء مقوقئًا كالدجاجة، وعاد إلى الوراء مُتَّكِئًا إلى رأس الفراش.
- «لا، لا شيء من شأنه أن يثبت لك أيَّ شيء على الإطلاق يا كاريس. لهذا أعشق رجال العقل والمنطق. كم هم رائعون! حقًّا كم هم رائعون! في هذه الأثناء، سنحاول الإبقاء عليك مخدوعًا ومُضلَّلًا على النحو المُناسب. فقبل كل شيء، نحن لا نود خسارتك».
سأل كاريس سريعًا محاولًا سبر غور الشيء باهتمام مُفاجئ: «من تقصد بـ «نحن»؟».
جاءته الإجابة: «نحن جماعة صغيرة نعيش داخل هذه الخنوصة. آه، أجل. حشدٌ صغير. لاحقًا قد أهتم بعقد جلسة تعارُف سريَّة، أما الآن، فأنا أُعاني من حكَّة مُجِنَّة لا أستطيع الوصول إليها. هلَّا نزعت قيدًا واحدًا لثوانٍ؟ واحدٍ فقط؟».
- «لا، فقط أخبرني بمكان الحكَّة وسأحكَّها لك».
- «آه، يا لك من ماكرٍ عَتيٍّ المكر!».
عرض كاريس: «أرني ريجان ورُبَّما سأفُك أحد القيود. هذا يتضمن أن تكون...».
فجأة أجفل القس من الصدمة عندما وجد نفسه ينظر إلى عينين يملؤهما الرعب، وفمٍ مفتوح بصرخة لا صوت لها تطلب العون. لكن بعدها اختفت هوية ريجان الحقيقية سريعًا في إعادة تشكيل سريعة طمست ملامحها ثم:
- «لأجل خاطري، هلَّا تلطَّفت وأزلت هذه القيود النجسة؟». هكذا

سأل الصوت المُتملِّق في لكنة بريطانية راقية، وذلك قبل طرفة عين من عودة الذات الشيطانية التي نَعَبَت هازِئة: «هل يمكنك مُساعدة صبي مذبح قديم يا أبت؟»، وبعدها ألقى الشيء برأسِه إلى الوراء في ضحكة ماجنة حادة.

مصعوقًا، تراجع كاريس إلى الوراء، مع شعوره بأيدٍ جليدية تتحسَّس مؤخِّرة عُنُقه من جديد. بدت له ملموسة أكثر الآن، بل أكثر وضوحًا من أن تكون إيحاءً.

قطع المخلوق الذي كانته ريجان ضحكته، ورمق كاريس بنظرة مُستهزئة ثم قال: «أتشعُر بأيدٍ جليدية؟ أوه، يتصادف أن أمك معنا هنا يا كاريس. هل ترغب في ترك رسالة لها؟ سأتأكَّد من استلامها إيَّاها بنفسي». من جديد عوت الضحكة الساخرة. ثم -فجأة- قفز كاريس من مِقعده مُتفاديًا دفقة سميكة من القيء، لكنها تمكَّنت من تلطيخ جزءًا من سُترته وإحدى يديه. بوجهٍ شحبت جميع ألوانه، خفض القس بصره نحو الفراش، حيث كانت ريجان تقوقئ كالدجاج من الطرب، بينما القيء يقطر من يده فوق البُساط.

قال كاريس في لا مُبالاة: «إذا كان هذا صحيحًا، لا بد إذًا أنك تعلم اسم أمي الأوَّل».

- «أوه، أعرفه بالطبع».

- «حسنًا، ما هو؟».

هسَّ الشيء في وجهه، والتمعت العينان المجنونتان، وتموَّج الرأس من جانب إلى آخر كأفعى الكوبرا.

كرَّر كاريس سؤاله: «ما هو؟».

غابت عينا ريجان في محجريهما، ثم خارت كالثَّور غاضبة بصوتٍ اخترق المصاريع ورجَّ زجاج النافذة الضخمة. وقف كاريس لحظات يراقب استمرار الخوار، ثم نظر إلى يديه وغادر الغرفة.

اندفعت كريس نحوه سريعًا بعدما رأت -مكروبة- سُترة اليسوعي.

صاحت به: «ماذا حدث؟ هل تقيَّأتْ؟».

سألها كاريس: «ألديك منشفة؟».

قالت كريس على عجلٍ وهي تُشير إلى باب عند مدخل الرواق: «يوجد حمَّام هناك!» ثم أردفت من فوق كتفها وهي تتبع القس إلى الحمَّام: «كارل، ادخل وتفقَّدها» وأعربت بعدها بقوَّة للقس: «أنا آسفة».

توجَّه اليسوعي إلى حوض الماء وهو يسأل: «هل أعطيتموها مُهدِّئاتٍ؟».

عالجت كريس صنابير المياه وهي تُجيبه: «أجل، ليبيريوم. هات، اخلع عنك هذه السُترة كي تتمكَّن من الاغتسال جيِّدًا».

سألها كاريس وهو يجذب السُترة بيده اليُسرى النظيفة: «ما مقدار الجُرعة؟».

- «رويدك، سأساعدك». قالتها كريس وهي تجذب السُترة من أسفل مواصلة كلامها: «حسنًا، لقد حُقِنَت اليوم بأربعمئة ميليجرامًا يا أبت».

- «أربعمئة؟».

جذبت كريس السُترة إلى مستوى صدره وهي تقول: «نعم، هكذا تمكَّننا من وضعها في تلك القيود. لقد تطلَّب الأمر جميعُنا معًا كي...».

- «هل أعطيت ابنتك أربعمئة ميليجرامًا جرعة واحدة؟».

- «إنها قوية إلى حدٍ لا تتخيَّلهُ. ارفع ذراعيك إلى أعلى يا أبت».

- «حسنًا».

رفع ذراعيه واستطاعت كريس سحب السُترة، ثم شدَّت ستائر حوض الاستحمام وألقت بها فيه وقالت: «سأجعل ويلي تُنظِّفه لك يا أبت». ثم جلست بعدها مُغتمَّة على حافة حوض الاستحمام وسحبت منشفة وردية من قضيب المناشف، بينما يدها تحجب -عن دون قصد- الاسم ريجان المُطرَّز فيها بحروفٍ زرقاء نضيدة، وغمغمت: «أعتذر لك بشدَّة».

- «لا عليكِ. لا يهم».

قالها كاريس وهو يفك زر الكُمِّ الأيمن لقميصه الأبيض المُنشَّى

ويُشمِّره إلى الساعد، كاشفًا عن شعيرات بُنِّية دقيقة تتناثر على ساعدٍ مفتول العضلات وهو يسأل: «هل تتلقَّى أيَّ نوعٍ من أنواع التغذية؟». كان يُبقي يده أسفل صنبورِ الماء الساخن ليزيل عنها القيء الكثيف.

- «لا يا أبت. نُعلِّق لها محلول السوستچن فقط وهي نائمة. لكنها اقتلعت الأنبوب».

- «اقتلعته؟ متى؟».

- «اليوم».

مُنزعجًا، نظَّف كاريس يديه وفركهما بالصابون، ثم بعد برهة تأمُّلية قال بخطورة: «ابنتك في حاجة إلى أن تودع داخل مصحَّة».

أحنت كريس رأسها وقالت بصوتٍ ناعمٍ ومُسطَّح وبلا انفعال: «لا أستطيع فعل ذلك يا أبت».

- «لِمَ؟».

ردَّدت كريس بصوتٍ مبحوح وهمسٍ خامدٍ: «فقط لا أستطيع. إنها... لقد فعلت شيئًا يا أبت، ولا يُمكنني المُخاطرة بأن يعرفهُ شخصٌ آخر. لا طبيب، ولا ممرِّضة... لا أحد».

عبس كاريس وعاد إلى صنبور المياه. تذكَّر عبارتها «ماذا لو افترضنا أن الشَّخصَ مُجرمٌ». مهمومًا، نظر كاريس نحو الحوض وهو يَتَّكئ على أطرافه، ثم قال لها: «من يُعطيها جرعات السوستچن؟ والليبريوم؟ وباقي الدَّواء؟».

- «نحن. لقد أوضح لنا طبيبها الطريقة».

- «أنتِ تحتاجين وصفة طبية».

- «حسنًا، لا بد أنك تستطيع فعل بعض من ذلك، أليس كذلك يا أبت؟».

كانت أفكاره محمومة حاليًا، ثم التفت إليها رافعًا يديه مُقابلًا نظرتها المهزومة والمسكونة بالقلق. ثم أومأ في اتِّجاه المنشفة التي تحملها في يدها وقال: «من فضلك».

رمقته كريس ببلاهة وقالت: «ماذا؟».
قال كاريس برفق: «المنشفة من فضلك».
- «أوه، معذره».
قالتها كريس وهي تناوله إيَّاها سريعًا مُتعثِّرة، وعندما بدأ القس في تجفيف يديه سألته بحزم باحثةً عن أمل: «حسنًا يا أبت، ما تقييمك للأمر؟ هل تظن أنها ممسوسة؟».
- «اسمعيني، ما مقدار ما تعرفينه عن الاستحواذ والمس؟».
- «القليل ممَّا قرأت، وبعض الأشياء التي أخبرني إيَّاها بعض الأطباء».
- «أيُّ أطباء؟».
- «الأطباء في مُستشفى بارينجر».
قال كاريس وهو يومئ برفق: «فهمت». كان قد طوى المنشفة، ثم مدَّ يده ليُعيدها إلى قضيب المناشف وهو يقول: «سيِّدة ماكنيل، هل أنتِ كاثوليكية؟».
- «لا، لست كذلك».
- «وماذا عن ابنتك؟».
- «كلا أيضًا».
- «أيُّ ديانة تتبعان إذًا؟».
- «ولا واحدة».
نظر إليها كاريس مُتأمِّلًا ومُحترزًا.
وسألها: «لِمَ قصدتيني إذًا؟».
بادرت كريس قائلة في صوتٍ مُتهدِّج: «لأنني كنت يائسة!».
- «أظن أنكِ قُلتِ إن أطباء النفس نصحوكِ بالاستعانة بي».
- «أوه، لم أكن على دراية بما أقول! لقد كنت -عمليًا- فاقدةً صوابي».
التفت كاريس وعقد ذراعيه ساندًا جسده إلى رخام الحوض الأبيض، وقال لكريس بحِدَّة محسوبة بعناية: «اسمعيني، كل ما يَهُمَّني هو بذل أفضل جهودي من أجل ابنتك. لكن ها أنا أخبرك الآن أنه إذا كنتِ تبحثين

عن طرد الأرواح كوسيلة علاج بالإيحاء الذاتي، فمن الأفضل لكِ بكثير اللجوء إلى تزييف الأمر، عن طريق شخصٍ مُنتحِل يا آنسة ماكنيل، لأن الكنيسة الكاثوليكية لن تُصدِّق الأمر ولن تسمَح به، وستهدرين بذلك وقتًا ثمينًا».

أنهى كاريس كلامه وشعر برعشةٍ خفيفةٍ في يديه.

ماذا أصابني؟ ما الذي يحدث؟

صحَّحت له كريس بشكلٍ لاذع: «بالمناسبة، أنا مدام ماكنيل».

خفَّف كاريس حدَّة نبرته وقال: «اعتذاراتي. اسمعي، ما إذا كانت مُصيبتها شيطانًا أو اضطرابًا عقليًا، فأنا سأفعل كل ما في وسعي لمُساعدة ابنتك. لكن يجب أن أعرف الحقيقة. كل الحقيقة. هذا مهم. مهم بالنسبة إلى ريجان. مدام ماكنيل، أنا مُتخبِّط حاليًا، ومصعوق بالكامل ممَّا رأيت وسمعت في غرفة ابنتك. الآن، لِمَ لا نخرج معًا من تلك الغرفة ونهبط الدور الأرضي كي نتكلَّم بأريحية؟» ثم بابتسامة خافتة مُطمئنة ودافئة، مدَّ يده إليها ليعاونها على النهوض وهو يُردف «أنا في حاجة إلى فنجان من القهوة».

- «وأنا في حاجة إلى منقوع أحذية بالثلج».

***

في الوقت الذي كان فيه كارل وشارون يعتنيان بريجان، جلست كريس مع كاريس في غرفة المكتب. هي على الأريكة، وهو على مقعد مجاور قريبًا من المدفأة. حكت له كريس تاريخ ريجان المرضي، إلا إنها حجبت بحرص أيَّ ذكرٍ للأحداث المُتعلِّقة بدينينجس. استمع القس إليها بعناية، ولم يتفوَّه إلا بأقل القليل: سؤال عابر.. إيماءة أو عُبوس سريع الزوال. ثم اعترفت كريس بعدها أنها في البداية فكَّرت في طرد الأرواح كوسيلة للعلاج بالصدمة. «لكن الآن، لا أعرف». هكذا قالت وهي تهزّ رأسها، ونظرت نحو أصابعها النَّمِشة المُتشابكة التي ترتعش برفق في كنفها «لا أعرف»، ثم أردفت وهي ترفع نظرة عاجزة إلى القس «ما قولك أنت يا أبانا كاريس؟».

خافضًا رأسه، سحب القس نفسًا عميقًا، وهزَّ رأسه وهو يقول: «أنا أيضًا لا أعرف. قد يكون سلوكًا قهريًا تولَّدَ من الإحساس بالذنب، مصحوبًا -رُبَّما- بانفصام شخصية».

بدت كريس مذعورة وهي تقول: «ماذا؟ كيف تقول هذا يا أبت بعد كل ما رأيت في الأعلى!».

رفع كاريس رأسه ونظر إليها قائلًا: «إذا كنتِ شهدتِ أعداد المرضى التي رأيتها في عنابر الطب النفسي، لكان من السهل عليكِ قول ما أقول. كفاكِ الآن! استحواذ من قِبَل شياطين؟ حسنًا، اسمعيني: لنفترض أنها حقيقة وتقع بين الفينة والأخرى. المثير في الأمر أن ابنتك لا تدَّعي أنها شيطان، بل تصر على أنها الشرير ذاته، وهذا يساوي الشيء نفسه إذا ادَّعيتِ أنتِ أنكِ نابليون بونابرت!».

- «إذًا فسِّر لي أصوات النقر تلك، والأشياء الأخرى».

- «أنا لم أسمعها».

- «حسنًا، لقد سمعوها في مُستشفى بارينجر يا أبت. الأمر إذًا لم يحدث هنا في المنزل فقط».

- «رُبَّما، لكننا لا نحتاج الشيطان بهذه السهولة لتفسير ذلك».

- «حسنًا فسِّرها إذًا!».

- «حسنًا، التحريك العقلي رُبَّما».

- «ماذا؟».

- «لقد سمعتِ عن ظاهرة الشبح الصاخب(1)، أليس كذلك؟».

- «تقصد عندما تُلقي الأشباح الأطباق في الهواء وتتصرَّف كالحمقى؟».

- «الظاهرة ليست نادرة جدًّا، وتحدُث عادةً في مُحيط مُراهق مُضطَّرب

(1) بالإنجليزية Poltergiest: أرواح مُزعجة مُفترضة تُطارد -عكس الأشباح- شخصًا معينًا لا موقعًا معينًا.

عاطفيًا. فيما يبدو أن التوتُّر الدَّاخلي الشديد في العقل يُفجِّر أحيانًا نوعًا ما من الطاقة يبدو أنها تُحرِّك الموجودات الموجودة على مسافة قريبة من الشخص. لا يوجد أيُّ شيءٍ خارق في الأمر. والأمر كذلك بالنسبة إلى قوَّة ريجان الاستثنائية. هذا شائع في علم الأمراض. سمِّيها سيطرة العقل على المادة إن شئتِ، لكنها على أيِّ حال تحدث خارج نطاق الاستحواذ».

أشاحت كريس ببصرها وهي تهزُّ رأسها: «أوه، أليس هذا بديعًا يا فتي؟» قالتها بسخرية مريرة ثم أردفت: «ها أنا المُلحدة، وها أنت القس...».

قاطعها كاريس بكياسة قائلًا: «أفضل تفسير لأيِّ ظاهرة الأبسط دائمًا، الذي يتماشى مع كل الحقائق».

ردَّت كريس وفي عينيها الحمراوين باديتي العروق نظرة استجداء وقنوط وحيرة: «أوه، حقًّا؟ حسنًا، قد أكون حمقاء يا أبانا كاريس، لكن أن تخبرني بوجود طاقة مجهولة في عقل أحدهم تُلقي بالأطباق إلى الحائط لهو أمر يبدو أكثر حماقة بالنسبة إليَّ! إذًا ما حالتها؟ هل تستطيع إخباري بطبيعة حالتها؟ وما «انفصام شخصية» على أيِّ حال؟ تكلَّم وسأستمع إليك. ما هو؟ هل أنا غبية إلى هذا الحد حقًّا؟ هل تستطيع شرح الأمر لي بطريقة تجعلني أخرجه من عقلي في نهاية المطاف؟».

- «اسمعي، لا يوجد من يدَّعي فهم المرض تمامًا. كل ما نعرفه أنه يحدث، أما كل ما يتجاوز الظاهرة ذاتها فمحض تكهُّنات. لكن فكِّري في الأمر على النحو التالي، إذا رغبتِ».

- «أجل، استمر».

- «المخ البشري يتكوَّن من نحو سبعة عشر مليار خلية، وإذا راقبناها لوجدنا أنها تُعالج نحو مِئة مليون شعور يقصف العقل كل ثانية، وعقلك لا يضم ويدمج كل تلك الرسائل فقط، بل يفعلها بفاعلية، تفعلها الخلايا دون أن تدهس أو تعترض طريق بعضها بعضًا. الآن إذًا، كيف يتسنَّى لها القيام بالأمر دون وجود نوعٍ ما من وسائل الاتِّصال؟ حسنًا، في الحقيقة لن تستطيع، لذا فيما يبدو أن كل خلية من تلك الخلايا لها وعي.. وعي خاص بها.. هل أنتِ معي؟».

أومأت كريس قائلة: «نعم، إلى حدٍ ما».

- «جميل. الآن تخيَّلي أن الجسد البشري باخرة عابرة مُحيطات، وأن خلايا عقلك طاقمها. إحدى خلايا الطاقم هذه تجلس في قُمرة القيادة. إنها القبطان. لكن هذا القبطان لا يعرف على وجه التحديد ما الذي يفعله باقي الطاقم على ظهر السفينة، فكل ما يعرفه أن السفينة تمخر عباب المحيط بسلاسة، وأن العمل على متنها يُنجز. الآن، هذا القبطان هو أنتِ. إنه عقلكِ الواعي. ما يحدث في ازدواج الشخصية أن واحدة من تلك الخلايا العاملة على ظهر السفينة رُبَّما تصعد إلى قُمرة القيادة وتستولي على الدَّفَّة. بعبارة أخرى، يحدث تمرُّد. هل ساعد هذا على تقريب الصورة إلى ذهنك؟».

كانت كريس تُحدِّق إليه بتشكك دون أن تطرف وهي ترُد: «يا أبت، هذا شطط بعيد وبالغ لدرجة تجعلني أظن أن التصديق في الشيطان اللعين أيسر كثيرًا».

- «أنا...».

قاطعته كريس بصوتٍ خفيضٍ وحاد قائلة: «انظر، أنا لا أعرف عن كل تلك الأشياء والنظريات. لكنني سأخبرك بشيءٍ يا أبت: يمكنك أن تُريني توأمًا مُتماثلًا لريجان، له الوجه نفسه، والصوت نفسه، والرائحة نفسها، وكل شيءٍ نفسه، وصولًا إلى أدق تفاصيلها.. ورغم هذا سأعرف في ثانية واحدة أنه ليس هي بالضبط! كيف؟ فقط سأعرف، سأشعر بالأمر في أحشائي. وأنا أؤكِّد لك أن ذلك الشيء في الدور العلوي ليس ابنتي! الآن أنت تُخبرني بما يجب فعله» بدأ صوتها يرتفع تدريجيًّا ببطء ويرتعش من فرط الانفعال المكتوم «تخبرني بأنك مُتأكِّد تمامًا من عدم وجود شيء يضير ابنتي باستثناء عقلها ذاته. أنت مُتأكِّد تمامًا أنها لا تحتاج طرد أرواح، وتبدو بالغ الثقة في أنه لن يُساعدها! استمر يا أبت! أخبرني بالمزيد! أخبرني!».

كانت كريس تصرخ تقريبًا مع نهاية عبارتها الأخيرة.

أشاح كاريس ببصره، ولثوانٍ طويلة ظل يُفكِّر بلا حراك. ثم أدار نظرة مُتفحِّصة إلى كريس من جديد وقال: «هل تملك ريجان صوتًا غليظَ النَّبرة؟ أعني، بشكل طبيعي».

- «لا. إن صوتها رقيقٌ جدًّا في الواقع».
- «هل تعتبرينها ممَّن لديهم نُضج مُبكِّر؟».
- «لا، على الأطلاق».
- «ماذا عن مستوى ذكائها؟».
- «متوسِّط».
- «وأنواع قِرَاءاتها؟».
- «تتركَّز في الغالب على حكايات نانسي درو والقصص المصوَّرة».
- «ماذا عن أسلوب كلامها حاليًا، كم يختلف عمَّا تعتبرينه المُعتاد بالنسبة إليها؟».
- «مختلف بالكامل. إنها لم تستخدم قط نصف هذه الكلمات».
- «أنا لم أقصد فحوى كلامها، بل أسلوبه».
- «أسلوبه؟».
- «الطريقة التي تُركِّب بها الكلمات والعِبارات».

انخفض حاجبا كريس وهي تقول: «أنا ما زلت لا أعرف تحديدًا ماذا تقصد».

- «هل لديكِ أيَّ جواباتٍ كتبتها بنفسها؟ مواضيع إنشاء؟ لو تسجيل لصوتها سيكون...».
- «نعم. يوجد تسجيلٌ تتحدَّث فيه إلى أبيها. كانت تُعدُّهُ كي تُرسله إليه كخطابٍ مسموعٍ، لكنها لم تنته منه قط. أتريده؟».
- «نعم. وأريد أيضًا الاطلاع على تقاريرها الطبية، خاصةً تقارير مُستشفى بارينجر».

أشحات كريس ببصرها وهزَّت رأسها وهي تقول: «أوه يا أبت، لقد سلكت هذا الدرب و...».

- «أجل، أجل. أعرف. لكن يجب أن أطَّلع على التقارير بنفسي».
- «إذًا أنت لا تزال ضد تنفيذ طرد الأرواح».
- «لا، أنا فقط ضد احتمالية أن أُحدث ضررًا بابنتك أكثر من نفعها».
- «لكنك تتحدَّث الآن حصرًا بصفتك طبيبًا نفسيًا، أليس كذلك؟».
- «نعم، فأنا أتكلَّم كقس أيضًا. إذا ذهبت الآن إلى مكتب المحفوظات الكنسي، أو إلى أيًا كان المكان الذي يتحتَّم عليَّ الذهاب إليه للحصول على إذنٍ بممارسة طرد الأرواح، فأوَّل شيء يجب أن أملكه هو دلالة دامغة أن حالة ابنتك ليست مُشكلة نفسية محضة، بالإضافة إلى دليلٍ تقبله الكنيسة كعلامة على الاستحواذ».
- «مثل ماذا؟».
- «لا أعرف. يجب عليَّ الذهاب وتقصِّي الأمر».
- «هل تمزح؟ لقد ظننت أنك من المُفترض أن تكون خبيرًا».
- «لا يوجد أيُّ خبراء. في الغالب أنتِ حاليًا تعرفين عن الاستحواذ الشيطاني أكثر من أيِّ قس. الآن إذًا، متي سيُمكنك إمدادي بسجلات بارينجر تلك؟».
- «سأستأجر طائرة إذا اضطُررت».
- «وشريط التسجيل؟».
نهضت كريس قائلة: «سأذهب لأرى إذا ما استطعت العثور عليه».
- «يوجد شيء آخر إضافي».
- «ما هو؟».
- «الكتاب الذي ذكرتِ أنه يضم فصلًا عن الاستحواذ: هل يمكنك التذكُّر ما إذا كانت ريجان قرأته قبل بداية مرضها؟».
أطرقت كريس ببصرها في تركيز، ثم قالت: «يا للمسيح، يبدو أنني أتذكَّر أنها قرأت شيئًا في اليوم الذي سبق الـ... قبل أن تبدأ المشكلة حقًّا، لكنني لست مُتأكِّدة تمامًا. لكن أظن أنها قرأته. أعني، أنا مُتأكِّدة. مُتأكِّدة تمامًا».

- «أريد رؤية الكتاب من فضلك».

بدأت كاريس في التحرُّك وهي تقول: «بالطبع، سأجلبه لك يا أبت. والتسجيل أيضًا. إنه في القبو حسب ما أظن. سأذهب للبحث عنه».

أومأ كاريس شاردًا وهو يُحملق في الأنماط المُتداخلة للبِساط الشرقي، ثم بعد مرور دقائق عديدة نهض وسار ببطء إلى البهو الرئيسي، حيث وقف في الظلام ويديه في جيبي سراويله وكأنه في بعدٍ آخر، وأخذ يستمع إلى الخوار الخنزيري الذي يأتي من الطابق الثاني. تبع الخوار عويلٌ طويل كعواء ابن آوى، ثم شهقة نَزِعَة، وأخيرًا هسيس أفعى.

- «أوه، أنت هنا! لقد بحثت عنك في غرفة المكتب».

التفت كاريس ورأى كريس تضغط مفاتيح نور البهو الرئيسي.

سألته وهي تقترب مُمسكة بكتاب الشعوذة وخطاب ريجان المُسجَّل إلى والدها: «هل ستغادر؟».

- «أجل، مُضطَّر. لديَّ مُحاضرة غدًا يجب الإعداد لها».

- «أوه؟ أين؟».

أجابها كاريس وهو يتناول الكتاب وشريط التسجيل من يدها: «في كلية الطب. سأحاول العودة إلى هنا غدًا عصرًا أو في المساء. في هذه الأثناء، إذا حدثت أيُّ تطوُّراتٍ عاجلة هاتفيني فورًا، مهما كان الوقت. سأُنبِّه على إدارة تحويل المُكالمات إيصالك بي في أيِّ وقت. اسمعي، كم حصة لديكِ من الدواء؟».

- «لدينا ما يكفي. جميعه موصوف بوصفات تسمح بالشراء المُتكرِّر».

- «ألن تجلبي الطبيب إلى هنا ثانيةً؟».

أحنت الممثلة رأسها وقالت: «لا أستطيع». كان صوتها يعلو الهمس بالكاد، وأردفت: «لا أستطيع فحسب».

قال كاريس مُحذِّرًا: «كما تعرفين، أنا لست مُمارسًا عامًا».

- «لا بأس».

كانت كريس لا تزال مُطرقة، واستمرَّ كاريس في تفحُّصها بقلق. كان

قادرًا تقريبًا على سماع شجونها وهي تنبض وتخفق داخلها، فقال لها بلطف: «حسنًا الآن.. عاجلًا أم آجلًا سيتحتَّم عليَّ إخبار أحد رؤسائي ما أنتوي فعله، وبالأخص إذا كنت سآتِ إلى هنا لزيارتها في أوقاتٍ مُختلفة غير مُعتادة ليلًا».

رفعت كريس بصرها ونظرت إليه وقد عبست من القلق.

- «هل هذا ضروري؟ أعني، مسألة إخبارهم؟».

- «حسنًا، إن لم أفعل، ألا ترين أن الأمر قد يبدو غريبًا؟».

أطرقت كاريس نظرها مرَّة أخرى، وأومأت موافِقَة: «أجل، أفهم ما تعني». تلفَّظتها في سقم.

- «هل تُمانعين؟ فقط سأخبرهم بما يتحتَّم عليَّ إخباره. ولا تقلقي، الأمر لن يشيع».

رفعت كريس وجهًا مُعذَّبًا وعاجزًا نحو العينين القويَّتين الحزينتين. رأت القوَّة. رأت الألم. ثم قالت بضعفٍ: «حسنًا».

لقد وثقت بالألم.

أخبرها كاريس: «سنتحدَّث قريبًا».

قالها واتَّجه للمغادرة، لكنه تمهَّل عند عتبة الباب، وأطرق برأسه وهو يضغط شفتيه بظهر قبضته كما لو كان يُفكِّر. ثم بعدها، رفع بصره إلى كريس وقال: «هل كانت ابنتك تعلم أن قسًّا سيأتي إلى هنا الليلة؟».

- «لا. لم يعلم أحد سواي».

- «هل كنتِ تعلمين أن والدتي توفِّيت مؤخَّرًا؟».

- «أجل. أنا آسفة جدًّا».

- «هل كانت ريجان على دراية بالأمر؟».

- «لماذا؟».

- «هل هي على دراية بالأمر؟».

- «لا. على الإطلاق. لماذا تسأل؟».

هزَّ كاريس كتفيه قائلًا: «لا يهم. كنت أتساءل فقط». ثم تفحَّص ملامح كريس بنظرة يشوبها قليلٌ من القلق.

- «هل تنالين أيَّ قسط من النوم؟».
- «أوه، حسنًا، أحيانًا».
- «استخدمي منوِّمًا إذًا. هل تتعاطين أيَّ جرعات من الليبريوم؟».
- «نعم».
- «كم؟».
- «عشرة ميليجرامات، مرتَّان يوميًا».
- «زيديها إلى عشرين. وفي هذه الأثناء، حاولي الابتعاد عن ابنتك. كلما تعرَّضتِ أكثر إلى سلوكها الحالي، تزداد احتمالية حدوث شرخ دائم في مشاعرك تجاهها. ابقي على ذهنٍ صافٍ، وتريَّثي. فلن يكون في مقدورك معاونتها إذا أُصبتِ بانهيارٍ عصبي».

برأسٍ مُنكَّس وعينين مكسورتين، أومأت كريس يائِسة.

أخبرها كاريس: «الآن اذهبي إلى فراشك. هلَّا خلدتِ من فضلك إلى الفراش على الفور؟».

قالت كريس بخفوت: «أجل، حسنًا. أعدك سأفعل». ثم رفعت عينيها إليه بنظرة دافِئة وشبح ابتسامة وأردفت: «عمت مساءً يا أبانا كاريس. وشكرًا لك. شكرًا جزيلًا».

للحظات، تفحَّصها كاريس -إكلينيكيًّا- من جديد، ثم قال: «حسنًا إذًا، ليلة طيبة». استدار بعدها وتحرَّك مُبتعدًا في سرعة. وقفت كريس تراقبه من المدخل. مع عبوره الطريق، تبيَّن لها أنه غالبًا فوَّت عشاءه، ثم قلقت من أن يكون الجو قارس البرودة. كان يُرخي أكمام قميصه عليه. عندما عبر من جوار مطعم 1789، أسقط شيئًا أرضًا، رُبَّما كتاب الشعوذة أو شريط تسجيل صوت ريجان. توقَّف القس لاستعادته، وعند زاوية التقاء شارع 36 بشارع P، انعطف يسارًا واختفى من أمام ناظريها. لاحظت كريس فجأة الشعور المُشرِق بالخِفَّة الذي اعتراها. ولم تلحظ كيندرمان الذي يجلس وحيدًا في سيَّارة لا تحمل علامة مُميَّزة.

***

بعد نصف ساعة، هرول كاريس عائدًا إلى غرفته في مقر الإقامة اليسوعية برفقة عددٍ من الكتب والنشرات الدورية التي التقطها من أرفف مكتبة جامعة چورچ تاون. في عُجالة، ألقى بحملهِ فوق سطح المكتب ثم نقَّب في الأدراج عن علبة تبغ، وبعد أن عثر على واحده مُعتَّقة نصف فارغة طراز كاميل، أشعل واحدة وسحب منها نفسًا عميقًا، وأبقى الدُخَّان في رئتيه وهلةً وعقله يُفكِّر في ريجان. الهستيريا، لا بد أن هذه حالتها. زفر كاريس الدُخَّان، وعلَّق إبهاميه في عروتي حزامه وهو ينظر إلى أسفل نحو الكتب. كان قد جمع الكتب التالية: الاستحواذ لأيستريتش. شياطين لودون لهاكسلي. هفوات سيجموند فرويد في قضية هايزمان. الاستحواذ الشيطاني وطرد الأرواح في صدر المسيحية في ضوء الآراء الحديثة عن المرض العقلي لمَكازلند. ومقطتفات من دوريَّتَي فرويد «عُصاب الاستحواذ الشيطاني في القرن السابع عشر» و«دراسة الشياطين في الطب النفسي الحديث».

«هلّا ساعدت صبي مذبح قديم يا أبت؟».

تلمَّس القس اليسوعي حاجبيه، ونظر بعدها إلى العَرَق الدَّبق على أصابعه. ثم لاحظ أنه ترك باب غرفته مفتوحًا. عَبرَ القس الغرفة بخطواتٍ سريعة وأغلقه، ثم ذهب إلى رفٍ يحمل نسخته حمراء الغلاف من كتاب الطقوس الرومانية، وهي خُلاصة وافية للطقوس والصلوات. ضاغطًا لُفافة التَّبغ بين شفتيه، حدَّق كاريس بعينين ضيِّقتين من خلال الدُخَّان وهو ينتقل إلى جزء «القواعد العامة» لطاردي الأرواح، باحثًا عن العلامات التي تدل على الاستحواذ الشيطاني. في البداية تصفَّح سريعًا، لكن بعدها بدأ يقرأ بمرويَّة أكثر:

على طارد الأرواح ألا يُصدِّق بسهولة أن الشَّخصَ القابع أمامه تتلبَّسه روحٌ شريرة، لكن يجب عليه أن يتحقَّق من تمايُز العلامات التي يُظهرها الشخص المُستحوَذ عليه عن تلك التي يُظهرها شخص يعاني

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مرضًا ما، خاصةً تلك الأمراض ذات الطابع النفسي. علامات الاستحواذ قد تكون كالآتي: القُدرة على التحدُّث ببراعة نوعية بلغة غريبة عن الشخص أو فهم لغة أجنبية إذا نطقها أحدهم أمامه. القدرة على إفشاء المُستقبل أو الأحداث الخفية. مظاهر القوّة التي تتجاوز قدرات سن الفرد المُصاب وحالته الطبيعية. ومُختلف الشروط الأخرى التي إذا ما جُمعت معًا، تُدعِّم البيِّنة.

أخذ كاريس يُفكِّر مليًّا فترة من الوقت، ثم أسند جذعه إلى رف الكتب وقرأ باقي التعليمات. عندما انتهى، وجد نفسه يعود لتفحُّص التعليم رقم 8:

البعض يكشف عن جريمه ارتُكِبَت.

قرع خفيف على الباب ثم: «داميان؟».

رفع كاريس بصره وقال: «تفضَّل».

كان هذا داير، الذي قال وهو يدخل الغرفة: «مرحبًا، كريس ماكنيل تحاول الوصول إليك. هل نجحت في الاتِّصال بك؟».

- «متى؟ تعني الليلة؟».

- «لا، باكرًا عصر هذا اليوم».

- «أوه، نعم. شكرًا يا چو. أجل، لقد تحدَّثت إليها».

- «جيِّد. كنت أريد التأكُّد فقط من كونك استلمت الرسالة».

كان القس المِهزار يجوب الغرفة كمن يبحث عن شيءٍ. سأله كاريس: «ماذا تريد يا چو؟».

- «ألديك أيَّ أقراص ليمون[1]؟ لقد بحثت في كل مكان لكن لا أحد لديه، وأنا أتوق لتناول واحدة يا صاح، رُبَّما اثنتين» كان داير يسترسل وهو لا يزال يطوف «لقد أمضيت فترة عامٍ كاملٍ أستمع إلى اعترافات الأطفال، وانتهيت مُدمنًا لحلوى أقراص الليمون. الأوغاد الصغار ينفثون أنفاسهم المُعطَّرة برائحة الليمون، جنبًا إلى جنب مع كل تلك الماريجوانا، وما

(1) نوع من الحلوى.

بين الاثنين، وصلت إلى اعتقاد أنها تُسبِّب الإدمان» قالها داير وهو يرفع غطاء وعاء مُرطِّب تبغ غليون يمتلئ إلى نصفه بالفستق وسأل: «ما هذه؟ فاصوليا مكسيكية نطّاطة ميِّتة؟».

التفت كاريس إلى رف كتبه، باحثًا عن عنوانٍ بعينه: «اسمع يا چو، أنا مشغول الآن نوعًا و...».

قاطعه داير قائلًا: «هاي، أليست كريس امرأة لطيفة حقًّا؟» ثم ارتمى على فراش كاريس فاردًا جسده إلى مداه، وشابك كفَّيه خلف رأسه في راحة وهو يردف: «امرأة أنيقة. هل قابلتها؟ أعني، التقيت بها وجهًا لوجه؟».

- «تكلَّمنا». هكذا أجابه كاريس وهو يلتقط مُجلَّدًا بغلافٍ أخضر بعنوان الشيطان، وهو مجموعة مقالات وأوراق رأي كاثوليكية كتبها مجموعة من اللاهوتيين الفرنسيين. حمل كاريس الكتاب معه إلى المكتب. «الآن إذًا...».

أخذ داير في اجترار ذكرياته والتأمُّل مُحدِّقًا في سقف الغرفة المُرتفع: «بسيطة. متواضعة. غير مُتكلِّفة. يمكنها مُساعدتنا في خِططي عندما يستقيل كلانا من الكهنوت».

رمق كاريس داير بحدَّة: «من سيستقيل من الكهنوت؟».

- «الشواذ.. زرافاتٍ ووحدانًا. الرداء الأسود أصبح طرازًا عتيقًا لا يُغري».

هزَّ كاريس رأسه في استنكار مشوَّش وهو يضع الكتب على مكتبه، وقال موبِّخًا: «هاي، كفاك يا چو، اذهب بعرضك إلى مسرح في لاس ڤيجاس. هيا، انطلق بسرعة! لديَّ مُحاضرة غدًا يجب أن أعد لها».

واصل القس الشاب: «أوَّلًا، نذهب إلى كريس ماكنيل بحجَّة أنني كتبت نصًّا يستند إلى حياة القديس إغناطيوس دي لويولا، والذي سأسمِّيه مُؤقَّتًا زحف اليسوعيين الشجعان».

نافضًا رماد تبغه في منفضة التَّبغ، رفع كاريس رأسه إلى داير بتجهُّم

وقال: «هلَّا سحبت مؤخِّرتك وخرجت من هنا يا چو؟ لديَّ عمل ضخم يجب أن أنجزه».

- «حسنًا، ومن يُعطِّلك؟».

- «أنت!». قالها كاريس وهو يفُك أزرار قميصه وأردف: «سأذهب وأستحمَّ سريعًا، وعندما أعود أتوقَّع أن تكون قد غادرت».

- «أوه، حسنًا». قالها داير على مضضٍ وهو يعتدل مؤرجحًا ساقيه إلى أن جلس على طرف الفراش.

- «لم أرَك على العشاء بالمناسبة. أين أكلت؟».

- «لم آكل».

- «هذه حماقة. لِم الحمية وأنت لا ترتدي سوى عباءة».

- «داير، أيوجد جهاز تسجيل في الردهة؟».

- «لا يوجد حتَّى قرص ليمون في الردهة. عليك بمختبر اللغة».

- «من يملك المفتاح؟ الأب الرئيس؟».

- «لا. الأب البوَّاب. هل تريده الليلة؟».

قال كاريس وهو يُعلِّق قميصه على ظهر مقعد المكتب: «نعم. أين أجده؟».

- «هل تريدني أن آتيك به يا داميان؟».

- «هلَّا تكرَّمت يا چو؟ أنا في مأزق حقيقي».

نهض داير قائلًا: «لا مُشكلة».

***

تحمَّم كاريس وارتدى قميصًا وسراويل. جلس إلى مكتبه، ولاحظ وجود علبة تبغ طراز كاميل، وجوارها مُفتاح مكتوبًا عليه مختبر اللغة وآخر مكتوبًا عليه ثلَّاجة مطعم الكلية، ومُلحق به مُلاحظة صغيرة تقول: أنت أولى من الفِئران والآباء الدومينيكان اللصوص. ابتسم كاريس من التوقيع الذي يُذيِّل البطاقة: فتى حلوى الليمون، ثم وضع القُصاصة جانبًا، وحلَّ ساعة معصمه وأراحها أمامه على المكتب. كانت تُشير إلى 10:58

مساءً. بدأ القس القراءة. ابتدأ بفرويد، ثم مَكازلند، ثم أجزاء من كتاب الشيطان، وبعدها أجزاء من دراسة إيستريتش المُستفيضة. وفي الرابعة صباحًا كان قد انتهى، وبدأ يفرك وجهه وعينيه. كانا يحرقانه بشدّة، بينما الدُخَّان مُعلَّقًا بكثافة في هواء الغرفة، ومنفضة التَّبغ تمتلئ عن آخرها بالرماد والأعقاب. نهض كاريس من مِقعده وسار مُنهكًا إلى النافذة وفتحها مُرتشفًا برودة هواء الفجر الباكر المُندَّى، ووقف مكانه يُفكِّر في ريجان. أجل، الفتاة تُظهر أعراض مُتلازمة الاستحواذ الجسدية. لم يكن يعتريه شك حيال هذا. في الحالة تلو الأخرى، وبغض النظر عن المكان أو الحقبة التاريخية، ظلَّت أعراض الاستحواذ ثابتة إلى حدٍ كبير. بعضها لم تختبره ريجان بعد: ظاهرة آثار الصَّلب[1]. اشتهاء الأطعمة المُثيرة للاشمئزاز. تبلُّد الإحساس بالألم والفواق المُتكرِّر عالي الصوت الذي يتعذَّر كبحه. لكن البعض الآخر ظهر عليها بوضوح: الإثارة الحركية اللا إرادية. النَّفس الكريه. اللسان المُغطَّى بزَبدٍ أبيض. هُزال الجسد. انتفاخ البطن. تهيُّج الجلد والأغشية المُخاطية. أما الأعراض الأساسية الأهم الأكثر حضورًا التي تُشكِّل النواة الصلبة للحالات التي وصفها إيسترتش بأنها استحواذ «غير زائف» فتشمل: التغيُّر الصادم في الصوت والملامح والصفات، بالإضافة إلى تجلِّي شخصية جديدة تمامًا.

عبر النافذة، حدَّق كاريس مُغتمًّا إلى الشارع. ومن خلال فروع الشجر المُتشابكة، استطاع رؤية منزل ماكنيل ونافذة حجرة ريجان الضخمة التي تبرز إلى الخارج. من قراءاته، تعلَّم أنه عندما يكون الاستحواذ طوعيًا، كما في حالات الوسطاء الروحانيين، عادةً ما تكون الشخصية الجديدة حميدة. أجل، مثل تيا. هكذا فكَّر كاريس. روح المرأة التي استمرَّت

---

(1) ستيجماتا Stigmata: ظاهرة نادرة تُعزى إلى الخوارق. وفيها تظهر جروح ونُدب ونزيف دماء مُتكرِّر من مواضع واقعة الصلب (الكفَّان غالبًا، وأيضًا القدمان والرأس). يؤمن بحدوثها بعضٌ من أتباع الطائفة الكاثوليكية، ويرون أنها مُعجزة وتجسيد حي لآلام صلب المسيح.

في تقمُّص نحَّاتٍ على فتراتٍ مُتقطِّعة، ولمدة ساعة واحدة فقط في كل مرَّة، إلى أن وقع صديق النحات في حب تيا وتوسَّل إليه كي يسمح لها باستحواذ جسده بشكلٍ دائم. لكن في حالة ريجان لا توجد تيا، هكذا فكَّر القس بتجهُّم. و«النفس الغازية» المُفترضة شريرة وتتطابق مع حالات الاستحواذ الشيطاني الذي تسعى فيه الشخصية الجديدة إلى تدمير جسد عائِلها، وكثيرًا ما تُحقق غرضها.

بمزاجٍ مشوَّش، عاد القس اليسوعي إلى مكتبه، وأمسك علبة التَّبغ وأشعل واحدة منها. حسنًا إذًا، إنها تُظهر مُتلازمة المس الشيطاني الجسدية. الآن كيف يُمكن إبراؤها؟ هكذا فكَّر وهو يُطفئ الثقاب. هذا يعتمد على ما تسبب بها في أوَّل الأمر. جلس كاريس على طرف المكتب مُتأمِّلًا في قضية راهبات دير ليل التي وقعت أحداثها في أوائل القرن السابع عشر في فرنسا. مجموعة النسوة اللاتي -زاعمات أنهن ممسوسات- اعترفن إلى طاردي الأرواح أنهن حضرن طقوس عربدة شيطانية مغلوباتٍ على أمرهن في أثناء نوبات الاستحواذ، وقد نوَّعن فيها من نصيبهن من الشهوات والمُتع: في أيام الاثنين والثلاثاء، مُضاجعات وجماع جنسي مع آخرين. في أيام الخميس، ممارسة السحاق والمص واللعق مع شركاء مثليي الجنس. في أيام السبت، مارسن البهيمية مع الحيوانات المُستأنسة والتنانين. تنانين؟ هزَّ القس رأسه في أسى. كما هو الحال في قضية ليل، كان كاريس يعتقد أن كثيرًا من ادِّعاءات الاستحواذ سببها مزيج من التدليس وهوس الكذب المرضي، بينما بعضها الآخر تُسبِّبه شتَّى أنواع المرض العقلي: جنون الارتياب، الفُصام، النهك العصبي، الوهن النفسي. كان يعرف أن -لهذه الأسباب- أوصت الكنيسة لسنواتٍ طويلة أن تُجرى جلسات طرد الأرواح بوجود طبيب نفسي أو طبيب أعصاب حاضر في أثناء إقامة الطقس. لكن بخلاف ذلك، ليس كل حالة استحواذ واضحة السبب، فكثيرٍ من الحالات جعلت إيستريتش يُصنِّف الاستحواذ كنوع قائم بذاته من الاضطراب، وقد رفض تسمية الطب النفسي التفسيرية

القاصرة «انفصام الشخصية» بصفتها لا تعدو سوى إحلال غامض فارغ المعنى لمفاهيم «الشيطان» و«أرواح الموتى».

حكَّ كاريس إصبعه السبَّابة في النُدبة جانب أنفه. لقد أخبرته كريس أن تقارير مُستشفى بارينجر تُفيد أن اضطراب ريجان رُبَّما نتج عن إيحاءٍ، عن شيءٍ يرتبط على نحوٍ ما بالهستيريا. وكاريس يظن ذلك أيضًا. كان يؤمن أن أغلب الحالات التي درسها تسبَّب فيها هذان العاملان تحديدًا. السبب الأول، أنها غالبًا ما تضرب النساء. والثاني، تفشِّي كل تلك الاستحواذات. ثم ماذا أيضًا عن كل طاردي الأرواح أولئك؟ قطَّب كاريس جبينه. طاردوا الأرواح أنفسهم وقعوا أحيانًا ضحايا الاستحواذ، كما حدث عام 1634 في دير راهبات طائفة أورسلين في لودون بفرنسا. من بين طاردي الأرواح اليسوعيين الأربعة الذين أُرسلوا للتعامل مع وباء الاستحواذ الذي ضرب الدير، ثلاثة منهم -الأب لوكاس، ولاكتنس، وترانكيل، لم يصيروا ممسوسين فقط، بل ماتوا بعدها بقليل بسكتة قلبية تسبَّب فيها فرط النشاط النفسي الحركي الذي لم يهدأ. اللعن والتجديف المُستمر، والخوار الغاضب، والسحق المتواصل لأجسادهم في المضاجع. أما القس الرابع، بيير سورين، الذي كان في سن الثالثة والثلاثين وقت حدوث الاستحواذ وأحد أهم مُفكِّري أوربا، جُنَّ تمامًا وعُزِلَ في مصحة عقلية للخمس وعشرين سنة الباقية من حياته. أومأ كاريس برأسه مُفكِّرًا. إذا كان اضطراب ريجان العقلي مُتجذِّرًا في الهستيريا، وبداية الأعراض نِتَاجًا للإيحاء، إذًا فمصدر الإيحاء الوحيد المُحتمل هو فصل الاستحواذ في الكتاب عن الشعوذة. تمعَّن كاريس في صفحات الكتاب. هل قرأته ريجان؟ هل توجد أوجه شبه بين أيٍّ من تفاصيله وسلوك ريجان؟ نجح القس في العثور على بعض الارتباطات:

... حالة الفتاة ذات الثمانية أعوام التي وُصِفَت في الكتاب بأنها «تخور كالثور بصوتٍ راعد، وعميق، وذي بأسٍ شديد». لقد جأرت ريجان كعجل.

... حالة هيلين سميث، التي عالجها الطبيب النفسي العظيم فلورنوي. لقد وصف صوتها وملامح وجهها بأنهما يتحوَّلان إلى شخصيات مُختلفة في سرعة خاطفة كالبرق. لقد فعلت ذلك معي. تلك الشخصية التي تحدَّثت بلكنة بريطانية. التغيُّر الخاطف. الآني.

... حالة في جنوب أفريقيا أبلغ عنها ولاحظها أوَّل مرَّة عالم الأجناس چيونو. لقد وصف امرأة اختفت من دارها ذات ليلة وعُثِر عليها في اليوم التالي «موثوقة» أعلى شجرة عالية جدًّا بواسطة «نباتات مُتعرِّشة دقيقة» ثم بعدها «انزلقت أسفل الشجرة عموديًا ورأسها لأسفل، وهي تهسُّ وتخرج لسانها وتدخله كالأفعى». ثم ظلَّت مُعلَّقة فترة من الوقت، وبدأت تتحدَّث بلُغةٍ لم يسمعها أحدٌ قط. ها هو انزلاق ريجان كالأفعى عندما كانت تتبع شارون. والرطانة التي تتفوَّه بها. أهي مُحاولة اختلاق «لُغة مُبهمة»؟

... حالة چوزيف وتيبو برنر، الصبيان في سن الثامنة والعاشرة على التوالي. لقد وُصِفا في الكتاب بأنهما «يستلقيان على ظهريهما ثم يدوران بغتةً بكامل عنفوانهما بسرعة خاطفة». يبدو الأمر مُلفَّقًا بالكامل أو مُبالغًا فيه إلى حدٍ كبير، لكنه يُشبه جدًا حركات ريجان الدورانية الخاطفة كدرويش.

توجد أيضًا تشابُهات أخرى، وهي أسباب إضافية تدعو إلى الارتياب أكثر في تأثُّرها بالكتاب: ذكرٌ للقوَّة غير الطبيعية والكلام البذيء، بالإضافة إلى قصص الاستحواذ في الأناجيل، والتي رُبَّما شكَّلت أساس السياق هذيان وهلاوس ريجان الدينية اللافتة للنظر في مُستشفى بارينجر. هكذا خمَّن كاريس. علاوة على ذلك، ذُكِر في الفصل مراحل مظاهر الاستحواذ: الموجة الأولى، وتتكوَّن من هجوم من بيئة الضحية المُحيطة: أصوات. روائح. تحرُّك أشياء من مواضعها دون سبب مَرئي. الموجة الثانية: الوساوس، وهي هجوم شخصي على الضحية يهدف إلى غرس الرعب عن طريق نوع الإصابات التي قد يُلحِقها الشخص بآخر عن طريق الضرب والركل. القرع والعُنف. هجمات القبطان هاودي.

حسنًا، رُبَّما... رُبَّما تكون قد قرأت الكتاب، هكذا فكَّر كاريس. لكنه لم يكن مقتنعًا. لا، على الإطلاق! لكن كريس بدت واثقة تمامًا!

سار كاريس إلى النافذة من جديد. ما التفسير إذًا؟ استحواذٌ حقيقي؟ شيطان؟ خفض القس بصره وهزَّ رأسه. أوه، كفاك! مُحال! لكن وقائع خارقة؟ بالتأكيد. لِمَ لا؟ كثيرٌ من المُراقبين الأكفَّاء ذكروا الأمر، منهم أطباء وأخصَّائيو علم نفس. لكن المشكلة كيف ستُفسِّر الظاهرة؟ فكَّر مرَّة أخرى في ذِكر إيسترتش للشاماني من جمهورية ألطاي السيبيرية، الذي استدعى شيطانًا عن عمد كوسيلة لمُمارسة «عمل سحري». عندما فُحِص الرجل في مصحَّة مُباشرة قبل تنفيذه الارتفاع أو التحليق فوق الأرض، وُجِد أن نبض قلبه تفجَّر إلى مئة نبضة في الدقيقة، وبعدها وصل إلى مئتي نبضة بطريقة مُذهلة تمامًا، مع حدوث تغيُّراتٍ ملحوظة في درجة حرارة جسمه وتنفُّسهُ أيضًا. إذًا هذا العمل الخارق يرتبط بعلم وظائف الأعضاء! لقد حدث عن طريق طاقة أو قوَّة جسدية ما! لكن كاريس تعلَّم من قراءته أن الكنيسة تطلب -كدليلٍ على الاستحواذ- ظواهر خارجية واضحة وقابلة للتحقُّق وتشير إلى... لقد نسيَ الصياغة. مرَّر كاريس إصبعه على صفحة كتاب الشيطان القابعِ على مكتبه إلى أن وجد مُبتغاه: «... ظواهر خارجية واضحة وقابلة للتحقُّق وتشير إلى وقوع تدخُّل غير عادي من قِبَل مُسبِّب ذكي بخلاف الإنسان». هل كان ذلك الحال مع الشامان؟ لا، ليس بالضرورة. وماذا عن ريجان؟ هل هذا الحال معها؟

عاد كاريس إلى الفقرة التي علَّمها بالقلم الرصاص في نسخته من كتاب الطقوس الرومانية: «على طارد الأرواح أن يكون حذرًا ألا يترك أيًا من مظاهر المريض دون تحديد هويَّتها». أومأ كاريس برأسه مُفكِّرًا، حسنًا إذًا، لنرى. سريعًا، عدَّد القس أعراض اضطراب ريجان وتفسيراته المُحتملة، وأشَّر عليها داخل عقله واحدًا تلو الآخر:

التغيُّر الصادم في ملامح ريجان.

جزءٌ منه راجع إلى مرضها وجزء إلى سوء التغذية. على الرغم من أن

السبب في الغالب -هكذا خلص القس- يعود إلى أن السِحنة تُعد تعبيرًا عن الطبيعة الروحية للشخص.

التغيُّر الصادم في صوت ريجان.

يجب عليه الاستماع أوَّلًا إلى صوتها الحقيقي، هكذا فكَّر. وحتَّى إن اتَّضح أنه رقيق كما تقول أمها، فالصراخ المتوالي يُغلِّظ الأحبال الصوتية وتترتَّب على ذلك غلظة في الصوت. الشيء الوحيد غير المُفسَّر هو ضخامة وعلو ذلك الصوت، لأنه حتَّى مع ثخانة الأحبال الصوتية يبدو هذا مُستحيلًا فسيولوچيًا. ورغم ذلك وضع في اعتباره أن مظاهر القوَّة الخارقة وفرط الأداء العضلي معروف أنه أمرٌ شائع في حالات التوتُّر والأمراض. ألا يمكن أن الأحبال الصوتية والحنجور يخضعان لنفس التأثير الغامض؟

اتِّساع حصيلة ريجان اللغوية والمعرفية المُفاجئ.

كريبتومنيسا: أو الذكريات المدفونة من الكلمات والمعلومات التي سمعتها أيَّ وقتٍ مضى من حياتها، رُبَّما حتى من فترة الرضاعة. المعلومات الدفينة كثيرًا ما تطفو على السطح مع السائرين نيامًا -وفي كثيرٍ من الأحيان مع الأشخاص المُحتضرين-، وبدِقَّة فوتوغرافية تقريبًا.

ريجان تتعرَّفه كقس.

رُبَّما هو تخمين جيِّد. إذا كانت قد قرأت فصل الاستحواذ، فرُبَّما توقَّعت زيارة من قس. ووفقًا ليونج، العقل اللا واعي وحساسية الأشخاص المصابون بالهستيريا يكونان أحيانًا أقوى خمسين مرَّة عن المُعتاد، ما جعل يونج يظن أنهما مسؤولان عن «قراءة الأفكار» عن طريق النقر على الطاولة من قِبَل الوسطاء، والتي فيما يبدو تكون غير مُزيَّفة، لأن ما «يقرأه» الوسيط في واقع الأمر هو الرجفان والاهتزاز في الطاولة من جراء أيدي الشخص الذي يُفترض أن أفكاره تُقرأ وقتها. الاهتزازات تُشكِّل نمطًا من الحروف والأرقام. لذا يمكن تصوُّر أن ريجان قد «قرأت» هويَّته فقط من نمطه، أو حتَّى من رائحة الزيت المُقدَّس في يديه.

معرفة ريجان بموت أمه.

تخمينٌ جيِّدٌ آخر. إنه في السادسة والأربعين من عمره.

«هل يمكنك مُساعدة صبي مذبح قديم يا أبت؟».

الكُتب الدراسية المُستخدمة في المدارس الكاثوليكية تقبل التخاطر كحقيقة وكظاهرة طبيعية على حدٍ سواء.

النُضج المُبكِّر لوعي وأفكار ريجان.

هذه الظاهرة الأكثر صعوبة في تفسيرها. لكن عالم النفس يونج خَلَصَ في أثناء مُراقبته لحالة شخصية مُتعدِّدة تشمل ظواهر غامضة مزعومة أن في حالات السرنمة الهستيرية لا يحدث فقط تزايد في الإدارك اللا واعي للحواس، لكن أيضًا وظائف الشخصية الدخيلة العقلية -في الحالة قيد البحث- بدت أكثر ذكاءً من الأولى بشكلٍ واضح. لكن ماذا بعد؟ هل مُجرَّد الإبلاغ عن الظاهرة يُفسِّرها؟

توقَّف كاريس عن التعديد ونهض فجأة من مكتبه عندما انبلج إليه بغتةً أن تلاعُب ريجان اللفظي حول هيرودس أشد تعقيدًا ممَّا بدا له للوهلة الأولى. تذكَّر القس أنه عندما أخبر الفريسيون[1] المسيح بتهديدات هيرودس، ردَّ عليهم المسيح قائلًا: «اذهبوا وأخبروا ذلك الثَّعلب أنني أُخرج الشياطين!».

نظر كاريس إلى شريط التسجيل الذي يحوي صوت ريجان، ثم بتعب جلس إلى المكتب من جديد وأشعل لُفافة تبغ أخرى ونفث سحابة رمادية مشوَّبة بزرقة من الدُخَّان وهو يُفكِّر من جديد في قضية صبيي آل برنر وقضية الفتاة ذات الأعوام الثمانية التي أبدت أعراض استحواذٍ كامل. أيُّ كتاب قرأته تلك الفتاة ومكَّن عقلها اللا واعي من مُحاكاة أعراض

(1) أحد الأحزاب السياسية الدينية التي برزت خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين. يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين. كان الفريسيون يتبعون مذهبًا دينيًا مُتشدِّدًا في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها.

استحواذٍ بمثل هذا الكمال؟ وكيف تمكَّن لا وعي الضحايا الصينيين من نقل أعراض العقول اللا واعية المُختلفة لأشخاصٍ ممسوسين في سيبيريا، وفي ألمانيا، وفي أفريقيا، وفي كل مكانٍ في كل ثقافة وفي كل زمان، بحيث تتطابق الأعراض دائمًا؟

«أوه، يتصادف أن أمك معنا هنا يا كاريس».

كان القس اليسوعي يُحملق مُباشرةً أمامه، شاردًا، بينما خيوط الدُخَّان الخارجة من لفافة التَّبغ القابعة بين أصابعه تفيض بالحياة ثم تموت فورًا كالفهم الخاطئ وتذكُّر المرء لأحلامه. نظر إلى أسفل نحو الدرج السفلي الأيسر لمكتبه، وظلَّ صامتًا وبلا حراك لحظاتٍ عديدة قبل أن ينحني إليه أخيرًا، ويسحبه إلى الخارج، ويستخرج كتاب تمارين لغة إنجليزية بهت غلافه تابع لدورة تدريبية لتعليم الكبار. إنه كتاب التمارين الخاص بأمه. وضعه كاريس على المكتب، وانتظر قليلًا، ثم قلَّب صفحاته بحرصٍ وادِعٍ. في الصفحات الأولى، تكراراتٍ من الحروف الأبجدية، تكرارًا تلو الآخر، ثم تمارين بسيطة.

الدَّرس السَّادس

عنواني الكامل.

بين الصفحات، عثر على محاولة لكتابة خطاب:

عزيزي ديمي،
قد كنت أنتظرك

ثم بعدها بداية جديدة غير مُكتملة. نظر كاريس بعيدًا. ورأى عينيها قُرب النافذة... تنتظر...

««يا رب، أنا لست أهلًا أن تدخل تحت سقفي...»».

استحالت العينان إلى عيني ريجان.

««لكن قُل كلمة لا غير...»».

رمق كاريس شريط تسجيل صوت ريجان.

غادر الغرفة وأخذ الشريط إلى مُختبر اللغة، وعثر على جهاز تسجيل فجلس، ووضع البكرة في الجهاز الخالي، وارتدى سمَّاعات الأذن، وأدار المؤشِّر إلى وضع التشغيل، ثم مُنهكًا وبأعصابٍ مشدودة، انحنى أمامًا واستمع. لبرهة من الوقت، لم يصدر سوى هسيس البكرة الفارغة، وصرير عمل الآلة. وفجأة، صدرت شوشرةٍ تفعيل التسجيل.. وتبعتها ضوضاء عالية. «مرحبًا؟». تبع ذلك تذمُّر مُتأفِف. ثم صوت كريس ماكنيل المُهدِّئ يقول في الخلفية: «لا تقتربي من الميكروفون كثيرًا يا حبيبتي. أمسكيه عن بُعد؟». «هكذا؟». «لا، أبعد». «هكذا؟». «نعم، جيِّد. هيا الآن. فقط تكلَّمي بأريحية». صوت ضحكات. ثم الميكروفون يرتطم بالطاولة. بعدها أتى صوت ريجان النَّاعم الصَّافي يُغرِّد:

«مرحبًا يا أبي؟ هذه أنا. مممممم...». ضحكات. ثم همسة جانبية. «ماما، لا أعرف ماذا أقول!». «أوه، أخبريه فقط عن حالك يا حلوتي. عن كل تلك الأشياء الجميلة التي تقومين بها». المزيد من الضَّحك. «مممم. بابا... حسنًا، هل ترى... أقصد، أتمنَّى أنك تسمعني جيِّدًا، و، مممم، حسنًا الآن، لنرى. مممم. حسنًا، في البداية نحن... لا، انتظر! هل تعرف أننا في واشنطن يا أبي؟ إنها محلِ إقامة الرئيس، وهذا البيت، أتعرفه يا أبي؟... إنه... تبًّا! أبي، انتظر قليلًا. من الأفضل أن أبدأ من جديد. أترى يا أبي، يوجد ذلك...».

استمع كاريس إلى باقي التسجيل بنصف وعي. من بُقعةٍ ما بعيدة في عقله، وعبر اندفاع الدَّم في أذنيه، وكما لو أن الأمر يتدفَّق من خلال كيانه ذاته، تضخَّم في وعيه حدسًا كاسحًا.

الشيء الذي قابلته في تلك الغرفة ليس ريجان!

عاد كاريس إلى ردهة مقر الإقامة اليسوعية، حيث عثر على زاوية غير مأهولة، فتلى صلاته قبل ازدحام ساعة الذروة الصباحية الباكرة. وبينما كان يُمسك خبز القربان المُقدَّس، ارتعش بين أنامله بأملٍ ألا يتجرأ على الأمل، بأن يُحاربه بكل ذرَّة وكل نسيجٍ في إرادته. رتَّل كاريس بهمسٍ ثقيل الصلاة: ««لأن هذا جسدي»».

لا! إنه خبز! إنه مُجرَّد خبز!

لم يكن يجرؤ على الحب مرَّة أخرى، ثم يعاود الخسارة. الخسارة الأولى كانت هائلة، ذلك الألم كان مُريعًا. إن سبب شكوكيته وارتيابه، ومحاولاته لاستبعاد الأسباب الطبيعية في حالة استحواذ ريجان البادي، هو توقه واشتياقه الجامحان والكثيفان لأن يكون قادرًا على الإيمان. أحنى كاريس رأسه ووضع القربان المُقدَّس في فمه، الذي سينحشر بعد لحظة في حلقه بسبب جفافه... وجفاف إيمانه.

بعد القُدَّاس، تجاهل وجبة الإفطار، وأخذ يدوِّن مُلاحظاتٍ من أجل مُحاضرته، ثم تقابل مع طلاب فصله الدراسي في كلية طب جامعة چورچ تاون، حيث استطاع نظم مُحاضرته سيِّئة الإعداد بصوتٍ أجش: «... وعند النَّظر في اضطرابات المزاج الهوسية، سوف تلاحظون...».

«بابا، هذه أنا... هذه أنا...».

تُرى من «أنا»؟

أنهى كاريس المُحاضرة باكرًا وعاد إلى غرفته، وجلس على الفور إلى مكتبه يعيد النظر بإمعان شديد في موقف الكنيسة تجاه العلامات الخارقة للمسِّ الشيطاني.

هل كنت عنيدًا جدًّا؟ هكذا تساءل كاريس في قرارة نفسه، ثم أخذ يُدقِّق في أهم النقاط الواردة في كتاب الشيطان: «التَّخاطُر... ظاهرة طبيعية... حتَّى تحريك الأشياء عن بُعد... والآباء المؤسِّسون... العلم... هذه الأيام يجب أن نكون أكثر حذرًا، على الرغم من الأدلة الخارقة البادية». عندما اقترب كاريس إلى ما يلي، أبطأ من وتيرة قراءته: «كل المُحادثات التي تُعقد مع المريض يجب أن تُحلَّل بدقَّة، لأنها إذا أظهرت نظام ترابط الأفكار ذاته والعادات اللغوية النحوية نفسها التي يُظهرها في حالته العادية، يجب أن يوضع الاستحواذ موضع اشتباه».

هزَّ كاريس رأسه برفق. هذا ليس كافيًا. نظر إلى الرَّسم على الصفحة المُقابلة. كان لشيطانٍ. ثم وقع بصره على التعليق أسفله: «بازوزو». أغلق

كاريس عينيه وتخيَّل وفاة طارد الأرواح، الأب ترانكيل: عذاباته النهائية، وسكرات موته: الخوار والهسيس والقيء، طرحه أرضًا من فوق الفراش مِن قِبَل «شياطينه» الذين كانوا يتميَّزون غيظًا لأنه قريبًا سيموت وسيُرحم من عذابهم. ثم لوكاس! يا إلهي! الأب لوكاس. لوكاس الراكع جوار فراش ترانكيل المُحتضر.. يُصلِّي.. وفي لحظة موت الأخير، تلبَّست الشياطين لوكاس فورًا وتحمَّل الرجل عبء هويَّاتهم، ثم أخذ يركل بشراسة الجُثَّة التي لا تزال دافئة.. الجُثَّة التي تملأها الخدوش وتفوح منها بقوَّة برائحة القيء والبراز، بينما يحاول أربعة رجال أشدَّاء تقييده، لكنه لم يتوقَّف -هكذا قيل- إلى أن أُخرجت الجُثَّة من الغرفة.

هل الأمر كذلك؟ هكذا تعجَّب كاريس. هل يمكن أن يكون أمل ريجان الوحيد طقس طرد الأرواح؟ هل يتحتَّم عليه فتح صندوق الآلام هذا؟ لن يقدر على هزِّه فقط، أو تركه وشأنه دون اختبار. يجب أن يعرف. ولكن كيف؟ فتح كاريس عينيه وواصل القراءة: «... المُحادثات مع المريض يجب أن تُحلَّل بدقَّة...» أجل. أجل، لِمَ لا؟ إذا اتَّضح أن نمط أسلوب ريجان يختلف بشكل ملحوظ عن أسلوب «الشيطان»، سيظل الاستحواذ احتمالًا قائمًا. أما إذا تطابق النمطان، فيجب وقتها استبعاده.

نهض كاريس وذرع الغرفة مشيًا. ماذا أيضًا؟ ماذا أيضًا؟ تفصيلة سريعة. إنها... انتظر لحظة! أوقف كاريس حَومهُ، وأطرق بصره مُفكِّرًا. ذلك الفصل من الكتاب عن الشعوذة. هل ذكر...؟ أجل. أجل لقد ذكر أن الشياطين تتفاعل بغضب وضراوة دومًا عندما تُواجَه بالخبز المُقدَّس أو الآثار المُقدَّسة أو حتَّى... رفع كاريس بصره وحدَّق أمامه وقد هبط عليه وحيٌ مُفاجئ. أو بالماء المُقدَّس! أجل! هذا سيثبت الأمر أو ينفيه! فتَّش كاريس حقيبة سفره السوداء محمومًا. كان يبحث عن قنينة الماء المُقدَّس.

***

دعته ويلي لدخول المنزل، وعند المدخل رفع بصره نحو حجرة ريجان. صياح.. بذاءات.. ولكن ليس بالصوت الشيطاني الفظِّ العميق،

وإنما بصوتٍ أخفِ كثيرًا. إنجليزية فصيحة وخشنة... نعم! إنه التَّجلي الذي ظهر بصورة عابرة عندما قابل كاريس الفتاة في المرَّة السابقة. نظر كاريس إلى ويلي المُتردِّدة. كانت تنظر إلى ياقته الرومانية المُستديرة ورداء الكهنوت في حيرة.

– «من فضلك، أين مدام ماكنيل؟».

أشارت ويلي إلى الطابق الثاني.

– «شكرًا لكِ».

سار كاريس نحو الدرج، ورأى كريس في الردهة وهو يصعد. كانت تجلس على مقعد بالقرب من غرفة ريجان، برأسٍ مُنكَّس وذراعين معقودتين على صدرها. مع اقتراب القس اليسوعي منها، ترامى إلى مسمعيها حفيف ردائِه، فالتفتت ورأته، ونهضت سريعًا من مقعدها.

– «مرحبًا يا أبت».

قطَّب كاريس جبينه. كانت الهالات الزرقاء تنتفخ أسفل عينيها.

سألها كاريس باهتمام: «هل نلتِ قسطًا من النوم؟».

– «أوه، قليلًا».

هزَّ كاريس رأسه مُعاتبًا وقال: «كريس».

قالت له وهي تُدير رأسها إلى حجرة ريجان: «حسنًا، لم أستطِع. إنها لم تتوقَّف عن فعل ما تفعله طيلة الليل».

– «هل قاءت؟».

– «لا». كانت تُمسكه من كُمِّ ردائه وكأنها تُريد اصطحابه بعيدًا وهي تقول: «هلم، لنهبط إلى الدور الأرضي حيث نستطيع...».

قال كاريس في حزم: «لا. أريد رؤيتها».

– «الآن؟».

شيءٌ ما غريب يحدث، هكذا جال بخاطره. كريس تبدو متوتِّرة.. وخائفة.

سألها: «ولِمَ لا؟».

اختلست كريس النظر إلى باب حجرة ريجان، حيث كان الصوت البريطاني الغاضب الأجش يصيح: «أيها النازي اللعين! يا ابن الزنى!». أطرقت كريس بصرها ثم أشاحت به بعيدًا وقالت بحزن: «تفضَّل. ادخل إليها».

سألها كاريس: «ألديك مُسجِّل صوتي هنا في المنزل؟ تعرفين ما أقصد، الجهاز الصغير.. المحمول؟».

رفعت كريس بصرها إليه وقالت: «أجل، لديَّ يا أبت. ولكن لِمَ؟».

- «هل يمكنك جلبه إلى الغرفة مع شريط كاسيت ذي بكرة فارغة، من فضلك؟».

فجأة، عبست كريس وقالت بغضبٍ وشيك: «لأيٍّ غرض؟ انتظر لحظة الآن. أتعني أنك تريد تسجيل حديثك مع ريجان؟».

- «هذا مهم».

- «لا. محال يا أبت! قطعًا لا».

- «اسمعيني، أنا أريد عقد مُقارنات لأنماط تعبيراتها» قالها كريس جادًا «هذا قد يُثبت للسلطات الكنسية أن ابنتك ممسوسة حقًّا».

التفت كلاهما مرَّة واحدة إلى مصدر الصوت الذي جأر فجأة بتيَّارٍ من لعنات وبذاءات موجَّهة إلى كارل، في الوقت الذي فتح فيه خادم المنزل باب الحجرة من الداخل وخرج منها بكيسٍ مليء بحفاضاتٍ وشراشف فراش مُتَّسِخة. بوجهٍ شاحب، أغلق كارل الباب من خلفه، كاتمًا صوت خُطبة الشتائم العصماء.

سألته كريس: «هل وضعت لها واحدة جديدة؟».

انتقل بصر الخادم المذعور منها إلى كاريس ثم عاد إليها، وقال باقتضاب: «أجل». ثم استدار وسار سريعًا عبر الردهة مُتَّجهًا إلى الدرج. أنصتت كريس إلى وقع خطاه العالي السريع وهو يهبط أسفل الدرج، وعندما خفت الصوت تدريجيًّا واستحال صمتًا، التفتت إلى كاريس، وبكتفين مُهدَّلين ونظرة كسيرة، قالت صاغرة بهدوء: «حسنًا يا أبت. سأرسل المُسجِّل إليك».

ثم ابتعدت بغتةً مُسرعة خطاها عبر الردهة.

حدَّق كاريس إليها وتعجَّب، تُرى ماذا تُخفي؟ بالتأكيد تُخفي شيئًا ما. ثم أدرك بعدها الصمت المُفاجئ الذي يلف الغرفة، فسار إلي الباب وفتحه ودخل، ثم أغلقه برفق من خلفه، واستدار ناظرًا إلى الأمام. حملق إلى الرعب القابع أمامه، إلى الشيء الهازل بارز العظام الجالس فوق الفراش، والذي كان يرقبه باهتمام بعينين ساخرتين يملأهما المكر والكُره، وفوق كل ذلك، الشيء الأكثر قلقًا، تلك الثِّقة التي تفيض بقوَّةٍ شامخةٍ.

سار كاريس ببطء إلى حافة الفراش، حيث توقَّف وأنصت إلى القرقرة الخافتة لبُرازٍ سائل يُفرغ داخل السراويل البلاستيكية.

حيَّته ريجان بحرارة: «مرحبًا يا كاريس!».

أجاب القس بهدوء: «مرحبًا. أخبرني، كيف تشعر؟».

- «في هذه اللحظة، أنا سعيدٌ جدًّا لرؤيتك. أجل. في منتهى السعادة».

ثم تلوَّى لسانٌ طويل مُفَرَّى خارجًا من الفم، بينما تفرَّست العينان كاريس بعجرفة وقحة.

- «أرى أنك ترتدي أبهى ملابسك. جميل جدًّا. هل يزعجك قليلٌ من الرائحة الكريهة يا كاريس؟».

- «لا، على الإطلاق».

- «يا لك من كاذب!».

- «هل الكذب يثير حفيظتك؟».

- «قليلًا».

- «لكن الشيطان يحب الكاذبين».

- «البارعون منهم فقط يا عزيزي كاريس. البارعون فقط. ومن ناحية أخرى، من قال لك إنني الشيطان؟».

- «ألم تقُلها بنفسك؟».

- «أوه، رُبَّما فعلت. رُبَّما. أنا لست بخير. بالمناسبة، هل صدَّقتني؟».

- «أوه، نعم».

- «إذًا معذرة إن كنت ضلَّلتك. في الحقيقة، أنا مُجرَّد شيطان بائس يُكافح كي يعيش. خنَّاس. مُتمايز قليلًا نعم، لكن يجب ألا يُخلط بيني وبين أبينا الذي في الجحيم. يا له من مُصطلح بغيض ذلك «الجحيم». لقد ذكرت له أكثر من مرَّة أنه يجب علينا التفكير في تغييره إلي البُعد الاسكتلندي، لكنه لا يصغي أبدًا. كاريس، أنت لن تذكر له زلَّة لساني تلك، أليس كذلك؟ هه؟ أقصد عندما تُقابله؟».

- «أُقابله؟ أهو هنا؟».

- «تعني داخل الخنزيرة الصغيرة؟ للأسف لا. نحن عائلة بائسة صغيرة من الأرواح الهائمة ليس إلا. بالمناسبة، أنت لا تلومنا على وجودنا هنا، أليس كذلك؟ فقبل كل شيء، ليس لدينا مكان كي نذهب إليه. لا مأوى لنا».

- «وإلى متى تُخطِّطون البقاء؟».

التوى الوجه بغضبٍ مُفاجئ، وانتفضت ريجان بعيدًا عن الوسادة وهي تصرخ باهتياجٍ عارم «إلى أن تموت الخنزيرة!». بعدها اعتدلت بغتةً مُتكِئة إلى وسائدها وكشفت عن ابتسامة غليظة يسيل من طرفيها اللعاب وهي تقول: «بالمصادفة، يا له من يومٍ رائعٍ لطرد الأرواح».

الكتاب! لا بد أنها قرأت هذا في الكتاب!

كانت العينان الثاقبتان تُحملقان بثباتٍ.

- «سارع بالأمر يا كاريس. اِبْدَأ به باكرًا».

- «هل ستحب ذلك؟».

- «كثيرًا».

- «لكن ألن يُخرجك الطقس من جسد ريجان؟».

- «بل سيجمعنا ببعض».

- «أنت وريجان؟».

- «أنت وإيانا يا عزيزي النكرة. أنت وإيانا».

رمق كاريس الشيء، وشعر بأيدٍ باردة كالثلج تلمسه برفق عند مؤخِّرة

عُنُقه، ثم ذهبت عنه فجأة. تعجَّب كاريس، هل هذا بسبب الخوف؟ الخوف من ماذا؟

واصلت ريجان: «أجل، ستنضم إلى عائلتنا الصغيرة. أترى معي ما المُشكلة إذا ما هبطت علامة من السماء؟ المشكلة هي أنه بمُجرَّد مُشاهدتها، لن يكون للمرء عُذر. هل لاحظت كم هي قليلة المُعجزات التي يسمع بها المرء مؤخَّرًا؟ إنها ليست غلطتنا يا عزيزي كاريس، نحن نحاول!».

حرَّك كاريس رأسه بشكلٍ خاطف باتِّجاه مصدر صوتٍ عالٍ مُباغت. لقد فُتح دُرج المكتب من تلقاء نفسه، مُنزلقًا إلى أقصى امتدادٍ له. ثم شعر القس بإثارة سريعة تسري فيه وهو يُراقب الدُرج يُغلق فجأة مُحدثًا قرعًا عاليًا كما فُتِح. ها هي العلامة! حدثٌ خارقٌ يمكن التحقُّق منه! ثم فجأة، سقط انفعاله وإثارته عنه كقطعة عطنة من لحاء شجرة عتيقة عندما تذكَّر التحريك الذهني وتفسيراته الطبيعية المُختلفة. سَمِع كاريس قهقهة ثابتة خفيضة، فالتفت عائدًا إلى ريجان. كانت تبتسم ابتسامة عريضة. «كم هي مُمتعة الثرثرة معك يا كاريس» قالتها الفتاة بصوتٍ حلقيٍّ «أشعر أنني حُرٌّ. كعربيدٍ أفرد جناحي. في الحقيقة، إخباري إيَّاك بهذا لن يؤدي إلا إلي تعميق إدانتك يا طبيبي، يا عزيزي المُعالج المجيد».

- «أنت من فعل ذلك؟ هل جعلت دُرج المكتب يتحرَّك الآن لتوِّه؟».

كان المخلوق المُسمَّى ريجان مُستمتعًا. ثم نظر باتِّجاه الباب، إلى مصدر صوت شخص يقترب سريعًا عبر الردهة، ثم استحالت ملامحه إلى تلك الشخصية الأخرى التي رآها كاريس مرَّة من قبل.

- «القاتل اللعين اللقيط!» صرخ بها المخلوق بذلك الصوت الأجش بريطاني اللكنة، ثم أضاف «الـ «هان»[1] الدَّاعر».

---

(1) بالإنجليزية Hun: كلمة ازدرائية تُستخدم لإهانة الألمان والبروتستانت، خاصةً في أيرلندا الشمالية.

دلف كارل عبر الباب، مُسرعًا خطاه وهو يحمل المُسجِّل. أشاح الخادم بعينيه بعيدًا وهو يُناول الجهاز إلى كاريس، ثم بوجهٍ كالح، انسحب سريعًا من الغرفة.

- «إلى الخارج يا هيملر[1]! اغرب عن وجهي! اذهب وزُر ابنتك العرجاء مُشوَّهة القدم! اجلب لها الكرنب المُخمَّر! الكرنب المُخمَّر والهروين يا ثورنديك! ستحبه! ستحبه كثيرًا».

صفع كارل الباب خلفه، وفجأة عاد الشيء داخل ريجان إلى طبيعته الودود الخبيثة: «أوه، أجل، يا مرحبا يا مرحبا يا مرحبا! كيف حالك؟» قالها بابتهاجٍ لعوب رامقًا كاريس وهو يضع المُسجِّل فوق طاولة صغيرة مُستديرة جوار الفراش. «هل ستسجِّل شيئًا يا بادريه[2]؟ يا للإثارة! أوه، أنا أعشق الاستعراض كما تعرف! أوه، أجل، أعشقها بضراوة!».

أجاب كاريس: «أوه، هذا جيِّد». ثم ضغط زر المُسجِّل الأحمر بإصبعه السبَّابة، ما جعل مؤشِّرًا أحمر صغيرًا يضيء، وقال: «أنا داميان كاريس بالمُناسبة، من أنت؟».

قال الشيء مُقهقهًا: «أتسأل عن لقبي الآن يا عزيزي؟ أوه، حسنًا، لقد لعبت دور باك[3] في مسرحية النَّشء» ثم نظر عبر الغرفة «بالمُناسبة، أين الشراب؟ أنا ظمآن».

- «إذا أخبرتني باسمك، سأجد لك شرابًا».

- «أجل، بالطبع» قالها مُقهقهًا مرَّة أخرى «وستشربه كله بنفسك على ما أفترض».

---

(1) هاينريش هيملر: من حاشية أدولف هتلر، وقائد فرقة القوات الخاصة الألمانية والبوليس السري المعروف بالجيستابو. أشرف على عمليات إبادة المدنيين في معسكرات الموت الألمانية.

(2) Padre: أب بالإسبانية والإيطالية وعددٍ من اللغات الأخرى. مُشتقَّة من اللفظ اللاتيني Pater.

(3) في التراث الشعبي الإنجليزية، باك Puck، الذي يُعرف أحيانا باسم روبن الرفيق الطيب، هو شيطان روح الطبيعة، أو جنية محلِّية.

سأله كاريس: «لِمَ لا تُخبرني باسمك؟».

- «أيُّها السَّالب الدَّاعر».

بقوله هذا، اختفت الذات بريطانية اللكنة، وحلَّت محلَّها على الفور ذات ريجان الشيطانية.

- «وماذا أنت فاعل الآن يا كاريس؟ أوه، أرى هذا. نحن نُسجِّل. يا للظُرف».

جذب كاريس مقعدًا جوار الفراش وأجلس نفسه عليه قائلًا: «هل تُمانع؟».

- «على الإطلاق. اِقْرَأ أشعار ميلتون وسترى أنني أحب المُحرِّكات الجُهنَّمية. إنها تحجب كل تلك الرسائل السخيفة اللعينة «عنه»».

- «من «هو»؟».

اندلع المخلوق بصوتٍ عالٍ كالريح: «إليك جـوابك».

فجأة، هجم إنتانٌ قوي على كاريس. كانت رائحته كـ...

- «الكرنب المُخمَّر يا كاريس؟ هل لاحظته؟».

شُدِه القس اليسوعي، إنها حقًا تبدو كرائحة الكرنب المُخمَّر. فيما يبدو أنها تأتي من الفراش، من جسم ريجان. لكنها تلاشت فجأة، واستُبدلت بالرائحة الكريهة السابقة. عبس كاريس. هل تصوَّرت الأمر؟ أهو إيحاء ذاتي؟

سأل كاريس: «من الشخص الذي تحدَّثت إليه من قبل؟».

- «مُجرَّد واحد من العائلة».

- «شيطانٌ؟».

- «أنت تنعته بأكثر ممَّا يستحق بكثير. كلمة شيطان تعني «ذو العقل». وهذا أحمق».

استُنفِر اليسوعي وانتبه بشِدَّة وسأله: «أحقًّا؟ في أيِّ لغة تعني كلمة شيطان «ذو العقل»؟».

- «في اليونانية».

- «أتتحدَّث اليونانية؟».

- «بطلاقة شديدة».

علامة أخرى! هكذا فكَّر كاريس مُتحمِّسًا. التحدُّث بلسانٍ أعجمي! هذا أكثر ممَّا ينتظر.

سأله سريعًا باليونانية القديمة: «Pos egnokas hoti piesbyteros eimi?».[1]

- «أنا لست رائق البال حاليًا يا كاريس».

- «آه، فهمت. إذًا فأنت لا تستطيع حقًّا أن...».

- «قلت إنني لست رائق البال!».

أشاح كاريس ببصره، ثم أعاده وهو يسأل بشكلٍ وِدِّي: «هل أنت من تسبب بفتح الدُرج؟».

- «أوه، الحق الحق أقول لك يا كاريس».

أومأ كاريس برأسه وقال: «مدهش جدًّا. لا بد أنك شيطانٌ شديد القوى».

- «أوه، أنا كذلك يا نكرة، أنا كذلك. بالمناسبة، هل تحب عندما أبدو في بعض الأحايين كأخي الأكبر سكروتاب[2]».

قالها الشيء وأتبعها بموجةٍ من القهقهات العالية والضحكات الصاخبة. انتظر كاريس إلى أن تهدأ النوبة، ثم قال: «أجل، أجد ذلك مُثيرًا جدًا. لكن في هذه الأثناء، ماذا عن دُرج المكتب؟».

---

(1) «كيف عَرِفت أنني قس؟».

(2) سكروتاب Screwtape: شيطان خيالي ظهر في رواية سي إس لويس الساخرة «خطابات سكروتاب»، وهي رواية تندرج تحت ما يُعرف بالتبريرات أو اللاهوت الدفاعي، وهو أحد مجالات علم اللاهوت المسيحي، ويهدف إلى تقديم أساس عقلاني للإيمان المسيحي والدفاع عنه ضد الاعتراضات. سكروتاب يشغل رُتبة «كبير الغُواة»، وذلك في ما تخيَّلهُ لويس كنوع من الترتيب الوظيفي في الخدمة المدنية الجحيمية.

- «ماذا عنه؟».
- «الأمر مُدهش! أتعجَّب إن كنت قادرًا على تكراره».
- «في الوقت المُناسب».
- «ولِمَ ليس الآن؟».
- «لأننا يجب أن نُعطيك سببًا للشك يا كاريس! أجل، ما يكفي فقط كي نضمن الناتج النهائي» ضحكت الذات الشيطانية بخبثٍ وأضافت «آه، يا لها من بِدعة أخَّاذة أن نُهاجم عبر الحقيقة! أجل، أشعر بـ «مُباغتة الفرح»[1] بالفعل!».

أجفل كاريس من الأصابع الجليدية التي لمست مُؤخِّرة عُنُقه برفق من جديد، وتعجَّب، لِمَ الخوف مرَّة أخرى؟ لِمَ؟

بضحكةٍ بشعة، قالت ريجان: «بسبب وجودي».

شُده كاريس، وتزايد عجبه، ثم حلَّل الأمر سريعًا دون إبطاء: في هذه الحالة، رُبَّما تكون قادرة على التَّخاطُر.

- «هل يمكنك إطلاعي على ما أُفكِّر فيه حاليًا يا شيطان؟».
- «عزيزي كاريس، ضحالة أفكارك لا تجعل فيها ما يُغري».
- «أوه، أنت لا تستطيع قراءة عقلي. هل هذا ما تقوله؟».

نظرت ريجان بعيدًا، ويدها تقبض بتحيُّر على ملاءة الفراش، واستمرَّت تعبث بنسيجها ترفعه وتُخفضه على هيئة مخروط، ثم قالت بعدها بملل: «كما تريد».

عمَّ الصمت الغرفة. أنصت كاريس إلى صرير آلية جهاز التسجيل، وإلى ريجان التي تختلج وتُصفِّر وهي تتنفَّس بعمق. ثم مدفوعًا برغبته في تسجيل المزيد من كلامها وهي في هذه الحالة، انحنى كاريس أمامًا، كما لو كان مُهتمًّا بشِدَّة، وقال بدفء: «يا لك من شخصٍ فاتن».

التفتت ريجان إليه، وتلفَّظتَ بصوتٍ ناخر: «أنتَ تسخر!».

---

(1) في إشارة إلى مُذكِّرات سي إس لويس التي صدرت تحت عنوان Surprised by Joy عام 1955.

- «أوه، لا، حقًّا! كم أحب أن أعلم المزيد عن ماضيك. مثلًا، أنت لم تُخبرني بهويَّتك إلى الآن».
- «هل أنت أصم؟ لقد أخبرتك! أنا شيطان!».
- «نعم، أعرف هذا. لكن أيُّ شيطان؟ ما اسمك».
- «آه، ما يهم في الاسم يا كاريس؟ حقًّا! ولكن حسنًا، سمِّني هاودي إذا كان هذا سيُريحك».
- «آه، فهمت! أنت إذًا القبطان هاودي، صديق ريجان!».
- «صديقها المُقرَّب جدًّا يا كاريس».
- «أوه، حقًّا؟ لِمَ تُعذِّبها إذًا؟».
- «لأنني صديقها يا كاريس! الخنزيرة الصغيرة تستمتع بالأمر!».
- «هذا كلام فارغ يا قبطان هاودي، لأيِّ سبب قد ترغب ريجان في أن تُعذَّب؟».
- «اِسألها!».
- «هل ستسمح لها بإجابتي؟».
- «لا، لن أسمح».
- «حسنًا، ما الفائدة من سؤالي إذًا؟».
- «لا شيء». قالها المخلوق وعيناه تتلألآن بالسخرية والحقد.
سأله كاريس: «من الشخص الذي كنت أتحدَّث إليه سابقًا؟».
- «كفاك، لقد سألتني الشيء نفسه من قبل».
- «نعم، أعرف. لكنك لم تُعطني إجابة قط».
- «إنه مُجرَّد صديق جيِّد آخر للخنوصة الحُلوة».
- «هل لي أن أتحدَّث مع هذا الشخص؟».
- «لا. إنه مشغول مع أمك. إنها تمتص قضيبه بعُمق وصولًا إلى شعر عانته يا كاريس! إلى جذوره!» تلت ذلك ضحكة خافتة وعميقة أردف بعدها «يا لروعة لسانها. يا لشفتيها الطريَّتين».
شعر كاريس بالغضب يتأجَّج داخله، ثم أدرك مُتفاجئًا أن غضبه مُنصبٌّ

لا على ريجان، بل الشيطان! الشيطان! جاهد كاريس للاحتفاظ بهدوئه، وأخذ نفسًا عميقًا، ونهض بعدها وسحب قنِّينة زجاجية صغيرة من جيب ردائه وفتحها.

حدَّقت ريجان إليها بقلق. «ما هذا الذي في يدك؟». قالتها بصوتٍ قاسٍ، وهي تتراجع إلى الوراء بقوَّة، والخوف يظهر في عينيها.

أَجاب كاريس: «ألا تعرف؟ إنه ماءٌ مُقدَّس يا شيطان!».

ما إن بدأت ريجان تئن وتسحب نفسها إلى الخلف مُقاومةً قيودها، رَشَّ كاريس عليها من محتويات القنينة. جأرت ريجان بصوتٍ حلقي: «آه، إنها تحرق! إنها تحرق!» وأخذت تتلوَّى من الرعب والألم «توقَّف، توقَّف أيُّها القس الدَّاعر» ثم صرخت ملء حنجورها «كفاااااااااك!».

مُحدِّقًا بلا مُبالاة، بدا أن روح وجسد كاريس قد تبلَّدا. توقَّف عن رشِّ الماء وأسقط ذراعه والقنينة إلى جانبه ببطء وسأم. هذه هستيريا. إيحاء. لقد قرأت الكتاب بالفعل! رمق كاريس جهاز التسجيل ثم أحنى رأسه وهزَّها. ما الفائدة؟ لكنه الآن لاحظ الصمت الذي يلف الغرفة.. الصمت الثقيل المُفرَّغ من الهواء، الصمت العميق، فرفع بصره إلى ريجان وعلى الفور انخفض حاجباه وتلاقيا معًا في عبوسٍ حائرٍ مُرتبك. ما هذا؟ ماذا يحدث؟ لقد تلاشت الذات الشيطانية وحلَّت محلَّها صفاتٍ أخرى، شبيهة بها لكنها مُختلفة. العينان تختفيان الآن داخل محجريهما، وكل ما يظهر منهما بياضهما البغيض. الشفتان تُتمتمان برطانةٍ محمومة. اقترب كاريس من حافة الفراش وانحنى فوقها مُنصتًا. إنه كلامٌ بلا معنى، مُجرَّد مقاطع صوتية فارغة المضمون. لكنه فكَّر، إن لها إيقاعًا ووتيرة، كأنها لُغة. تعجَّب كاريس، هل يُمكن أن تكون كذلك؟ وارتجى الأمر. شعر القس بأجنحة تخفق داخل صدره، فسيطر عليها سريعًا، وأمسكها بثبات. هلم يا داميان، لا تكن أحمق!

ورغم ذلك...

تفحَّص مؤشِّر صوت جهاز التسجيل، وأدار البكرة إلى أعلى مستوى

لها وهو يُنصت بإمعانٍ بينما أذنه تعلو شفتي ريجان بالكاد. توقَّفت الرطانة فجأة وتحوَّلت إلى تنفُّس ثقيل، خشنٍ وعميق. شيءٌ جديد آتٍ. لا. ذاتٌ ما جديدة. اعتدل كاريس في وقفته ونظر نحو ريجان في دهشة صامتة. بياض العينين. الجفنان يخفقان. سأل كاريس: «من أنت؟».

أجابه شيءٌ ما في ألم وهمسٍ آنٍ: «دحاالانا».

ثم: «دحاالانا.. دحاالانا».

بدا الصوت المُتقطِّع اللاهث كأنه قادم من بُعدٍ بعيد، من فضاءٍ مُظلم مُنعزل يقع عند حدود العوالم.. خارج الزمن.. خارج نطاق الأمل.. بل خارج نطاق اليأس والاستسلام المُعزِّي.

عبس كاريس قائلًا: «هل هذا اسمك؟».

تحرَّكت الشفتان. رطانة محمومة. بطيئة. مُبهمة لا تُفهم. ثم توقَّفت فجأة.

سأل كاريس: «هل أنت قادرٌ على فهمي؟».

وقع الصمت لا يقطعه سوى التنفُّس العميق المديد. صوت من ينام بجهاز تنفُّسٍ صناعيٍ في مصحَّة. وقف كاريس مُنتظرًا آملًا في مزيدٍ. لكن شيئًا لم يأتِ.

التقطت كاريس مُسجِّل الصوت، وألقى نظرة مُتفحِّصة أخيرة على ريجان، ثم غادر الغرفة وهبط إلى الطابق الأرضي.

وجد القس كريس جالسة في تجهُّم إلى الطاولة مع شارون، وأمامها قدحٌ من القهوة. ما إن رأته المرأتان قادمًا، رفعتا إليه أعيُنًا مُتسائلة تترقَّب في قلق.

ثم قالت كريس بهدوء إلى شارون: «من الأفضل أن تطمئني على ريجان».

- «أجل، بالطبع».

ارتشفت شارون رشفة أخيرة من قهوتها، وابتسمت ابتسامة امتنان مُقتضبة إلى كاريس، وغادرت.

سألته كريس وهي تتفرَّس عينيه في توتُّر: «كيف سار الأمر إذًا؟».

همَّ كاريس بالإجابة لكنه أحجم عندما خرج كارل من حجرة المخزن وقصد الحوض ليغسل الأواني.

قالت كريس برفق: «لا عليك. استمر يا أبت. ماذا حدث في الغرفة إذًا؟ فيم تُفكِّر؟».

شبَّك كاريس كفَّيه على الطاولة، وقال: «لقد أظهرت شخصيتين. واحدة منهما لم أرها من قبل قط، والأخرى قد أكون شاهدت لمحة منها سابقًا. شخصية رجُل بالغ. يبدو بريطانيًا. أهذا شخصٌ تعرفينه؟».

- «هل هذا مهم؟».

من جديد لاحظ كاريس التوتُّر المُفاجئ ذاته في وجه كريس. قال لها: «أجل. أظن ذلك. الأمر مهم».

خفضت كاريس رأسها ناظرة إلى المِقشدة الزرقاء، ثم قالت: «أجل. كنت أعرفه».

- «كنتِ؟».

رفعت كاريس بصرها وقالت بهدوء: «بيرك دينينجس».

- «المُخرج؟».

- «نعم».

- «المخرج الذي...».

- «نعم».

خفض كاريس بصره مُفكِّرًا في جوابها، ونظر إلى يديها. كانت سَبَّابتها اليُسرى ترتعش قليلًا.

- «هل أنت مُتأكِّد أنك لا تُريد بعض القهوة أو أيِّ شيءٍ آخر يا أبت؟».

نظر كاريس إلى أعلى وقال: «لا، أنا على ما يرام» ثم أراح ساعديه المعقودين على الطاولة وانحنى أمامًا وهو يسأل مُردفًا: «حسنًا إذًا، هل كانت ريجان تعرفه جيِّدًا؟».

- «تقصد بيرك؟».

- «أجل، دينينجس».
- «حسنًا...».
دوَّى صوتٌ مُفاجِئ.. قرقعة عالية. أجفلت كريس مشدوهة، ثم أدركت أن كارل قد أسقط المحمصة على الأرض، وعندما انحنى إلى أسفل لاستعادتها، أمسكها وأسقطها مرَّةً أخرى.
- «يا الله، ما بك يا كارل!».
- «معذرة يا سيِّدتي! معذرة!».
- «هيا يا كارل، اخرج من المنزل قليلًا! خذ راحة! اذهب وشاهد فيلمًا أو افعل أيَّ شيء!».
- «لا يا سيِّدتي، رُبَّما من الأفضل لو...».
صاحت كريس في وجهه: «كارل، أنا جادَّة فيما أقول! اخرج! فقط اخرج من هذا المنزل فترة! يجب أن يبدأ جميعنا في الخروج من هنا لبعض الوقت! اذهب الآن!».
- «أجل، اذهب الآن».
هكذا ردَّدت ويلي وهي تدخل المطبخ وتنتزع المحمصة من قبضة كارل.. ثم دفعته بعصبية إلى حجرة المؤن.
رمق كارل كاريس وكريس باقتضاب، ثم غادر.
غمغمت كريس: «معذرة يا أبت». ثم مدَّت يدها والتقطت لفافة تبغ وأضافت: «لقد تحمَّل أكثر ممَّا ينبغي مُؤخرًا».
قال كاريس برفق: «أنت على حق». ثم التقط علبة الثقاب وأردف: «من الأفضل لكم جميعًا أن تحاولوا الخروج من المنزل» أشعل لفافة تبغ، وأطفأ الثقاب بحركة من يده ووضعه في المنفضة: «وأنت أيضًا».
- «نعم، أعي ذلك. حسنًا، تلك الذات البيركية إذًا أيًا كانت... أعني، ماذا قالت؟». قالتها كريس وهي ترمق كاريس بإمعانٍ شديد.
هزَّ كاريس كتفيه وقال: «مُجرَّد بذاءات».
- «هذا كل شيء؟».

استشعر القس نبض الخوف الخافت في صوتها، وأجاب: «تقريبًا»، ثم خفَّض صوته وهو يردف: «بالمناسبة، هل كارل لديه ابنة؟».

- «ابنة؟ لا. على الأقل لا أعرف. وإذا كان لديه، فهو لم يذكرها من قبل».

- «أأنت مُتأكِّدة؟».

التفتت كريس إلى ويلي التي كانت تُنظِّف الصحون وقالت: «ليست لديكِ ابنة يا ويلي، أليس كذلك؟».

- «بلى يا سيِّدتي، لكنها ماتت منذ زمنٍ بعيد».

- «أوه، أنا آسفة يا ويلي».

- «شكرًا لك».

عادت كريس إلى كاريس وهمست: «إنها المرَّة الأولى التي أعرف فيها ذلك. لِمَ سألت؟ كيف عرفت؟».

- «ريجان ذكرت الأمر».

رمقته كريس بريبة وهمست: «ماذا؟».

- «كما سمعتِ. هل أظهرت ريجان في أيِّ وقتٍ مضى علاماتٍ على تمتُّعها بالإي إس بي(1)؟».

- «الإي إس بي يا أبت؟».

- «نعم».

مُترَدِّدة، نظرت كريس بعيدًا في عبوس: «لا أعرف. لست مُتأكِّدة. أعني، في مرَّاتٍ عديدة بدا أنها تُفكِّر في الأشياء نفسها التي أُفكِّر فيها، لكن أليس هذا مألوفًا بين الأشخاص المُقرَّبين؟».

أومأ كاريس قائلًا: «أجل، هو كذلك. الآن، بخصوص تلك الشخصية الأخرى، الشخصية الثالثة التي ذكرتها... أهي التي أظهرت عن نفسها إبَّان جلسة التنويم الإيحائي؟».

---

(1) بالإنجليزية Extrasensory Perception أو اختصارًا ESP: ظواهر الإدراك الحسِّي الفائق.

- «تلك التي تتلفَّظ برطانة؟».
- «نعم. من هي؟».
- «لا أعرف».
- «أليست مألوفة لكِ على الإطلاق».
- «لا، على الإطلاق».
- «هل أرسلتِ في طلب تقارير ريجان الطبية؟».
- «ستكون هنا عصرًا. لقد أرسلتها إليك مُباشرةً يا أبت. إنها الطريقة الوحيدة التي استطعتُ بها إخراجها من المُستشفى، وقد صنعت زوبعة لفعل ذلك».
- «نعم. شعرت أن الأمر سيكون صعبًا».
- «قد كان كذلك. لكنها في الطريق».
- «جيِّد».

أسندت كريس ظهرها إلى المقعد، ثم بذراعين معقودتين على صدرها حدَّقت إلى كاريس بوجهٍ كالحٍ وقالت: «حسنًا يا أبت، إلام وصلنا؟ ما بيتُ القصيد؟».

- «حسنًا، إن ابنتك...».

قاطعته كريس: «لا أنت تعلم ما أقصد. أنا أقصد ماذا عن الحصول على تصريح لمُمارسة طرد الأرواح؟».

نكَّس كاريس بصره وهزَّ رأسه برفق قائلًا: «أنا فقط لست واثقًا جدًّا من قدرتي على إقناع الأسقُف بالأمر».

- «ماذا تعني بـ «لست واثقًا جدًّا». كيف هذا؟».

دسَّ كاريس يده في جيبه واستخرج قنينة الماء المُقدَّس ورفعها أمام كريس، وقال: «أترين هذه؟».

- «ماذا عنها؟».

قال كاريس برويَّة: «لقد أخبرت ريجان أنه ماءٌ مُقدَّس، وعندما بدأت أرُشّه عليها، كانت ردَّة فعلها عنيفة».

- «أوه، حسنًا، هذا جيِّد يا أبت، أليس كذلك؟».
- «نعم. لأن هذا ليس ماءً مُقدَّسًا. إنه مُجرَّد ماء صنبور عادي».
- «حسنًا؟ ما الفارق يا أبت؟».
- «الماء المُقدَّس مُبارك».
- «أوه، جميل، أنا سعيدة لأجله يا أبت! حقًّا أنا سعيدة» صاحت بها كاريس بإحباطٍ وانزعاج مُتزايد، ثم أردفت «حتَّى لو افترضنا ذلك، رُبَّما بعض الشياطين حمقى!».
- «هل تُؤمنين حقًّا أن شيطانًا يتلبَّسها؟».
- «أنا أعتقد أن شيئًا داخلها يحاول قتلها، ومسألة جهله بالفارق بين البول ومشروب سفن أب لا يُشكِّل فارقًا يُذكر، ألا تتَّفق معي يا أبانا كاريس؟ أعني، معذرة، لكنك طلبت رأيي!» ثم نقرت كريس التَّبغ عن لفافتها في المنفضة وأردفت «حسنًا، ما تقوله لي الآن، لا طرد أرواح؟».

ردَّ كاريس بحِدَّة مُماثلة، وقد بدا أنه التقط العدوى من طريقتها: «اسمعيني، لقد بدأت لتوِّي دراسة الحالة. لكن الكنيسة لديها معايير يجب أن تُوفيَ، وهي معايير يجب أن تُوفيَ لأسبابٍ جيِّدة جدًّا، كي لا تُحدث ضررًا أكثر من نفعها. بالإضافة هذا سيُساعد على محاولة النأي بعيدًا عن الهُراء الخُرافي الذي لا ينفك الناس عن إلقائه علينا عامًا تلو الآخر! رؤية «الكهنة المُحلِّقين في الهواء»، وتماثيل العذراء أم الرب المُباركة التي يُفترض أنها تبكي دمًا في جمعة الآلام وأيام الأعياد! ذلك على سبيل المثال. أعتقد أنني أريد العيش دون المُساهمة في تلك الأمور!».

- «هل تريد قليلًا من الليبريوم يا أبت؟».
- «معذرة، لكنكِ طلبتِ رأيي».
- «أظن أنني فهمته إلى حدٍ كبير».

مدَّ كاريس يده إلى علبة التَّبغ.

- «أريد واحدة».

ناولها كاريس العلبة مفتوحة، فالتقطت واحدة، وتبعها كاريس، ثم

أشعل كلتيهما، وسحب الاثنان الدُخّان بعُمق وزفراه بتنهيدة ارتياح واضحة لعودة الهدوء والسلام.

قال كاريس وهو ينظر نحو الطاولة: «معذرة».

- «أجل، تلك اللفافات عديمة «الفلتر» ستقتلك».

تبع ذلك صمتٌ، وأبعدت كريس نظرها مُحدِّقة عبر النافذة الجدارية الضخمة التي تطل على جسر كي المُزدحم. ثم ترامى إلى أذنيها صوت رطم خافت ومُتقطِّع. التفتت كريس لترى كاريس ينظر إلى أسفل نحو علبة التَّبغ، ولا ينفك عن تدويرها من طرفٍ إلى آخر. ثم بغتةً رفع بصره إليها ليلتقي بحملقة كريس الغائمة والمُلِحَّة. قال لها: «حسنًا، سأخبرك بالعلامات التي قد تقبل بها الكنيسة قبل أن تسمح بإجراء طقس طرد أرواحٍ رسمي».

- «جيِّد. أريد سماعها».

- «إحداها، التحدُّث بلغة لم يعرفها المريض من قبل، لغة لم يدرسها قط. أنا أعمل على هذه النقطة. لنرى ماذا ستُثمر. بعد ذلك لدينا حِدَّة الإدراك، أو الاستبصار، رغم أنها حُجة قد تُستبعد هذه الأيام على اعتبارها شكلًا من التخاطُر أو الإدراك الحسِّي الفائق».

- «هل تُصدِّق هذه الأمور؟».

تفرَّس كاريس ملامحها. تكشيرة الإنكار هذه.. والعبوس. قرَّر أنها جادة في سؤالها. فقال لها: «هذه أمور لا يُمكن إنكارها في أيامنا هذي. لكن كما قلت آنفًا، ليست جميعها قوى غير طبيعية».

- «يا إلهي، لا أُصدِّق!».

- «أوه، إذًا أنت لديكِ جانب شكوكيّ».

- «ما الأعراض الأخرى؟».

- «حسنًا، الشيء الأخير الذي قد تقبله الكنيسة، والعهدة على الاقتباس، «إظهار قوى تفوق قدراتها وسنَّها». هذا شيءٌ عام، ويعني أيُّ شيء خارق للعادة أو ممَّا وراء الطبيعة».

- «أوه، حقًا؟ حسنًا إذًا، ماذا عن ذلك القرع الذي يسري في الجدران، والطريقة التي كانت تتقافز بها فوق الفراش؟».

- «بمفردهما، لن يعنيا شيئًا».

- «حسنًا إذًا، ماذا عن تلك الأشياء التي تغزو بشرتها».

- «أيُّ أشياء؟».

- «ألم أُخبرك؟».

- «تُخبريني بِمَ؟».

فسَّرت كريس: «أوه، حسنًا، لقد حدثت عندما كنا في مُستشفى باريجنر. لقد ظهرت... حسنًا» حرَّكت إصبعها على صدرها وهي تواصل «هل تعي ما أقصد، كتابة من نوعٍ ما؟ مُجرَّد حروف. لقد ظهرت على صدرها، ثم اختفت. هكذا ببساطة».

قطَّب كاريس جبينه: «تقولين «حروفًا» لا «كلمات»».

- «لا، ليست كلمات. مُجرَّد حرف M تكرَّر مرَّة أو اثنتين. وتبعه حرف L».

سألها كاريس: «وأنت رأيتِ هذا بنفسك؟».

- «حسنًا، في الحقيقة لا. لكنهم أخبروني».

- «من أخبرك؟».

فلتت من كريس صيحة عصبية: «اللعنة، الأطباء في المُستشفى!» ثم هدأت وقالت سريعًا «حسنًا، معذرة. انظر، ستجدها في التقارير. لقد حدثت بالفعل».

- «لكن تلك أيضًا قد تكون ظاهرة طبيعية».

انفجرت كريس مرَّة أخرى مُعربة عن شَكِّها: «أين؟ في ترانسلفانيا؟».

هزَّ كاريس رأسه وقال: «اسمعي، لقد قرأت عن أشياء كهذه في الدوريات، والأُسقُف قد يستخدمها ضدنا. توجد حالة على ما أتذَّكر رفع فيها طبيب نفسي في أحد السجون تقريرًا أن مريضًا له -سجينًا- لديه القُدرة على الاستغراق في حالة غشية مقصودة، ويجعل علامات دائرة

البروج تظهر على جلده» وأشار إلى صدره مُردفًا «يجعل الجلد ينتفِّخ صانعًا رسومًا».

- «أوه، أنت لا تُصدِّق في المُعجزات بسهولة يا فتى، أليس كذلك؟».

- «ماذا أستطيع أن أقول لكِ؟ اسمعي، لقد أُجريت تجربة ذات مرَّة خضع فيها الشخص قيد البحث للتنويم الإيحائي، وأُدْخِلَ في حالة وَجَدْ، ثم شُقَّت شقوقًا جراحية في كلتا ذراعيه. وأخبروه أن ذراعه اليسرى ستنزف، لكن اليمنى لن تنزف. حسنًا، لقد نزفت الذراع اليسرى، ولم تنزف اليمنى».

- «واو».

- «أجل، واو! هيمنة العقل أوقفت نزيف الدم. كيف؟ لا أحد يعرف. لكنه حدث. لذا في حالات الستيجماتا -كالسجين الذي أخبرتك عنه، أو حتَّى مع ريجان- يتحكَّم العقل اللا واعي في تدفُّق الدم، ويُرسل مزيدًا منه إلى المناطق التي يرغب أن تنتفخ. وبهذه الطريقة تحصلين على حروفٍ، أو صور، أو رُبَّما كلماتٍ. الأمر غامض، لكنه تقريبًا ليس خارقًا».

- «أنت صعب المراس حقًّا أيها الأب كاريس، هل تعرف ذلك؟».

- «لست أنا من يضع القواعد».

- «أجل، لكنك بالتأكيد تنفق كل قواك لفرض تنفيذها».

مُستغرقًا في التفكير، أحنى القس رأسه ولمس طرفي شفتيه بإبهامه، ثم خفضه بعدها ونظر إلى كريس. وقال ببطء وتهذيب: «اسمعي، قد يساعدك ما سأقوله على الفهم. الكنيسة -ليس أنا، بل الكنيسة- نشرت فيما مضى تحذيرًا لمن يرغبون في أن يصيروا طاردي أرواح. لقد قرأته البارحة. ما قاله التحذير أن مُعظم من يظنون أنهم مُتلبَّسون، أو أولئك الذين يظنون أن شخصًا ما مُستحوذٌ عليه -وسأتلو هنا الاقتباس كلمة كلمة- «يكونون في حاجة ماسة إلى طبيب أكثر بكثير من قس». الآن هل يمكنك تخمين في أيِّ عام نُشر هذا التحذير؟».

- «لا، في أيِّ عام؟».

- «العام 1583».

حدَّقت كريس مندهشة في البداية، وبعدها غمغمت وهي تُخفض بصرها: «أجل، من المؤكَّد أنها كانت سنة جحيمية يُشهد لها». ثم سمعت القس ينهض من مقعده ويخبرها: «سأنتظر تفحُّصي تقارير المُستشفى. وفي هذه الأثناء، سآخذ خطاب ريجان المُسجَّل إلى والدها مع التسجيل الذي قمت به لتوي إلى معهد جامعة چورچ تاون للّغات واللِّسانيات. قد تكون تلك الرطانة لغة من نوع ما. أشك في هذا، لكن الأمر مُحتمل. في غضون ذلك، يوجد الكثير ممَّا يُمكن فهمه من مقارنة أنماط حديث ريجان في حالتها الطبيعية بالحديث الذي سجَّلته لتوي. إذا تطابق الاثنان، سنتأكَّد على وجه اليقين أنها ليست ممسوسة».

سألته كريس: «وماذا سنفعل حينها؟».

تفرَّس القس عينيها. كانت الاضطرابات تحوم بهما. فكَّر كريس: يا إلهي، إنها قلقة من ألا تكون ابنتها ممسوسة! راوده من جديد الإحساس المُزعج بوجود مُشكلة أعمق، الشيء الذي تُخفيه قد عاد إليها. سألها: «هل يمكنني استعارة سيَّارتكِ؟».

بدت كريس شديدة البؤس وهي تُشيح بنظرها وتقول: «يمكنك استعارة حياتي ذاتها. فقط أرجعها بحلول الخميس. من يعرف، قد أحتاجها».

حدَّق كاريس مُبتئِسًا إلى الرأس المُنحني المُستسلم. تمنَّى لو كان في مقدوره الإمساك بكف كريس وطمأنتها بأن الأمور ستكون على ما يُرام. لكنه لم يجرؤ. لم يكن يؤمن بذلك.

نهضت كريس قائلة: «سأجلب لك المفاتيح».

ثم انجرفت بعيدًا كصلاةٍ ميؤوس منها.

***

عاد كاريس إلى غرفته في مقر الإقامة اليسوعية، حيث ترك المُسجِّل الخاص بكريس، والتقط منه شريط التسجيل الذي يضُم صوت ريجان، ثم عاد إلى الشارع حيث أوقفت كريس سيَّارتها. وفي أثناء ما هم بالجلوس على مقعد القيادة، سَمِع كارل إنجستورم ينادي عليه من مدخل المنزل:

«الأب كاريس!». نظر كاريس نحوه. كان كارل يُسرع الخُطى قاطعًا باحة المنزل إليه، وهو يضع عليه سُترة جلدية سوداء ويُلوِّح بيده، واستمر في الصياح وهو يهرول إلى سيَّارة كريس: «الأب كاريس! لحظة من فضلك!». انحنى كاريس أمامًا وأنزل زجاج نافذة مقعد القيادة، حيث توقَّف كارل ناظرًا نحوه وهو يسأل: «في أيِّ طريقٍ ستمضي أي أبانا كاريس؟».

- «ميدان دوبونت».

- «آه، أجل، جميل! هل يمكنك أن تقِلَّني في طريقك يا أبت؟ هل سأُزعجك؟».

- «يسعدني ذلك يا كارل. اركب». مكتبة الرمحي أحمد

- «أشكرك يا أبت!».

دخل كارل السيَّارة وأغلق الباب، وأدار كاريس المُحرِّك قائلًا: «السيِّدة ماكنيل مُحِقَّة يا كارل، الخروج من المنزل مُفيد لك».

- «أجل، أظن ذلك. سأذهب لمُشاهدة فيلم يا أبت».

- «ممتاز».

عشَّق كاريس تروس السيَّارة وبدأ في التحرُّك.

قادا في صمت بُرهة من الوقت. كان كاريس مهمومًا، يبحث عن إجابات. استحواذ؟ مُستحيل! الماء المُقدَّس! لكن...

- «كارل، هل كنت تعرف السيِّد دينينجس جيِّدًا؟».

أجاب كارل الذي يجلس مشدودًا وينظر أمامه مُباشرةً عبر زجاج السيَّارة: «أجل. كنت أعرفه».

- «عندما تستحيل ريجان، أقصد عندما تبدو كأنها دينينجس، هل يأتيك الانطباع أنها كذلك حقًّا؟».

مرَّت لحظة ثقيلة من الصمت.

ثم بنبرةٍ مُحايدةٍ وبلا أدنى تعبير قال كارل: «أجل».

أومأ كاريس مُغمغمًا: «حسنًا».

بعدها، لم يتبادل كلاهما الحديث إلى أن وصلا إلى ميدان دوبونت،

حيث بلغا إشارة مرور حمراء فتوقَّفا. فتح كارل باب السيَّارة قائلًا: «سأهبط هنا يا أبت».

- «حقًّا؟ هنا؟».

ترجَّل من السيَّارة قائلًا: «نعم، سأستقل الحافلة من هنا» ثم أردف وهو يُمسك بحافة الباب من الخارج وينحني إلى أسفل نحو كاريس «شكرًا لك يا أبت. شكرًا جزيلًا».

- «يُمكنني اصطحابك إلى وجهتك. لديَّ مُتَّسع من الوقت».
- «لا. لا يا أبت! هنا جيِّد! جيِّد جدًّا!».
- «حسنًا إذًا، تمتَّع بالفيلم».
- «سأفعل يا أبت! شكرًا لك!».

أغلق كارل الباب وصعد إلى الرصيف الأوسط، حيث انتظر تحوُّل ضوء إشارة المرور إلى الأخضر، ومع تحرُّك كاريس وقف كارل يُراقب برزانة ابتعاد السيَّارة طراز چاجوار الرياضية الحمراء إلى أن اختفت في النهاية عند مُنعطف جادة ماساتشوستس. رمق كارل إشارة المرور، كان لونها قد تغيَّر، فركض الرجل نحو حافلة بدأت في التوقُّف حاليًا في المحطة. استقلَّها كارل، وأوصلته إلى محطة ثانية، حيث ركب حافلة أخرى، ثم ترجَّل منها في الجزء الشمالي السكني من المدينة، حيث قطع مسافة ثلاثة مبانٍ ثم دلف إلى عمارة سكنية مُتهالكة. عند أسفل الدرج الكئيب توقَّف مُتشمِّمًا الروائح النفَّاذة الآتية من المطابخ العديدة، وسمع من مكانٍ ما أعلى الدرج بكاء طفلٍ خافت، بينما زحف صرصورٌ مُسرع خارجًا من شقٍ في الجدار وأخذ يتعرَّج في سيره بعدم انتظام، في تلك اللحظة، بدا أن طبيعة الخادم القوية الصلبة تنهار وتضعف، لكنه تمالك نفسه وهو يصعد الدرج مُستندًا بيده إلى الحاجز، مُتسلِّقًا ببطء السلالم الخشبية القديمة التي تئِن تحت وطأة وزنه. كل خُطوة كان لها وقع لوم وتوبيخ في أذنيه.

عند الطابق الثاني، سار كارل إلى أحد الأبواب بجناحٍ مهيض،

ثم توقَّف بُرهة من الوقت في مكانه مُريحًا يده على إطار الباب. نظر الرجل إلى الحائط.. إلى الطلاء المُقشَّر، ورسوم الجرافيتي، والكتابة على الحائط، والخط الرديء بالقلم الرصاص الذي كَتَبَ الاسمين بيتي وشارلوت وأسفلهما قلب مرسوم مؤرَّخ شَطَرَهُ خطٌ رفيعٌ مُشقَّقٌ بفعل الجص المتساقِط. رنَّ كارل جرس الباب وانتظر برأسٍ مُنكَّس. وترامى إلى مسمعيه صوت صرير حشية فراش يأتي إليه من داخل الشقة. تبعت الصوت تمتمة مُنخفضة، ثم وقع أقدام غير مُنتظم لشخصٍ يقترب بمشية مُتثاقلة مصحوبة بحفيف حذاء تقويم طبي، وفجأة نُخِعَ الباب مفتوحًا بشكلٍ جُزئي وقد شُدَّ مزلاج الأمان إلى أقصاه، ومن خلفها أطل وجهٌ عابسٌ لامرأة في منامة منقوشة وردية اللون، ولفافة تبغ تتدلَّى من ركن فمها.

- «أوه، إنه أنت». قالتها بصوتٍ حلقي خشن وفتحت المزلاج. التقى كارل العينين اللتين تَشعّان قسوة وصرامة، بثريّ الألم واللوم العميقتين، وألقى نظرة خاطفة على الشفتين الملتويتين في خلاعة، والوجه الشاب الجميل المُمزَّق الذي دُفِن حيًّا في ألف غُرفة فندق، وألف استيقاظٍ مخنوق العَبَرَات من نوم لا هوادة فيه.

- «هيَّا، أخبريه أن يغور بعيدًا!».

هكذا صاح صوتٌ ذكوري خشن من داخل الشقة. ابتلع كارل الإهانة. كان هذا العشيق.

لفَّت الفتاة رأسها وصاحت مُعنِّفة: «اخرس يا أحمق، هذا أبي» ثم عادت إلى كارل وقال «اسمع، إنه ثمل يا بابا، من الأفضل ألا تدخل».

أومأ كارل برأسه.

انتقلت عينا الفتاة الغائرتان إلى يده التي امتدَّت إلى جيب سراويله الخلفي باحثة عن المحفظة. سألته وهي تسحب نفسًا من الدُخَّان: «كيف حال ماما؟». ثبَّتت نظرها الآن على يديه التي تعبث في المحفظة، اليدين اللتين تعدَّان مبلغ عشرة دولارات.

أومأ كارل برأسه وقال في اقتضاب: «إنها بخير. أمك بخير».

بدأت الفتاة تسعل بقوَّة وهو يناولها النقود، ثم رفعت يدها إلى فمها وهي تشتكي مُختنقة: «التَّبغ اللعين! يجب أن أُقلع عن التدخين، اللعنة!». تأمَّل كارل قشور الجروح على ذراعها، وشعر بالعشرة الدولارات تُسحب من يده.

- «شكرًا يا بابا».

- «يا للمسيح، فلتنتهي سريعًا!». هكذا صاح العشيق مُتذمِّرًا من داخل الشقة.

- «اسمع يا بابا، من الأفضل أن ترحل الآن، حسنًا؟ أنت تعرف كيف يكون مزاجه أحيانًا».

تقدَّم كارل فجأة عبر مدخل الباب وأمسك بمعصمها قائلًا: «إليڤيرا... توجد مصحَّة في نيويورك الآن!» هكذا همس لها متوسِّلًا، بينما تجهَّم وجه الفتاة وهي تحاول التملُّص من قبضته. «بابا، اتركني!».

- «سأرسلك إلى هناك! سيساعدونك! لن تذهبي إلى السجن! إنه...».

صرخت كريس وهي تنتزع نفسها: «يا للمسيح، كفاك يا بابا!».

- «لا، أرجوكِ لا».

قالتها وصفعت الباب في وجهه.

واقفًا بصمت وبلا حراك مُختنقًا في قبر آماله البارد شديد الرطوبة، حدَّق الخادم السويسري إلى الفراغ فترة طويلة، ثم أطرق رأسه في حزن في النهاية.

من الداخل، استطاع أن يسمع الحديث المكتوم الذي انتهى بضحكة امرأة رنَّانة ساخرة، تبعتها موجة من السُّعال. سار كارل مُبتعدًا، شاعرًا بطعنة ألم مُفاجِئة في قلبه.

- «رُبَّما يُمكننا التحدُّث الآن».

قالها كيندرمان بأنفاسٍ مُتقطِّعة وهو يضع يديه في جيب معطفه، ثم أضاف بعينين حزينتين: «أجل، أظن أننا نستطيع التحدُّث قليلًا الآن».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

الفصل الثاني

وضع كاريس الشريط في تجويف جهاز التسجيل الفارغ الموضوع فوق الطاولة في مكتب فرانك ميراندا، مُدير معهد اللُّغات والِّسانيات البدين ذي الشعر الفضي. شغَّل كاريس الجهاز، واستمع الرجلان وهما يضعان سمَّاعات الرأس إلى الصوت المحموم الذي ينعق برطانة غير مفهومة. عندما انتهت البكرة، سحب كاريس السمَّاعات إلى كتفيه وسأل: «فرانك، ما هذا؟ هل يوجد احتمال أن تكون لُغة؟».

نازعًا سمَّاعاته بدوره، حدَّق ميراندا الجالس بذراعين معقودتين إلى حافة مكتبه وقطَّب جبينه مُتحيِّرًا وهو يقول هازًّا رأسه: «لا أعرف. إنها غريبة جدًّا. أين حصلت على هذا التسجيل؟».

– «أنا أعمل على حالة ازدواج شخصية».

– «أتمزح معي! أهو قس؟».

– «لا أستطيع البوح».

– «أجل، طبعًا. أتفهَّم الأمر».

– «حسنًا، ما رأيك يا فرانك؟ هل قَرَعَتْ جرسًا لديك؟».

خلع ميراندا عنه نظارة القراءة الطبية ذات الإطار المُجزَّع بألوان صَدفة السلحفاة، ونظر بعيدًا في تأمُّل، ثم قال وهو يطويها ويدسُّها في جيب سُترته القطنية الضئيل: «لا، إنها لا تُشبه أيَّ لُغة سمعتها من قبل، ومع ذلك...» قطع كلامه وقطب جبينه بشكلٍ طفيف، ثم التفت إلى كاريس مُردفًا «ما رأيك أن تُشغِّل التسجيل مرَّة ثانيَة؟».

أرجع كاريس الشريط إلى بدايته، وأعاد تشغيله، ثم أغلق المُسجِّل وقال: «أيُّ أفكار؟».

- «حسنًا، يجب أن أعترف أن له الوتيرة المُميِّزة للكلام الحقيقي».

تواثب أملٌ مُفاجِئ في قلب اليسوعي جعل عينيه تلمعان فورًا، ثم انطفأ بريقهما عندما وأد بنفسه أمله بشكلٍ غريزي.

واصل المُدير: «لكنني لا أُميِّزها جيِّدًا. أهي قديمة أم حديثة؟».

- «لا أعرف».

- «حسنًا؟ لِمَ لا تتركها معي يا أبت؟ سأتفحَّصها مِن كَثب أكثر مع بعض الأولاد هنا. رُبَّما يستطيع أحدهم التوصُّل إلى حقيقتها».

- «هل تستطيع صُنع نسخة من التسجيل يا فرانك؟ أُفضِّل الاحتفاظ بالأصل معي».

- «أوه، حسنًا، بالطبع».

- «في غضون ذلك، لديَّ شريط آخر. هل وقتك يسمح؟».

- «أجل، طبعًا. ماذا يحوي؟».

- «دعني أسألك شيئًا أوَّلًا».

- «بالتأكيد، ما هو؟».

- «فرانك، ماذا إذا كُنت أعطيك عيِّنات كلام عادي لما يبدو أنهما شخصان مُختلفان. هل تستطيع معرفة -عن طريق التحليل الدلالي- إذا ما كان في مقدور شخص واحد التحدُّث بكلا النمطين من أنماط التعبير؟».

- «أوه، أظن ذلك. أجل، حسنًا، بالطبع. افترض أنه تقنية نسبة «النوع والعينة» ستكون فعَّالة في فهم الأمر كأيِّ وسيلةٍ أخرى، وباستخدام عيِّنات لآلاف الكلمات أو أكثر، تستطيع ببساطة التحقُّق من تواتر وجود مُختلف أجزاء الكلام».

- «وهل سيكون هذا بمثابة دليلٍ قاطع؟».

- «إلى حدٍ كبير. كما ترى، هذا النوع من الاختبارات سيحسم أيَّ تغيُّر في المُفردات الأساسية. إنه لا يعمل على الكلمات ذاتها، بل دلالاتها،

وأسلوبها. نحن نُسمِّيه «مؤشِّر التنوُّع». إنه مُحيِّر جدًّا للشخص العادي، وهذا بالطبع ما نريده».

قالها المُدير وهو يبتسم ساخرًا. ثم أشار برأسه إلى الشريط القابع في يدي كاريس وقال: «إذًا، هل صوت هذا الشخص الآخر مُسجَّل على هذا الشريط؟».

- «ليس تمامًا».

- «ليس تمامًا؟».

- «الأصوات والكلمات على كلا الشريطين خرجت من فم شخصٍ واحد».

ارتفع حاجبا المُدير وقال: «الشخص نفسه؟».

- «أجل، كما أخبرتك. إنها حالة ازدواج شخصية. هل يُمكنك مُقارنتهما في مُقابلة أحدهما الآخر من أجلي يا فرانك؟ أعني، الأصوات تبدو مُختلفة بالكامل، لكنني ما زلت راغب في رؤية ما سيفصح عنه التحليل المُقَارَن».

بدا المُدير مأسورًا، بل سعيدًا، وقال له: «رائع! أجل. أجل، سنُجري التَّحليلَ. أظن أننا رُبَّما سنفعل ذلك الآن. سأوكِل بول بالأمر، إنه أفضل مُدرِّب لديَّ. عقلٌ ألمعيٌ. أظن أنه يحلُم بالكلام الهندي المُشفَّر».

- «خدمة أخرى، وهي ثقيلة».

- «ماذا؟».

- «أُفضِّل أن تعقد المُقارنة بنفسك».

- «أوه؟».

- «أجل. وبأسرع ما يمكن. من فضلك؟».

قرأ المُدير الإلحاح والعجلة الباديين في صوت كاريس وعينيه، فقال مومِئًا: «حسنًا. سأبدأ في العمل عليها».

عاد كاريس إلى غرفته في مقر الإقامة اليسوعية، ووجد رسالة دُسَّت من أسفل باب غرفته: لقد وصلت تقارير حالة ريجان من مُستشفى باريجنر.

هرول كاريس إلى مكتب الاستقبال، ووقَّع على استلام الطَّرد، وعاد إلى غرفته من جديد وجلس إلى مكتبه وبدأ يقرأ بنهم، لكن في النهاية، بعد قراءة استنتاج فريق الطب النفسي للمُستشفى، استحال ترقُّبه المُتفائل إلى خيبة أملٍ وانهزام:

«... علامات على هوس الشعور بالذنب ممَّا استتبع سرنمة هستيرية...».

لم يزد كاريس، فلم يكن يحتاج ما هو أكثر. أسند مرفقيه إلى الطاولة، وتنهَّد وهو يضع رأسه بين كفَّيه. لا تستسلم. افتح بابًا للشك.. للتأويل. في حالة الستيجماتا التي ظهرت على جلد ريجان، والتي -وفقًا للتقارير- تكرَّرت عِدَّة مرَّات عندما كانت ريجان تحت المُلاحظة في بارينجر، أشار مُلخَّص تحليل المُستشفى أن ريجان صاحبة بشرة مُفرطة التفاعُلية، وأنها قادرة على إظهار تلك الحروف الغامضة بنفسها عن طريق تمرير أصابعها فوق جلدها قبل ظهورها بوقتٍ قصير، وذلك عن طريق عملية تُعرف بـكَتُوبيَّة الجلد، وهو تفسير تُدعِّمه حقيقة أن الظاهرة الغامضة توقَّفت عن الحدوث ما إن ثُبِّتت حركة ريجان بالقيود.

رفع كاريس رأسه وتأمَّل الهاتف. هل يوجد الآن أيُّ داعٍ لعقد مُقارنة بين الأصوات المُسجَّلة على كلا الشريطين؟ هل أتَّصل بفرانك وألغي الأمر؟ أجل، يجب أن أفعل ذلك، هذا ما توصَّل إليه عقل القس اليسوعي. التقط كاريس الهاتف، وطلب الرقم. لا جواب. ترك رسالة إلى مُدير المعهد كي يتَّصل به بمجرَّد عودته، ثم بعدها، نهض القس وسار إلى حمَّامِه مُنهكًا، حيث رشَّ الماء البارد على وجهه. «على طارد الأرواح أن يكون حذرًا ألا يترك أيًا من مظاهر المريض دون تحديد هويَّتها». رمق كاريس نفسه في المرآة بشكٍ قَلِقٍ. هل فاته شيء؟ ماذا؟ رائحة الكرنب المُخلَّل؟ استدار كاريس وسحب المنشفة من الرَّف ومسح وجهه. لا، الإيحاء الذاتي يُفسِّر ذلك الأمر، هكذا تذكَّر، بالإضافة إلى أن التقارير الطبية تُشير إلى أن المرضى العقليين -في بعض الحالات- يبدو أنهم

يكونون قادرين دون وعي منهم على تحفيز أجسادهم لإطلاق مجموعة متنوِّعة من الروائح.

جفَّف كاريس يديه. ماذا عن أصوات القرع؟ وفتح دُرج المكتب وإغلاقه؟ أهذا تحريك عقلي؟ حقًّا؟ «هل تُصدِّق هذه الأمور؟». أدرك كاريس فجأة أن عقله صار مشوَّشًا، فأعاد وضع المنشفة المُبلَّلة في مكانها. أنا مُتعب. مُتعب جدًّا. لكن رغم هذا كان شيء في جوهره يرفض الرضوخ والاستسلام، يرفض تسليم تلك الطفلة إلى نظريَّاتٍ وتخمينات ملتوية، يرفض تركها إلى التاريخ الغارق بالدِّماء من خيانة العقل البشري. غادر القس المسكن وهرول سريعًا عبر شارع بروسبكت مُتَّجِهًا إلى جُدران مكتبة جامعة چورچ تاون الحجرية الرمادية، ودخل باحثًا عبر دليل الدوريات الأدبية، مُمرِّرًا إصبعه على المواضيع التي تبدأ بحرف P، وبعد أن وجد ما كان يبحث عنه، جلس إلى منضدة قراءة طويلة مصنوعة من خشب البلُّوط برفقة دورية علمية تحوي مقالًا عن ظاهرة الشبح الصاخب كتبه الطبيب النفسي الألماني الشهير د. هانز بيندر. لا شكَّ في الأمر، هكذا استنتج اليسوعي بعدما انتهى من قراءة المقال: حقيقية ظاهرة التحريك العقلي شيء مؤكَّد، لقد وُثِّقت وصُوِّرت ولوحِظت بعناية في عيادات الطب النفسي. لكن! لم تكن توجد أيَّ علاقة لها بالاستحواذ الشيطاني في أيٍّ من الحالات التي وردت في المقال، بالأحرى، كانت أفضل فرضية لتفسير الظاهرة هي «الطاقة المُستحثَّة عقليًا»، التي تُنتج دون وعي عادةً -وبشكلٍ بارز، هكذا فكَّر كاريس- من قِبَل المُراهقين في مراحلِ من «التوتُّر الداخلي المُرتفع جدًّا، والغضب والإحباط».

فركَ كاريس عينيه الرطبتين المُنهكتين برفق بمفاصل أصابعه، ثم عاد بتفكيره إلى أعراض ريجان، وهو ما زال يشعر بالتقصير والتَّقاعُس، وأخذ يُعدِّدها واحدةً تلو الأخرى كفتى صغيرٍ يتأكَّد من أنه قرع كل عجيزة من السور الخشبي الأبيض الذي يسير جواره. تعجَّب كاريس أيًّا منها قد فاتته.

لكنه مُتعبًا استنتج الإجابة. لم يفوِّت واحدة منها.

سار عائدًا إلى منزل ماكنيل، حيث استقبلته ويلي وقادته إلى باب غرفة المكتب الذي كان مُغلقًا. قرعت ويلي الباب وقالت: «الأب كاريس». من الداخل، سمع كاريس ردًّا مكتومًا: «ادخل».

دخل كاريس وأغلق الباب من خلفه. مُعطية ظهرها له، كانت كاريس تُسند مرفقها إلى المَشرَب، وتحني رأسها إلى أحد كفَّيها. حيَّته كريس دون أن تستدير لمواجهته بصوتٍ مبحوح، لكنه ليِّن ويائس: «مرحبًا يا أبت».

قَلِقًا، سار القس إلى جوارها وقال: «هل أنت بخير؟».

- «أجل، أنا بخير يا أبت. حقًّا».

قطَّب كاريس جبينه، وقد استفحل قلقه: صوت كريس حَمَلَ توتُّرًا، والكف التي تُخفي وجهها ترتعش. خفضت كريس ذراعها، والتفتت رامقة كاريس، كاشفة عن عينين غائرتين، ووجهٍ تُلطِّخه الدموع.

قالت له: «إذًا ما الحال؟ ما الجديد؟».

تفرَّسها كاريس جيِّدًا قبل أن يُجيب: «حسنًا، آخر الأخبار أنني انتهيت من تفحُّص تقارير مُستشفى بارينجر و...».

قاطعته كريس بانفعل: «حسنًا؟».

- «حسنًا، أظن أن...».

- «تظن ماذا يا أبت؟ ماذا؟».

- «حسنًا، رأيي الصادق حاليًا أن أفضل طريقة لمُساعدة ريجان أن تظل تحت رعاية طبية نفسية مُكثَّفة».

تأمَّلت كريس وجهه في صمت وقد اتَّسعت عيناها قليلًا وهي تهزُ رأسها ببطءٍ شديد جدًا مرَّاتٍ عديدة وتقول: «لا أُصدِّق!».

سألها كاريس: «أين والدها؟».

- «في أوربا».

- «هل أخبرتيه بما يحدث؟».

- «لا».

- «حسنًا، أظن أن وجوده هنا قد يُساعد».

انفجرت كريس بصوتٍ عالٍ ومُرتعش: «اسمع، لا شيء سيُساعدها، إلا شيءٌ ما ورائي».

- «أعتقد أنه يتحتَّم عليكِ استدعاءه».

- «لماذا؟».

- «هذا سوف...».

- «اللعنة، لقد طلبت منك إخراجَ شيطان، لا استدعاء آخر إلى المنزل». هكذا صرخت كريس وملامحها تلتوي من الألم، ثم أضافت «ماذا طرأ على طقوس طرد الأرواح فجأة؟».

- «اسمعي...».

- «بِمَ سينفعني هاورد بحق الجحيم؟».

- «يمكننا الحديث عن ذلك لاحقًا حين...».

- «اللعنة، تحدَّث الآن! بِمَ سينفع هاورد الآن بحق الجحيم؟».

- «حسنًا، يوجد احتمال قوي بأن اضطراب ريجان يتجذَّر في شعورها بالذنب تجاه...».

زعقت ريجان وقد جُنَّت عيناها: «الذنب تجاه ماذا؟».

- «من الممكن...».

- «تجاه الطلاق؟ وكل هذا الهُراء النفسي؟».

- «الآن...».

- «ريجان تشعر بالذنب لأنها قتلت بيرك دينينجس!».

هكذا صرخت كريس وقد ضمَّت يديها في قبضتين ضغطت بهما جانبي رأسها.

- «لقد قتلته! لقد قتلته وسوف يودعونها في السجن! سيسجنوها! أوه يا إلهي، أوه يا...».

تداعت كريس ساقطة وهي تنشج لكن كاريس التقطها، وأراح جسدها فوق الأريكة وهو يُخبرها برفق: «هوِّني عليكِ. سيكون الأمر على ما يُرام...».

استمرَّت كريس في النشيج: «لا، سيودعونها... في السجن. سيود... سيودع...».

- «هوِّني عليكِ».

هدَّأ كاريس من روع كريسٍ وساعدها على التمدُّد فوق الأريكة، ثم جلس على حافتها واحتضن كفَّها بكلتا يديه. تسارعت الأفكار في عقله الآن.. عن كيندرمان.. عن دينينجس. كريس تبكي. الأمر يبدو كالحُلم.

- «الأمر على ما يُرام.. هوِّني عليكِ.. كل شيء سيُصبح على ما يُرام».

سرعان ما هدأ البُكاء، وساعدها كاريس على النهوض. جلب لها ماءً وعُلبة مناديل ورقية وجدها على رفٍ خلف المَشرَب، ثم عاد وجلس إلى جوارها.

قالت كريس وهي تتمخَّط وتمسح أنفها: «أنا سعيدة».

- «سعيدة؟».

- «نعم، سعيدة لأنني أخرجت ما بصدري».

- «أوه، حسنًا، أجل... أجل... أجل... هذا جيِّد».

الآن، كان الحمل يضغط ثقيلًا على كتفي القس اليسوعي. لا تزيدي، لا تقولي المزيد. هكذا حاول التحذير في قرارة نفسه، لكن رغم هذا وجد نفسه يسألها برفق: «هل تريدين إخباري بالمزيد؟».

أومأت كريس برأسها صامتة، ثم قالت بِضعف «أجل، أجل أريد».

ثم مسحت عينيها وبدأت في التحدُّث مُتعثِّرة، وبتشنُّج. تحدَّثت عن كيندرمان. عن الأشرطة الرفيعة التي مُزِّقت من حواف صفحات كتاب الشعوذة، وعن تأكُّدها من أن دينينجس قد صعد إلى غرفة ريجان ليلة وفاته. عن قوَّة ريجان الكاسحة غير الطبيعية، وعن تجسيدها لشخصية دينينجس التي ظنَّت كريس أنها رأتها بينما رأس ابنتها يلتوي مُنعكِسًا بالكامل ليواجه الناحية الأخرى. أنهت كريس كلامها وقد نضبت واستُنزِفَت تمامًا، وانتظرت ردَّة فعل كاريس، وما إن كاد الرجل أن يُصارحها بما يجول في عقله، تأمَّل عينيها وتعبيرها المُتضرِّع، فأحجم

وقال بدلًا من ذلك: «لا يُمكن أن تكوني مُتأكِّدة تمامًا أنها ارتكبت الأمر».

- «لكن ماذا عن رأس بيرك الملتوية إلى الخلف؟ والأشياء التي تفوَّهت بها؟».

أجابها كاريس: «لقد رطمتِ رأسك بقوَّة في الحائط. وكنتِ مصدومة. لقد تخيَّلتِ الأمر».

حملقت كريس في نظرة كاريس بعينين ميِّتتين، ثم قالت بهدوء: «لا، بيرك أخبرني أنها فعلت الأمر. لقد دفعته من النافذة وقتلته بالفعل».

حدَّق القس إليها بانشداهٍ خالٍ من التعبير لحظات، لكنه استجمع نفسه بعدها وقال: «عقل ابنتك مشوَّش، وهذا يجعل تصريحاتها عديمة المعنى».

أحنت كريس رأسها وهزَّته وقالت بصوتٍ مسموعٍ بالكاد: «لا أعرف. لا أعرف ما إذا كنت أتصرَّف بحصافة. أعتقد أنها ارتكبت الأمر، وقد تقتل شخصًا آخر. لا أعرف». ثم عالجت كاريس بنظرة غائرة ويائسة، وسألته بهمسة حلقية مبحوحة: «ماذا ينبغي عليَّ فعله؟».

تداعى كاريس داخليًا. أصبح الثِقَل الآن كالإسمنت الملموس، وها هو قد جفَّ مُلتصقًا بعموده الفقاري. قال لها: «لقد فعلت الصواب لتوِّك. لقد أخبرتِ شخصًا ما يا كاريس. لقد أخبرتني. لذا اتركي لي الآن مسألة تحديد ما الأفضل لفعله. هلَّا فعلتِ ذلك من فضلك؟ فقط دعي الأمر لي».

أومأت كريس برأسها وهي تمسح إحدى عينيها بمُؤخِّرة يدها وهي تقول: «أجل، أجل، حسنًا، بالتأكيد. هذا أفضل حل» ثم أضافت بوهنٍ وهي تحاول رسم شبح ابتسامة على مُحياها «شكرًا يا أبت. شكرًا جزيلًا».

- «أتشعرين بتحسُّن الآن؟».
- «أجل».
- «هلَّا أسديتِ لي معروفًا؟»
- «بالطبع، أيُّ شيء تُريد. فيم ترغب؟».

- «اخرجي وشاهدي فيلمًا».

للحظة، حدَّقت كريس إليه بنظرة خاوية، ثم ابتسمت وهي تهز رأسها: «لا، أنا أكره الأفلام».

- «إذًا اذهبي لزيارةِ صديقٍ».

نظرت إليه كريس بنظرة حانية وقالت: «لديَّ صديق هنا».

- «بالتأكيد. حسنًا، احظي ببعض الراحة إذًا أرجوك. هل تَعدينني؟».

- «أجل، أعدك».

جالت فكرة بخاطر كاريس. سؤالٌ إضافي.

- «هل تظنين أن دينينجس أخذ الكتاب إلى الدور العلوي، أم أنه كان موجودًا هناك مُسبقًا؟».

- «أعتقد أنه كان موجودًا من قبل».

أشاح كريس ببصره قليلًا، وأومأ رأسه قائلًا بهدوء: «فهمت». ثم نهض واقفًا فجأة وأردف: «حسنًا إذًا. بالمناسبة، أأنت في حاجة إلى استعادة السيَّارة حاليًا؟».

- «لا، يُمكنك الاحتفاظ بها».

- «حسنًا إذًا. سأعود إليكِ لاحقًا».

خفضت كريس رأسها وقالت بنعومة: «حسنًا».

غادر كاريس المنزل وسار في الشارع والأفكار تتسارع في عقله بلا هوادة. ريجان قتلت دينينجس؟ يا للجنون! تخيَّلها وهي تُلقي به من نافذة غرفتها ليندفع نحو تلك السلالم الحجرية الحادة الطويلة، ليتدحرج مرارًا وتكرارًا ويتخبَّط بلا حول ولا قوَّة ثم فجأة يتوقَّف عالمه عن الوجود. مُستحيل! هكذا فكَّر كاريس. لا! لكن قناعة كريس شبه تامة حيال حدوث الأمر! أهي الهستيريا! نعم هذه بالضبط حقيقة الأمر! هكذا حاول القس إخبار نفسه. الأمر لا يعدو كونه مُخيِّلة هستيرية! لكن... كان كاريس يُطارد اليقين كأنه أوراق شجر جافة تذروها الرياح.

بينما كان يتجاوز الدرجات شديدة التحدُّر المجاورة للمنزل، سمع

كاريس صوتًا قادمًا من أسفل، فتوقَّف ونظر إلى قناة C&O المائية. هذا صوت هارمونيكا. أحدهم يعزف مقطوعة «وادي النهر الأحمر». إنها أغنية كاريس المُفضَّلة منذ الطفولة. وقف كاريس مكانه مُستمعًا إلى العزف حتَّى تبدَّل لون إشارة المرور في الأسفل، وطُمِس اللحن الحزين بعد أن طغت عليه أصوات زحام حركة السيَّارات التي بدأت من جديد في شارع إم، وتمزَّقت ذكرى الماضي الشبحية بقسوة من قِبَل العالم اللا مُبالي البادي حاليًا في هذه اللحظة، وقد نزفت -مُعذَّبة- قطراتٍ من دماء على عوادم السيَّارات وهي تصرخ طالبة المُساعدة.

مُحدِّقًا أسفل الدرج بعينين لا تريان، دفع كاريس يديه في جيبيه، وهو يُفكِّر مُحتدمًا من جديد في مأزق كريس ماكنيل وريجان، وفي الأب لوكاس الذي لم ينفك عن ركل الجثة الهامدة. يجب أن يفعل شيئًا. لكن ماذا؟ هل يأمل حقًّا في التفوُّق على طاقم أطباء مُستشفى بارينجر؟ «أوه، هل أنت قسٌّ حقًّا أم مُجرَّد صورة نمطية لأحدهم؟». أومأ كاريس برأسه شاردًا وهو يتذكَّر حالة استحواذ رجلٌ فرنسي يُدعى أشيل، الذي نعت نفسه شيطانًا كما تفعل ريجان، وكما حالة ريجان أيضًا كان اضطرابه مُتجذِّرًا في الشعور بالذنب، لكن الحالة مع أشيل كانت لها علاقة بندمه على خيانه زوجية. عالم النفس الرائد العظيم چانيت نفَّذ علاجًا نفسيًّا مُستخدمًا التنويم الإيحائي في إقناع الرجل بتجسُّد زوجته أمامه، الأخيرة ظهرت أمام عيني أشيل المهلوستين وغفرت له رسميًا. أومأ كاريس برأسه. أجل، الإيحاء قد ينجح مع ريجان. لكن ليس باستخدام التنويم الإيحائي. لقد جرَّبوا ذلك بالفعل في بارينجر. التصدي الناجح لإيحاء ريجان -هكذا اقتنع القس- هو ما تُصر عليه أمها على طول الخط. إجراء طقس طرد أرواح. ريجان تعلم ماهية الأمر وأثره المنشود. الدليل ردَّة فعلها تجاه الماء المُقدَّس. لقد استخلصت الأمر من الفصل في ذلك الكتاب، وفي ذلك الفصل أيضًا وردت تفاصيل عن عمليات طرد أرواح ناجحة. قد ينجح الأمر! لكن كيف يمكن الحصول على إذنٍ من

الكنيسة لمُمارسة الطقس؟ كيف سيبني جدار القضية دون الإتيان على ذكر دينينجس؟ كاريس لن يستطيع الكذب على الأُسقُف. إذًا ما الحقائق الأخرى في جُعبته التي قد تقدر على إقناعه؟ رفع كاريس يده إلى جبهته. كان جانبي رأسه ينبضان بصُداعٍ مؤلم. إنه يعلم أنه في حاجة إلى النوم. لكنه لا يستطيع. ليس الآن. أيُّ حقائق؟ التسجيلات التي تُدرس حاليًا في المعهد؟ ما الذي قد يعثر عليه فرانك؟ هل يوجد شيءٌ من الأساس للعثور عليه؟ لا. لكن من يعرف؟ ريجان لم تُفرِّق بين ماء الصنبور والماء المُقدَّس. أجل. لكن إذا افترضنا أنها قادرة على قراءة عقله، لِمَ لم تعرف الفارق بينهما؟ ضغط كاريس جبهته بأصابعه مرَّة أخرى. الصُداع. الحيرة. أسرع يا فتى! أحدهم يحتضر! استيقظ!

ما إن عاد إلى غرفته، هاتف كاريس المعهد. لم يكن فرانك موجودًا. جلس كاريس إلى مكتبه مُستَغرقًا في أفكاره. الماء المُقدَّس. ماء الصنبور. يوجد خيطٌ ما هنا. فتح كاريس كتاب الطقوس على فصل «تعليمات لطاردي الأرواح»:

«... الأرواح الشريرة... إجابات مُخادعة... كي يبدو أن المُصابين يستحيل أن يكونوا مُتلبِّسين». هل هذا الجواب؟ هكذا تساءل كاريس، لكنه نبذ الفكرة فورًا بصبرٍ نافد. ما الذي تُفكِّر فيه بحق الجحيم؟ أيُّ روح شريرة؟

صفع دفَّتي الكتاب مُغلقًا إيَّاه وأعاد قراءة التقارير الطبية بنهم باحثًا عن أيِّ شيءٍ يُساعده في بناء قضية قوية لطلب عقد طقس طرد أرواح. ها هو. لا تاريخ مرضي هستيري سابق. هذا يُعد سببًا إلى حدٍ ما. لكنه ضعيف. تذكَّر كاريس وجود شيءٍ آخر، تضاربٌ ما. ماذا كان؟ رفع سمَّاعة الهاتف، واتَّصل بكريس ماكنيل. بدا صوتها ناعسًا.

- «مرحبًا يا أبت».

- «هل كنتِ نائمة؟ معذرة».

- «لا، لا عليك يا أبت. حقًّا. ما الأمر إذًا؟».

- «كريس، أين أستطيع العثور على... ؟» مرَّر كاريس إصبعه عبر التقارير، ثم توقَّف وأردف «دكتور كلاين. صامويل كلاين».
- «دكتور كلاين؟ إن عيادته على الناحية الأخرى من الجسر.. في روسلين».
- «في المبنى الطبي؟».
- «أجل، صحيح. ما الأمر؟».
- «هاتفيه من فضلك وأخبريه أن دكتور كاريس سيمر به وأنه يُريد إلقاء نظرة على مُخطَّط موجات دماغ ريجان. أخبريه أنني دكتور كاريس».
- «فهمت».

عندما أغلق الهاتف، حلَّ كاريس ياقته وخلع عنه رداء الكهنوت والسراويل السوداء، وارتدى سريعًا سراويل كاكية وسُترة ثقيلة، وفوقها ارتدى معطف الكُهَّان الأسود الواقي من المطر، لكنه عندما تفحَّص نفسه في المرآة، قطَّب جبينه مُفكِّرًا، كلٌّ من القساوسة ورجال الشرطة لهم هالات مُشِعَّة تُحدِّدهم يصعُب إخافؤها! خلع كاريس معطف المطر، وبعدها حذاءه، وانتعل زوج الأحذية غير السوداء الوحيد التي يمتلكه،زوج أحذية تنس أبيض بالٍ.

قاد سيَّارة كريس مُسرعًا نحو روسلين. في أثناء انتظاره في شارع إم كي تتبدَّل إشارة مرور جسر كي إلى اللون الأخضر، نظر إلى يساره عبر الزجاج الأمامي ورأى كارل يخرج من سيَّارة سوداء تقف أمام متجر ديكسي للخمور المُحلَّاة.

كان سائق السيَّارة كيندرمان.

استحال ضوء الإشارة إلى الأخضر. اندفع كاريس بالسيَّارة أمامًا، وانعطف إلى الجسر، ثم نظر خلفه عبر المرآة. هل شاهداه؟ لا يظن ذلك. لكن ماذا يفعلان معًا؟ هل للأمر علاقة بريجان؟ كان قَلِقًا. بريجان وبـ...؟ انس الأمر! ركِّز في شيءٍ واحد!

أوقف كاريس السيَّارة أمام المبنى الطبي وصعد الدرج إلى جناح

دكتور كلاين. كان الطبيب مشغولًا، لكن المُمرِّضة ناولت كاريس مُخطَّط موجات الدماغ، وبعدها بقليل انزوى إلى حُجيرة يتفحَّص شريط الرسم البياني الورقي الطويل الذي أخذ ينزلق ببطء من بين أصابعه.

أسرع كلاين إليه، وألقى نظرة سريعة على ملابس كاريس. ثم قال: «هل أنت دكتور كاريس؟».

- «أجل».

- «سام كلاين. يسُرَّني لقاؤك».

في أثناء مُصافحتهما، سأله كلاين: «كيف حال الفتاة؟».

- «يتحسَّن».

- «سعيد لسماع ذلك».

عاد كاريس للنظر إلى المُخطَّط البياني، وانضم إليه كلاين مُتفحِّصًا بدوره، مُمرِّرًا إصبعه فوق أنماط الموجات.

أبدى كلاين مُلاحظة: «ها هي، أترى؟ إنها مُنتظمة تمامًا. لا تذبذُبات على الإطلاق».

- «أجل، أرى هذا. غريب».

- «غريب؟ كيف؟».

- «حسنًا، بافتراض أننا نتعامل مع حالة هستيريا».

- «ماذا تعني؟».

أجابه كاريس وهو مُستمر في سحب الشريط الورقي بين أصابعه بوتيرة ثابتة: «أظن أن الأمر ليس معروفًا جدًّا، لكن يوجد طبيب بلچيكي يُدعى إيتيكا اكتشف أن النوبات الهستيرية يبدو أنها تُسبِّب تذبذُبات غريبة إلى حدٍ ما في الرسم البياني، صغيرة جدًّا لكنها مُتماثلة النمط دائمًا. وها أنا أبحث عنها دون أن أعثر على شيء».

قال كلاين على نحوٍ غير ذي معنى واضح: «أليس هذا مُدهشًا!».

توقَّف كاريس عمَّا يفعل، ونظر إليه قائلًا: «الفتاة كانت مُضطَّربة تمامًا عندما أجريت لها هذا الفحص، أليس كذلك؟».

- «بلى، يُمكنني قول ذلك. أجل، أجل، كانت مُضطَّربة».

- «حسنًا إذًا، أليس غريبًا أن تكون نتائج الفحص مثالية تمامًا هكذا؟ حتَّى الأشخاص ذوي الحالة العقلية العادية يستطيعون التأثير على موجات أدمغتهم على الأقل ضمن النطاق الطبيعي، وبما أن ريجان كانت مُضطربة وقتها، أليس من المُفترض أن تظهر بعض الموجات الشاذة؟ لو...».

فتحت إحدى المُمرِّضات الباب بغتةً وقاطعتهما قائلة: «دكتور، السيِّدة سيمونز بدأت تتململ».

أخبرها كلاين: «حسنًا، أنا قادم».

مع اندفاع المُمرِّضة خارج الحُجيرة، سار كلاين إلى الرواق، لكنه عاد وأمسك حافة الباب بيده وعلَّق بجفاف: «بمناسبة الهستيريا... معذرة. يجب أن أذهب سريعًا».

أغلق الباب وراءه. بعدها سمع كاريس وقع خطواته يتَّجه إلى الردهة، ثم فُتِح أحد الأبواب، وترامى إلى سمعه: «حسنًا إذًا، كيف حالك اليوم يا سيِّدة...» ثم قطع ذلك صوت بابٍ يُغلق.

عاد كاريس إلى تفحُّص المُخطَّط، وعندما انتهى، طواه وأعاده إلى مُمرِّضة مكتب الاستقبال. هذا دليل. شيء يمكن استخدامه مع الأسقُف كحُجَّة أن ريجان لم تكن هستيرية من قبل، وبالتالي يمكن تصُّور أنها مُتلبِّسة. لكن مُخطَّط موجات الدماغ أثار سؤالًا آخر: لِمَ لا توجد تذبذُبات، لِمَ لا يوجد شيءٌ على الإطلاق؟

***

قاد كاريس عائدًا إلى منزل كريس، لكن عندما اقترب من إشارة مرور حمراء عند زاوية التقاء شارع بروسبكت وشارع 35 توقَّف مُتجمِّدًا خلف المقود: كان كيندرمان يجلس في مقعد السائق في سيَّارة تقف بين موضع كاريس الحالي وبين مقر الإقامة اليسوعية، وكوعه يبرز من النافذة الجانبية ويُحدِّق أمامه مُباشرةً. انعطف كاريس إلى اليمين قبل أن يتمكَّن المُحقِّق من رؤيته.

ثم سرعان ما وجد مساحة خالية أوقف السيَّارة بها، وترجَّل مُلتفًّا حول الزاوية كما لو كان يتوجَّه إلى مسكنه. كان كاريس قَلِقًا: هل يُراقب المنزل؟ لقد نهض شبح دينينجس وبدأ في مُطاردته مرَّة أخرى. هل من المعقول أن يشُك كيندرمان في أن ريجان...؟

تمهَّل يا فتى! تمهَّل! لا تقفز إلى استنتاجات!

خطا كاريس إلى جوار السيَّارة، وأحنى رأسه إلى نافذة مقعد السائق وقال في بشاشة: «مرحبًا أيُّها المُلازم. هل جئت لزيارتي أم أنك تتسكَّع في الجوار لبعضِ الوقت؟».

التفت المُحقِّق سريعًا وقد بدت الدهشة على وجهه، ثم شاعت أساريره بابتسامة عريضة وهو يقول: «أوه، أبونا كاريس! ها أنت ذا إذًا! تُسعدني رؤيتك جدًّا!».

إنه يُبالغ قليلًا، هكذا ظنَّ كاريس. ما الذي ينتويه؟ لا تدعه يعرف أنك قَلِقٌ! كُن طبيعيًّا.

أشار كاريس إلى لافتة ممنوع التوقُّف وقال: «ألا تعرف أنك ستحصل على مُخالفة هكذا؟ في أيام العمل، الوقوف محظور بين الرابعة والسادسة».

قال كيندرمان بصوتٍ عالٍ: «لا عليك. أنا أتحدَّث إلى قس. كل ضباط المرور في چورچ تاون كاثوليك».

- «كيف حالك؟».
- «أصارحك القول يا أبانا كاريس، الأمور ليست بخيرٍ دائمًا. وأنت؟».
- «لا شكوى لديَّ. هل تمكَّنت من حل تلك القضية؟».
- «أيُّ قضية؟».
- «تعرف ما أقصد، قضية مُخرج السينما؟».
- «أوه، تلك القضية».

قالها بإيماءة زاجرة من يده ثم أردف: «لا تسأل! اسمع، ماذا ستفعل الليلة؟ هل أنت مشغول؟ لديَّ تذاكر مجانية لفيلم عُطيل».

- «الأمر يتوقَّف على أبطاله».

- «الأبطال؟ چون واين في دور عُطيل، وديدمونة تقوم بها دوريس داي. هل أنت راضٍ الآن؟ العرض مجاني أيُّها الأب مارلون المُتعِب بشكلٍ خاص! إنه نص شكسبيري! لا يهم من أبطاله! الآن، هل ستأتي؟».

- «أخشى أنني لن أستطيع. العمل يُغرقني».

قال المُحقِّق مُتحسِّرًا وهو يتفحَّص وجه اليسوعي: «أستطيع رؤية ذلك في وجهك. أتسهر إلى أوقاتٍ مُتأخِّرة؟ تبدو في حالة سيئة».

- «دائمًا ما أبدو في حالة سيئة».

- «لكنك الآن أسوأ من المعتاد. هيا الآن! أعطِ نفسك راحة ولو لليلة واحدة! ستستمتع بالأمر!».

قرَّر كاريس أن يختبره، أن يتلمَّس وترًا حسَّاسًا، فسأله: «هل أنت مُتأكِّد أن فيلم عُطيل ما يُعرض حقًّا؟» ثم حملقت عيناه بثباتٍ في وجه المُحقِّق وهو يُضيف «أكاد أجزم أن فيلمًا من بطولة كريس ماكنيل يُعرض في دار عرض بيوجراف حاليًا».

فوَّت المُحقِّق لحظة، ثم قال سريعًا: «لا، أنت مُخطئ. إنه عُطيل».

- «أوه، وما الذي أتى بك إلى المُجاورة؟».

- «أنت! لقد جئت فقط لأدعوك إلى الفيلم!».

- «أجل، أفترض أن من الأيسر عليك القيادة إلى هنا عن أن ترفع سمَّاعة الهاتف وتتَّصل».

رفع المُحقِّق حاجبيه في محاولة غير مُقنعة كي يبدو بريئًا: «كان هاتفك مشغولًا».

حدَّق إليه القس اليسوعي بصمتٍ وخطورة.

سأله كيندرمان: «ما خطبك؟ ما الأمر؟».

مدَّ كاريس يده داخل السيَّارة، ورفع جفنه وتفحَّص عينه. ثم قال عابسًا: «لا أعرف. تبدو في حالة يُرثى لها. قد تكون مُصابًا بالميثومانيا[1]».

---

(1) هوس الكذب.

- «أنا لا أعرف معنى ذلك. أهو شيءٌ خطير؟».
- «أجل، لكنه ليس قاتلًا».
- «ما هو؟ الفضول يقتلني!».
قال له كاريس: «ابحث عنه بنفسك».
- «اسمع، لا تكنِ مُختالًا. يجب أن تعطي لقيصر القليل ممَّا له بين الحين والآخر. أنا أُمثِّل القانون. أستطيع ترحيلك إن أردت، هل تعرف هذا؟».
- «بأيِّ جريرة؟».
- «الطبيب النفسي يجب ألا يُزعج الناس. كما أن الجُوييم[1] -إذا تحدَّثنا بصراحة- سيحبِّذون الأمر. أنت مصدر إزعاج لهم يا أبت. حقًّا، أنت تُحرجهم. من يُريد قسًّا يرتدي سُترات وأحذية رياضية؟!».
ابتسم كاريس بخفوت، وأومأ رأسه قائلًا: «يجب أن أذهب. اعتنِ بنفسك».
قالها ونقر بيده مرَّتين على إطار النافذة، ثم استدار وسار ببطء إلى مدخل مقر الإقامة.
صاح به المُحقِّق في صوتٍ أجش: «اعرض نفسك على مُحلِّل نفسي».
ثم استحالت نظرته الودودة إلى أخرى تحمل قلقًا عميقًا. نظر كيندرمان من خلال زجاج السيَّارة إلى المنزل، ثم شغَّل المُحرِّك وقاد عبر الشارع. مُتخطِّيًا كاريس، ضغط بوق السيَّارة ولوَّح بيده، فرَدَّ كاريس إليه التحيَّة،

---

(1) مصطلح ديني يهودي يطلقه اليهود على غير اليهود. الجُوييم جمع «جُوي» وتعني «الأغيار». استُعمِلت الكلمة أصلًا في اللغات السامية كدلالة على قطعان الحيوانات أو الحشرات التي تتحرَّك في أسراب. ثم انتقلت للدِّلالة على الجَمْع المختلط من الناس، ثم اكتسب المصطلح إيحاءات الذَّمِّ والتميز، ومن هنا خصَّصتها النزعة المُتطرِّفة في اليهودية والأدبيات الصهيونية للدلالة على جميع الناس من غير اليهود، ثم توسَّع أحبار اليهود في مدلول الجُوييم، فأضافوا إلى الكلمة معنى القذارة المادية والروحية والكفر.

وما أن انعطفت سيَّارة كيندرمان إلى شارع 36، توقَّف القس ومكث بلا حراك بعضًا من الوقت يفرك جبينه بيدٍ مُرتجفة. هل يمكن أن تكون قد ارتكبتها فعلًا؟ هل يمكن أن تكون ريجان قد قتلت بيرك دينينجس بهذه البشاعة؟ بعينين زائغتين، التفت كاريس ورفع بصره إلى نافذة غرفة ريجان، وفكَّر، ما الذي يقطن هذا البيت بحق الرب؟ كم من الوقت سيمر قبل أن يطلب كيندرمان مقابلة الفتاة؟ ويحصل على فُرصة رؤية تجسيدها شخصية دينينجس؟ وسماعها؟ كم تبقَّى لريجان قبل أن تُحال إلى الرعاية المؤسَّسية؟ أو الموت؟

يجب عليه بناء قضية قوية لإقناع الكنيسة بإجراء طرد أرواح.

عبر القس الشارع سريعًا متوجِّهًا إلى منزل كريس ماكنيل، ورن جرس الباب وانتظر كي تسمح له ويلي بدخول المنزل.

قالت له: «السيِّدة تأخذ قيلولة صغيرة الآن».

أومأ كاريس قائلًا: «جيِّد. هذا جيِّد». ثم عبر من جوارها وصعد الدرج إلى غرفة نوم ريجان. كان يسعى وراء يقين ينشب فيه نسيج قلبه.

دخل الحجرة ووجد كارل جالسًا على مقعد قرب النافذة بذراعين معقودتين ونظرته مُثبَّتة بالكامل على ريجان. كان صامتًا وبارزًا كعمود من الخشب الدَّاكن الكثيف.

اقترب كاريس من حافة الفراش ونظر إلى أسفل. بياض العينين الشبيه بضبابٍ حليبي. الغمغمة والتمتمة القادمة من عالم آخر. انحنى كاريس ببطء وبدأ في فك وِثاق ريجان.

- «لا يا أبت! لا!».

قالها كارل وهو يندفع إليه وينتزع يد القس اليسوعي بقوَّة.

- «فكرة سيئة يا أبت! إنه قوي! قوي».

لاحظ كاريس أن الخوف السَّاكن في عيني كارل أصيل وحقيقيّ. والآن عَلِمَ أن قوَّة ريجان غير الطبيعية حقيقة لا مراء فيها. يُحتمل أن تكون قد ارتكبت الجريمة. يُحتمل أنها من لوى عُنُق دينينجس إلى الوراء. هيا يا كاريس! أسرع! اعثر على بعض الأدلة! فكِّر!

فجأة جاء صوتٌ من أسفله.. من الفراش.

«Ich möchte Sie etwas fragen, Herr Engstrom!».[1]

بأملٍ مُرتفع وذهولٍ من الاكتشاف، أحنى كاريس رأسه بشكلٍ خاطفٍ نحو الفراش، ورأى سيماء ريجان الشيطانية تبتسم بوحشية إلى كارل وهي تقول ساخرة: «Tanzt Ihre Tochter gern?».[2] ثم انفجرت في ضحكة ماجنة مُستهزِئة. هذه لغة ألمانية. لقد سَألَتْ إذا ما كانت ابنة كارل العرجاء تُحب الرقص! مُتحمِّسًا، التفت كاريس إلى كارل ولاحظ أن وجنتيه تفوران بالدماء. كان ينظر إلى ريجان بغضبٍ عارم ويداه مضمومتان في قبضتين متوتِّرتين بينما ضحكها يتواصل.

قال له كاريس مُحذِّرًا: «كارل، من الأفضل أن تخرج من هنا».

هزَّ الرجل السويسري رأسه قائلًا: «لا، سأبقى!».

قال القس بحزم: «بل ستخرج. أرجوك».

أنهى عبارته وثبَّت بصره على كارل بعناد، إلى أن استدار الخادم بعد لحظة أو لحظتين من المقاومة وخرج سريعًا من الغرفة. عندما أُغلِقَ الباب، توقَّف الضحك فجأة، وحلَّ محلَّه ذلك الصمت الكثيف الخانق.

أدار كاريس بصره إلى الفراش. كان الشيطان يراقبه. وبدت عليه السعادة. ثم تكلَّم بصوتٍ حلقي: «إذًا لقد عُدت. أنا مُندهش. لقد ظننت أن إحراجك من الماء المُقدَّس سيُثبِّط عزمك عن العودة مرَّة أخرى. لكنني نسيت أن القساوسة لا يستحون».

استنشق كاريس أنفاسًا قليلة مُجبرًا نفسه على التركيز والتفكير بصفاء. كان يعلم أن اختبار اللغة في حالات الاستحواذ يتطلَّب مُحادثة ذكية مرنة كإثبات أن أيًا ما يُقال لا يمكن عزوه إلى ذكريات لغوية دفينة. الأمر سهل! فقط تمهَّل! أتذكر تلك الفتاة؟ الخادمة الباريسية المُراهقة التي زُعِم أنها

---

(1) «اسمح لي أن أسألك شيئًا يا هير إنجستروم!».

(2) «هل ترقص ابنتك بسعادة؟».

مُتلبِّسة. في حالات هذيانها، كانت تُتمتم بهدوء بلُغة غريبة جرى التعرُّف عليها في النهاية، واتَّضح أنها السيريانية. أجبر كاريس نفسه على التفكير في الإثارة التي تلت اكتشاف أن الفتاة خدمت فترة من الوقت في نزلٍ صغير، حيث كان أحد المُستأجرين طالب لاهوت، وفي الليالي التي تسبق امتحاناته، لم يكن ينفك عن ذرع غرفته ذهابًا وإيابًا، وصعود وهبوط الدرج، وهو يستذكر دروس اللغة السيريانية بصوتٍ عالٍ. وقد سمعته الفتاة بالطبع.

تمهَّل. لا تتحمَّس كثيرًا.

سأل كاريس: «Sprechen Sie deutsch?».[1]

- «مزيدٌ من الألعاب؟».

كرَّر القس اليسوعي سؤاله: «Sprechen Sie deutsch?». كان قلبه ما زال ينبض بذلك الأمل البعيد.

أجابه الشيطان غامزًا: «Natürlich, Mirabile dict».[2]

تقافز قلب اليسوعي في صدره. ليست ألمانية فحسب، بل لاتينية كذلك! سأله في ذات السياق سريعًا:

«Quod nomen mihi est?».[3]

- «كاريس».

كانت الإثارة تغمر القس حاليًا.

- «Ubi sum?».[4]

- «In cubiculo».[5]

---

(1) «هل تتحدَّث الألمانية؟».

(2) «بالطبع. إنها مُعجزة، ألا تتفق معي؟».

(3) «ما اسمي؟».

(4) «أين أنا؟».

(5) «في الغرفة».

- «Et ubi est cubiculum?».[1]

- «In domo».[2]

- «Ubi est Burke Dennings?».[3]

- «Mortuus».[4]

- «Quomodo mortuus est?».[5]

- «Inventus est capite reverso».[6]

- «Quis occidit eum?».[7]

- «ريجان».

- «Quomodo ea occidit ilium? Dic mihi exacte!».[8]

قال الشيطان بابتسامة عريضة: «آه، حسنًا، يكفي هذا الكم من الإثارة في الوقت الراهن. أجل، إنه كافٍ تمامًا على ما أظن. رغم أنني أفترض بطبيعة الحال أنك -في أثناء طرح أسئلتك باللاتينية- تصيغ الإجابات في عقلك باللاتينية أيضًا.. أعني بما أنك من أنت».

أنهى الشيء عبارته وضحك كثيرًا.

ثم واصل: «كل هذا يحدث دون وعيٍ منك بالطبع. ما الذي نستطيع فعله دون اللا وعي يا كاريس؟ هل تفهم ما أرمي إليه؟ أنا لا أتحدث اللاتينية على الإطلاق! أنا أقرأ عقلك! كل ما أفعله ببساطة هو اقتلاع الردود من رأسك!».

---

(1) «وأين الغرفة؟».
(2) «في المنزل».
(3) «أين بيرك دينينجس؟».
(4) «ميِّت».
(5) «كيف مات؟».
(6) «عُثر عليه ورأسه ملتوي إلى الخلف».
(7) «من قتله؟».
(8) «وكيف قتلته؟ أخبرني بالتفصيل».

شعر كاريس بفزع فوري مع انهيار يقينه، شعر بحيرة وغيظ كاسحين من الشك المُزعج الذي زُرع في عقله.

ضحك الشيطان بصوتٍ أجش: «أجل، كنت أعرف أن هذا سيحدث لك. لهذا أنا مُغرم بك جدًّا يا لُقمتي السائغة العزيزة. أجل، لهذه الأسباب أنا أعتز بكل رجال العقل والمنطق».

التوت رأس الشيطان إلى الخلف في سلسلة من الضحكات الماجنة. عمل عقل القس اليسوعي بأقصى طاقته، يائسًا، في محاولة صوغ أسئلة ليس لها جواب واحد صحيح، بل أجوبة عديدة. لكنني قد أُفكِّر فيها جميعًا! هكذا أدرك القس. ثم توصَّل عقله إلى الحل. اسأل سؤالًا لا تعرف إجابته! ولاحقًا يمكنه تفحُّص الإجابة ليرى إن كانت صحيحة.

انتظر كاريس أن يهدأ الضحك، ثم تحدَّث:

- «Quam profundus est imus Oceanus Indicus?».[9]

لمعت عينا الشيطان: «La plume de ma tante».[10]

- «أجب باللاتينية».

- «Bon jour! Bonne nuit!».[11]

- «Quam...».[12]

قطع كاريس كلامه مع غياب العينين في محجريهما وظهور الكينونة الراطنة. ثم بنفاد صبرٍ وغيظ، طالَب كاريس: «أريد التحدُّث إلى الشيطان ثانيةً».

لا جواب. فقط صوت التنفُّس الذي يهب من شاطئ غريبٍ وناءٍ.

هتف كاريس بصوتٍ مبحوحٍ مُنهكٍ: «Quis es tu?».[13]

(9) «ما أعمق نقطة في المحيط الهندي؟».
(10) «قلم عمَّتي». بالفرنسية.
(11) «صباح الخير، مساء الخير». بالفرنسية.
(12) «كيف...».
(13) «من أنت؟».

ردَّ الصمت.. وصفير الأنفاس.

- «دعني أتحدَّث إلى بيرك دينينجس!».

صدرت شهقة من الشيء. ثم تنفُّس مُتقطِّع. ثم شهقة.

- «دعني أتحدَّث إلى بيرك دينينجس!».

استمرَّت الشهقات، مُنتظمة ومؤلمة. أحنى كاريس رأسه وهزَّه، ثم سار بتثاقلٍ إلى مقعدٍ وثير وجلس، وأسند ظهره إلى الوراء وأغمض عينيه. كان مُنفعلًا.. مُمزَّقًا.. وينتظر...

مرَّ الوقت. غفا كاريس لحظاتٍ. لكنه أفاق وهزَّ رأسه. ابق مُستيقظًا! ثم بجفنين ثقيلين نظر إلى ريجان. لم تكن تشهق الآن. كانت عيناها مُغلقتين. أهي نائمة؟ نهض كاريس وسار إلى الفراش، وانحنى مُتفحِّصًا نبض الفتاة، ثم اعتدل وتفحَّص شفتيها. كانتا جافتين. شدَّ القس جسده وانتظر بعضًا من الوقت، ثم في النهاية غادر الغرفة وهبط إلى المطبخ باحثًا عن شارون، ووجدها عند الطاولة تحتسي حساءً وتقضم من شطيرة، وما أن رأته سألته: «هل أعد لك شيئًا لتأكله يا أبت؟ لا بد أنك جائع».

أجابها كاريس: «لا، لست جائعًا». ثم جلس ومدَّ يده والتقط قلم رصاص ومُفكِّرة مجاورة لآلة شارون الكاتبة وقال: «كانت تشهق. هل صرف الطبيب لكم بعض الكومبازين».

- «أجل، لدينا بعضه».

كان كاريس يكتب في المُفكِّرة: «إذًا أعطيها الليلة نصف «لبوس» سعة خمسة وعشرين ميليجرام».

- «حسنًا».

واصل كاريس: «لقد بدأت تذوي وتجِف، لذا سأُحيلها إلى التغذية الوريدية. غدًا أوَّل شيء ستفعليه باكرًا الاتِّصال بصيدلية وأخبرهم أن يرسلوا إليكِ بهذه الأشياء فورًا» ثم دفع المُفكِّرة عبر الطاولة إلى شارون «في هذه الأثناء، يمكنك البدء في إعطائها السوستجن. إنها نائمة».

أومأت شارون برأسها. «حسنًا، سأفعل». ثم قلبت المُفكِّرة وأخذت

تنظر إلى القائمة وهي تعبث في طبق حسائها بالملعقة. راقبها كاريس، ثم قال وهو يقطِّب جبينه في تركيز: «أنت مُعلِّمتها؟».

- «أجل، هذا صحيح».
- «هل علَّمتيها أيَّ دروسٍ في اللاتينية؟».
- «اللاتينية؟ لا. أنا لا أعرف حرفًا منها. لماذا؟».
- «ولا الألمانية؟».
- «الفرنسية فقط».
- «إلى أيِّ مستوى وصلتِ بها؟ قلم عمَّتي[1]؟».
- «إلى حدٍ كبير».
- «لكن لا لاتينية أو ألمانية».
- «لا».
- «وماذا عن آل إنستجروم، ألا يتحدَّثان الألمانية أحيانًا؟».
- «أوه، حسنًا، بالتأكيد».
- «على مسمعٍ من ريجان؟».

هزَّت شارون كتفيها وهي تنهض: «أوه، أحيانًا على ما أظن»، ثم توجَّهت إلى حوض المطبخ بأطباقها وهي تُضيف: «بل أنا مُتأكِّدة من ذلك في حقيقة الأمر».

سألها كاريس: «هل درستِ اللاتينية من قبل؟».

ضحكت شارون وهي تُجيب: «أنا؟ لاتينية؟ لا، لم أدرسها».

- «لكنكِ قادرة على تمييز طابعها العام؟».
- «أجل، أظن ذلك».

غسلت الشابة وعاء الحساء ووضعته على الحامل.

---

(1) قلم عمَّتي La plume de ma tante: عِبارة نمطية تُستخدم كوسيلة تدريس تقليدية في كُتُب النشء لتعلُّم اللغة الفرنسية. العبارة ليس لها أيَّ استخدام في الحياة العملية، وتَرِد غالبًا كجزء من قصيدة تعليمية.

- «هل تحدَّثَتْ اللاتينية من قبل في وجودك؟».
- «ريجان؟».
- «أجل. منذ أن بدأ مرضها».
- «لا. قط».
- «هل تفوَّهت بأيِّ لغاتٍ أخرى في العموم؟».

أشاحت شارون بوجهها بعيدًا عن الصنبور، وبدا عليها التفكير وهي تقول: «حسنًا، رُبَّما أكون قد تخيَّلت الأمر، لكن...».

- «لكن ماذا؟».

عبست شارون قائلة: «حسنًا، أظن... حسنًا، أكاد أقسم أنني سمعتها تتحدَّث الروسية في إحدى المرَّات».

رمقها كاريس بحلقٍ جاف. ثم سألها: «هل تتحدَّثينها؟».

- «أوه، قليلًا فقط. لقد درستها لمُدَّة عامين في الكلية. هذا كل شيء».

ارتخى جسد كاريس. إذًا ريجان انتزعت فصاحتها اللاتينية من تلافيف مُخِّي!

مُحدِّقًا بانشداه، أحنى كاريس جبينه إلى كفِّه في ارتياب: التخاطُر يكون أكثر شيوعًا في حالات التوتُّر الشديد: التحدُّث دائمًا بلغة مألوفة لشخصٍ في الغرف: «... التفكير في الأشياء نفسها التي أُفكِّر فيها...»: «Bon jour...»: «قلم عمَّتي...»: «Bon nuit...». بأفكارٍ كهذه شاهد كاريس حزينًا الدماء تستحيل خمرًا[1] من جديد.

ما العمل؟ احصل على قسطٍ من النوم. ثم عُد وحاول مرَّة أخرى... حاول ثانيةً.

---

(1) كناية عن عودة الشكِّ إلى قلبه. في العقيدة المسيحية يوجد ما يُعرف بالأباركة، وهي كلمة مُعَرَّبة عن اللفظة اليونانية Aparxh، وتُطلق على عصير العنب المُختمر (ليس نبيذًا، حيث نسبة الكحول لا تزيد على 5٪). توضع الأباركة في الكأس على المذبح، وفي أثناء القُدَّاس الإلهي تتحوَّل الأباركة بفعل الروح القدس إلى دم السيد المسيح.

نهض كاريس ونظر إلى شارون بعينين ناديتين. كانت تستند إلى الحوض بظهرها وذراعيها معقودتين وتتأمَّله بفضولٍ مِن كَثب. قال لها: «سأذهب إلى مقر إقامتي. وسأنتظر اتِّصالًا منكِ ما إن تستيقظ ريجان».

- «حاضر، سأتَّصل بك».

- «لن تنسي بأمر الكومبازين، أليس كذلك؟».

هزَّت رأسها وقالت: «نعم، سأعتني بالأمر على الفور».

أومأ كاريس برأسه ويديه في جيبي سراويله الخلفيين، ثم أطرق بصره محاولًا التفكير فيما قد يكون نسيَ إخباره إلى شارون. يوجد دائمًا شيئًا لفعله، دائمًا يغفل المرء عن أمرٍ حتَّى عندما يحتاط لكل شيء.

سمع كاريس صوت السكرتيرة يسأله جادًا: «يا أبت، ما الذي يحدث؟ ما الأمر؟ ما خطب ريجان؟».

رفع كاريس عينيه إليها، كانتا ذابلتين ومسكونتين بالأرق: «لا أعرف. حقًّا لا أعرف».

ثم استدار وسار خارجًا من المطبخ.

في أثناء عبوره الردهة، سمع وقع أقدام سريعة تأتي من خلفه: «أبونا كاريس!».

التفت كاريس ورأى كارل يهرع نحوه حاملًا سُترته.

قال الخادم وهو يناوله إيَّاه: «اعتذر بشدَّة. كنت أريد الانتهاء منه قبل ذلك بوقتٍ طويل. لكنني نسيت».

ناول كارل السُترة إلى كاريس. كانت لُطخ القيء قد مُحيت تمامًا وأصبحت تفوح برائحة عطرة.

قال له القس بلطف: «هذا اهتمام كبير منك يا كارل. أشكرك».

قال كارل بصوتٍ مُرتعش وعينين مُتَّسعتين: «بل شكرًا لك أنت يا أبت. شكرًا لك على مُساعدة ريجان».

ثم أشاح برأسه في خجل، واستدار مُبتعدًا برفق.

راقبه كاريس وهو يتذكَّر رؤيته في سيَّارة كيندرمان. ما السبب؟ مزيدٌ

من الغموضِ. مزيدٌ من الحيرة. التفت كاريس في إنهاك وفتح الباب. كان الليل قد حلَّ، وخرج كاريس يائسًا من ظُلُماتٍ إلى ظُلُمات.

عبر الشارع متوجِّهًا إلى مقر إقامته، مُتلمِّسًا طريقه إلى الفراش ثم النوم، لكنه قرَّر المرور بغرفة داير أوَّلًا. طرق كاريس الباب وسَمِعَ صوتًا يأتي من الداخل قائلًا: «أقبِل، واهتدِ». في الداخل، كان داير جالسًا يكتب على آلته الكاتبة طراز IBM. ألقى القس بنفسه على حافة فراش داير، بينما الأخير يواصل الكتابة.

- «مرحبًا يا چو».

- «أجل، أسمعك. ما الأمر؟».

- «هل يتصادف أن تعرف أيَّ شخص أقام طقس طرد أرواح بشكلٍ رسميٍ من قبل؟».

- «چو لويس ضد ماكس شميلينج[1]، الثاني والعشرين من مايو، سنة 1938».

- «چو، كُن جادًا».

- «لا، بل كُن أنت جادًا. طرد أرواح؟ هل تمزح؟».

لم يرد كاريس عليه، واستمر في مُراقبة صديقه لحظاتٍ بوجهٍ خالٍ من التعبير، في الوقت الذي كان داير يواصل فيه الكتابة. في النهاية نهض كاريس وسار باتِّجاه باب الغرفة وهو يقول: «أجل يا چو. كنت أمازحك».

- «هذا ما اعتقدته».

- «أراك في الجوار».

- «اِبحث عن دُعاباتٍ أفضل».

---

(1) چو لويس وماكس شيملينج مُلاكمان مُحترفان. الأوَّل أمريكي، بينما الثاني ألماني. في عامي 1936 و1938، أُقيمت مُباريتان شهيرتان مُنفصلتان بين الرجلين، وانتهت الأولى بفوز الألماني في الجولة الثانية عشرة بالضربة القاضية، لكن في المُباراة الثاني ردَّ المُلاكم الأمريكي بفوزٍ ساحقٍ على غريمه بالضربة القاضية في الجولة الأولى.

سار كاريس عبر الردهة، ومع دخوله غرفته نظر إلى أسفل وشاهد رسالة وردية اللون مُمرَّرة من أسفل الباب. انحنى كاريس والتقطها، إنها من فرانك، وتحمل رقم هاتف. «من فضلك اتَّصل على...».

التقط كاريس الهاتف وطلب من العامل الاتِّصال برقم مُدير المعهد. في أثناء انتظاره، نظر إلى يده غير المشغولة.. يده اليمنى.. كانت ترتجف بأملٍ يائس.

صوت رنين، ثم ولد صغير يهتف: «مرحبًا؟».

- «هل أستطيع التحدُّث إلى والدك من فضلك».

- «نعم. لحظة واحدة». صوت قرقعة سمَّاعة، ثم أحدهم يرفعها سريعًا. إنه الصبي مرَّة أخرى:

- «من المُتكلِّم؟».

- «الأب كاريس».

- «الأب كاريتس؟».

- «كاريس. الأب كاريس...».

وُضِعَت السمَّاعة من جديد.

رفع كاريس يده المُرتعشة، ولمس جبينه برفقٍ بأطراف أصابعه.

ضوضاء من الناحية الأخرى.

- «الأب كاريس؟».

- «أجل. مرحبًا يا فرانك. أحاول الوصول إليك».

- «أوه، معذرة. كنت أعمل على تسجيلاتك من المنزل».

- «هل انتهيت؟».

- «أجل. بالمناسبة، تلك أشياء غريبة جدًّا».

قال كاريس مُتصنِّعًا لمُداراة توتُّر صوته: «أجل، أعرف. إذًا ما قصتها؟ هل توصَّلت إلى شيء؟».

- «حسنًا، بخصوص «النوع والعينة»، في البداية...».

- «أجل يا فرانك؟».

- «يجب أن تعرف أنني لا أمتلك عيِّناتٍ كافية لأكون دقيقًا جدًا، أنت تفهم ذلك، لكنني أستطيع القول إنها قريبة جدًا، أو على الأقل هي أقرب ما يمكن الحصول عليه مع مثل هذه الأشياء. حسنًا، على أيِّ حال، يمكنني القول إن الصوتين المُختلفين في كلا التسجيلين صدرا في الغالب من شخصين مُختلفين».

- «في الغالب؟».

- «حسنًا، لا أُحبِّذ القسم بالأمر في محكمة بالطبع. في الحقيقة، الفارق ضئيل جدًّا بالفعل».

كرَّر كاريس في بلادة: «ضئيل...». حسنًا، فلننتقل إلى الأمر الفيصل. سأله كاريس: «ماذا عن الرطانة؟ أهي لُغة من أيِّ نوع؟».

ضحك فرانك.

سأله اليسوعي مُنفعلًا: «ما المُضحك في الأمر؟».

- «هل هذا اختبار نفسي مراوغ يا أبت؟».

- «ماذا تعني؟».

- «حسنًا، أظن أن تسجيلاتك انعكست أو شيء من هذا القبيل. إنها...».

قاطعه كاريس: «فرانك. أهي لغة أم لا؟».

- «أوه، أستطيع القول أنها لغة. نعم».

مصعوقًا، شدَّد كاريس بحزم: «هل تمزح؟».

- «لا، لا أمزح».

- «أيُّ لغة؟».

- «إنها الإنجليزية».

لوهلة، شُده كاريس وظل مُحدِّقًا في عدم فهم، وعندما تكلَّم، بدا أن صوته يحمل كثيرًا من نفاد الصبر: «فرانك، يبدو أننا لا نفهم بعضًا جيِّدًا. أم هل تُحب إشراكي في دُعابتك؟».

- «هل جهاز التسجيل معك؟».

كان الجهاز موضوعًا فوق المكتب. «أجل، إنه معي».

- «اضبطه على وضع التشغيل بالعكس».
- «لماذا؟».
- «أهو مُزوَّد بهذه الخاصية؟».
- «لحظة واحدة».

بانفعال شديد، وضع كاريس سمَّاعة الهاتف وأمسك بالمُسجِّل وتفحَّصه. ثم قال: «أجل يا فرانك. الخاصية به. ما معنى كل هذا؟».

- «ضع الشريط في الجهاز وشغِّله بالعكس».
- «ماذا؟».

ضحك فرانك بمرحٍ ودود: «لديك مساخيط»، ثم أضاف: «استمع إليه ولنتحدَّث غدًا. عمت مساءً يا أبت».

- «عمت مساء يا فرانك».
- «استمتع».
- «أجل، صحيح».

أغلق كاريس الخط وبدا مُتحيِّرًا. التقط التسجيل الذي يحوي الرطانة ووضعه في المُسجِّل. في البداية شغَّله بوضعٍ طبيعي وأومأ برأسه. لا خطأ هنا. الرطانة والكلام الغامض هما كل ما يحويه.

انتظر كاريس ريثما تجري البكرة إلى نهايتها ثم أعاد تشغيلها بالعكس. سمع صوته يتحدَّث بالمقلوب. ثم تبعه صوت ريجان الشيطاني يقول:

... مارين مارين كاريس، دعنا وشأننا، دعنا...

إنها إنجليزية! لا معنى لها! لكنها إنجليزية!

كيف تمكَّنت من فعل ذلك بحق الجحيم؟ تعجَّب القس مصعوقًا بالكامل.

استمع كاريس إلى التسجيل كاملًا، ثم أعاد تشغيله واستمع مرَّةً أخرى.. ثم أخرى. في النهاية اكتشف أن ترتيب الكلمات معكوس. أوقف المُسجِّل، أعاد البكرة إلى بدايتها، ثم باستخدام قلم رصاص

ومُفكِّرة، جلس إلى مكتبه وشغَّل الشريط من بدايته وأخذ يدوِّن الكلمات، عاملًا بجُهدٍ جهيدٍ وطويلٍ، مع توقُّفات وإعادات تشغيلٍ لشريط التسجيل عديدة وبمعدَّل ثابت تقريبًا. عندما أنهى أخيرًا، دوَّن نُسخة أخرى على ورقة ثانية، عاكسًا ترتيب الكلمات. بعدها، أرجع ظهره إلى الوراء وبدأ يقرأ:

خطر. ليس بعد. [كلام مُبهم] سيموت. في وقتٍ قصير. الآن الـ [كلام مُبهم]. دعها تموت. لا، لا، الوضع جميل. الوضع جميل في الجسد! أشْعُر! يوجد [كلام مُبهم] أفضل [كلام مُبهم] من الفراغ. أخشى القس. امنحنا وقتًا. أخاف القس. إنه [كلام مُبهم]. لا، ليس هذا: الـ [كلام مُبهم]، الشخص الذي [كلام مُبهم]. إنه مريض. آه، الدماء، أشْعُر بالدماء، كيف [كلام مُبهم؟].

كان صوت كاريس الخارج من المُسجِّل يسأل «من أنت؟»، وكانت الإجابة:

أنا لا أحد. أنا لا أحد.

كاريس يسأل «أهذا اسمك؟». ثم الإجابة:

ليس لديَّ اسم. أنا لا أحد. نحن كثيرون. دعنا وشأننا. دعنا دافئين في الجسم. لا [كلام مُبهم] من الجسم إلى الفراغ، إلى [كلام مُبهم]. اتركنا. اتركنا. كاريس. ميرين. ميرين.

قرأ كاريس ما دوَّنه مرَّاتٍ ومرَّات، مهوَّسًا بالنبرة والأسلوب، بالشعور بوجود أكثر من شخص يتحدَّث، إلى أن ابْتَذَلَ التكرار مدلول الكلام، فوضع القس الورقة جانبًا وفرك وجهه وعينيه.. كان يريد فرك أفكاره. إنها ليست لغة مجهولة. القدرة على الكتابة بالعكس بسهولة ليست أمرًا خارقًا أو حتَّى غير مُعتاد. لكن التحدُّث بالعكس شيءٌ آخر: تعديل وتغيير مخارج الألفاظ كي تُصبح مفهومة عندما تُشغَّل بالعكس يُعَد أداءً بالغ التعقيد، وهو يقع خارج نطاق قُدرات المصابين بفرط التحفيز العقلي، أولئك ذوي اللا وعي المُسرَّع الذين أشار إليهم يونج؟ لا، يوجد شيءٌ

ما هنا. شيءٌ قابع عند حافة ذاكرته. ثم تذكَّر القس وسار إلى رفوف كتبه بحثًا عن كتاب: سيكولوچية وباثولوچية ما يُسمَّى بالظواهر الغيبية ليونج. يوجد شيءٌ مُشابه هنا، هكذا كان يُفكِّر وهو يبحث سريعًا عبر صفحات الكتاب. ما هو؟

ثم وجد ضالته: تقرير عن تجربة كتابة تلقائية بدا فيها عقل المريض اللا واعي قادرًا على إجابة الأسئلة التي تُطرح عليه بالجناس التصحيفي[1].

الجناس التصحيفي!

أسند الكتاب مفتوحًا فوق المكتب، وانحنى فوقه يقرأ تقريرًا لجزء من التجربة:

اليوم الثالث

ما الرجل؟ أظن أن قلت العرب أحلى مأتم.

أهذا جناس تصحيفي؟ نعم.

كم كلمة يحوي؟ خمس.

ما الكلمة الأولى؟ سيي.

ما الكلمة الثانية. إيبي.

سيي؟ هل أُفسِّرها بنفسي؟ حاول!

عثرت الحالة قيد الدراسة على النتيجة التالية: «الحياة أقل براعة ممَّا نظن». كان مُندهشًا من هذا البيان الفكري، الذي بدا له أنه يُثبت وجود ذكاء مستقلّ بذاته. لذا واصل أسئلته:

من أنت؟ كليليا.

أنت امرأة؟ نعم.

هل عشتِ على الأرض من قبل؟ لا.

(1) لعبة يُشكِّل فيها اللاعبون كلمات جديدة بتصحيف الكلمات أو إضافة بعض الأحرف عليها. يُسمَّى هذا التغيير في الشعر خصوصًا بتجنيس القلب أو جناس القلب.

هل ستأتين إلى الحياة؟ نعم.
متى؟ بعد ست سنوات.
لماذا تتحدَّثين معي؟ اشكر عنا أليليا.
فسَّرت الحالة قيد الدراسة هذا الجواب على أنه جناسًا تصحيفيًّا لـ «أنا كليليا أشعُر».

اليوم الرابع
هل أنا من يُجيب الإجابات؟ نعم.
هل كاليليا موجودة؟ لا.
من يوجد داخلك إذًا؟ لا أحد.
هل كاليليا لها وجودٌ على الإطلاق؟ لا.
إذًا من كُنت أُحادث ليلة أمس؟ لا أحد.

توقَّف كاريس عن القراءة وهزَّ رأسه. لا وجود لشيءٍ خارقٍ هنا، هكذا فكَّر، فقط دليل على قدرات العقل المحدودة. مدَّ يده والتقط لُفافة تبغ، ثم جلس وأشعلها. «أنا لا أحد. كثيرون». تعجَّب كاريس، ما مصدر كلام ريجان غريب المحتوى هذا؟ أهو المصدر الذي أتت من كاليليا؟ الشخصيات الناشئة الدخيلة؟

«ميرين... ميرين...». «آه، الدماء...». «إنه مريض...».

بعينين حائرتين، رمق كاريس نسخته من كتاب الشيطان، وبمزاجٍ مُتعكِّر قرأ الاقتباس الافتتاحي: «لا تَسْمحَ للتنينِ بأن يكونَ مُرشدي...». مُغلقًا عينيه ونافثًا الدخان، رفع كاريس قبضته إلى فمه وأخذ يسعل، ثم أطفأ لُفافة التَّبغ في المنفضة بعد أن شعر بجفافٍ والتهابٍ في حنجوره. نهض القس مُتثاقلًا ومنهكًا إلى مُفتاح نور الغرفة وأغلقه، وأسدل ستائر النافذة، وخلع حذاءيه عنه، وارتمى على فراشه مُستلقيًا على بطنه ووجهه يتَّجه إلى أسفل. في عقله، كانت تحوم شظايا محمومة وتغزل نسيجها بدأب: ريجان. كيندرمان. دينينجس. ما العملِ؟ يجب أن يُساعد! لقد ساعد بالفعل! لكن كيف؟ هل يحاول مع الأُسقُف بالقليل الذي يملك؟ لا يظن. لن يستطيع إقامة الحُجَّة لقضية مُقنعة على الإطلاق.

كان يُفكِّر في خلع ملابسه والاندساس أسفل الغطاء. إنه مُقطَّع الأوصال. يا لهذا العبء. إنه يرغب في التحرُّر.

«... دعنا وشأننا!»

***

ما إن بدأ كاريس في الانجراف إلى النوم، استمرَّت شفتاه في التحرُّك بشكلٍ غير ملحوظ مُتلفِّظة بالكلمات الصامتة «دعني وشأني». ثم فجأة رفع رأسه مُستيقظًا بسبب صوت التنفُّس الإضافي معه في الغرفة، وصوت السيلوفان الرقيق الذي يُجعِّده أحدهم. فتح كاريس عينيه ورأى غريبًا في الحجرة، قسًا متوسِّط العمر. بدينًا قليلًا ونمش الوجه، ولديه خصلتان رفيعتان من الشعر الأحمر مُمشَّطتان بعناية إلى الوراء عبر رأسٍ أصلع. كان جالسًا على المقعد الوثير القابع في ركن الغرفة، ويرمق كاريس وهو يفض علبة تبغ ماركة جولواز.

ابتسم القس الغريب قائلًا: «أوه، مرحبًا».

دلَّى كاريس ساقيه فوق الأرض واعتدل جالسًا، وقال مُتذمِّرًا بصوتٍ عالٍ: «مرحبًا ومع السلامة. من أنت؟ وماذا تفعل في غرفتي بحق الجحيم؟».

- «معذرة، لكنني حين طرقت الباب لم أتلقَّ جوابًا، ووجدت الباب غير مُغلق لذا فكَّرت فقط في أن أدخل وأنتظر. ثم ها أنت ذا!». أشار القس إلى زوج من العكَّازات مسنود إلى الحائط قريبًا من المقعد وأردف: «لم أستطع الانتظار طويلًا في الردهة، كما ترى، أنا أستطيع الوقوف مُددًا طويلة، لكن في النهاية تأتي لحظة بعينها يجب أن أجلس فيها. أتمنَّى أن تغفر لي. أنا إد لوكاس بالمناسبة. الأب رئيسك اقترح عليَّ مُقابلتك».

قطب كاريس جبينه بشكلٍ طفيف، وأمال رأسه إلى الجانب.

- «قُلت «لوكاس»؟».

- «أجل، لوكاس، هذا اسمي في كل وقت ومكان».

قالها القس وابتسم كاشفًا عن أسنانٍ طويلة مُلطَّخة بالنيكوتين، واستخرج لُفافة تبغ من العلبة، ومدَّ يده إلى جيبه ليأتي بقدَّاحة.

- «أتمانع إن دخَّنت؟».
- «لا، تفضَّل. أنا مُدخِّن».
- «أوه، حسنًا».

قالها لوكاس وهو ينظر إلى أعقاب التَّبغ المُتراكمة في المنفضة القابعة عند حافة الطاولة بالقرب من مقعده. مدَّ القس يده بعلبة التَّبغ إلى كاريس وقال: «أترغب في واحدة جولواز؟».

- «شكرًا، لا. اسمع، هل قلت إن توم برمنجهام من أرسلك؟».

- «توم العزيز المُسِنّ. أجل، إننا صديقان. كنا في الفصل الدراسي ذاته في مدرسة ريچيس الثانوية، وبعدها أنهينا تأهيلنا اليسوعي في سانت أندروز في هدسون. أجل، توم أوصاني بمُقابلتك، لذا استقللت حافلة جرايهاوند من نيويورك. أنا من جامعة فوردهام».

ارتفعت روح كاريس المعنوية فجأة، وقال: «أوه، نيويورك! هل للأمر علاقة بطلب إعادة الانتداب الخاص بي؟».

قال القس: «إعادة الإنتداب؟ لا. أنا لا أعرف شيئًا عن ذلك الأمر. إنها مسألة شخصية».

تراخى كتفا كاريس في خيبة أمل: «أوه، حسنًا إذًا». نطقها في نبرة مهزومة ثم نهض وسار إلى المقعد الخشبي المُستقيم خلف مكتبه، وعدَّل من وضعه، ثم جلس وهو يتفرَّس لوكاس بعينين مُتمرِّستين في تفحُّص الأشخاص. بالنسبة إلى كاريس، ومن هذه المسافة القريبة، بدت حُلَّة الكاهن السوداء مُجعَّدة وفضفاضة، بل رثَّة. وقد تساقطت القشرة من شعره على كتفيه. كان القس قد أخرج لُفافة تبغ من العلبة وبدأ في إشعالها حاليًا بشُعلة طويلة ومتراقصة تتوهَّج من قدَّاحة ماركة زيبو بدا وكأنها خرجت من جيبه في الخفاء، وكأنها حيلة من ساحر خفيف اليد، ثم بعدها نفث الرجل تيَّارًا من الدخان الرمادي المشوَّب بزُرقة، وأخذ يتأمَّله بما بدا وكأنه ارتياح عميق، ثم لوى شدقيه تفاصُحًا: «آه، لا يوجد أفضل من الجولواز لإراحة الأعصاب؟».

- «هل أنت مُتوتِّر يا إد؟».
- «قليلًا».
- «حسنًا إذًا، لندخل في الموضوع. هيا خبِّرني يا إد. كيف أستطيع مُساعدتك؟».

تفحَّص لوكاس كاريس بنظرة قلقة وقال: «تبدو مُرهقًا جدًّا. رُبَّما من الأفضل أن نلتقي غدًا» ثم أضاف سريعًا «ما رأيك؟ أجل! أجل، غدًا أفضل كثيرًا! هلَّا ناولتني هاتين من فضلك؟».

أنهى القس كلامه ومدَّ يده نحو العُكَّازات.

أجابه كاريس: «لا، لا. أنا بخير يا إد. بخير تمامًا».

ثم انحنى كاريس إلى الأمام وأراح كفَّيه على رُكبتيه وتفرَّس وجه القس وقال له: «المُماطلة هي ما نُطلق عليه عِنادًا في أحيانٍ كثيرة».

رفع لوكاس حاجبه، وفي عينيه التمع تلميح خافت لما قد يكون ارتباكًا، وقال: «أوه، حقًّا؟».

- «أجل، حقًّا».

نظر كاريس إلى ساقي لوكاس وسأله: «هل هذا يُحزنك؟».

- «ماذا تعني؟ أوه، ساقيَّ! حسنًا، أحيانًا على ما أظن».
- «أهي عاهة خلقية؟».
- «لا، لا. إنها نتيجة سقطة».

تفحَّص كاريس وجه زائره لحظاتٍ. تلك الابتسامة الخافتة الغامضة. هل رآها ثانيةً؟ غمغم كاريس مُتعاطفًا: «هذا مؤسف».

ردَّ لوكاس ولُفافة الجولواز تتدلَّى من زاوية فمه: «أوه، حسنًا، ما باليد حيلة، إنه العالم الذي ورثناه، أليس كذلك؟» ثم بإصبعين انتزع لُفافة التَّبغ من بين شفتيه وأعرب عن أسفه قائلًا وسط سحابة من الدُّخَان «آه، حسنًا».

- «حسنًا يا إد. لندخل في الموضوع. أنت لم تأتِ كل الطريق من نيويورك إلى هنا كي تُفضفِض معي بالتأكيد، لذا لنتصارح الآن. أخبرني بكل شيء. افتح قلبك».

هزَّ إد رأسه برفقٍ وأشاح ببصره قائلًا: «أوه، حسنًا، إنها قصة طويلة جدًا»، وكان على وشك البدء لكنه اضطر إلى وضع كفَّه أمام فمه لأن موجة من السعال العنيف عصفت به.

سأله كاريس: «أتريد شرابًا؟».

بعينين دامعتين، هزَّ القسِ رأسه قائلًا: «لا، لا. أنا على ما يُرام» قالها بصوتٍ مخنوقٍ وأضاف «حقًا». بدا أن نوبة السعال قد هدأت. بعدها نظر إلى ملابسه ونفض عن معطفه رماد التَّبغ وقال مُتذمِّرًا: «عادة قميئة!». كان كاريس قد لاحظ الآن ما بدا كأنه بُقع من البيض نصف المسلوق على قميص الإكليروس الأسود الذي يرتديه القس أسفل معطفه.

سأله كاريس: «حسنًا، ما المُشكلة؟».

حدَّجه لوكاس بنظرة ذات معنى وقال: «أنت».

طرف كاريس جفنيه، وقال مُندهشًا: «أنا؟».

- «أجل يا دامين، أنت. إن توم قلق جدًّا بشأنك».

رمق كاريس لوكاس بثبات الآن وقد بدأ يفهم، لأن في عينيه وفي صوته استشعر تعاطُفًا عميقًا.

سأله كاريس: «إد، ما تخصُّصك في جامعة فوردهام؟».

قال القس: «أعطِ المشورة».

- «أنت ناصح».

- «أجل يا داميان. أنا طبيب نفسي».

ردَّد كاريس من ورائه: «طبيب نفسي».

نظر لوكاس جانبًا وقال: «أوه، حسنًا، من أين أبدأ الآن؟» ثم زفر مُتردِّدًا وأردف «لست مُتأكِّدًا. الأمر شائك جدًّا. شائك تمامًا. آه، حسنًا إذًا، لنرى ما أستطيع فعله» قالها بخفوتٍ وهو ينحني ويُطفئ لُفافة الجولواز في المنفضة، ثم نظر إليه مُجدَّدًا وواصل «لكنك قبل كل شيء أخ، وفي بعض الأحيان يكون من الأفضل التحدُّث بصراحة تامة» بدأ القس يسعل من جديد «اللعنة! معذرة!» ثم توقَّف السُعال، ونظر لوكاس إلى كاريس بجدٍ

وقال «اسمع، الأمر يخص كل تلك الأمور المجنونة التي بينك وبين آل ماكنيل».

ردَّ كاريس مُتفاجئًا في تعجُّب: «آل ماكنيل؟ اسمع، كيف تسنَّت لك معرفة أيِّ شيءٍ عن الأمر؟ مستحيل أن يكون توم قد أخبرك بذلك. لا، مُحال. هذا قد يُسبِّب ضررًا للعائلة».

- «توجد مصادر».

- «أيُّ مصادر؟ مثل من؟ مثل ماذا؟».

قال القس: «هل هذا يهُم؟ لا، على الإطلاق. كل ما يهم صحتك واستقرارك الشعوري، والاثنان من الواضح أنهما في خطر بالفعل، وتلك الأمور التي تجري مع آل ماكنيل ستُزيد من مُعدَّل الضغط عليك، لذا أُسقُف الأبرشية يأمرك أن تتوقَّف.. تتوقَّف لمصلحتك أوَّلًا يا كاريس، وأيضًا لمصلحة الأبرشية!» كان حاجبا القس الكثيفان قد انعقدا، وأحنى الرجل رأسه كي تبدو نظرته ومُحياه أكثر وعيدًا وقال مُحذِّرًا: «توقَّف عمَّا تفعل! قبل أن يُفضي إلى نتائج كارثية، قبل أن تؤول الأمور إلى الأسوأ.. أسوأ كثيرًا! لا نريد مزيدًا من أعمال التدنيس الآن يا داميان، أليس كذلك؟».

رمق كاريس زائره مُتحيرًا. ثم مصدومًا.

- «أعمال التدنيس؟ إد، ما الذي تتحدَّث عنه؟ ما علاقة حالتي العقلية بما تقول؟».

استراح لوكاس في مقعده الوثير وأضاف ساخرًا: «أوه، بالله عليك! لقد انضممت إلى اليسوعيين وتركت أمك المسكينة تموت بمفردها، وفي فقرٍ مُدقع؟ على من سيلقي المرء باللوم دون وعي منه إن لم يكن على الكنيسة الكاثوليكية» كان القس قد انحنى إلى الأمام وقطَّب حاجبيه مُجدِّدًا وهمس كالأفعى: «لا تكن غبيًّا. ابتعد عن آل ماكنيل».

مُضيِّقًا عينيه، ومُميلًا رأسه في محاولة تخمين، نهض كاريس من مقعده ونظر إلى القس وهتف بصوتٍ مبحوح: «من أنت بحق الجحيم يا رفيق؟ من أنت».

استرعى رنين الهاتف الرقيق القابع على مكتب كاريس اهتمامًا سريعًا ومتيقِّظًا من الأب لوكاس، وحذَّر كاريس في حِدَّة: «احترس من شارون!». ثم فجأة ارتفع رنين الهاتف واستيقظ كاريس فَطَنْ أنه كان يحلُم. ثم مُترنِّحًا، نهض من فراشه الضيق، وتعثَّر إلى أن وصل إلى مفتاح الإضاءة وفتحه، ثم سار بعدها إلى المكتب والتقط السمَّاعة. إنها شارون. سألها كم الساعة. أجابت أنها بعد الثالثة صباحًا بقليل، وسألته هل يستطيع القدوم إلى المنزل فورًا؟ أوه يا إلهي! هكذا أنَّ كاريس في قرارة نفسه، ورغم هذا أجابها بنعم. نعم سيعرج عليها. ومن جديد، شعر بأنه مُحاصر.. مُتورِّط.. يختنق.

تخبَّط كاريس إلى حمَّامه المُغطَّى بالبلاط الأبيض، حيث رشَّ الماء البارد على وجهه، وجفَّفه، ثم تذكَّر بغتةً حلم الأب لوكاس. ماذا يعني؟ رُبَّما لا شيء. سيُفكِّر في الأمر لاحقًا. توقَّف كاريس وهو على وشك مُغادرة الغرفة، واستدار عائدًا ليلتقط سُترةً سوداء من الصوف وبدأ يرتديها، لكن بينما هو يسحبها إلى أسفل، توقَّف فجأة ورمق طرف الطاولة القريب من المقعد الوثير في بلادة. أخذ نفسًا عميقًا ثم سار بتؤدة إلى أن وصل إلى المنفضة، والتقط عقب لُفافة تبغ وتوقَّف بلا حراك برهة من الوقت بعد أن رفعها أمام ناظريه المشدوهين. إنها ماركة جولواز. الأفكار تتسارع في عقله. فرضيات. برودة. ثم رنَّت العبارة مُلِحَّة في عقله: «احترس من شارون!». وضع كاريس عقب لفافة الجولواز مكانها في المنفضة، وهرول خارجًا من الغرفة ثم عبر الردهة إلى أن وصل إلى شارع بروسبكت حيث كان الهواء خفيفًا وما زال رطبًا. تخطَّى الدرجات، وعبر إلى الجانب الآخر بزاوية مائلة، ورأى شارون تراقبه وهي تنتظره عند مدخل الباب الأمامي لمنزل ماكنيل. كانت تبدو خائفة ومذهولة، تقبض مصباحًا يدويًّا بيدٍ، وباليد الأخرى تعقد حواف الغطاء الذي تتلحَّف به. هتفت الفتاة بصوتٍ مبحوح بينما القس يدخل إلى المنزل: «معذرة يا أبت، لكنني ظننت أنك يجب أن ترى الأمر؟».

- «أرى ماذا؟».

أغلقت شارون الباب برفق دون أدنى صوت، وهمست: «يجب أن أُريك. لنلتزم الهدوء. لا أريد إيقاظ كريس. لا أريدها أن ترى هذا». ثم أشارت إلى كاريس كي يتبعها وهي تصعد إلى غرفة ريجان على أطراف أصابعها. مع دخولهما الغرفة، شعر كاريس بالبرودة. الغُرفة مُثلَّجة. قطَّب القس جبينه، والتفت إلى شارون بنظرة مُتسائلة، فأومأت الفتاة برأسها وهمست: «أجل يا أبت، أجل. المُدفِئ يعمل». استدارا معًا ونظرا إلى ريجان، إلى بياض عينيها الذي يتوهَّج بشكلٍ مُخيف في ضوء المصباح الخافت. بدا أنها في غيبوبة. تتنفَّس ببطء وهي هامدة لا تتحرَّك، بينما أنبوب التغذية مُعلَّق في مكانه، والسوستجن يتسرَّب ببطء في عروقها.

تحرَّكت شارون سريعًا إلى طرف الفراش، وتبعها كاريس وهو ما زال مُزعزعًا بسبب البرودة. عندما بلغا حافة الفراش، شاهد كاريس حبَّات العرق تغمر جبينها، وخفض بصره إلى جسدها ليجد ساعديها مُقيَّدين بإحكام بالقيود الجلدية. انحنت كاريس فوق الفرش، وبرفق سحبت الجزء العلوي من منامة ريجان الوردية البيضاء، لتملأ قلب كاريس على الفور شفقة هائلة وساحقة من مرأى الصدر الهازل الذاوي، والضلوع الناتئة التي يستطيع المرء أن يعد فيها أسابيعها أو أيامها المُتبقية في الحياة. ثم شعر بنظرة شارون المسكونة بالخوف تطارده وهي تهمس: «لا أعرف إن كان الأمر قد توقَّف. لكن راقبها: فقط راقب صدرها».

سلَّطت شارون شعاع الضوء على صدر ريجان العاري، وتبع القس اليسوعي اتِّجاه نظرتها مُتحيِّرًا، وعمَّ الصمت الذي لم يكن يقطعه سوى تنفُّس ريجان الطفيف ذي الصفير. استمرَّ في المُراقبة. البرودة تلف المكان. ثم انعقد حاجبا اليسوعي بإحكام عندما رأى شيئًا يحدث فوق جلد صدر ريجان: احمرارٌ باهت، لكنه مُحدَّد تمامًا. انحنى القس أكثر مُحدِّقًا مِن كَثب.

همست شارون بحدَّة: «ها هي، إنها تحدث».

فجأة، لم يعد جلد كاريس مُقشَعِرًا بسبب برودة الغرفة، وإنما ممَّا رآه يظهر على صدر ريجان، من النَّحت البارز الذي يُكتب بحروفٍ واضحة على الجلد الأحمر القاني المُنتفخ. كانت كلمة واحدة لا غير:

ساعدوني.

بنظرة مُثبَّتة بإحكام على الكتابة أمامها، خرجت أنفاس شارون جليدية وهي تهمس: «هذا خط يدها يا أبت».

***

في التاسعة صباحًا ذهب كاريس إلى رئيس جامعة چورچ تاون وقدَّم طلبًا للحصول على إذن بمُمارسة طرد الأرواح. وتلقَّى مُبتغاه. وبعدها مُباشرةً ذهب إلى أُسقُف الأبرشية، الذي استمع باهتمامٍ بالغ إلى كل ما قاله كاريس، ثم سأله في النهاية: «هل أنت مُقتنع أن الاستحواذ حقيقي؟».

أجاب كاريس على نحوٍ مراوغ: «حسنًا، لقد كوَّنت حُكمًا حصيفًا بأن الشروط المنصوص عليها في النصوص تتوافر فيه». كان لم يجرؤ على تصديق الأمر بعد، وإلى هذه اللحظة لم يكن عقله الذي قاده، بل قلبه. الشفقة والأمل في العثور على علاج عن طريق الإيحاء.

- «هل ترغب في مُمارسة طرد الأرواح بنفسك؟».

شعر كاريس بنشوة، ورأى بابًا يُفتح أمامه إلى حقولٍ واسعة. الهروب من المسؤولية الثقيلة وذلك اللقاء اليومي في كل غروب مع شبح إيمانه الماضي. إلا أنه أجاب: «أجل نيافتك».

- «كيف هي صحتك الجسدية؟».

- «صحتي بخير حال قداستك».

- «هل انخرطت في أيِّ شيءٍ من هذا القبيل من قبل؟».

- «لا».

- «حسنًا، سنرى ما يجب فعله. رُبَّما من الأفضل الإتيان برجلٍ له خبرة في الأمر. لم يعد يوجد الكثير منهم هذه الأيام، لكن رُبَّما يكون أحدهم قد عاد من بعثاته الخارجية. لنرى من في الجوار حاليًا. سأتَّصل بك بمُجرَّد أن يأتيني الخبر».

عندما غادره كاريس، اتَّصل الأُسقُف برئيس جامعة چورج تاون، وتحدَّثا بخصوص كاريس للمرة الثانية في ذلك اليوم.

قال الرئيس في نقطة ما من نقاشهما: «حسنًا، إنه على دراية كافية بالخلفيات. لا أظن أنه يوجد خطر إذا جعلناه مُساعدًا فحسب. على أيٍّ حال، يتحتَّم وجود طبيب نفسي».

- «وماذا عن طارد الأرواح ذاته؟ ألديك أيَّ اقتراحات؟ أنا لا أملك أيَّها».

- «حسنًا، لانكستر ميرين في الجوار الآن».

- «ميرين؟ آخر ما سمعت به أنه في العراق. أظنني قرأت أنه يمارس أعمال الحفر في موقعٍ أثري حول نينوي».

- «أجل، بالقرب من مدينة المُوصِل. هذا صحيح. لكن أعماله هناك انتهت. وقد عاد منذ ثلاثة أو أربعة أشهر مضت يا مايك. إنه في إكليريكية وودستوك الآن».

- «يُدرِّس؟».

- «لا، يعمل على كتابٍ جديد».

- «ليكن الله في عوننا! ألا تظن أنه مُسِنٌ جدًّا؟ كيف حال صحته البدنية؟».

- «حسنًا، لا بد أنها على ما يُرام، وإلا لم يكن سيقدر على التنقُّل من هنا إلى هناك لحفر القبور، ألا تظن ذلك؟».

- «نعم، أظن ذلك».

- «بالإضافة إلى ذلك، الرجل لديه خبرة سابقة يا مايك».

- «لم أكن أعلم ذلك».

- «حسنًا، على الأقل هذا ما يُقال».

- «ومتى كان هذا؟ أعني تلك الخبرة التي اكتسبها».

- «أوه، منذ عشر أو اثنتي عشرة سنة مضت على ما أظن. في أفريقيا. قيل إن طرد الشيطان وقتها استغرق شهورًا، وقد سمعت أنه كاد أن يقتله».

- «حسنًا، في هذه الحالة أشك في أنه يرغب في تجربة أخرى».

- «نحن هنا نفعل ما يُطلب منا يا مايك، جميع المُتمرِّدين في صفوفكم أنتم يا معشر الكُهَّان العلمانيين».

- «شكرًا لك على تذكيري».

- «حسنًا، ما رأيك؟».

- «سأترك القرار لك وللأبرشية».

***

في وقتٍ مُبكِّر من تلك الأُمسية الهادئة، تجوَّل طالب لاهوت يُحضِّر للانضمام إلى الكهنوت في باحة إكليريكية وودستوك في ماريلاند. كان يبحث عن قسٍ يسوعيٍ نحيف ومُسِن وذي شعرٍ رمادي. وقد عثر عليه في الممرَّات الواسعة، يتمشَّى بين البساتين. ناوله الطالب برقية، فشكره القس المُسِن بأسلوبه الهادئ، ثم استدار لمواصلة تأمُّله، للاستمرار في السيرِ المُتأنِّي بين أحضان الطبيعة الأثيرة إلى قلبه. من حين إلى آخر، كان يتوقَّف ليستمع إلى شدو عصفور أبو الحناء، أو لمُشاهدة فراشة برَّاقة تحوم حول أحد الأغصان. لم يفتح القس البرقية أو يقرأها. كان يعرف فحواها. لقد قرأها في غُبار معابد نينوي البعيدة. وقد كان مُتأهِّبًا.

واصَل الرجل توديعه للأشياء.مكتبة الرمحي أحمد

-4-

«وليصل إليك صراخي...»

«وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُتْ فِي اللهِ، وَيَكُون اللهُ فِيه...»

القديس يوحنا

الفصل الأول

وسط الظلام الكثيف الجاثم فوق مكتبه الهادئ، وقف كيندرمان غارقًا في تفكيرٍ عميقٍ بالقُرب منه. عدَّل الرجل اتِّجاه شعاع الضوء المُنبعث من مصباح المكتب بشكل طفيف. أسفله تناثرت أوراق، ونصوص، ومُستندات، وسجلَّات شُرطة، وتقارير المعمل الجنائي، ومُذكِّراتٍ دوِّنت على عجالة. في أثناء استغراقه المُتأمِّل، نسَّق كيندرمان جميع ما سبق في كومة أوراق على هيئة زهرة، وكأنه بهذا يُداري الاستنتاج القبيح الذي قادته إليه التقارير.. الاستنتاج الذي لم يكن عقله قادرًا على تقبُّله.

إنجستورم بريء. في توقيت وفاة دينينجس، كان الخادم يزور ابنته، ويمدُّها بالمال لشِراء المُخدِّرات. لقد كَذِبَ بخصوص مكان وجوده تلك الليلة لحمايتها، ولحجب الحقيقة عن أمها، التي تعتقد أن ابنتها إليڤيرا ميِّتة ولم يعد ثمة ما يُضيرها الآن.

لم يعلم كيندرمان عن الأمر من كارل. في الليلة التي تقابل فيها الاثنان في ردهة طابق شقَّة إليڤيرا، تمسَّك الخادم بصمته في عناد. فقط عندما كشف كيندرمان لابنة كارل تورُّط والدها في قضية دينينجس، تطوَّعت الفتاة بسرد الحقيقة. وقد أكَّد شهود إثبات الأمر. إذًا إنجستروم بريء.. بريءٌ وكتوم جدًّا بشأن الأحداث التي يتورَّط فيها آل ماكنيل.

قطب كيندرمان جبينه وهو ينظر إلى بِدعته الفنية: شيءٌ ما غير صحيحٍ في شكل التكوين. عدَّل المُحقِّق الشَّارد من وضع إحدى بتلات الزهرةَ قليلًا إلى أسفل، وبالمثل إلى اليمين.

زهور.. إليڤيرا.. لقد حذَّرها مُتجهِّمًا بأنها إن لم تُجرجر أذيالها إلى مصحَّة علاجية في خلال أسبوعين، فإنه سوف يُطاردها بأذون تفتيشٍ إلى أن يعثر على دليلٍ لإدانتها ومن ثم اعتقالها. لكنه لم يعتقد أنها ستُقدِم على الأمر. توجد أوقاتٌ يُحدِّق فيها كيندرمان مليًّا إلى القانون دون أن يطرف جفنه، كما لو كان يُحدِّق إلى قُرص شمس الظهيرة، آملًا أن يعميه الوهج بشكلٍ مؤقَّت لحين هروب أحدهم من تحت ناظريه. إنجستورم بريء. من المُتبقِّي إذًا؟ عدَّل المُحقِّق وضعية وقوفه وتنفَّس برفق، ثم أغمض عينيه وتخيَّل أنه يغطس في حوض مياه ساخن ومُزْغ.

لنُجري تصفيَّات بيعٍ عقلية! هكذا فكَّر. حانَ وقت الانتقال إلى استنتاجاتٍ جديدة! كلّ شيء يجب أن يذوي! ثم، يجب التخلُّص منه، لكن بإيجابية! هكذا أضاف لنفسه بحزمٍ.. وعندما انتهى فتح عينيه وتفحَّص من جديد البيانات المُحيِّرة.

بند: تبدو وفاة المُخرج بيرك دينينجس ذات صلة بأعمال التدنيس التي جرت في كنيسة الثالوث المُقدَّس. لقد تضمَّن كلاهما شعوذة، والمُدنِّس مجهول الهوية قد يكون ببساطة قاتل دينينجس.

بند: شوهد قسٌّ يسوعي -ضليع في أمور السحر والشعوذة- يقوم بزياراتٍ مُتكرِّرة إلى منزل آل ماكنيل.

بند: الورقة المطبوعة التي تحوي نصوص بطاقة المذبح التجديفية التي عُثِر عليها في كنيسة الثالوث المُقدَّس فُحِصت للتحقُّق من البصمات. وقد وُجِدت بصمات على كلا الوجهين؛ بعضها يخص داميان كاريس. لكن عُثِرَ أيضًا على مجموعة أخرى، ومن حجمها يتَّضح أنها تخُص شخصًا له يدان صغيرتان جدًّا، من المُرجَّح طفل.

بند: الكتابة المطبوعة على بطاقة المذبح حُلِّلت وقورِنت بالانطباعات المكتوبة في الخطاب الذي نزعته شارون سبنسر من الآلة الكاتبة عندما كان كيندرمان يستجوِب كريس وألقت به إلى سلَّة المُهملات وأخطأتها. لقد التقطته المُحقِّق وتمكَّن من تهريبه إلى خارج المنزل. استُخدِم في

كتابة الخِطاب وورقة بطاقة المذبح الآلة الكاتبة نفسها. لكن وفقًا للتقرير، نمط النقر على مفاتيح الآلة يتباين. الشخص الذي طبع النص التجديفي صاحب نقرة أعنف كثيرًا من نقرات شارون سبنسر. وبما أن نمط نقر الأول لم يكن ذلك النمط البدائي الذي يستخدم إصبعًا واحد من كل يد، ولكنه على العكس أُنجز بمهارة، فالأمر يوحي أن كاتب ورقة بطاقة المذبح المجهول شخصٌ ذو قوَّة استثنائية.

بند: إن لم تكن وفاة بيرك دينينجس نتيجة حادث، فهو قد قُتِلَ من قِبَل شخصٌ يمتلك قوَّة فائقة استثنائية.

بند: إنجستورم لم يَعُد مُشتبهًا به.

بند: كشفت مُراجعة خطوط الطيران المحلِّية أن كريس ماكنيل اصطحبت ابنتها إلى مدينة دايتون في أوهايو. كان كيندرمان على عِلم بأن الفتاة مريضة، وأنها لا بد وأن تُؤخذ إلى مُستشفى. وفي مدينة دايتونَ لا توجد مُستشفى بارزة سوى دايتون. وبالفعل تواصل كيندرمان مع المسؤولين في المُستشفى وقد أكَّدوا أن الفتاة أودعت بها كي تُفحص تحت المُلاحظة الدقيقة. لكنهم رفضوا التصريح عن طبيعة مرضها، الذي يبدو من الواضح أنه اضطرابٌ عقليٌ خطير.

بند: الاضطرابات العقلية الخطيرة تُسبِّب أحيانًا قوَّة استثنائية.

تنهَّد كيندرمان وأغلق عينيه واستمر في هزِّ رأسه. لقد عاد إلى الاستنتاج ذاته. فتح المُحقِّق عينيه وحدَّق إلى الورقة التي تتوسَّط الزهرة: نُسخة قديمة باهتة من مجلَّة الأخبار الوطنية. على غُلافها تبتسم كريس ماكنيل بصحبة ريجان. تفرَّس كيندرمان وجه الفتاة: المُحيا العَذِب النَّمِش. ذيلي الحِصان المُزيَّنين بأشرطة. السنُّ الأمامية المفقودة البادية في الابتسامة الواسعة. ثم أشاح بوجهه بعيدًا إلى خارج النافذة مُحدِّقًا في الظلام، حيث بدأت أمطارٌ خفيفةٌ في السقوط.

ترك كيندرمان مكتبه وذهب إلى المرآب، وركب سيَّارته السوداء التي لا تحمل علامات وقاد عبر طُرُقات مدينة چورچ تاون التي يغسلها المطر،

ثم توقَّف عند الجانب الشرقي لشارع بروسبكت، وقبع هناك صامتًا لدقائقٍ يُحدِّق إلى نافذة ريجان. هل يطرق الباب ويطلب مُقابلتها؟ أحنى المُحقق رأسه وفرك حاجبيه مُفكِّرًا، أنت مريض يا ويليام إف كيندرمان! مريض! عُد إلى منزلك! تناول دواءً! نم! كي تتحسَّن! نظر إلى النافذة مُجدَّدًا وهزَّ رأسه في أسى. لقد قاده مَنطِقَهُ المؤرِّق إلى هذا المكان. حرَّك المُحقِّق بصره مع توقُّف سيَّارة أجرة أمام المنزل، ثم أدار مُحرِّك سيَّارته وشغَّل مسَّاحات الزُجاج الأمامي وهو يرى رَجُلًا فارع القامة يخرج من السيَّارة. نَقَدَ الرجلُ السائقَ أُجرته، ثم وقف بلا حراك أسفل وهج مصباح الشارع الضبابي مُحدِّقًا إلى نافذة المنزل.. كمُسافرٍ سوداويٍ مُجمَّدٍ في الزمن.

مع تحرُّك سيَّارة الأجرة وانعطافها عند زاوية شارع 36، تحرَّك كيندرمان بدوره بسرعة وراءها، وأخذ يُومِض ضوء مصباحي سيَّارته الأماميين بشكلٍ مُتكرِّر، مُشيرًا إلى السائق كي يتوقَّف.. بينما في اللحظة ذاتها في منزل كَريس ماكنيل، كان كاريس وكارل يتعلَّقان بذراعي ريجان الهزيلتين، في الوقت الذي تحقنها فيه شارون بالليبيريوم، ما يجعل مقدار ما حُقِنت به الفتاة في الساعتين الماضيتين أربعمِئة ميليجرامًا، وهي جُرعة -كما عَلِمَ كاريس- هائلة، لكن الذات الشيطانية كانت قد استفاقت -بعد هدوءٍ مؤقَّت استمرَّ عِدَّة ساعات- بنوبة مُتفاقِمة من الغضب المسعور لم يكن جسد ريجان الواهن سيتحمَّلها لمُدَّة طويلة.

لقد أُنهِكَ كاريس تمامًا. فبعد زيارته مكتب المحفوظات الكنسي هذا الصباح، عاد إلى المنزل ليُخبر كريس بما حدث، وبعد أن أَعَدَّ ونصَّب نظام التغذية الوريدية لريجان، رجع إلى حجرته في مقر الإقامة اليسوعية، حيث ألقى بنفسه فوق الفراش وغاب في نومٍ عميق على الفور. لكن بعد ساعتين بالكاد، انتزعه رنين الهاتف المُزعِج من نومه وأجبره على أن يستفيق. كانت المُتحدِّثة شارون. ريجان ما زالت في غيبوبة لكن نبضها آخذ في الانخفاض تدريجيًّا. أسرع كاريس حينها إلى المنزل بحقيبة طبية، ثم قَرَصَ ريجان من عرقوبها بقوَّة، مُنتظرًا ردَّة فعل من الألم. لكنه لم

يحظ بشيءٍ. ضغط أحد أظافر أصابعها بقوَّة، لكنه لم يحظ بأيٍّ ردَّة فعل هذه المرَّة أيضًا. هنا تنامى قلقه: على الرغم من أنه يعلم أن في حالات الهستيريا -وفي حالات بعينها من الغشية- لا تحدث ردَّة فعل من الألم، خشيَ كاريس حاليًا من أن تنزلق الفتاة إلى غيبوبة، وهي حالة قد تموت ريجان بسهولة على إثرها. تفحَّص القس ضغط دمها فوجده تسعين على ثمانين. ثم مُعدَّل نبضها: ستين. لذا قبع في الغرفة وواصل فحص علاماتها الحيوية كل خمس عشرة دقيقة لمُدَّة ساعة ونصف، قبل أن يطمئن أن كلًّا من نبضها وضغط دمها قد استقرَّا، ما يعني أن ريجان ليست في حالة صدمة، بل خدر. ثم أوعز إلى شارون بتفحُّصِ نبض ريجان كل ساعة. وعاد بعدها إلى غُرفته وغاب في النوم. لكن هاتِفًا أيقظه من جديد الآن. المُتحدِّث هذه المرَّة مكتب المحفوظات الكنسي الذي أخبره أن طارد الأرواح الرئيسي سيكون لانكستر ميرين، وأنهُ -كاريس- سيكون مُساعدهُ.

صَعَقَهُ الخبر. ميرين! عالم الآثار الفيلسوف! الحكيم ذو العقل الحصيف المُذهل! إن مُؤلَّفاته تُثير هياجًا داخل الكنيسة، لأن أفكاره -عند تأويلها- تحوم حول فكرة غير مُعتادة، أن مادة الأشياء لا تزال تتطوَّر بشكلٍ مُستمر، وقد قُدِّرَ لها أن تتحوَّل إلى روحٍ في نهاية الزمان والمطاف، وتلك الأخيرة ستنضم إلى يسوع الرب، إلى تكوين المسيح، إلى «نُقطة المُنتهى».

اتَّصل كاريس بكريس على الفور وأطلعها على المُستجدَّات، لكنه اكتشف أنها تلقَّت اتِّصالًا من الأُسقُف مُباشرةً أخبرها فيه أن ميرين سيصل في اليوم التالي. قالت له كريس: «لقد أخبرت الأُسقُف أنه يمكنه المبيت في المنزل. فالأمر سيستغرق يومًا أو بعض يوم، أليس كذلك؟». سكت كاريس بُرهةً قبل أن يُجيبها، ثم قال بهدوء: «لا أعرف». ثم أضاف بعد لحظة صمتٍ إضافية: «لا تُكثري التكهُّن». ردَّت كريس بنبرةٍ مكبوتة: «تقصد إذا ما نجح الأمر». طمأنها القس: «لم أقصد أن أفترض عدم نجاح

الأمر. أنا عنيت فقط أنه قد يستغرق وقتًا». «إلى متى؟». «النتائج تتباين». كان كاريس يعلم أن طرد الأرواح قد يطول أسابيع، بل شهور. وكان يعلم أنه كثيرًا ما يفشل بالكامل. وهو يتوقَّع الفشل. يتوقَّع أن عِبء العلاج عن طريق الإيحاء سيقع من جديد -وفي النهاية على عاتقيه. قال لها: «قد تستغرق الطقوس أيامًا أو أسابيع». وقد أجابته بسؤال والخدر يلفُّها: «وكم تبقَّى لها يا أبانا كاريس؟».

عندما أغلق سمَّاعة الهاتف، شعر بعذابٍ ثقيل. مُمدَّدًا في فراشه، فكر القس بميرين. ميرين! تسرَّبت الإثارة والأملُ فيه، لكن تبعهما قلقٌ قابض. قد كان هو الخيار الطبيعي لمُمارسة طقس طرد الأرواح، لكن الأُسقُف تجاوزه. لماذا؟ لأن ميرين قام بذلك من قبل؟

عندما أغلق عينيه، تذكَّر أن العادة جرت أن يُختار طاردو الأرواحِ بِناءً على قدر «التقوى» و«الصفات الحميدة»، لأن مقطعًا في أنجيل متَّى ذكر أنه عندما سُئِل السيِّد المسيح من قِبَل حوارييه عن سبب إخفاقهم في طقوس طرد الأرواح أجاب «لأن إيمانكم قليل». لقد سَمِعَ المُطران بظروفه وأزمته، وكذلك توم برمنجهام، ورئيس جامعة چورچ تاون. هل ذكرها أيٌّ منهم إلى الأُسقُف؟

في هذه اللحظة تقلَّب كاريس في فراشه قانطًا.. شاعرًا أنه -بشكلٍ أو بآخر- تافه، وغير كُفء، ومرفوض. لقد كواه الأمر، دون أيِّ تفسيرٍ معقول. ثم في النهاية، تسرَّب النوم في خوائه الروحي، مالئًا صدوع وتشقُّقات قلبه المُنهك.

ثم استيقظ من جديد على رنين هاتفه. كريس تتَّصل لتُخبره بهياج ريجان المُفاجئ. هرع إلى المنزل، وتفحَّص نبض الفتاة. كان قويًا. أعطاها جرعة من الليبيريوم، ثم تبعها بأخرى. ثم أخرى. وفي النهاية، تحسَّس طريقه إلى المطبخ وانهار فوق طاولة الإفطار بجوار كريس. كانت تقرأ كتابًا، أحد مؤلَّفات ميرين الذي اشترته وطلبت أن يُرسل إلى منزلها. أخبرته أن العمل «مُعقَّدٌ جدًّا بالنسبة إليَّ»، ورغم ذلك بدت مشدوهة ومُتأثِّرة به

بعمق. «لكن أجزاء منه شديدة الجمال، رائعة جدًّا». ثم قلَّبت صفحات الكتاب وصولًا إلى فقرة قد علَّمتها، وناولته إلى كاريس عبر الطاولة.

- «هاك. ألقِ نظرة. هل قرأت ذلك من قبل؟».

- «لا أعرف. دعيني أرى».

أخذ كاريس الكتاب من يدها الممدودة وبدأ يقرأ:

نحن كبشر نألف النظام. نألف الاتِّساق والاستمرارية؛ الإحياء المُتجدِّد الدَّائم للعالم المادي المُحيط بنا. ورغم أن العالم واهن وزائل في كل أجزائه، ورغم أنه فانٍ ولا يهدأ كعناصره جميعًا، فهو لا يزال باقيًا مع ذلك. إن شتاته مضموم وفقًا لقانون الديمومة. لذا، فعلى الرغم من أنه دائم الموت ومستمرٌّ فيه، إلا أنه لا ينفكّ عن العودة إلى الحياة. التفسُّخ يقع لكنه يلد أنماطًا جديدة من التنظيم. إنسانٌ واحد يكون أبًا لألف حياة تَخلِفهُ. كل ساعة تَمُر ليست سوى شهادة عن كم هو زائل -وفي الوقت نفسه آمن وواثق- ذلك الوجود العظيم الذي يضمنا. الأمر مثل الصور المُنعكسة على صفحة الماء. الصور ثابتة لا تغيير فيها، لكن الماء يجري على الدوام لمُستقرٍ له. الشمس تغرب كي تشرق ثانيةً؛ النهار تبتلعه كآبة الليل، فقط ليولد من رَحِمَهُ ناضرًا نقيًّا كأنه لم يَخمد قط. الربيع يولج في الصيف -ويمر عبر الصيف والخريف والشتاء- واثقًا من عودته في نهاية المطاف، مُظفَّرًا؛ وناهضًا من القبر الذي سارع إليه بإصرار من الساعة الأولى. نحن نأسف لأن براعم أزهار شهر مايو ستذبل وتجف، لكننا في الوقت ذاته نعلم أن مايو سيثأر لنفسه يومًا ما من نوڤمبر عن طريق تعاقُب تلك الدَّورة الجليلة التي لا تتوقَّف أبدًا؛ الدورة الأبدية التي تُعلِّمنا في أعتى لحظات أملنا أن نظل رُزناء، وفي عُمق فترات عُزلتنا وأسانا، ألا ننزلق إلى القنوط.

قال كاريس بلطف: «أجل، الكلام عذب».

ثم بدأ يصب لنفسه قدحًا من القهوة، وفي أثناء ذلك، تعالى هياج الشيطان قادمًا من الطابق الثاني:

- «ابن زنا... نجس... وَرِع مُنافق فاجر!».

قالت كريس شاردة: «لقد اعتادت أن تضع زهرة في صحني... في الصباح.. قُبيل ذهابي إلى العمل».

رفع كاريس عينيه بنظرة مُتسائلة، فجاوبتها كريس مُضيفة: «ريجان».

ثم أطرقت رأسها وقالت: «أجل، صحيح. لقد نسيت».

- «نسيتِ ماذا؟».

- «أنك لم تُقابلها قط».

قالتها وتمخَّطت ثم مسحت أنفها، وفركت عينيها.

- «أتريد بعض البراندي في قهوتك؟».

- «لا، أشكرك».

همست كريس بصوتٍ راجف: «أصبحنا نُقيم في بيت القهوة. أظن أنني سأجلب بعض البراندي. عن إذنك». ثم نهضت وغادرت المطبخ. جلس كاريس وحيدًا يرتشف قهوته وهو مغموم، شاعرًا بالحرارة من السُترة التي يرتداها أسفل رداء الكهنوت، وبالضعف من فشله في طمأنة كريس والنوء بحملها بعيدًا. ثم طفت إلى ذهنه ذكرى حزينة من أيام صباه، ذكرى عن ريچي.. كلبه الهجين الذي تنامى هزاله وهو قابع في صندوقه الصغير داخل شقة سكنية مُتهالكة. ريچي الذي يرتعش من الحُمَّى ويقيء بينما كاريس يحاول تدفئته بالمناشف.. يحاول حثَّه على لعق اللبن الدَّافئ.. إلى أن أتى أحد الجيران ونظر إلى ريچي وهزَّ رأسه آسفًا، وقال: «لقد أُصيب بمُراض الكلاب، وفي حاجة إلى حَقنٍ فوري». ثم بعد ظُهر أحد الأيام، بينما كان كاريس خارجًا من مدرسته إلى الشارع ويسير بين زملائه في طوابيرٍ ثنائية بمُحاذاة الزاوية، أتت أمه لمُقابلته. هذا غير مُعتاد... تبدو حزينة... ثم دسَّت الأم في كفِّه نصف دولارٍ لامع... يا للبهجة... هذا مالٌ كثير!... وأتى صوتها ناعمًا ومواسيًا: «ريچي مات...».

خفض كاريس بصره إلى السَّائل الأسود المُرِّ الذي يتصاعد منه البخار، وأُسقط في يده... ليس في جعبته طمأنة ولا علاج.

- «... المُنافق الورع».

إنه الشيطان. لا يزال غاضبًا.

- «كلبك في حاجة إلى حقنٍ فوري».

نهض كاريس في التوِّ وعاد إلى غرفة ريجان، وهناك أحكم وثاقها في أثناء ما حقنتها شارون بجرعة جديدة من الليبيريوم، وصلت بمجموع ما أُعطي لها إلى خمسمِئة ميليجرامًا. وبينما كانت شارون تمسح موضع ثُقب الإبرة بقطنة مُعقَّمة استعدادًا لوضع لاصقة طبية عليها، أخذ كاريس يُحدِّق إلى ريجان في حيرة، لأن الشتائم المسعورة الخارجة من فمها لم تبدُ موجَّهة إلى أيِّ شخصٍ بالغرفة، بل بالأحرى إلى شخصٍ خفي، أو غير حاضرٍ.

انصرف كاريس قائلًا لشارون: «سأعود».

ثم هبط إلى المطبخ. كان قلقًا على كريس. وقد عثر عليها من جديد تجلس وحيدة إلى الطاولة، وتصب البراندي إلى قهوتها. سألته كريس: «هل أنت مُتأكِّد من أنك لا تُريد بعضًا منه يا أبت؟».

هزَّ كاريسٍ رأسه نافيًا واقترب نحو الطاولة، ثم جلس مُتعبًا إليها واضعًا وجهه في كفَّيه واستند بمرفقيه على حافتها، واستمع إلى صوت النقر الخزفي الناتج عن الملعقة التي تُحرِّك القهوة.

سألها كاريس: «هل تحدَّثتِ إلى أبيها؟».

قالت كريس: «أجل، لقد اتَّصل. وأراد التحدُّث إلى ريجان».

- «وماذا أخبرتيه؟».

- «أخبرته أنها ساهرة في حفلٍ».

عمَّ الصمت بعدها. لم يسمع كاريس مزيدًا من التقليب، ورفع بصره فوجد كريس تُحدِّق إلى السقف، فأدرك الأمر بدوره: سيلُ الشتائم المُنهمر قد توقَّف.

قال مُمتنًّا: «أظن أن الليبيروم قد تولَّى الزِمام».

جرس الباب يدق. نظر كاريس إلى اتِّجاه الصوت، ثم إلى كريس، التي

التقت نظرته المُخمِّنة بحاجبٍ مُرتفعٍ من القلق والانفعال.

أهو كيندرمان؟

مرَّت الثواني وهما جالسان في مقعديهما ينصتان. لم يتقدَّم أحد لاستقبال القادم. كانت ويلي تستريح في غرفتها، بينما شارون وكارل لا يزالان في الدور العلوي. متوتِّرة، نهضت كاريس فجأةً من مكانها وقصدت غرفة المعيشة، حيث ركعت فوق الأريكة المجاورة للنافذة وسحبت الستائر وأطلَّت خلسةً إلى الزائر. لا، ليس كيندرمان. حمدًا لله! كان رُجلًا أربعينيًّا يرتدي معطفًا رثًّا واقيًا من المطر وقُبَّعة سوداء من اللباد. كان رأسه ينحني في صبر وسط المطر بينما يقبض في يده حقيبة سفر سوداء. للحظة خاطفة، التمع مشبكٌ فِضِّيٌّ بها بوميضٍ برَّاق في ضوء عمود الإنارة عندما حرَّك الزائر قبضته على الحقيبة قليلًا. من هذا بحق السماء؟

دقَّ جرس الباب مرَّةً أخرى.

مُتحيِّرة، ترجَّلت كريس من الأريكة وسارت إلى مدخل المنزل، ثم فتحت الباب الأمامي قليلًا وهي تُضيِّق عينيها عبر الظلام، بينما رذاذ المطر الدقيق يمس أهدابها برفق. كانت قُبَّعة الرجل تحجب وجهه بحافَّتها.

- «أجل، مرحبًا. كيف أستطيع مُساعدتك؟».

- «السيِّدة ماكنيل؟».

جاء الصوت الرخيم من بين الظلال، كيِّسًا ومصقولًا، ومستكفي النَّبرةِ كحصادٍ وافر.

أومأت كريس برأسها فمدَّ الغريب يده لينزع عنه قُبَّعته، ثم فجأة وجدت نفسها تنظر إلى عينينِ ملأتها رهبة. عينان تلتمعان بالذكاء ويُرجى الفهم فيهما، وقد تدفَّق الصفاء منهما إلى كيانها كأنه مياه نهرٍ دافئ مُعالِج ينبع منه، بل ومن شيءٍ آخر أبعد منه على حدٍ سواء. تدفُّقٌ وجدانيٌّ عارمٌ مُسيطرٌ عليه لكن دون أن يفقد عنفوانه أو لا نهائيته.

قال الرجل: «أنا الأب لانكستر ميرين».

ظلَّت كريس مشدوهة تنظر إلى الوجه العاجف الزاهد، إلى عظام الوجنتين التي نُحِتت وصُقِلت كالحجر الأملس، ثم فتحت الباب سريعًا عن آخره وصاحت: «أوه يا إلهي، أرجوك تفضَّل! أوه، تفضَّل! يا للمسيح، أنا... بصراحة! لا أعرف ما...».

دخل الرجل وأغلقت كريس الباب من خلفه ثم واصلت تأتأتها: «أعني، أنا لم أتوقَّع قدومك قبل الغد!».

- «أجل، أعرف ذلك». هكذا سمعته كريس يقول.

عندما استدارت لمواجهته، رأته كريس يقف ورأسه يميل إلى جانبه، ناظرًا إلى أعلى، كما لو أنه ينصت -لا، بل يستشعر بالأحرى، هكذا فكَّرت- إلى حضورٍ ما لا يُرى بالنظر، إلى ذبذبة بعيدة تبدو معروفة ومألوفة لديه. تفرَّستهُ كريس مشدوهة. بدت بشرته كأنما لُوِّحت بشمسٍ تشرق في مكانٍ آخر، مكانٍ بعيدٍ عن زمنها ومكانها.

ماذا يفعل؟

- «هل أستطيع حمل هذه الحقيبة عنك يا أبت؟».

قال بهدوء: «لا عليكِ». ما زال يستشعر. ما زال يجس. ثم أردف: «لقد أصبَحَتْ جُزءًا من ذراعي: قديمة مثله... بالية مثله». ثم خفض بصره بنظرة دافئة تحمل ابتسامة مُنهكة وواصل: «لقد اعتدتُ العبء. هل الأب كاريس هنا؟».

- «أجل. إنه في المطبخ. هل تناولت أيَّ عشاءٍ يا أبانا ميرين؟».

لم يُجب ميرين. وبدلًا من ذلك، حرَّك بصره سريعًا إلى أعلى، نحو صوت أحد الأبواب يُفتح. وقال بعدها: «أجل، تناولت بعضه في القطار».

- «هل أنت مُتأكِّد أنك لا ترغب في شيءٍ آخر».

لا جواب. ثم تبع ذلك صوتُ بابٍ يُغلق. عادت بعد ذلك نظرة ميرين الحميمة الحانية إلى كريس وقال لها: «لا، أشكرك. أنت مُراعية ولطيفة جدًّا».

ثرثرت كريس وهي لا تزال مُرتبكة: «يا للمسيح، يا لكل هذا المطر. إن كنت أعلم أنك قادم، لكنت استقبلتك في المحطة».

- «لا عليكِ».
- «هل انتظرت طويلًا من أجل سيَّارة أجرة؟».
- «دقائق قليلة».
- «سآخذ عنك هذه يا أبت!».

العبارة الأخيرة قالها كارل وهو يهبط الدرج سريعًا جدًّا ويلتقط الحقيبة من قبضة القس اللَّينة ويسير بها عبر الردهة.

قالت كريس بأعصابٍ مهزوزة: «لقد وضعنا لك فراشًا في غرفة المكتب يا أبت. إنها مُريحة جدًّا، وأظن أنك ستحب خصوصيتها. سأُريك مكانها» بدأت تتحرَّك، ثم توقَّفت وسألت مُردفة: «أم هل تريد إلقاء التحيَّة على الأب كاريس؟».

- «أود أن ألقي نظرة على ابنتك أوَّلًا».

قالت كريس في شك: «هل تقصد الآن يا أبت؟ في التوِّ».

نظر ميرين إلى الطابق الثاني بتلك النظرة السابرة لأغوارٍ سحيقة.

وقال: «أجل، الآن».

- «يا إلهي، أنا مُتأكِّدة أنها نائمة».
- «لا أظن ذلك».
- «حسنًا، إذا...».

فجأة، جزعت كريس من الصوت القادم من أعلى.. صوت الشيطان الهادر والمكتوم في الوقت نفسه، والذي ينعب كمن دُفِن حيًّا بأعلى صوته مُناديًا: «مــيـــريـــــــــــــن!»، ثم سرت هزَّة ضخمة مُجوَّفة كطرقة مطرقة عملاقة في جدران حجرة النوم.

- «يا الله!».

هكذا صاحت كريس وهي تضم يدًا شاحبة إلى صدرها. ثم مصعوقة، نظرت إلى ميرين. لم يتحرَّك القس. كان ما زال يرنو إلى الطابق الأعلى، منفعلًا ولكن ثابت الجأش، ولم تَجُلْ في عينيه حتَّى لمحة من المُباغتة. الأمر بدا لكريس وكأنه تعرُّف بالأحرى.

ثم هزَّت صيحة أخرى جدران المنزل.

- «مـــيــــريــــــــــــــــــــــــن!»

تحرَّك القس اليسوعي ببطء إلى الأمام غافلًا عن كريس التي فغرت فمها من الرَّوع.. عن كارل الذي خرج سريعًا ومُرتابًا من حجرة المكتب.. عن كاريس الذي انبثق مذهولًا من المطبخ بينما يتواصل الدَّق الكابوسي في الجدران، والنعيب.

صعد ميرين الدرج بهدوء، ويده النحيلة المرمرية تنزلق فوق الدرابزين. أقبل كاريس ووقف جوار كريس، وراقب الاثنان من موقعهما في الأسفل دخول ميرين حُجرة ريجان وإغلاقه الباب من خلفه. مرَّت برهة من الوقت جثم الصمت فيها. ثم فجأة ضحك الشيطان بشكلٍ بشع، وفي اللحظة نفسها خرج ميرين مُسرعًا من الغرفة وأغلق الباب، ثم هرول سريعًا عبر الردهة بينما من خلفه فُتِح باب الغُرفة من جديد وأطلَّت شارون برأسها منه وهي تُحدِّقُ فيه بتعبيرٍ غريبٍ.

هبط ميرين الدرج سريعًا وصافح يد كاريس التي كانت تنتظره.

- «الأب كاريس!».

- «مرحبًا يا أبت».

شبَّك ميرين كلتا يديه على يد كاريس، كان يعتصرها وهو يتفرَّس ملامح القس الشاب بنظرة رزينة وقَلِقَة، بينما تحوَّلت الضحكة الماجنة الآتية من الطابق الثاني إلى سيلٍ من الشتائم واللعنات الموجَّهة إلى ميرين.

قال ميرين: «تبدو مُنهكًا بشدَّة. هل أنت مُرهق؟».

- «لا».

- «جيِّد. هل معطفك الواقي من المطر معك هنا؟».

- «لا».

- «حسنًا، هاك، خذ معطفي» قالها القس ذو الشعر الرمادي وهو يفك أزرار المعطف المُبتل بالمطر وهو يُضيف: «أريدك أن تذهب سريعًا إلى المقر اليسوعي يا دامين، وتجلب لي رداء كهنوت، واثنين من الأردية

البيضاء، ودِثارًا أرجوانيًا، وبعض الماء المُقدَّس، ونسختين من الطقوس الرومانية، الطبعة الضخمة»، ثم ناول المعطف إلى القس الحائر وأردف: «أظن أننا يجب أن نبدأ».

قطب كاريس جبينه: «تعني الآن؟ في التوِّ؟».

- «أجل، أظن ذلك».

- «ألا ترغب في سماع خلفية الحالة أوَّلًا؟».

- «لماذا؟».

أدرك كاريس أنه لا يملك جوابًا. لذا أشاح ببصره بعيدًا عن تلك العينين المُربِكتين. وقال: «حسنًا يا أبت» كان يندس في معطف المطر وهو يواصل: «سأذهب وأجمع ما طلبت».

أسرع كارل الخطى عبر الغرفة، وسبق كاريس إلى الباب الأمامي وفتحه له. تبادل الرجلان نظرة مُبتسرة، ثم خطا كاريس بعدها إلى الليل المطير. حرَّك ميرين نظره إلى كريس قائلًا: «كان من المفروض أن أسألك أوَّلًا، أنت لا تُمانعين إن بدأنا على الفور؟».

كانت المرأة تراقبه ومُحياها يتوهَّج بالارتياح من جراء معاني الحسم والتوجيه والقيادة التي تجتاح المنزل كضوء يوم مُشمسٍ، وقالت له بامتنان: «لا، بل أنا سعيدة. لكن لا بد أنك مُرهق يا أب ميرين».

لاحظ القس المُسِنُّ نظرتها العصبية التي تلتفت إلى أعلى نحو الشيطان الهائج. «هل ترغب في قدحٍ من القهوة». هكذا سألته بصوتٍ ضعيف، مُلِحٍ ومُتوسِّلٍ، وواصلت: «إنها ساخنة وحُضِّرت لتوِّها. ألا ترغب في بعضٍ منها؟».

شاهد ميرين كفَّيها يتشابكان وينفضَّان، ولاحظ كهفي عينيها الغائرين فقال بحرارة: «أجل، أرغب. شكرًا لكِ». يا للإنفراجة.. شيءٌ ثقيلٌ في روحها قد نُحِّيَ جانبًا بلطف، وأُجبِرَ على الانتظار. استطرد القس: «إذا كنت مُتأكِّدة أن الأمر لن يُشكِّل لكِ إزعاجًا».

قادته كريس إلى المطبخ، وسرعان ما استند بظهره إلى الموقد وقدح

من القهوة السوداء يستقر بين يديه. التقطت كريس زجاجة الخمر وسألته: «أتريد بعض البراندي يا أبت؟». أحنى ميرين رأسه ونظر إلى قدح قهوته بلا انفعالٍ بادٍ على وجهه، وقال: «الأطباء نصحوني ألّا أفعل، لكن حمدًا لله أن إرادتي ضعيفة».

طرفت كريس عينيها وحدَّقت بانشداهٍ خالٍ من التعبير، غير مُتأكِّدة ما يقصد، إلى أن رأت الابتسامة في عينيه وهو يرفع رأسه بعيدًا عن القدح ويقول: «أجل، أريد بعضه، شكرًا لك».

صبَّت كريس الخمر في قدحه وهي تبتسم. قال لها ميرين: «يا له من اسمٍ جميل ذلك الذي تملكينه. كريس ماكنيل. هذا ليس اسم شُهرة؟».

هزَّت كريس رأسها وقالت وهي تقطر البراندي في قهوتها: «لا، أنا لست سادي جلوتز[1]».

غمغم ميرين وهو يخفض عينيه: «حمدًا لله على ذلك».

بابتسامة رقيقةٍ وحميمية، جلست كريس وهي تقول: «وماذا يعني الاسم لانكستر يا أبت؟ إنه فريدٌ جدًّا. هل سُمِّيت تيمُّنًا باسم شخصٍ ما؟».

غمغم ميرين وهو ينظر بعيدًا في شرود: «أظن أنها سفينة شحن». ثم رفع قدح القهوة إلى شفتيه ورشف منه، وأردف محاولًا التذكُّر: «أو رُبَّما جسر. أجل، افترض أنه جسر». ثم أدار بصره إلى كريس، وقد بدا مُستمتعًا في شجن وقال: «لكن، يا لجمال الاسم «داميان». لكم كنت أود أن أنال اسمًا كهذا».

- «ما مصدره يا أبت؟ هذا الاسم؟».

- «لقد كان اسم قسٍّ كرَّس حياته للاعتناء بمرضى الجذام على جزيرة مولوكاي، إلى أن التقط العدوى في النهاية» ثم أشاح ميرين ببصره

---

(1) سوزان دينيس أتكنز: مُجرمة أمريكية من أفراد عائلة تشارلز مانسونَ الذين أُدينوا بارتكاب سلسلة من تسع جرائم في أربعة مواقع من ولاية كاليفورنيا على مدار خمسة أسابيع في صيف 1969. كانت سوزان مُتورِّطة في ثمان من تلك الجرائم التِّسع، واشتهرت داخل عائلة مانسون بسادي جولتز أو سادي المُثيرة.

وأردف: «اسمٌ رائع. أظن إذا كان اسمي الأول شيئًا كـ «داميان»، كنت حينها سأرضى بلقب جلوتز».

ضحكت كريس، واسترخت. شعرت بالارتياح يغمر روحها. ولدقائق عديدة، تحدَّثت وميرين عن أمورٍ حميمية.. الأشياء البسيطة. ثم في النهاية، ظهرت شارون في المطبخ، وحينها فقط تحرَّك ميرين استعدادًا للمُغادرة. بدا الأمر وكأنه كان ينتظر قدومها، لأنه فورًا سار بقدحه إلى الحوض، وشطفه بالماء، ووضعه برفق فوق حامل الأواني، وقال: «كم كانت القهوة جيِّدة. هذا تحديدًا ما كنت أحتاجه».

نهضت كريس وقالت: «سأصحبك إلى غرفتك». شكرها ميرين وتبعها إلى باب غرفة المكتب، وهناك قالت له: «إن احتجت أيَّ شيءٍ يا أبت، فقط أخطِرني».

وضع القس يده على كتفها وضغطها برفق بصورة تدعو إلى الاطمئنان. في هذه اللحظة شعرت كريس بالدفء والقوَّة يسريان فيها، بالإضافة إلى شعورٍ بالسلام، وشعورًا غريبًا آخر بدا كـ... ماذا؟ هكذا تعجَّبت. أمان؟ أجل، شيءٌ من هذا القبيل.

قالت له: «أنت طيِّبٌ جدًّا».

ابتسمت عيناه، وقال: «شكرًا لكِ».

رفع القس يده عنها، وما إن ابتعدت، بدا أن ألمًا مُفاجئًا قد أنشب مخالبه في قسمات وجهه وهو يُراقبها.

دخل الرجل حجرة المكتب وأغلق الباب من خلفه. ومن جيب سراويله، أخرج علبة من القصدير مكتوبًا عليها أسبرين باير. فتحها وأخرج منها حبَّة نيتروجلسرينٍ ووضعها برفق تحت لسانه.

عندما دخلت المطبخ، توقَّفت كريس عند الباب ونظرت إلى شارون. كانت تقف قرب الموقد، وراحة كفِّها تُمسك بجهاز القهوة مُنتظرة أن يُعاد تسخينها. بدت مُضطربة وهي تُحدِّق إلى الفراغ. سارت كريس إليها وهي تشعر بالقلق وقالت لها بنعومة: «كيف حالكِ يا عزيزتي؟ لَمَ لا تُريحين نفسكِ قليلًا؟».

مرَّت لحظةٌ بلا استجابة. ثم التفتت شارون وحدَّقت بوجهٍ خالٍ من التعبير إلى كريس وهي تقول: «معذرة. هل قُلتِ شيئًا؟».

تفرَّست كريس الضيق في وجهها.. والنظرة الشاردة.

سألتها: «ماذا حدث في الأعلى يا شارون؟».

- «أين؟».

- «عندما دخل الأب ميرين إلى غرفة ريجان».

- «أوه، أجل...».

قطَّبت شارون جبينها قليلًا، ونقلت نظرتها الشاردة بعيدًا إلى نقطة من الفراغ تقع بين الارتياب والذِكرى، ثم واصلت: «أجل، كان الأمر غريبًا».

- «غريبًا؟».

- «أجل. لقد قاما فقط...» توقَّفت برهة قبل أن تواصل «حسنًا، لقد حدَّقا فقط إلى أحدهما الآخر لبُرهة، ثم ريجان قالت، أعني ذلك الشيء...».

- «ماذا؟».

- «قال «هذه المرَّة ستخسر»».

رمقتها كريس مُنتظرة، ثم سألت: «وماذا بعد؟».

أجابتها شارون: «هذا كل شيء. استدار القس على عقبيه وغادر الغرفة».

سألتها كريس: «وكيف كان يبدو؟».

- «غريبًا».

- «أوه، بحق المسيح يا شارون، فكِّري في كلمة أخرى!».

صاحت كريس بعبارتها الأخيرة، وكادت أن تُضيف شيئًا آخر عندما لاحظت شارون ترفع رأسها وتُميلها إلى جانبها قليلًا في شرود ذهن، كما لو كانت تنصت. مُتتبِّعة اتِّجاه نظرتها، سمعت كريس بدورها الصمت. التوقُّف المُفاجئ للشيطان المُستعر. لكن ثمة شيئًا إضافيًا... شيئًا آخر... وهو يتنامى.

رمقت المرأتان إحداهما الأخرى سريعًا.

سألتها شارون: «هل تشعرين به بدورك؟».

أومأت كريس. ثمة شيءٌ بالمنزل. ضغط. نبضٌ يتزايد تدريجيًا، وحضورٌ كثيف في الهواء، كطاقتين مُتقابلتين تملآن الهواء. أما رنين جرس الباب الذي تلى ذلك فبدا غير واقعي.

استدارت شارون وقالت: «سأفتح الباب».

سارت إلى مدخل المنزل وفتحت الباب. إنه كاريس. كان يحمل صندوق ملابس من الورق المقوَّى.

أخبرته شارون: «الأب ميرين في غرفة المكتب».

- «شكرًا».

هرول كاريس إلى المكتب، ونقر الباب سريعًا ولكن برفق، ثم دخل حاملًا الصندوق وهو يقول: «معذرة يا أبت، لقد صادفتني بعض الـ...».

قطع كاريس كلامه. كان ميرين يُصلِّي بجوار الفراش المؤجَّر وهو يرتدي القميص والسراويل، ورأسه محنيٌّ بشدَّة في اتِّجاه كفَّيه المُتشابكين. للحظة، وقف كاريس راسخًا بلا حراك، وشعر بأنه انعطف حول زاوية بشكلٍ عابر ليُقابل فجأة ذاته الصَّبية القديمة التي ترتدي غفارة فتيان المذبح وتُسرع في طريقها دون أن تتعرَّفه. نقل كاريس بصره إلى صندوق الملابس المفتوح، إلى مياه المطر التي تُبلِّل حوافه. تحرَّك القس إلى الأريكة، حيث جلس وأخرج بهدوء محتويات الصندوق، وعندما انتهى، خلع معطف المطر ووضعه برفق على حافة أحد المقاعد. نظر كاريس إلى الخلف نحو ميرين، ووجد القس يُبارك نفسه فأشاح ببصره سريعًا. مدَّ يده والتقط أكبر الأردية الطقسية البيضاء، وبدأ في ارتدائها فوق عباءة الكهنوت حين سمع ميرين ينهض ويقترب منه. سحب كاريس الرداء إلى أسفل، والتفت لمواجهة القس المُسِنِّ الذي توقَّف جوار الأريكة وعيناه تمسحان بتهذيب محتويات الصندوق.

مدَّ كاريس يده إلى سُترة ثقيلة وقال وهو يناوله إيَّاها: «أظن أنه من

الأفضل لك ارتداء هذه أسفل ردائك يا أبت. إن غرفتها تُصبح قارسة البرودة أحيانًا».

خفض ميرين رأسه ونظر إلى السُترة، ولمسها بأطراف أصابعه قائلًا: «هذا لُطفٌ منك يا داميان، أشكرك».

التقط كاريس رداء ميرين من على الأريكة، وبينما هو يُشاهد القس المُسِنَّ يرفع السُترة ويدخلها من رأسه، فقط لحظتها، وبمُباغتة كاملة، بينما هو يُراقب تلك اللفتة المألوفة البسيطة، استشعر بشكلٍ كامل تأثير وحضور الرجل المُذهل.. استوعب وقع اللحظة.. شعر بثقل وطء الصمت الذي يلف المنزل ويضغط عظامه، خانقًا أنفاسه وإدراكه الراسخ بالعالم المادي الصلب والحقيقي. ثم خرج من أفكاره وعاد إلى انتباهه الكامل عندما شعر بالرداء يُسحب من بينِ يديه. لقد أخذه ميرين وارتداه.

- «هل أنت على دراية بالقواعد المُتعلِّقة بطرد الأرواح يا داميان؟».

- «أجل».

بدأ ميرين في إحكام أزرار ردائه وهو يواصل: «الشيء الأكثر أهمِّية هو تجنُّب المُحادثات مع الشيطان».

الشيطان! هكذا فكَّر كاريس.

لقد لفظها كحقيقةٍ مُسلَّم بها. رجَّه الأمر.

أكمل ميرين تعليماته: «يمكننا أن نسأله بعض الأسئلة وثيقة الصلة بالموقف. لكن أيُّ شيءٍ خلاف ذلك فهو خطر.. بل شديد الخطورة» ثم أمسك برداء الصلوات الأبيض من يد كاريس وبدأ في ارتدائه فوق رداء الكهنوت وهو يردف: «تحديدًا، لا تستمع إلى أيِّ شيءٍ يقوله. الشيطان كاذب. سوف يكذب كي يُربكنا، لكنه أيضًا سيخلط الحقائق بالأكاذيب كي يُهاجمنا. الهجمة نفسية يا داميان. وشديدة. لا تستمع إلى ما يقول. تذكَّر هذا. لا تستمع».

ناوله كاريس الدِّثار الأرجواني، بينما طارد الأرواح يُضيف: «هل لديك أيَّ سؤال تود طرحه عليَّ الآن يا داميان؟».

هزَّ كاريس رأسه نفيًا، وقال: «لا. لكن أظن أن الأمر قد يُساعد إن أعطيتك بعض المعلومات الأساسية عن الشخصيات المُختلفة التي جسَّدتها ريجان. إلى الآن، يبدو أن ثمة ثلاثًا منها».

قال ميرين بهدوء وهو يسحب الدِّثار على كتفيه: «لا يوجد سوى واحدة»، ثم مدَّ يده والتقط نُسختَي كتاب الطقوس الرومانية وناول واحدة إلى كاريس وهو يقول: «سوف نتخطَّى ابتهالات القديسين. هل جلبت الماء المُقدَّس يا داميان؟».

سحب كاريس القنينة الصغيرة التي تَغلِق فتحتها سدَّادةٌ من الفلين من جيبه، فأخذها ميرين وأومأ بهدوء نحو الباب قائلًا: «تفضَّل بإمامتي يا داميان».

في الدور العلوي، وقرب باب حُجرة ريجان، وقفت كريس وشارون تنتظران في توتُّر، وهما تتدثَّران بُستراتٍ ومعاطف ثقيلة. التفتت المرأتان إلى مصدر صوت باب يُفتح، ونظرتا إلى أسفل وشاهدتا ميرين وكاريس يقتربان من الدرج في موكبٍ رسمي. لكم يبدوان أخَّاذان! هكذا فكَّرت. ميرين طويلٌ جدًّا، وكاريس بوجهه الصخري المُرضَّض الدَّاكن الذي يعلو رداء المذبح أبيض اللون.

راقبتهما كريس يعتليان الدرج بثباتٍ، ورغم أن منطقها وعقلها أخبراها أنهما لا يملكان قوى خارقة من أيِّ نوع، إلا أنها شعرت بتأثُّرٍ عميقٍ وكاسح بشكلٍ غريب وشيءٌ يهمس إلى روحها أنها قد تكون مُخطئة. شعرت بقلبها يخفق بقوَّة. عند باب الغرفة، توقَّف اليسوعيَّان. وقطَّب كاريس جبينه بسبب السُترة والمعطف اللذين ترتديهما كريس.

- «هل ستدخلين؟».

- «أتظن أنه من الأفضل ألا أفعل؟».

جادلها كاريس متوسِّلًا: «أرجوكِ لا تفعلي. أنت ترتكبين خطأً كبيرًا».

نقلت كريس نظرة مُتسائلة إلى ميرين.

قال طارد الأرواح بهدوء: «الأب كاريس يعرف ما يقول جيِّدًا».

أعادت كريس بصرها إلى كاريس من جديد، وأحنت رأسها وتمتمت قائطة: «حسنًا». ثم أسندت ظهرها إلى الجدار وأضافت: «سأنتظر هنا».

سألها ميرين: «ما اسم ابنتك الأوسط؟».

- «تيريزا».

قال القس المُسنُّ بدفء: «يا له من اسم جميل» وهو يُثبِّت نظره على نظرة كريس لحظاتٍ مُطمئِنًا روحها الجزعة، وعندما أدار رأسه ونظر إلى باب غرفة نوم ريجان، شعرت كريس من جديد بذلك الضغط، بمدى كثافة الظلام المُنعقد خلفه.. داخل الغرفة.

وراء ذلك الباب.

أومأ ميرين برأسه وتمتم بخفوت: «حسنًا».

فتح كاريس الباب، وكاد أن يميل بجسده إلى الوراء من عصف الرائحة الكريهة والبرودة الجليدية التي لطمته. في ركن الغرفة، جلس كارل مُنكمشًا في مقعده وهو يتدثَّر بمعطف صيدٍ أخضر من جلد الغنم بهت لونه. التفت الرجل في ترقُّب إلى كاريس، الأخير الذي أدار بصره سريعًا إلى الشيطان القابع فوق الفراش وعيناه اللامعتان تُحدِّقان إلى ما وراءه في اتِّجاه الردهة. كانت عينا الشيء مُثبَّتتين على ميرين.

تحرَّك كاريس إلى ذيلِ الفِراش، بينما سار ميرين -شامخًا ومنتصبًا- إلى جانبه، ثم توقَّف وخفض بصره نحو الشيء الكريه. الآن، خيَّم صمتٌ خانقٌ وألقى بثِقَله على الغرفة. لعقت ريجان بلسانٍ ذئبيٍ مُسوَدٌ شفتيها المُتشقِّقتين المُنتفختين، وبدا الصوت الخشن كأن يدًا تحتك بمخطوطة ورقية مُجعَّدة وهو يقول:

- «أخيرًا! أخيرًا أتيت!».

رفع القس المُسِن يده ورسم علامة الصليب فوق الفِراش، ثم كرَّر الحركة ذاتها على كل من وما بالغرفة. ثم تراجع إلى الوراء، ونزع غطاء قنينة الماء المُقدَّس.

قال الشيطان بنبرةٍ مُهتاجة: «آه، أجل! قد حان دور البول المُقدَّس! مَنِي القديسين!».

رفع ميرين القنينة فازداد احتقان وجه الشيطان، والتوت ملامحه، واشتعل صوته بالغضب وهو يقول: «آه، هلَّا فعلت يا ابن الزنى؟ هلَّا فعلت؟».

رشَّ ميرين دفقاتٍ من الماء المُقدَّس، فنخع الشيطان رأسه إلى أعلى، وارتجف فمه وعضلات رقبته بالغضب وهو يصيح: «أجل، انثر! انثر يا ميرين! بَلِّلنا! بَلِّلنا بعرقك! أغرقنا بعرقك! إن عرقك لمُطهِّر أيا القديس ميرين! انحنِ وضَرِّط سحابة من البخور الذكي في وجهي! انحنِ وأرِنا عجيزتك المُقدَّسة التي قد نعبدها ونهيم حُبًّا بها يا ميرين! بل نُقبِّلها! اجعل...».

- «اخرس».

خرجت الكلمة كالصاعقة من فم الرجل. أجفل كاريس وحرَّك رأسه بشكلٍ خاطفٍ في دهشة إلى ميرين، الذي كان يرمق ريجان الآن بنظرةٍ آمرةٍ، وقد صمت الشيطان، وردَّ نظرته بمثيلتها.

لكن عيناه لاح فيهما التردُّد الآن.. كانتا ترمشان في احتراس.

أحكم ميرين غلق قنينة الماء المُقدَّس وأعادها إلى كريس. تناولها الطبيب النفسي ودفعها إلى جيبه وهو يراقب ميرين ينحني راكعًا جوار الفراش مُغلقًا عينيه ويبدأ في تمتمة صلاةٍ. ««آبانا...»».

بصقت ريجان في وجه ميرين كتلة من المخاط الأصفر سالت ببطء على عُنُق طارد الأرواح.

««... ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك...»».

برأسٍ ما زال محنيًّا، أكمل ميرين صلاته دون توقُّف، وقد دسَّ يده في جيبه وأخرج منديلًا ومسح البُصاق عن وجهه بتأنٍ: ««...لا تدخلنا في تجربة»».

ردَّد كاريس: ««لكن نجنا من الشرير»».

ثم رفع بصره على استحياء. كانت عينا ريجان تغيبان في محجريهما، ولم يعد يظهر منهما سوى بياضهما الصلب القاسي. ترقَّب كاريس شرًّا.

شعر بشيءٍ يتجسَّد في الغرفة. وعاد بعدها إلى النصوص كي يتابع ميرين.

- ««الله يا أبا ربِّنا يسوع المسيح، أتضرَّع إلى اسمك المُقدَّس، وأتوسَّل بكل تواضع لُطفك، أن تسبغ كرمك عليَّ، وتمدَّ لي يد العون لمُجابهة هذه الروح الدَّنسة التي تُعذِّب أَمَتُك، بقُدرة ربنا يسوع المسيح»».

ردَّد كاريس وراءه: «آمين».

الآن، نهض ميرين مُعتدلًا وصلَّى بخشوع: ««يا الله، يا خالق ومُجير العرق البشري، انظر بعين العطف إلى أَمَتُك، ريجان تيريزا ماكنيل، العالقة الآن في أصفاد عدو الإنسان القديم، الذي أقسم على خِصام جنسنا، الذي...»».

رفع كاريس بصره نحو ريجان عندما سمع هسيسها، ورآها تجلس مُنتصبة وبياض عينيها بادٍ ومكشوف بالكامل، بينما لسانها ينزلق دخولًا وخروجًا بشكلٍ خاطف في فمها، ورأسها يتحرَّك ببطء ذهابًا وإيابًا كرأس الكوبرا، ومن جديد شعر بالانزعاج والقلق، فخفض بصره إلى النصوص.

- ««أنقذ أَمَتُك».

هكذا ردَّد ميرين وهو واقف يقرأ من كتاب الطقوس.

أمَّن كاريس: ««التي تضع ثقتها بك يا الله»».

- ««يا الله، ساعدها أن تجد فيك بُرجًا مُشيَّدًا»».

- ««في مُجابهة الخصم»».

عندما وصل ميرين إلى السطر التالي من النَّص «لا تسمح للشرير أن يتمتَّع بسُلطةٍ عليها»، سمع كاريس شهقة جَزِعة من شارون الواقفة خلفه، فأدار رأسه نحوها سريعًا ليجدها تُحملق في الفراش مذهولة ومُعطَّلة الشعور. مُتحيِّرًا، نظر كاريس إلى مصدر روعها، وسرت في جسده رعدة كهربائية.

كانت مُقدِّمة الفراش ترتفع على الأرض!

مشلولًا في مكانه، حملق كاريس في ارتياب. مُقدِّمة الفراش ترتفع أربع بوصات.. ثم نصف قدم.. ثم قدم. بعدها بدأت رجلا الفراش الخلفيتان ترتفعان بدورهما.

همس كارل في رعب: «*Gott in Himml*![1]». لكن كاريس لم يسمعه أو يراه يرسم علامة الصليب على نفسه في الوقت الذي أصبح الفراش فيه مُستويًا في الهواء.

هذا لا يحدث! هكذا فكَّر.

ارتفع الفرش قدمًا آخر وظلَّ مُعلَّقًا في مكانه، يتمايل ويتهادى كأنه يطفو فوق صفحة بُحيرة راكدة.

- «الأب كاريس؟».

ريجان تتموَّج بجسدها وتهس.

- «الأب كاريس؟».

التفت كاريس إلى مصدر الصوت. كان طارد الأرواح يتطلَّع إليه بهدوء، ثم حرَّك رأسه نحو كتاب الطقوس القابع بين يدي كاريس.

- «الجواب من فضلك يا داميان».

بدا كاريس غافلًا وغير مُستوعِبٍ، ولم يدرك أن شارون غادرت الغرفة مُسرعة.

كرَّر ميرين: ««لا تسمح للشرير أن يتمتَّع بسُلطةٍ عليها»».

سريعًا، نظر كاريس مرَّة أخرى إلى النصوص، وبقلبٍ خافق ونفسٍ مُتقطِّع أجاب: ««واسلب ابن الخطيئة القدرة على أذيَّتها»».

واصل ميرين: ««يا رب، استمع إلى صلاتي»».

- ««وليصل إليك صراخي»».

- ««الرب معك»».

- ««ومع رَوحَكَ أيضًا»».

شرع ميرين بعدها في صلاةٍ طويلةٍ. نقل كاريس بصره إلى الفراش من جديد، إلى التحليق الخارق المُنخفض في الهواء الفارغ، وإلى آماله في خالقه. شعر بالنشوة تسري في كيانه. ها هي! ها هي مُعجزة! مُباشرةً

(1) «يا إله السماوات!».

أمامي! ثم أدار بصره بغتةً إلى صوت الباب الذي فُتِح ودلفت منه شارون بصحبة كريس، الأخيرة التي تسمَّرت في غير تصديق، وشهقت «يا ليسوع المسيح!».

- ««الأب الكلّي القدرة، الكائن إلى الأبد...»».

رفع طارد الأرواح يده في إيماءة مُعتادة ورسم علامة الصليب بتأنٍ فوق جبين ريجان وهو يُواصل قراءة نصوص كتاب الطقوس:

- ««... يا من أرسلت ابنك الوحيد إلى العالم كي يسحق ذاك الأسد الذي يزأر...»».

توقَّف الهسيس، ومن حلق ريجان وعبر فمها المشدود خرج خوار العجل الخفيض الذي يُمزِّق الأعصاب.

- ««انتزع هذا الجسد الذي صنعته على صورتك من الخراب ومن براثن شيطان الظهيرة[1]، و...»

تعالى الجُؤار، مُمزِّقًا اللحم ومُتذبذِبًا خلال العظام.

- ««يا الله يا رب الخليقة...»». لفظها ميرين وهو يرفع يده برتابة ويضغط طرف الدِّثار الأرجواني إلى عُنُق ريجان، وهو يواصل صلواته ««يا من أسقط الشيطان مثل البرق من السماء، الق بالرعب في نَفْسِ الوحش الذي ينزل الجدب في بُستان كَرْمَتِك...»».

---

(1) روح الضَّجر: شيطان ورد ذكره في الكتاب المُقدَّس يُلاحق النُّساك بوجهٍ خاص، كثير التردد على سكان الخلاء والبرِّية، بسبب رتابة حياتهم وتكرار صلواتهم وأفعالهم ومعاملاتهم اليومية، ويُعرف في النصوص المسيحية بـ «شيطان الظهيرة». رمزية الظهيرة هنا من المفترض أن تتعارض ورمزية الليل، ذلك بأن الليل هو وقت النهوض من النوم لتسبيح الله، والعودة إلى جوهر الذات بغية اكتشاف مرجعها الأخير وهو الله. أما الظهيرة، فهي وقت الشرير الذي يتزيَّ بزيِّ الله، ويُوهم الإنسان بأنه في حالة وضوح مع نفسه ومع الله ومع الآخرين، لكنه يُضلِّله بأكاذيبه، وحيِله الكاذبة، ويغريه بالخروج من خشوع الصلاة، ويجعله ناقمًا على حياته.

توقَّف الخوار، وتلا ذلك صمتٌ رنَّان، وبعدها بدأ قيئ أخضر كثيف وآسن يُضخ من فمِ ريجان في دفقاتٍ بطيئة ومنتظمة ترشح من شفتيها وتسيل في موجاتٍ رفيعة إلى يد ميرين. لكنه لم يتحرَّك.

- ««لتجعل يدك شديدة البأس تُخرج هذا الشيطان القاسي من جسد ريجان تيريزا ماكنيل، التي...»».

شعر كاريس على استحياء بفتح الباب، واندفاع كريس المُلتاع خروجًا من الغرفة.

- ««أخرِجْ مضطهِد الأبرياء هذا...»».

بدأ الفراش يهتز ببطء، ثم ارتجَّ، وفجأة بدأ يهبط وهو ينحرف بعنف، لكن القيء استمر في الخروج من فمِ ريجان، لذا عدَّل ميرين بهدوء من وضعه، وأبقى الدِّثار بحزمٍ على رقبتها.

- ««املأ خُدَّامك بالشجاعة لمقاومة ذلك التنين الفاسق ببسالة خشية أن يستخف بأولئك الذين يضعون ثقتهم بك، و...»».

فجأة، توقَّفت الاهتزازت. وأمام عيني كاريس المفتونتين، انزلق الفراش كالريشة في الهواء ومنه إلى الأرض، حيث استقر فوق البِساط برطمةٍ مكتومة.

- ««يا رب، أسبغ على...»».

نقل كاريس بصره وهو خدران. إنه لا يرى يد ميرين. اليد مدفونة أسفل جبل من القيء تتصاعد الأبخرة منه.

- «داميان؟».

نظر كاريس إلى أعلى.

قال طارد الأرواح بهدوء: ««يا رب، استمع إلى صلاتي»».

جاوب كاريس: ««وليصل إليك صراخي»».

رفع ميرين الدِّثار، وأخذ خطوة إلى الوراء، ثم رجَّ الغرفة بصوته الآمر وهو يقول: ««آمُركِ بالخروجِ أيَّتُها الروح النجسة، أنتِ وكل قوى الشرير! وكل شبحٍ آتٍ من الجحيم! وكل رفيقٍ همجيٍ!»».

كانت يد ميرين الموضوعة إلى جانبه تقطر قيئًا فوق البِساط، بينما هو يواصل: «"إنه المسيح من يأمرك، الذي سكَّن فيما مضى الرياح والبحر والعاصفة! الذي..."».

توقَّف سيل القيئ من فم ريجان، وقبعت صامتة بلا حراك، وبياض عينيها يومض بشكلٍ مؤذٍ في وجه ميرين. من مكانه عند مؤخِّرة الفراش، راقبها كاريس باهتمام وقد بدأت صدمته وإثارته في التَّلاشي، وبدأ عقله في التفكير بشكلٍ محموم، وفي دسِّ أنفه -بشكل إلزامي وغير مدعوٍّ- في عُمق زوايا الشكوك المنطقية: الشَّبح الصاخب. التحريك العقلي. توتُّرات المُراهقة والقوَّة الموجَّهة عقليًّا. ثم قطَّب كاريس جبينه وقد تذكَّر شيئًا.

تحرَّك القس إلى جانب الفراش، وانحنى فوق ريجان ومدَّ يده ليمسك مِعصمها. لقد حدث ما كان يخشاه. مثل حالة الشامان في سيبيريا، كان نبض ريجان يخفق بسرعة غير معقولة. تلك الحقيقة حجبت ضياء الأمل منه فجأة، واستمر كاريس في عَدِّ نبضات قلبها، كأنه يُعدِّد الحجج نظير حياته.

- «"إنه من يأمرك. هو من قذف بك بغير تردُّد من أعالي السماء!"».

ارتطم استجداء ميرين القويّ بحافة وعي كاريس بوقعٍ رنَّانٍ لا يرحم، في الوقت الذي تسارع فيه نبض جسد الفتاة أكثر وأكثر. حملق كاريس في ريجان. ما زالت صامتة. لا تتحرَّك. تصاعدت سُحُب بخار رقيقة من القيئ إلى هواء الغرفة البارد الجليدي وكأنها قربان مذبح تفوح منه العفونة. ثم انتصبت الشعيرات على ساعد كاريس عندما بدأ رأس ريجان في الاستدارة حول محوره ببطءٍ كابوسي كأنها رأس دُمية عرض، مُتنقلة مسافة طفيفة في كل لحظة وهي تئن بصوتٍ كصرير عمل آلية عتيقة صدِئة، إلى أن ثُبِّت عليه بياض العينين المروِّع الغاضب.

- «"ولذلك، ارتجف من الخوف الآن أيّ الشيطان..."».

استدار الرأس ببطء عائد إلى ميرين.

- «"... يا مُفسِد العدالة! يا مُنجِب الموت! يا خَائِن الأُمم! يا لِص الحياة! يا..."».

نظر كاريس حوله في إنهاك عندما بدأت الأنوار في الغرفة ترتعش وتُظلِم، حتَّى ذبلت إلى حدِّ ضوء شمعة. ارتجف كاريس. البرودة تزداد كثافةً في الغرفة.

- «"... يا أمير القتلة! يا أصل كل فحشٍ! يا عدوَّ الجنس البشري! يا..."».

قصفت قرعةٌ مكتومة الجدران. ثم أخرى. ثم بشكلٍ مُطَّرد، تواصل القرعِ هادرًا ومُمزِّقًا طريقه عبر كل جدار، وعبر الأرضيةِ، وعبر السقف، بمُعدَّلٍ ثقيل كأنه نبض قلبٍ هائلٍ وسقيم.

- «"ارحل أيُّها الوحشُ! مكانَك العُزلة! مسكنك عشَّ الأفاعي! انحنِ وازحف معها! إنه الرب ذاته من يأمرك! دماء الـ..."».

تعالى صوت القرع، وأسرعت وتيرته بشكلٍ مشؤوم يُنذر بسوءٍ أكثر فأكثر.

- «"أنا أُناشِدك أيَّتها الحيَّة القديمة..."»

ثم أكثر...

- «"... بالقدير إله الأحياء والأموات، بخالقك، بخالق الكون كله، أن..."».

اندلعت صرخة شارون وهي تضغط أذنيها بكفَّيها بقوَّة مع تعالي القرعِ الهادر الذي وصل إلى درجة تصم الآذان، وتسارع في تلك اللحظة قافزًا إلى وتيرة مُرعبة.

كان نبض ريجان مُذهلًا، ويدق بمُعدَّل يصعب قياسه. على الناحية الأخرى من الفراش، مدَّ ميرين يده بهدوء ورسم علامة الصليب بإبهامه فوق صدر ريجان المُغطَّى بالقيئ. بينما تلاشت تمتمات صلاته وابتلعها صوت القرع الدَّاوي.

شعر كاريس بمُعدَّل النبض ينخفض فجأة، وفي أثناء ما كان ميرين يرسم علامة الصليب فوق جبين ريجان، توقَّف القرعَ الكابوسي فجأة بدوره.

- ««يا رب السماوات والأرض، رب الملائكة ورؤساء الملائكة...»».
استطاع كاريس سماع صلاة ميرين الآن بينما النبض استمر في التباطؤ أكثر وأكثر...

- «ميرين، يا مُختال يا لقيط الخطيئة! يا حُثالة! ستخسر! والفتاة ستموت! الخنزيرة ستموت!».

تنامى الضباب الوامض وأصبح أكثر سطوعًا تدريجيًا، وقد عاد الشيطان يرغي ويزبد بكراهية في وجه ميرين. «المغرور الخليع! الزنديق القديم الذي يجرؤ على الإيمان بأن الكون يومًا ما سيصير المسيح! أتحدَّاك، التفت وانظر إليَّ! أجل، انظر إليَّ يا دنس!». ثم انتفض الشيطان أمامًا فجأة وبصق في وجه ميرين، ونعب بعدها: «هكذا يُعالج سيِّدك العميان!»

- ««يا رب وسيِّد جميع الخلائق...»»، واصل ميرين صلاته وهو يمدُّ يده بهدوء إلى منديله ويمسح البُصاق عن وجهه.

- «الآن اِتَّبع تعليماته يا ميرين! اِفعلها! ضع قضيبك المُقدَّس في فم الخنوصة الصغيرة كي تُطهِّرُ لها.. امسح شدقيها بالغُرمول المُجعَّد البالي وسوف تبرأ أيا ميرين القدِّيس! أجل، إنها مُعجزة! إنها...».

- ««... حرِّر أمَتَك هذه...»».

- «مُنافق! أنت لا تكترث مقدار ذرَّة بالخنزيرة. لا تكترث بها على الإطلاق. لقد جعلت منها مُسابقة بيننا!».

- ««... بتواضع...»».

- «أفَّاك! أفَّاك لقيط! أخبرنا يا ميرين، أين تواضعك؟ في الصحراء؟ عند الأطلال؟ في المقابر حيث فررت من إخوانك؟ كي تهرب من زملائك الأقل مَنزِلة، من العقول البليدة الكسيحة؟ هل تتحدَّث إلى الرجال، أيُّها القُياء الوَرِع؟».

- ««... حَرِّر...»».

- «مكانك عش الطواويس يا ميرين! بيتك جُدران ذاتك! عُد إلى قِمَّة الجبل وتحدَّث إلى نظيرك الوحيد!».

واصل ميرين تلاوة الصلوات، غير آبه، بينما سيل المَطاعِن يواصل صخبه. «هل أنت جائع يا ميرين القدِّيس؟ هاك، إليك الرحيق وطعام الآلهة، أُقدِّم لك الخبز اليومي الذي يُطعم به ربُّك!» جأر الشيطان بالكلمات هازِئًا في الوقت الذي تبرَّزت فيه ريجان إسهالًا «لأن هذا جسدي! كَرِّس هذا الآن يا قديس ميرين!».

مُشمَئِزًّا، ركَّز كاريس اهتمامه على النَّص الذي يقرأه ميرين من إنجيل القدِّيس لوقا:

... وأجاب الرجل «اسمنا ليجون[1]». لأن شياطينٌ كثيرة دخلت فيه. وقد توسَّلوا إلى يسوع ألا ينفيهم إلى الهاوية. وكانت توجد خنازير كثيرة ترعى على جانب الجبل، فطلبوا إليه أن يأذن لهم بالدخول فيها. فأذن لهم. فخرجت الشياطين من الرجل ودخلت في الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحيرة وغرق...

نعق الشيطان: «يا ويلي، أُبشِّرك بالخبر سار!». رفع كاريس بصره ووجد ويلي قرب الباب، وقد تسمَّرت في مكانها وهي مُحمَّلة بالمناشف والملاءات. واصل الشيطان مُبتهجًا: «أحمل إليك بُشرى الخلاص! إليڤيرا على قيد الحياة! إنها حية! إنها...».

حملقت ويلي إليه مصدومة، وهنا التفت كارل إليها وصاح بها: «لا يا ويلي! لا!».

- «... مُدمنة مُخدِّرات يا ويلي، ميئوسٌ منها...».

صرخ كارل: «لا تستمعي إليه يا ويلي!».

- «هل أخبرك أين تعيش؟».

هرع كارل بويلي إلي خارج الغرفة وهو يقول: «لا تنصتي! لا تنصتي!».

- «اذهبي وزُورِيها في عيد الأم يا ويلي! فاجِئيها! اذهبي و...».

---

(1) بالإنجليزية Legion: فيلق، أو حشد عظيم. اشتهر اللفظ كاسم مجموعة الشياطين التي ذُكرت في الكتاب المُقدَّس، والتي تُعرف باسم شياطين الجرجسيين.

فجأة، توقَّف الشيطان وثبَّت عينيه على كاريس. لقد فحص نبض ريجان مرَّة أخرى ووجد أنه قويٌّ بما يكفي كي يعطيها مزيدًا من الليبيريوم. تحرَّك القس إلى شارون كي يعطيها تعليمات بتجهيز جرعة أخرى حين غمز له الشيطان ناظرًا بشهوانية: «كاريس، هل ترغب فيها؟ إنها ملكك! أجل، عاهرة الحظيرة ملك يمينك! يمكنك اعتلاؤها أنَّى شِئت! إنها تحلُم بك كل ليلة يا كاريس! أجل، بك وبقضيبك الكهنوتي الطويل السميك!».

احمرَّ وجه شارون وأشاحت بعينيها بعيدًا، في أثناء ما أخبرها كاريس بأن الوضع آمن الآن لإعطاء ريجان بعض الليبيريوم. وأضاف: «وكومبازين أيضًا، في حالة وجود مزيد من القيء».

أومأت شارون برأسها المُطرَق وابتعدت سريعًا في حزم. وعندما مرَّت بالفراش برأسٍ ما زال مُنكَّسًا، صاحت ريجان بها: «عاهرة!»، ثم انتفضت مُعتدلة وبصقت كتلة من القيء في وجهها. تسمَّرت شارون في مكانها من الصدمة، وفي هذه اللحظة تحديدًا، أعلنت ذات دينينجس عن نفسها، وقالت بصوتٍ أجش: «عاهرة الحظيرة! مومس!».

اندفعت شارون خارجة من الغرفة.

الآن، لوت شخصية دينينجس ملامحها في كراهية، ونظرت حولها وطلبت: «هلَّا فتح أحدكم النافذة فضلًا؟ الجو نتن الرائحة جدًّا في الغرفة! الأمر ببساطة... أوه، لا، لا، لا تفتحوها» ثم صحَّحت لنفسها «لا، بحق السماء، لا تفتحوها، فقط سينتهي الأمر بشخصٍ آخر ميِّت». ثم قهقهت وهي تغمز بشكلٍ مُخيف إلى كاريس، وتلاشت بعدها.

- ««إنه هو من يطردكَ...»».

- «أهو من يفعل حقًّا يا ميرين؟ أهو بالفعل؟».

لقد عاد الكيان الشيطاني مرَّة أخرى. واصل ميرين تضرُّعه واستعمال الدِّثار ورسم علامة الصليب باستمرار بينما الكيان يَلهَجُ بالفحش من جديد.

شعر كاريس بالقلق: النوبة تتواصل لوقتٍ طويلٍ جدًّا.

- «الآن تأتي الخنزيرة! أم الخنوصة!».

التفت كاريس ليجد كريس قادمة وهي تحمل مِحقَنًا وقطعة قُطن مُعقَّمة. أبقت الأم رأسها مُنخفضًا بينما الشيطان يواصل ازدراءه، فتقدَّم كاريس إليها عابسًا.

فسَّرت له كريس: «شارون تستبدل ملابسها، وكارل...».

قاطعها كاريس بفظاظة قائلًا: «حسنًا». ثم اقتربا من الفراش معًا.

- «آه، أجل، تعالِ وانظري إلى صنيعتك أيَّتها الخنزيرة الأم! تعالِ!».

حاولت كريس ألا تنصت، ألا تنظر، بينما كاريس يُمسك بذراعي ريجان غير المُقاوِمتين.

قال الشيطان باهتياج: «انظري إلى النتنة! انظري إلى العاهرة القاتلة! هل أنتِ سعيدة؟ أنتِ من ارتكب الأمر! أجل، أنتِ ومهنتك قبل أيِّ شيءٍ آخر. مهنتك أهم من زوجك، مهنتك أهم منها، أهم من...».

نظر كاريس حوله. كريس تقف مشلولة. قال لها بحزمٍ: «هيَّا احقنيها! لا تنصتي! هيَّا!».

- «... طلاقك! اذهبي إلي القساوسة، هلَّا فعلتِ؟ القساوسة لن ينفعوكِ! الخنوصة جُنَّت! ألا تفهمين ذلك؟ لقد دفعتيها إلى الجنون وإلى القتل و...».

- «لا أستطيع...».

قالتها كريس بوجهٍ تلتوي قسماته وهي تنظر إلى المحقن المُرتعش في يدها. ثم هزَّت رأسها مُضيفة: «لا أستطيع فعلها».

انتزع كاريس المحقن من بين أصابعها وقال: «حسنًا، عقِّميها! عقِّمي ذراعها! في هذا المكان!».

- «في قبرها أيتها العاهرة، بـ...».

- «لا تنصتي!».

هكذا حذَّر كاريس كريس مرَّة أخرى، وفي هذه اللحظة حرَّك الكيان الشيطاني رأسه نحوه بعينين حمراوين تلقيان بشررٍ. «وأنت يا كاريس! أجل! ماذا عنك!».

مسحت كريس ذراع ريجان، فأمرها كاريس وهو يغرز المِحقن في الجلد الذاوي: «الآن، اخرجي».

هربت كريس من الغرفة.

زعق الشيطان: «أجل، نحن نعرف عن إحسانك للأمهات، يا كاريس العزيز!».

شحب وجه القس اليسوعي، وللحظة لم يستطع الحراك. ثم ببطء، أخرج المِحقَن ونظر إلى بياض عيني ريجان، في الوقت الذي انساب من بين شفتيها غناءٌ طروبٌ بصوتٍ عذبٍ وصافٍ كصوت صبي ترتيل في الكنيسة «Tantum ergo sacramentum veneremur cernui...»[1]. إنها أنشودة تُغنَّى في أثناء المُباركة الكاثوليكية. توقَّف كاريس في مكانه وقد جفَّت الدماء في عروقه، وشعر بالغناء الغريب والمُخيف كأنه خواء موحش يبتلع رُعب الليلة. رفع القس بصره وشاهد ميرين يُمسك منشفة في يده ويمسح القيئ عن وجه ريجان وعُنُقها بحركاتٍ مُنهكة وحنونة.

- «Et antiquum documentum...[2]».

الغناء يتواصل. صوت من هذا؟ هكذا تعجَّب كاريس. ثم توالت شذراتٍ ذكريات الأيام الأخيرة في ذهنه: دينينجس... النافذة...

غارقًا في أفكاره، شاهد كاريس شارون تعود إلى الغرفة وتأخذ المنشفة من يد ميرين.

أخبرته: «دعني أعتنِ بالأمر يا أبت. أنا بخير الآن. أريد أن أستبدل لها ملابسها وأُنظِّفها قبل أن أعطيها الكومازين. حسنًا؟ هلَّا انتظرتماني كلاكُما في الخارج بُرهةً؟».

غادر الكاهنان الغرفة، وخطيا إلى دفء الردهة وعتمتها، حيث استند كلاهما إلى الحائط في إنهاك ورأساهما مُطرقين وذراعاهما معقودين

(1) «بما أن القربان عظيم جدًّا، دعونا نُعظِّمه برؤوسٍ مُنحنية...».

(2) «ولتسمح للمُمارسة القديمة...».

وهما يستمعان إلى الغناء الغريب المكتوم القادم من الداخل. كان كاريس من قطع الصمت في النهاية.

- «لقد... لقد قلت باكرًا يا أبت إننا نتعامل مع كيان واحد فقط».

- «أجل».

بدا الرجلان بأصواتهما الخفيضة ورأسيهما المُطرقين كأنهما مذنبان يبوحان على كرسي الاعتراف.

واصل ميرين: «كل التجسُّدات الأخرى ليست سوى أشكال من الهجوم. ثمة روح واحدة... واحدة فقط. إنها الشيطان». تبع ذلك صمت، ثم ذكر ميرين ببساطة: «أعلم أنك ترتاب في الأمر. لكنني واجهت هذا الشيطان من قبل. وهو عاتٍ يا داميان. عاتٍ حقًّا».

مزيد من الصمت. ثم تكلَّم كاريس ثانيةً.

- «نحن نقول إن الشيطان لا يستطيع مس إرادة الضحية».

- «أجل، هو كذلك. ليس ثمة خطيئة ارتكبتها».

- «إذًا، ما الغرض من الاستحواذ؟ ما الغاية؟».

أجابه ميرين: «من يعرف؟ بل من حتَّى يأمل أن يعرف؟ ورغم ذلك، أظن أن هدف الشيطان ليس الضحية الممسوسة ذاتها، إنما نحن... من يُراقب... كل فردٍ في هذا المنزل. أظن أن غايته أن يجعلنا نيأس، أن ننبذ إنسانيتنا يا داميان: أن نرى أنفسنا وحوشًا في نهاية المطاف. أخسَّاء وعفنين. بلا كرامة. قُبحاء. تافهين. هنا يكمن جوهر الأمر كله رُبَّما: في الشعور بأننا غير جديرين. لأن الإيمان بالله -كما أظن- ليس مسألة عقل ومنطق على الإطلاق، بل هو مسألة حُب في النهاية: قبول احتمال أن الرب قد يظل يحبنا أبدًا».

سكت ميرين بُرهة، ثم واصل ببطءٍ أكثر وببعض الاستبطان: «مرَّة أخرى، من يعرف حقًّا؟ لكن من الواضح -على الأقل بالنسبة إليَّ- أن الشيطان يعرف كيف ومتى يُهاجم. أوه، أجل، إنه يعرف. حدث منذ زمنٍ بعيد أن يئِست من محبة جارتي. أشخاص بعينهم صَدُّوني ورفضوني. إذًا،

كيف أجرؤ أن أحبهم؟ هكذا فكَّرت. لقد عذَّبني الأمر يا كاريس، وقادني إلى القنوط من نفسي، وبعدها بقليل جدًّا قادني إلى القنوط من خالقي. وانكسر إيماني».

مُباغتًا، التفت كاريس ونظر إلى ميرين باهتمام، وسأله: «وماذا حدث؟».

- «آه، حسنًا... في النهاية أدركت أن الله لن يُحمِّلني ما لا طاقة لي من الناحية النفسية. أن الحب الذي يطلبه يكمن في إرادتي وليس من المُفترض أن يُشعَر به كنوع من العاطفة. لا، على الإطلاق. إنه يطلب مني أن أتصرَّف بحب، أن أفعل ذلك مع الآخرين، وأعتقد أنني حين أفعل ذلك مع من صدَّني لهو فعل محبَّة أعظم من أيِّ شيءٍ آخر» أحنى ميرين رأسه وواصل بنبرة أكثر رِقَّة «أعرف أن كل هذا لا بد أنه واضح جدًّا بالنسبة إليك يا داميان. أعرف. لكنني في ذلك الوقت لم أتمكَّن من رؤيته. يا للعمى!» ثم تمتم ميرين بأسفٍ «كم من زوجٍ وزوجة اعتقدوا أن حبهم تفلَّت منهم لأن قلوبهم لم تعد تتسارع بالقوَّة ذاتها عند رؤية المحبوب. آه، يا إلهي العزيز!» هزَّ القس رأسه ثم أومأ بعدها وواصل «وهنا -حسب ظني- يكمن الشر يا داميان... يكمن الاستحواذ. ليس في الحروب، كما يميل البعض إلى أن يعتقد، لا ليس تمامًا.. كما أنه من النادر جدًّا أن يأتي المس بصورته غير الطبيعية كما هو الحال هنا... مع هذه الفتاة... هذه الطفلة المسكينة. لا، أنا أميل إلى رؤية الاستحواذ في الأشياء الصغيرة يا داميان: في الطيش، والضغائن التافهة، وسوء الفهم. في الكلام الجارح الذي يقفز غير مدعوٍّ إلى ألسنة الأصدقاء، والعُشَّاق، والأزواج والزوجات. إذا وُجِدَ هذا بمقادرٍ كافٍ، لن نصبح في حاجة إلى الشيطان كي يؤجِّج معاركنا، لأننا نؤجِّجها بأنفسنا... بأنفسنا».

كان الغناء الإيقاعي ما زال يُسمع من الغرفة، ما دفع ميرين إلى النظر نحو الباب بنظرة شاردة.

- «لكن بالرغم من هذا الشر، فإن الخير يولد من رَحِمَهُ بطريقةٍ أو

بأخرى.. طريقة قد لا نفهمها أو نستوعبها أو نراها» قالها ميرين وسكت بُرهة «رُبَّما الشَّر بوتقةً للخير» ثم أطال التفكير «ورُبَّما إبليس ذاته -رغمًا عن نفسه، وضد رغبته- يعمل على تنفيذ مشيئة الرَّب».

انتهى ميرين ولم يزد، ولفترة من الوقت هبط الصمت على الرجلين. كان كاريس يُفكِّر، حين عبر عقله اعتراضٌ آخر، فسأل: «ما إن يخرج الشيطان، ما الذي يمنعه من العودة مرَّة أخرى؟».

أجابه ميرين: «لا أعرف. ورغم هذا، يبدو أن ذلك لا يحدث قط. لا، على الإطلاق» وضع ميرين يده على وجهه، وأخذ يضغط بإحكام زاويا عينيه، وقال مُتمتمًا: ««داميان».. يا له من اسم رائع».

شعر كاريس بالإنهاك في صوته، مصحوبًا بشيءٍ آخر.. بعض القلق، كَمَنْ يقمع ألمًا.

بغتةً، أبعد ميرين نفسه عن الجدار، وبوجهٍ ما زال مُخبَّأ في يده، استأذن لنفسه وهرول باتِّجاه الحمَّام في نهاية الرواق. ما خطبه؟ ثم شعر القس بغبطة من إيمان طارد الأرواح الراسخ والبسيط. بعدها التفت إلى الباب. لقد توقَّف الغناء. هل انتهت الليلة أخيرًا؟ بعد دقائق قليلة، خرجت شارون من الغرفة بكومة من الملابس وشراشف الفراش كريهة الرائحة، وقالت بشكلٍ عابر: «لقد نامت الآن». ثم نظرت بعيدًا وهي تُهرول سريعًا عبر الردهة.

أخذ كاريس نفسًا عميقًا ودخل الغرفة من جديد. شعر بالبرودة. اشتم الإنتان. ثم سار ببطء إلى طرف الفراش. قد نامت ريجان أخيرًا.. وأخيرًا بإمكانه نيل بعض الراحة. هكذا فكَّر. مدَّ يده إلى أسفل وأمسك ساعد ريجان الهازل، ثم رفع ذراعه الأخرى، وحدَّق إلى عقرب الثواني في ساعة معصمه.

- «لماذا تفعل هذا بي يا ديمي؟».

تجمَّد قلب اليسوعي.

- «لِمَ تفعل هذا؟».

تسمَّر كاريس في مكانه، لم يتنفَّس، لم يجرؤ على النظر إلى مصدر الصوت الحزين ليرى إن كانت العينان موجودتين حقًّا. العينان المُتَّهِمتان. العينان الوحيدتان. عينا أمه. أمه!

- «لقد تركتني للقس يا ديمي، وقد أرسلني إلى المؤسَّسة...».

لا تنظر!

- «الآن تريد أن تطردني بعيدًا؟».

ليست هي!

- «لِمَ تفعل هذا؟».

برأسٍ خافق، وقلبٍ في حلقه، أغلق كاريس عينيه بإحكام مع تنامي توسُّل الصوت والخوف الواضح في نبراته ونشيجه.

- «قد كنت فتى طيِّبًا دائمًا يا ديمي. أرجوك! أنا خائفة! أرجوك لا تُخرجني يا ديمي! أرجوك».

أنت لست أمي!

- «لا يوجد شيءٌ في الخارج! فقط العتمة يا ديمي! الوحدة!».

همس كاريس بانفعالٍ مكتوم: «أنتِ لستِ أمي!».

- «ديمي، أرجوك».

صرخ كاريس في عذابٍ مُبرح: «أنتِ لستِ أمي!».

- «أوه، بحق السماء يا كاريس!».

لقد ظهرت شخصية دينينجس.

قالت مُتملِّقة: «اسمع.. ببساطة شديدة، ليس من العدل إخراجنا من هنا! اسمعني الآن، بالتحدُّث عن نفسي، أظن العدالة الوحيدة أن أظل هنا. أنا أعترف بذلك. لكن العاهرة دمَّرت جسدي وأظن أن من حقِّي أن يُسمح لي البقاء في جسدها، ألا تظن ذلك؟ أوه، بحق المسيح انظر إليَّ يا كاريس، هلَّا فعلت؟ اقترب! أعني، من النادر أن أظهر وأقول رأيي. فقط التفت إليَّ الآن. أنا لا أعض، ولا أبصق قيئًا، أو أفعل أيِّ شيءٍ آخر من كل تلك الفظاظة والجلف. إنه أنا من يتحدَّث الآن».

فتح كاريس عينيه وشاهد الذات الدينينجسية.

التي واصلت: «آه، هذا أفضل. انظر. لقد قَتَلَتْني. لم يفعلها المُستحوذ الحالي على الجسد يا كاريس، بل هي! أوه، أجل، بالفعل» كان الرأس يومئ مؤكِّدًا «هي! أترى، لقد كنت أدير شؤوني الخاصة عند المَشرب، عندما تخيَّلت أنني سمعت أنينها قادمًا من غرفتها في الدور العلوي. حسنًا إذًا، كان عليَّ تفقد ما يُزعجها، لذا صعدت إليها.. فقط لأُفاجأ بها تأخذ بتلابيبي وتمسكني من حلقي، الموسى الصغيرة!» كان الصوت يئن الآن، مُثيرًا للشفقة «يا للمسيح، لم أرَ في حياتي مثل هذه القوَّة من قبل! ثم بدأت تصرخ بكلامٍ لا معنى له عن كوني أعبث بأمها أو شيءٍ من هذا القبيل، وأنني من تسبَّب في طلاقها. لم يكن كلامها واضحًا. لكنني أصدقك القول يا عزيزي، لقد دفعتني من النافذة اللعينة!» كان الصوت الآن ساحقًا وعالي النَّبرة «لقد قتلتني بحق الجحيم! حسنًا؟ الآن أنت تظن أنه من العدل إخراجي منها؟ أعني، هل تظن ذلك حقًّا يا كاريس؟».

ابتلع كاريس لعابه، وتكلَّم بصوتٍ أجش: «حسنًا، إذا كنت بيرك دينينجس حقًّا...».

- «أنا لا أنفك عن قول ذلك! هل أنت داعرٌ أصم؟».

- «حسنًا، إن كنت بالفعل من تدَّعي، أخبرني إذًا كيف التوت رأسك إلى الخلف؟».

- «يا للمسيح اللعين!». هكذا سبَّ الشيء من خلف أنفاسه اللاهثة.

- «ما هذا؟».

نقل الشيء بصره في أرجاء الغرفة مراوغًا، وقال: «أوه، ذلك الأمر بخصوص الرأس. أمرٌ فظيع وشاذ هو. أجل. شاذ تمامًا».

- «كيف حدث؟».

أشاح الشيء ببصره: «أوه، حسنًا، من يلقي بالًا؟ إلى الأمام أو إلى الخلف، كلها فوضى مُحيِّرة، تعرف ما أعني.. جعجعة بلا طحن».

ناظرًا إلى أسفل، أمسك كاريس بمعصم ريجان من جديد، ثم نظر إلى ساعته وبدأ يحصي مُعدَّل نبضها.

- «ديمي، أرجوك! لا تتركني وحيدة».

إنها أمه.

- «إن كنت قد أصبحت طبيبًا بدلًا من قس، لعشت في منزلٍ جميل يا ديمي. بلا صراصير، وغير وحيدة في تلك الشقة الرديئة».

بعينين مُحدِّقتين إلى ساعته، جاهد كاريس ليحجب كل ذلك التشتيت، وهو يسمع من جديد الصوت الباكي الواهن.

- «أرجوك يا ديمي».

- «أنتِ لستِ أمي!».

- «أوه، ألا تواجه الحقيقة؟».

كان هذا الشيطان، وقد تلفَّظ بالكلمات هائِجًا، وواصل: «هل تُصدِّق كلام ميرين أيُّها الأحمق؟ هل تظنه مُقدَّسًا وخيِّرًا؟ حسنًا، إنه ليس كذلك! إنه مغرورٌ وتافه! سأثبت لك الأمر يا كاريس! سأثبته عن طريق قتل الخنوصة! ستموت ولن يُنقذها إلهك أو إله ميرين! ستموت بسبب خيلاء ميرين وعدم كفاءتك! يا أخرق! لم يكن ينبغي أن تُعطيها الليبيريوم!».

مصعوقًا، نظر كاريس إلى العينين اللتين تلمعان بالنصر والحقد الكاسح، ثم خفض بصره مرَّة أخرى إلى ساعة معصمه.

- «هل تُلاحظ نبضها يا كاريس؟».

قطَّب كاريس حاجبيه في قلق. كان النبض سريعًا و...

نعق الشيطان: «واهن؟». ثم استطرد: «آه، أجل. إنه واهن بعض الشيء في الوقت الراهن».

ترك كاريس معصم ريجان، وفتَّش حقيبته سريعًا، واستخرج منها سمَّاعة طبية وضغط المرنان فوق صدر الفتاة، بينما الشيطان يُصفِر بصوتٍ خشن: «انصت يا كاريس! انصت! انصت جيِّدًا».

استمع كاريس إلى قلب الفتاة، ونما قلقه أكثر: بدت نبضات قلبها مُتباعدة وتفتقر إلى الكفاءة.

- «لن أدعها تنام!».

مُرتجفًا، ألقى كاريس نظرة خاطفة على الشيطان، الذي واصل نعيبه: «أجل يا كاريس! لن تنام! هل تسمعني؟ لن أدع الخنوصة تنام!».

ألقى الشيطان برأسه إلى الوراء في ضحكة شامتة هائلة. حدَّق كاريس إليه بخدر. ولم ينتبه إلى عودة ميرين إلى الغرفة إلى أن وقف طارد الأرواح جواره وأخذ يفحص وجه ريجان باهتمام وقلق. سأله ميرين: «ما الأمر؟».

أجابه كاريس بخدر: «الشيطان. يقولُ إنه لن يدعها تنام» ثم نقل نظرة مهزومة إلى ميرين وأردف: «كفاءة قلبها تضمحل يا أبت. إن لم تنل بعض الراحة قريبًا جدًّا، فسوف تموت من فرط الإنهاك القلبي».

عبس وجه ميرين، وبدت سيماء القلق الشديد على ملامحه وهو يسأل: «هل يمكنك أن تعطيها مُهدِّئات؟ دواءً ما يُساعدها على النوم؟».

- «لا، هذا خطر. قد تنزلق إلى غيبوبة».

قالها كاريس ونقل بصره إلى ريجان. كانت تقوقئ كدجاجة في فناء حظيرة.

- «إذا انخفض ضغط دمها أكثر من هذا...».

انخفض صوت القس ولم يُكمل عبارته.

سأله ميرين: «ما الذي يُمكن فعله؟».

أجاب كاريس: «لا شيء. لا شيء»، ثم عادت نظرته القلقة إلى ميرين وهو يُضيف: «لكنني لا أعرف، لست مُتأكِّدًا. رُبَّما توجد الآن بعض العلاجات الجديدة. سوف أتَّصل بأخصَّائي قلب!».

أومأ ميرين برأسه وقال: «نعم، هذا جيِّد».

ثم أكمل بصوتٍ خفيض بعد أن شاهد كاريس يُغلق باب غرفة النوم من خلفه: «وأنا سأُصلِّي».

عثر كاريس على كريس ساهرة في المطبخ، ومن غُرفة المؤن سمع صوت نحيب ويلي، وصوت مواساة كارل لها، ثم أوضح لكريس الحاجة المُلِحَّة إلى استشارة أخصَّائي، مع الاعتناء بعدم إفشاء مدى خطورة حالة ريجان العامة. أذنت له كريس بالمُضي قدمًا، فاتَّصل كاريس بصديقٍ له،

وهو أخصَّائي بارز في كلية طب جامعة چورچ تاون، وأوقظه من نومه وأعطاه إحاطة سريعة جامعة.

قال الأخصَّائي: «سآتِ على الفور».

في أقل من نصف الساعة، أتى الطبيب إلى المنزل، وما إن دلف حجرة ريجان، أصابه الذهول والارتباك من البرودة القارصة والرائحة النتنة التي تلف الغرفة، وغمره الرعب والتَّعاطُف. عندما دخل الغرفة، كانت ريجان تقوقئ برطانة خفيضة، وبينما كان يفحصها، استمرَّت في إصدار أصوات حيواناتٍ مُختلفة والغناء بالتناوب. ثم ظهر دينينجس.

قال في أنين للأخصَّائي: «أوه، الأمر مُريع! مُريع! أوه، أتمنَّى أن تستطيع فعل شيء بخصوصه؟ هل ثمة شيء في جعبتك؟ كما ترى، لن يكون لدينا مكان نذهب إليه، وكل ذلك بسبب... أوه، اللعنة على الشيطان العنيد!».

نظر دينينجس إلى كاريس وأنَّ شاكيًا، بينما الأخصَّائي يُحدِّق إلى ريجان في ذهول وهو يأخذ قراءة ضغط دمها: «ما الذي تفعله بحق الجحيم! ألا ترى أن العاهرة الصغيرة يجب أن تودع في مصحَّة؟ إنها تنتمي إلى مصحَّة مجاذيب يا كاريس! أنت تعرف هذا! بحق السماء، لِمَ لا نستطيع جميعًا إيقاف هذه المهزلة الغرائبية الدَّاعرة المُستمرَّة! إذا ماتت، سيكون الذَّنب ذنبك كما تعلم! أجل، الذَّنب سيكون كله ذنبك! أعني، ليس لأن هذا الدَّاعر من نصَّب نفسه ابنًا ثانيًا للرب عنيدًا، يتحتَّم عليك أنت أن تتصرَّف كمُتغطرس! أنت طبيب! يجب أن تكون أكثر حصافة يا كاريس! هيَّا الآن يا عزيزي، تمتَّع بالشفقة. ثمة نقص رهيب في السكن هذه الأيام!».

الآن عاد الشيطان للظهور، وعوى كذئبٍ. بوجهٍ خالٍ من التعبير، نزع الأخصَّائي غطاء مقياس ضغط الدَّم عن ذراع ريجان، ثم أومأ إلى كاريس بعينين مُتَّسعتين قليلًا ما زالت الحيرة تملأهُما. لقد انتهى من عمله.

خرج الرجلان إلى الردهة، حيث ألقى الأخصَّائي نظرة على باب الغرفة قبل أن يلتفت إلى كاريس مُتسائلًا: «ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم يا أبت؟».

أشاح كاريس ببصره وقال بهدوء: «لا أستطيع القول».

- «لا تستطيع أم لا ترغب؟».

أعاد كاريس بصره إلى الرجل وقال: «الاثنان رُبَّما. ما حالة قلبها إذًا؟».

قال الأخصَّائي مُغتمًّا: «يجب أن تتوقَّف عن هذا النشاط. يجب أن تنام.. تنام قبل أن ينخفض ضغط دمها».

- «هل يوجد أيُّ شيءٍ أستطيع فعله يا مايك؟».

- «صلِّ لها».

حدَّق كاريس في الأخصَّائي الذي يبتعد مُغادرًا، وكل شريان وعصب في جسده يتسوَّل الراحة.. يتسوَّل الأمل.. يتسوَّل المعجزات.. على الرغم من أنه كان يشعر يقينًا بأن أيًّها لن يحدث. أغلق القس عينيه، وأجفل وهو يتذكَّر «لم يكن ينبغي أن تُعطيها الليبيريوم!». ضغط القس قبضته إلى فمه عندما أصدر حلقه صوتًا مُختلِجًا ليِّنًا.. صوت ندمٍ ولومِ ذاتيٍ لاذع.

أخذ كاريس نفسًا عميقًا، ثم آخر، وبعدها فتح عينيه وتحرَّك قِدمًا ودفع باب غرفة ريجان بيدٍ أقل ثِقلًا من روحه.

كان ميرين يقف جوار الفراش يراقب ريجان وهي تصهل وتصرخ كالجياد. سمع طارد الأرواح صوت دخول كاريس فالتفت ونظر إليه مُستفسِرًا، فهزَّ كاريس رأسه بأسى. أومأ ميرين مُتفهِّمًا. بدا الحزن على وجهه، ثم تبعه رضوخ، وعندما التفت من جديد إلى ريجان، شاعت فيه عزيمة صارمة.

ركع ميرين جوار الفراش وابتدأ صلاته من جديد: «آبانا الذي...».

قذفت ريجان في وجهه بعصارة صفراء داكنة وكريهة الرائحة، ثم صرخت: «ستخسر! وهي ستموت! ستموت!».

التقط كاريس نسخته من الطقوس الرومانية وفتحها. ورفع بصره ناظرًا إلى ريجان.

تمتم ميرين بالصلاة: «انقذ أمَتَك».

- ««في مواجهة العدو»».

اخلدي إلى النوم يا ريجان! نامي! هكذا صرخت سريرة كاريس في صمت.

لكن ريجان لم تنم.

لا في الفجر.

ولا في الظهيرة.

ولا مع حلول الليل.

ولا حتّى بحلول يوم الأحد، عندما وصل نبض قلبها إلى مِئة وأربعين نبضة في الدقيقة، بينما نوبات الاهتياج المسعور تتواصل دون كلل، دون أن تهدأ أو تتوقّف، واستمرَّ كاريس وميرين في تكرار الطقوس، بلا نوم. لذا بحث كاريس بشكلٍ محموم عن طريقه لإعداد بعض التدابير المُساعدة: إحكام غطاء مُقيِّد حول ريجان للإبقاء على حركتها عند الحد الأدنى. إخراج الجميع من الغرفة فترة من الوقت لرؤية ما إذا سيُساعد نقص وجود الاستفزازات على إنهاء النوبة. لكن أيًا من التقنيَّتين لم تنجح. وقد كان صراخ الفتاة يستنزف الحياة منها كفرط حركتها تمامًا. لكن ضغط دمها تحمَّل وصمد. لكن إلى متى؟ هكذا تساءل كاريس مُعذَّبًا. آه يا إلهي، لا تدعها تموت! كانت صلاته الصامتة المُوجِعة تتكرَّر كثيرًا جدًّا لدرجة أنها كادت أن يصير ابتهالًا.

لا تدعها تموت! اجعلها تنام! اجعلها تنام!

في السابعة مساءً تقريبًا ليلة ذلك الأحد، جلس كاريس صامتًا جوار ميرين في الغرفة، مُستنزفًا ومُحطَّمًا من هجمات الشيطان اللاذعة على نقص إيمانه.. على عدم كفاءته الطبية.. على هروبه من أمه بحثًا عن مكانةٍ ما.. وعلى ريجان! ريجان! خطأه!

«لم يكن ينبغي أن تُعطيها الليبيريوم!».

كان القِسَّان قد أنهيا دورة من الطقوس ويستريحان الآن، مُستمِعين إلى ريجان وهي تُغني ترنيمة «الخبز الملائكي» بالصوت العذب الطروب ذاته كصوت صِبية الترتيل في الكنيسة. لم يغادر أيُّهما الغرفة إلا نادرًا، كاريس

ذهب فقط مرَّة لتبديل ملابسه والاغتسال. لكن في ذلك الجو البارد كان من السهل البقاء مُتيقِّظين، حتَّى مع وجود الرائحة الكريهة التي تغيَّرت منذ الصباح الباكر إلى رائحة لحم مُتحلِّل وفاسد خانقة.

ناظرًا إلى ريجان بشكلٍ محموم وبعينين حمراوين، شعر كاريس أنه سَمِعَ صوتًا. شيئًا يَصُرُّ. وتكرَّر في كل مرَّة طرف فيها كاريس جفنه. ثم أدركَ بعدها أن الصوت يأتي من جفنيه اليابسين المُقشَّرين. حرَّك القس رأسه لينظر إلى ميرين. بمرور الساعات، لم يتفوَّه طارد الأرواح المُسِنّ إلا بأقل القليل، ساردًا بين الفينة والأخرى قصَّة اعتيادية من أيام صباه. ذكريات مضت. تفاصيلٍ بسيطة. قصَّة عن بطَّة امتلكها يومًا ما واسماها كلانسي. كان كاريس قلقًا عليه بعمق. سنُّه المُتقدِّمة. الحرمان من النوم. اعتداءات الشيطان اللفظية. بعد أن أغلق ميرين عينيه وسمح لذقنه بأن يستريح فوق صدره، نظر كاريس حوله ثم إلى ريجان، ونهض بإنهاكٍ كبير وسار إلى الفراش، حيث تفقَّد نبض قلبها وبدأ في أخذ قراءات الضغط. وبينما هو يلف قماش مقياس ضغط الدَّم حول ذراعها، رَمَشَ جفنيه عِدَّة مرَّات لإزالة الغشاوة عن مجال رؤيته.

– «اليوم عيد الأمهات يا ديمي».

لثانية، تجمَّد القس وشعر بقلبه ينتزع من صدره. ثم ببطء –ببطء شديد– نظر إلى العينين اللتين لم تعودا عيني ريجان، بل عينان حزينتان لوَّامتان. عينا أمه.

– «ألم أكن طيبة معك؟ لماذا تتركني أموت بمفردي يا ديمي؟ لماذا؟ لماذا...».

– «داميان!».

كان هذا صوت ميرين الجهوري يصيح به، بينما يده تقبض بحزم ذراع كاريس.

– «داميان، من فضلك اذهب الآن واسترِح قليلًا».

– «ديمي، أرجوك».

- «لا تنصت يا داميان! اذهب! اذهب الآن».

غادر كاريس الغرفة بغصَّة جافة ترتفع في حلقه، ووقف في الردهة بعض الوقت ضعيفًا ومُزعزعًا. هل يشرب بعض القهوة؟ إنه يتوق إليها.. ويتوق أكثر إلى الاغتسال. لكنه عندما غادر منزل آل ماكنيل وعاد إلى غرفته في مقر الإقامة اليسوعية، لم يتطلَّب الأمر سوى نظرة واحدة إلى فراشه كي يُبدِّل كاريس أولوياته. انس الاغتسال يا رجل! نم! نصف ساعة! ثم بعد أن حسم رأيه، وبينما هو يمدُّ يدهُ إلى الهاتف كي يطلب من موظَّف الاستقبال أن يوقظه، رنَّ الهاتف.

ردَّ كاريس بصوتٍ مبحوح: «نعم، مرحبًا».

- «شخصٌ ما يطلب رؤيتك يا أب كاريس. سيِّد يُدعى كيندرمان».

حبس كاريس أنفاسه قليلًا، ثم زفرها مُستسلمًا في النهاية.

قال في ضعف: «حسنًا، أخبرهُ أنني سآتِ إليه خلال دقيقة».

عندما أغلق كاريس السمَّاعة، لاحظ علبة تبغ ماركة كاميل على مكتبه. ومرفقًا بها ملحوظة من داير.

عُثر على دعوة إلى ملهى ليلى عند مركع الكنيسة أمام أضواء النذور.

أهي تخصُّك؟ يمكنك المطالبة بها في مكتب الاستقبال.

چو.

بنظرة مُمتنَّة وتعبيرٍ حنون، وضع كاريس الملحوظة، وارتدى سريعًا ملابس نظيفة وخرج من الغرفة مُتَّجهًا إلى مكتب الإستقبال، حيث وجد كيندرمان يقف قرب لوحة توزيع خطوط الهاتف وهو يُعدِّل برفق من وضع مزهرية مليئة بالزهور. كان يُمسك بساق زهرة كاميليا وردية عندما التفت وشاهد كاريس.

- «آه، يا أبت! أبونا كاريس!».

هكذا حيَّاه كيندرمان بابتهاج، لكن ملامحه غزاها القلق عندما لاحظ الإرهاق الذي يستهلك وجه كاريس. أعاد وضع زهرة الكاميليا مكانها وتقدَّم لِلقائِه. قال له: «تبدو مُريعًا! ما الأمر؟ أهذا ما تجنيه من كل هذا

الركض حول المضمار؟ تخلَّ عن الأمر يا أبت، فسوف تموت على أيِّ حال. اسمع، تعال!».

قالها وأمسك بذراع كاريس من المرفق وحثَّه على التوجُّه إلى المخرج الذي يفضي إلى الشارع.

سأله وهما يعبران الباب: «ألديك دقيقة؟».

غمغم كاريس: «بالكاد. ما الأمر؟».

- «مُجرَّد ثرثرة سريعة. أريد النصيحة فقط. مُجرَّد نصيحة».

- «عَمَّ؟».

- «سأخبرك خلال دقيقة. أما الآن فسنتمشَّى فقط. سنستنشق الهواء. سنستمتع».

ثم شبَّك ذراعه بذراع اليسوعي وقاده بزاوية مائلة لعبور الجهة الأخرى من الشارع. «آه، الآن انظر إلى هذا! يا للجمال! يا للروعة!». كان يشير إلى الشمس التي تغوص في نهر بوتوماك، بينما رنَّت في قلب الصمت ضحكة مُفاجِئة مصحوبة بثرثرة طلاب جامعيين من جامعة جورج تاون يتجمَّعون أمام قاعة الشراب عند زاوية شارع 36. قام أحدهم بضرب الآخر بقوَّة على ذراعه، وانخرط الاثنان في مُصارعة ودِّية. «آه، الزمالة...». زفرها كيندرمان حارةً وبأسى وهو يرمق جماعة الشُبَّان التي تفيض بالحيوية. «لم أذهب إلى الجامعة قط... لكن كم تمنَّيت...» ثم أعاد المُحقِّق بصره إلى كاريس وقطَّب جبينه في قلق قائلًا: «حقًّا، أنت تبدو في حالة يُرثى لها. ما الأمر؟ هل كنت مريضًا؟».

متى سيدخل كيندرمان في صلب الموضوع؟ هكذا تساءل كاريس في قرارة نفسه.

أجابه اليسوعي: «لا، مشغول فقط».

تنهَّد كيندرمان بصفير أنفاسه المُميَّز: «هوِّن عليك إذًا. لا تُرهق نفسك. بالمناسبة، هل شاهدت باليه البولشوي في ووترجيت؟».

- «لا».

- «ولا أنا. لكم أتمنَّى الذهاب. تلك الفراشات، إنهن رشيقات جدًّا... لطيفات تمامًا!».

كانا قد وصلا إلى الجدار المُنخفض لمرآب سيَّاراتٍ واسع، حيث لم يعد يُعيق مشهد الغروب شيءٌ. وقف الرجلان، وأراح كاريس ساعده على قمَّة الجدار ونقل بصره من مرأى غروب الشمس إلى كيندرمان.

سأله كاريس: «حسنًا، ماذا يجول في عقلك؟».

- «آه، في الحقيقة يا أبت...».

قالها كيندرمان مُتنهِّدًا، ثم التفت، وانحنى أمامًا وشبَّك كفَّيه فوق الجدار ونظر بشرود عبر النهر وهو يردف: «أخشى أن لديَّ مُشكلة».

- «مهنية؟».

- «بشكلٍ ما. فقط بشكلٍ ما».

- «ما هي؟».

- «حسنًا، إنها في الغالب...» قالها كيندرمان مُتردِّدًا، ثم واصل «حسنًا، يمكنك أن تقول إنها أخلاقية في الغالب يا أبانا كاريس. تساؤل عن...».

انخفض صوت المُحقِّق وتراجع، ثم استدار وأسند ظهره إلى الجدار وحملق في رصيف المُشاه وهو يقول: «لا يوجد من أستطيع التحدُّث إليه عن الأمر، ليس قائدي على وجه الخصوص. فقط لا أستطيع. لا أستطيع إخباره. لذا فكَّرت» هنا التمعت عينا المُحقِّق فجأة واستطرد «يجب أن تسمع هذه القصة، إنها طريفة. كان لديَّ عمَّة مذعورة تمامًا وعلى الدوام من زوجها. يا للمرأة المسكينة. لم تكن تجرؤ على التفوُّه أمامه بكلمة، على الإطلاق، أو ترفع صوتها. لذا عندما كانت تغضب منه بخصوص أمرٍ ما، تركض فورًا إلى خِزانة الملابس في غرفة نومها. وهناك في الظلام -لن تُصدِّق الأمر!- في قلب العتمة، وهي وحيدة تمامًا، والملابس تُحيط بها من كل جانب، والعث أيضًا، كانت تلعنهُ وتسبَّهُ، لقرابة عشرين دقيقة، تُفرغ فيها كل ما فكَّرت في قوله له! حقًّا! أعني، لقد كانت تصرخ أحيانًا! وعندما تخرج تكون قد شعرت بتحسُّن، فتذهب وتلثمه على وجنته. الآن ماذا تُسمي هذا يا أبانا كاريس؟ أهذا علاجٌ فعَّال أم لا!».

أجاب كاريس بابتسامةٍ واسعةٍ شاحبة: «فعَّال جدًّا»، ثم استطرد: «وأنا خِزانة ملابسك الآن؟ أهذا ما تريد قوله؟».

قال المُحقِّق بشكلٍ خطير: «بشكلٍ أو بآخر. لكن الأمر أكثر خطورة، والخِزانة يجب أن تتكلَّم».

- «هل معك لفافة تبغ؟».

نظر كيندرمان إلى كاريس بشكٍ خالٍ من التعبير.

- «حالة صحية كحالتي وأكون مُدخِّنًا؟».

- «لا، بالطبع».

هكذا غمغم كاريس وهو يلتفت مواجهًا النهر وهو يُشبِّك كفَّيه على قمَّة الجدار. فعل هذا كي يوقف ارتجافهما.

- «يا لك من طبيب! لا قدَّر الله أن أكون مريضًا في غابةٍ ما وبدلًا من ألبرت شفايتزر، لا يوجد معي إلَّاك! أما زلت تعالج البثور بالضفادع يا دكتور كاريس؟».

أجاب كاريس بسخرية مقهورة مريرة: «إنها علاجيم».

قطب كيندرمان جبينه وقال: «أنت لا تبتسم جيِّدًا اليوم يا أبت. ثمة خطب ما. ما الأمر الآن؟ هلُم، أخبرني».

أحنى كاريس رأسه وصمت قليلًا، ثم قال بنعومة: «حسنًا، اِسأل الخِزانة ما تشاء».

تنهَّد المُحقِّق وواجه النهر وبدأ كلامه: «كنت أقول...» ثم حكَّ جبينه بظفر إبهامه قبل أن يواصل: «كنت أقول... حسنًا، أنا أعمل على قضية يا أبت.. جريمة قتل».

- «دينينجس؟».

- «لا، إنها قضية لا تعرفها يا أبت.. فلنفترض وجود قضية ما.. أمر افتراضي بحت».

- «فهمت».

واصل المُحقِّق كلامه وهو يختار كلماته ببطءٍ وحرصٍ شديد: «الأمر

يبدو كأنها جريمة قتل طقسية. ودعنا نقول إن في ذلك المنزل الذي حدثت به الجريمة -في ذلك المنزل الافتراضي- يعيش خمسة أشخاص، وأن أحدهم يجب أن يكون القاتل» ثم أصدر حركة مُشدِّدة من يده تؤكِّد على ما يقول «أنا أعرف هذا. أعرفه جيِّدًا. بل مُتأكِّد منه تمامًا» ثم توقَّف وزفر نفسه ببطء، وواصل «لكن المشكلة أن، حسنًا، كل الأدلة تشير إلى طفلة يا أبت. فتاة صغيرة في سِنٍّ عشر سنوات، أو اثنتي عشرة سنة... مُجرَّد طفلة. إنها مثل ابنتي. أجل أعرف أن الأمر يبدو غير معقول... بل سخيف... لكنه حقيقي. الآن يزور هذا المنزل قس كاثوليكي شهير جدًّا، وهذه القضية افتراضية بالكامل يا أبت، وأنا أعلم أيضًا -عن طريق عبقريتي الافتراضية- أن ذلك القس قد عالج من قبل نوعًا خاصًا جدًا من السقم. وهو بالمناسبة سقمٌ عقليٌّ، وهي حقيقة أذكرها فقط بصورة عابرة كي أُفهمك».

خفض كاريس رأسه في حزن وأومأ قائلًا في أسى: «أجل، استمر. ماذا أيضًا؟».

- «ماذا أيضًا؟ أمورٌ كثيرة. يبدو أيضًا أنه ثمة... حسنًا، شيطانية في هذا المرض، مع قوَّة... نعم، قوَّة خارقة. وتلك... الفتاة الافتراضية... تستطيع كسر رقبة رجل بسهولة تامة» ثم برأسٍ محنيٍّ، كان المُحقِّق يومئ الآن مواصلًا «أجل، أجل.. تستطيع ذلك. لذا السؤال الآن...» قطع المُحقِّق كلامه وكشَّر ملامحه مُفكِّرًا، قبل أن يواصل «هل تفهم.. هل ترى ما أرمي إليه.. الفتاة غير مسؤولة يا أبت. إنها مجنونة. معتوهة تمامًا يا أب كاريس، وطفلة أيضًا! طفلة! ورغم ذلك المرض الذي تعانيه... قد يكون خطرًا. قد تقتل شخصًا آخر. من يدري؟» من جديد التفت المُحقِّق وواجه النهر وهو يُضيِّق عينيه، ثم قال بهدوءٍ ومزاجٍ مُتعكِّر «إنها مُشكلة. ما العمل؟ أعني، بشكل افتراضي بالطبع. هل أنسى الأمر؟ أنساه وآمل أن...» سكت كيندرمان بُرهة «أن تتحسَّن؟» ثم مدَّ يده إلى منديلٍ وتمخَّط فيه «أوه، حسنًا، أنا حائر حقًّا. لا أعرف الصواب من الخطأ. إنه قرار ثقيل

الوطء» قالها وهو يبحث عن جزءٍ نظيفٍ غير مُستخدم من منديله «أجل، إنه فظيع. فظيع ببشاعة. مُخيف. وأكره أن أكون الشخص الذي يجب أن يتَّخذه» مرَّة أخرى تمخَّط، ثم مسح أنفه برفق، ووضع المنديل اللزج في جيبه، ثم استدار إلى كاريس وسأله «ما الصواب في مثل هذه الحالة يا أبت؟ أعني، بشكل افتراضي. ماذا تظن أنه الصواب لفعله؟».

للحظة، ارتج قلب كاريس بموجة من التمرُّد، بغضبٍ ضجرٍ مُنهكٍ من تراكم الأحمال الجسيمة فوق بعضها بعضًا. لكنه تركه ينجرف بعيدًا إلى أن خمد، ثم قابل نظرة المُحقِّق حازمًا وقال بخفوت: «كنت سأترك الأمر بين يدي سُلطة أعلى».

- «أظن أنه قابع بين يديها بالفعل».

- «أجل. اتركه هناك أيُّها المُلازم».

ظلَّت أعين الرجلين مُثبَّتة على بعضها بعضًا، ثم أومأ كيندرمان قائلًا: «أجل يا أبت. أجل. توقَّعت أن تقول هذا» ثم استدار من جديد مواجهًا الغروب، وتمتم «يا للجمال. ما الذي يجعلنا نشعر أن مشهدًا كهذا يحمل بين طيَّاته جمالًا، بينما برج بيزا المائل يفتقده. كذلك العظَّاءات وحيوانات المُدرَّع. هذا سرٌّ آخر» قالها ورفع كم قميصه إلى أعلى ونظر إلى ساعة معصمه وقال «آه، حسنًا، يجب أن أرحل، السيِّدة كيندرمان ستتفقَّد العشاء في أيِّ لحظة الآن وتكتشف أنه برد» ثم التفت إلى كاريس قائلًا «شكرًا لك يا أبت. أشعر بتحسُّن الآن... تحسُّن كبير. أوه، بالمناسبة، هل تستطيع فعل معروف لي؟ إيصال رسالة؟ إذا قابلت في أيِّ وقت بالمصادفة المحضة رجلًا لقبه إنجستورم، أرجوك قل له... حسنًا... فقط قال له «إليفيرا في المصحَّة، وهي بخير». وهو سيفهم. هل ستفعل ذلك؟ أعني، إذا قابلته مُصادفةً يومًا ما».

أجابه كاريس ببعض الحيرة: «سأفعل».

- «اسمع، ألن نذهب لمُشاهدة فيلم ذات ليلة يا أبت؟».

خفض كاريس عينيه وأومأ مُغمغمًا: «قريبًا».

- «أنت مثل حاخام يتكلَّم عن المسيح: دائمًا «قريبًا». اسمع، اسدِ لي معروفًا آخر، هلَّا فعلت؟» رفع كاريس بصره إلى كيندرمان ووجده قلقًا بشدَّة «توقَّف عن الركض بعض الوقت. امش فقط. حسنًا يا أبت؟ هوِّن عليك. هلَّا فعلت ذلك من أجلي، من فضلك؟».

ابتسم كاريس بخفوت وقال: «حسنًا».

نظر المُحقِّق إلى الرصيف في استسلام وقد دسَّ يديه في جيبي معطفه وقال وهو يومئ: «أجل، أعرف. قريبًا.. دائمًا قريبًا» وما أن همَّ بالرحيل، توقَّف، ووضع يدًا على كتف القس اليسوعي وضغطها قائلًا: «إيليا كازان -مُخرج أفلامك- يُرسل تحيَّاته».

راقبه كاريس بعض الوقت وهو يبتعد عبر الشارع. رمقه بولع وتعجُّب. ثم نظر إلى السُحُب ذات المسحة الوردية التي تعلو النهر، وأطال البصره غربًا حيث تنجرف الغيوم نحو حافة العالم وهي تومض ببريقٍ خافتٍ كالوعد الحق. لقد مضت أوقاتٌ رأى فيها الله في مشاهد مثل هذا، وشعر بأنفاسه في ألوان السُحُب، والآن مرَّت بذاكرته أبيات قصيدة شعر أحبَّها فيما مضى، وقد عادت تُؤرِّقه:

المجد لله على الموجودات المُرقَّطة،
على السماء مزدوجة اللَّون كبقرةٍ مُبقَّعة..
على النقاط الحمراء الشاحبة التي تُزيِّن أجساد سمك السلمون العائم،
على ثمار الكستناء الطازج المُتساقط بلون الفحم المُشتعل، وأجنحة العصافير...
كل هذا من صُنع الرَّب الواجد ثابت الجمال خالِدهُ.
سَبِّحوه.

ضغط كاريس شفتيه بقبضته وخفض بصره من شدَّة الحزن الذي تصاعد من حلقه إلى زوايا عينيه وهو يتذكَّر أبيات مزمورٍ كانت تملأه بالفرح فيما مضى. تذكَّر مُتألِّمًا وهمس: «أوه، يا إلهي. لكم أحببت جمال بيتك». انتظر كاريس في مكانه بعض الوقت، دون أن يجرؤ على النظر إلى

الغروب مرَّة أخرى.

وبدلًا من ذلك، رفع بصره إلى نافذة ريجان.

أدخلته شارون المنزل وأخبرته أن شيئًا لم يتغيَّر. كانت تحمل كومة من الملابس المُتَّسخة تفوح برائحة كريهة، واستأذنت لنفسها مُتمتمة: «يجب أن أذهب بهذي إلى التنظيف».

راقبها كاريس. وفكَّر في القهوة. لكنه سمع الشيطان يجأر بشراسة في وجه ميرين. بدأ في صعود الدرج، لكنه توقَّف وقد تذكَّر الرسالة التي يُفترض أن يُبلغها كارل. أين هو؟ التفت كي يسأل شارون لكنه لاحظ اختفاءها عبر الدرجات المُفضية إلى القبو فذهب للبحث عن الخادم في المطبخ. لم يكن هناك. فقط كريس التي تجلس بمفردها وتسند مرفقيها على ساقيها ويديها تتشابكان في كنفها وهي تنظر إلى... ما هذا؟ اقترب كاريس منها بهدوء، ثم توقَّف. إنها حافظة صور.. قصاصات من الورق وصورٍ مُلصقة. لم تشعر كريس بقدومه.

قال كاريس في تهذيب: «اعذريني من فضلك. هل كارل في غرفته؟».

رفعت كريس نظرة مُفكَّكةً إليه وهزَّت رأسها نافية، وأجابت بصوتٍ مبحوحٍ وباهت: «إنه في مَهمَّة». سمع كاريس نشيجها، ثم غمغمت المرأة مُضيفةً: «توجد قهوة هنا يا أبت. يُفترض أن تكون جاهزة خلال دقيقة».

رمق كاريس مصباح ضوء مُعِدِّ القهوة، وسمع كريس تنهض من مكانها، وعندما التفت وجدها تمُر سريعًا من جواره وهي تشيح ببصرها وسمع عبارة «اعذرني» مُقتضبة بصوتٍ مُتهدِّج، وخلال لحظة كانت كريس قد غادرت المطبخ.

نظر كاريس إلى حافظة الصور. كلها لقطاتٍ عفوية لفتاة صغيرة بارعة الجمال. مرَّت لحظة عابرة، ثم أدرك القس مصعوقًا أنه ينظر إلى ريجان! ها هي ذي تُطفئ الشَّمع المغروس في كعكة عيد ميلاد مُغلَّفة بالقشدة، وهنا، تجلس على رصيف بُحيرة خشبي وهي ترتدي سراويل قصيرة وفانلة وتلوِّح بمرح إلى الكاميرا. كان شعارٌ ما مُطرَّزًا على صدر فانلتها:

مُعسكر كذا... تعذَّرت عليه الرؤية. على الصفحة المُقابلة، ثمة ورقة كرَّاسة تحوي مخطوطة بخطٍ طفولي:

لو بدلًا من الصلصال،
أستطيع جمع كل الأشياء الجميلة،
مثل قوس قزح،
أو السُحُب، أو الطريقة التي تُغنِّي الطيور بها،
رُبَّما وقتها، يا أمي العزيزة، إذا خلطتُها جميعًا معًا،
أستطيع أن أصنع تمثالًا على شاكِلتِك، ويكون جديرًا بكِ.

وأسفل القصيدة كُتِب: أحبك! عيد أم سعيد عليكِ! بينما التوقيع بالقلم الرصاص يقول: راجس.

أغلق كاريس عينيه. لم يحتمل أكثر. استدار مُبتعدًا في إنهاك وانتظر انتهاء القهوة. برأسٍ محني، أمسك بحافة الرَّف وأغلق عينيه مُجدَّدًا. أغلِقها! أغلِقها! هكذا فكَّر. لكنه لم يستطع، وفي أثناء ما كان يستمع إلى صوت تقطير القهوة الصادر من مُعِدِّ القهوة، بدأت يده ترتعش مُجدَّدًا وقد تضاعفت شفقته فجأة وتحوَّلت إلى غضبٍ أعمى بسبب المرض والألم، بسبب مُعاناة الأطفال وهشاشة الجسد البشري، بسبب وحشية الموت التي تتجاوز كل حدٍ.

- «لو بدلًا من الصلصال...».

تلاشى الغضب وحلَّ محلَّه أسىً وعجز خائب الرجى.

- «... كل الأشياء الجميلة...».

لم يقدر على انتظار القهوة. يجب أن يذهب. يجب أن يفعل شيئًا. يُساعد شخصًا ما. يحاول. ترك المطبخ وسار في طريقه، وبينما هو قريب من غرفة المعيشة، نظر عبر الباب المفتوح وشاهد كريس تجلس على الأريكة وتبكي بُحرقة، بينما شارون تحاول تهدئتها. أشاح ببصره وصعد الدرج، وسمع الشيطان يزأر مسعورًا في ميرين «... كنت ستخسر! كنت ستخسر وقد عَلِمت ذلك! يا حثالة! يا ابن الزنى! عُد يا ميرين! عُد و...».

منع كاريس نفسه عن الإنصات.

- «... أو الطريقة التي تُغنِّي الطيور بها».

ما إن دلف إلى الحجرة، أدرك أنه نسى ارتداء سُترته الصوفية. نقل بصره إلى ريجان وهو يرتجف من البرد. كان رأسها منحرفًا إلى أسفل ولا يُعيره انتباهًا، والصوت الشيطاني يواصل ثورته العارمة.

سار ببطء إلى مقعده والتقط دِثارًا، وحينها فقط لاحظ في إنهاك غياب ميرين. بعدها بلحظات، تذكَّر كاريس أنه ينبغي عليه فحص ضغط دم ريجان، فنهض مُقطَّعَ الأوصالِ وسار مُتثاقلًا إليها، إلا أنه تقهقر مُنسحِبًا إلى الوراء فجأة من وقع الصدمة. كان ميرين مُمدَّدًا على البساط جوار الفراش، مُرتخي الجسد مُخلَّع الأوصال ووجهه يواجه الأرض. ركع كاريس جواره، وانحنى فوقه، وشاهد زُرقة وجهه المُحتقن، فمدَّ يده ليستشعر نبضه، وقلبه المطعون يُعتصر من الألم وقد أدرك أن ميرين قد مات.

ثار الشيطان زاعقًا: «رائحة الفُساء القدِّيسي تفوح منه! هل مات؟ كاريس، عالجه! أعده إلى الحياة لننتهي من الأمر، لـ...».

فشل قلبي. شريانه التاجي لم يتحمَّل. تأوَّه كاريس في حسرة: «آه، يا إلهي. لا». ثم أغلق عينيه وهزَّ رأسه في عدم تصديق.. في يأسٍ.. ثم بموجة هائلة من الحزن غرس إبهامه بغِلٍّ وحشي في ساعد ميرين الشاحب كما لو أنه يعتصر نبض الحياة المفقود من أوتاره.

- «... الزنديق الوَرِع...».

ارتخى جسد كاريس وتداعى إلى الوراء وسقط مُلتقطًا أنفاسه. ثم شاهد حبوبًا صغيرة تتناثر فوق الأرضية، فالتقط واحدة منها وأدرك في ألم أن ميرين شعر بقلبه يتأزَّم وحاول إسعافه. حبوب نيتروجلسرين. لقد عَلِم بالأمر. نظر كاريس إلى وجه ميرين بعينين في احمرار الدَّم وتذكَّر كلماته «... اذهب واسترح قليلًا الآن يا داميان».

- «حتَّى ديدان الأرض لن تقتات على جسدك الفاسد أيُّها الـ...».

رفع كاريس بصره ونظر إلى الشيطان، وبدأ جسده كله يرتجف بغضبٍ قاتلٍ بادٍ خارج عن السيطرة وهو يستمع إلى فحشه.

لا تنصت!

- «... الشاذ...».

لا تنصت! لا تنصت!

انتفخ وريدٌ نابض بالغضب في جبين كاريس، وبينما هو يُمسك بيدي ميرين ويبدأ في ثنيهما برفق على هيئة الصليب فوق صدر الرجلِ، سمع الشيطان يزعق في سخطٍ: «الآن ضع قضيبه في يديه!» بينما كُتلة من البُصاق الآسن تضرب عين القس المُسِن الراقد بلا حراك، والشيطان يُتمتم مُستهزِئًا: «الطقوس الأخيرة!». ثم أرجع رأسه إلى الوراء وانفجر ضاحكًا بمجون.

رمق كاريس لطخة البُصاق بوجهٍ جامد. لم يتحرَّك. لم يكن يسمع أيَّ شيء بخلاف غليان دمائه في عروقها. ثم ببطء، وبارتجافٍ هائل، وارتعاشٍ عصبيٍ عنيف، نظر إلى أعلى بوجهٍ يكاد ينفجر من الاحمرار في موجةٍ عارمةٍ من الكراهية والغضب، وهمس بحنقٍ حارقٍ وهو يغلي: «يا ابن العاهرة!». ورغم أنه لم يكن يتحرَّك، بدا أنه يحتدم غيظًا من الداخل، وانتفخت أوداجه مشدودة بعنفٍ كحبالٍ غليظة. أوقف الشيطان ضحكاته ورمق كاريس بِشَرٍ ونكاية.

قال كاريس: «كنت تخسر!».

- «أنت فاشل! لطالما كنت كذلك!».

ثم أغرقه بالقيء.

لكن القس تجاهله.. وقال بعدها وأسنانه تصر وتطحن بعضها بعضًا: «نعم، أنت بارع مع الأطفال! الفتيات الصغيرات! حسنًا، أرني ما عندك! لنرى ماذا تفعل حين تُجرِّب شيئًا أكبر! هيًا!».

كانت يداه تمتدَّان إلى الأمام كخُطَّافات سنانير، وهي تُغري ببطء، وتدعوه: «هيًا! هلم أيُّها الفاشل! جَرِّبني! اترك الفتاة وخذني! تلبَّسني!».

في اللحظة التالية انتفض جسد كاريس وانتصب مُستقيمًا بشكلٍ حاد،

وارتمى رأسه إلى الوراء بزاوية حادة مواجهًا السقف، ثم ارتجَّ مُنحنيًا إلى أسفل وانتصب مُجدَّدًا، بينما قسمات القس اليسوعي تلتوي وتتموَّج وقد تحوَّلت إلى قناعٍ من الغضب والكراهية لا يُمكن تصوُّرهما، ثم بانتفاضاتٍ تشنُجية قوية، كمَن يواجه مقاومة غير مرئية، امتدَّت أذرع القس اليسوعي الضخمة القوية لتقبض حلق ريجان ماكنيل.

سمعت كريس وشارون الأصوات. كانت المرأتان في حجرة المكتب. كريس جالسة إلى المَشرب، وشارون خلفه تُعدّ لهما شرابًا. نظرت كلتا المرأتين فجأة إلى السقف حين سمعتا الجلبة الآتية من غرفة ريجان: ريجان تصرخ في رعب، وصوت كاريس يصيح بشراسة «لا!». ثم أصوات شخص يتعثَّر مُتخبِّطًا بأثاث الحجرة، وجُدرانها.

ألقت كريس بالشراب من يدها وقد أجفلت من صوت الارتطام العنيف، صوت زجاج يتكسَّر، ثم فورًا انطلقت وشارون صاعدتان الدرج في سرعة جنونيّة واتَّجهتا إلى باب غرفة ريجان، وما إن اندفعتا إلى الداخل، شاهدتا مصاريع النافذة مُحطَّمة وملقاه على الأرض، وقد انتُزِعت من مفصلاتها! أما النافذة ذاتها فتحطَّم زُجاجها بالكامل!

مصعوقتان، اندفعت المرأتان نحو النافذة، وبينما هما في طريقهما، لاحظت كريس جسد ميرين الهامد جوار الفراش. شهقت وتجمَّدت في مكانها من الرعب، ثم ركضت نحوه وركعت جواره وهي تنشج: «أوه يا إلهي! شارون! شار، تعالي هنا! بسرعة، تعالـ...».

لكن صرخة شارون المُلتاعة أخرستها. رفعت كريس وجهًا قد خلا من الدماء تمامًا، وفغرت فمها وهي ترى شارون عند النافذة تنظر إلى أسفل نحو السلالم الحجرية الحادة وتلطم وجنتيها بكفَّيها.

- «شار، ما الأمر؟».

صرخت شارون في هستيريا: «إنه كاريس! الأب كاريس!».

ثم انطلقت خارجة من الغرفة.

بوجهٍ شاحب يلتوي من الألم، نهضت كريس من مكانها وهرعت إلى النافذة ونظرت إلى أسفل، وشعرت بقلبها يسقط من بين ضلوعها. عند

نهاية الدرجات المُفضية إلى شارع إم، تمدَّد كاريس مُتكوِّمًا ومُتشحِّطًا في دمائه، وقد بدأ جمعٌ من المارة في الالتفاف حول جُثّته.

وضعت كريس يدها على وجنتها وحدَّقت إلى الأسفل في اِلتياع. حاولت تحريك شفتيها. حاولت التحدُّث. لكنها لم تستطِع.

- «ماما؟».

هكذا نادى صوتٌ فانٍ مُتهالك من خلفها. أدارت كريس رأسها بشكلٍ جزئي إلى الوراء، واتَّسعت عيناها، ولم تجرؤ على تصديق ما سمعته لتوِّها. ثم نادى الصوت مرَّة أخرى. «ماما، ما الذي يحدث؟ تعالِ يا ماما! أنا خائفة! أوه أرجوك يا ماما! أرجوك! تعالِ!».

التفتت كريس ورأت دموع الحيرة والارتباك في عينيَّ الطفلة، وفجأة اندفعت راكضة إلى الفراش ودموعها تنهمر. «راجس! آه يا صغيرتي، آه يا صغيرتي! آه يا راجس! إنها أنتِ حقًا. إنها أنتِ!».

في الطابق الأرضي، انطلقت شارون خارجة من المنزل وركضت محمومة إلى مقر الإقامة اليسوعية، حيث طلبت رؤية الأب داير للأهمية العاجلة. جاء القس سريعًا إلى مكتب الاستقبال، وأخبرته شارون بالأمر. نظر إليها مصدومًا، وسألها: «هل اتَّصلتِ بالإسعاف؟».

- «أوه يا إلهي! لا، لم أتَّصل! لقد شُلَّ تفكيري!».

أعطى داير تعليمات سريعة إلى موظَّف الاستقبال، وأسرع خارجًا من الردهة برفقة شارون. ثم عبرا الشارع وهبطا الدرجات سريعًا معًا.

- «دعوني أمُرُّ من فضلكم! دعوني أمُرُّ».

كان يقولها وهو يشق طريقه عبر المارة المُتجمهرين، وهو يسمع همس تمتماتٍ عديدة «ماذا حدث؟». «شخصٌ ما سقط عبر الدرج». «أجل، لا بد أنه كان مخمورًا. هل يوجد قيء؟». «هيَّا يا حلواتي. سنتأخر».

في النهاية، وصل داير إلى صديقه، وعلى الفور شعر بقلبه يتوقَّف وقد تجمَّد في بُعدٍ آخر سرمدي من الحزن، في مكانٍ هواؤه أكثر إيلامًا من أن يُستنشق. كان كاريس يستلقي على ظهره مُكوَّمًا مُحطَّمًا، ورأسه غارق وسط بُحيرة مُتنامية من الدماء. كان فمه مفتوحًا، وتوجد لمعة غريبة في

عينيه، وبدا مُحدِّقًا بثباتٍ إلى الأعلى نحو النجوم التي تنتظر في صبر كأنه يُشير إلى أُفقٍ غامض. لكنه الآن نقل عينيه إلى داير، وفيهما بدت لمعة ابتهاج.. بريق إنجاز.. شيءٌ ما كالإنتصار.

ثم بدا أنه يستجدي شيئًا مُلِحًّا.

- «هيًّا! تراجعوا! تراجعوا الآن!».

كان هذا نداء رجل شُرطة.

ركع داير جوار صديقه ووضع يدًا خفيفة رقيقة كأنه عناق حميم على الوجه المُرضَّض المجروح. يا لعدد الجروح، وشريط الدَّم الذي ينسال من ركن الفمِّ! «داميان...»، لفظها داير ثم توقَّف ليُسيطر على ارتعاش أحباله الصوتية، وهو يرى في عيني كاريس ذلك الاستجداء الخافت اللامع الدَّافئ.

انحنى داير إليه وسأله: «هل تستطيع الكلام؟».

ببطء، مدَّ كاريس يده إلى ساعد داير، وتشبَّث به، ثم اعتصره برفق.

كابحًا دموعه، انحنى داير أكثر، ووضع فمه جوار أُذُن كاريس، وسأله برفق: «هل تريد أن تدلي باعترافك الآن يا داميان».

ضغطة أخرى.

- «هل أنت نادم على كل الخطايا التي ارتكبتها في حياتك وعلى الإساءة إلى الرَّب العلي القدير؟».

ارتخت قبضة اليد قليلًا، ثم ضغطت من جديد.

اعتدل داير إلى الوراء، ثم رسم ببطء علامة الصليب فوق كاريس وهو يقرأ كلمات الغفران بانفعال: «بالسلطة المُفوَّضة إليَّ، أُبرئك من كل ذنوبك...».

انزلقت دمعة عارمة من زاوية عين كاريس، وشعر داير بذارعه تُعتصر الآن بقوَّة أكبر، وباستمرار، وهو يُنهي غُفرانه: «... باسم الأب، والابن، والروح القُدُس. آمين».

انحنى داير مرَّة أخرى واضعًا فمه بالقرب من أُذُن كاريس.. مُنتظرًا.. ومُكافحًا الغصة التي لا تبرح حلقه. ثم غمغم قائلًا: «هل أنت...؟».

قطع داير عبارته. لقد ارتخت القبضة عن ساعده فجأة. رفع داير رأسه ورأى العينين يملأهما السلام، وشيءٌ آخر أيضًا: شيءٌ كالفرح بلقاء طال اشتياقه. كانت العينان لا تزالان تُحدِّقان.. لكن ليس إلى هذا العالم.. لا إلى شيء ممَّا يوجد هنا.

ببطءٍ ولين، أرخى داير جفنيْ كاريس. وسمع سيَّارة الإسعاف تولوِل من بعيد. همَّ القس بقول «وداعًا»، لكنه لم يقوَ على الانتهاء منها. وأحنى رأسه وبكى.

وصلت سيَّارة الإسعاف. ووضع المُسعفان كاريس على المحفَّة، وبعد أن أدخلوه إلى صندوق السيَّارة، تسلَّق داير إلى الداخل وجلس جوار المُسعف، ومدَّ يده ممسكًا بيدِ كاريس.

قال الطبيب: «لا يوجد ما تستطيع مُساعدته به الآن يا أبت. لا تُصعِّب الأمر على نفسك. لا تأتِ».

بنظرة مُثبَّتة على الوجه المُشظَّى المُمزَّق، هزَّ داير رأسه ببطء وقال بهدوء: «لا. سأصحبه».

نظر المُسعف إلى باب سيَّارة الإسعاف الخلفي، حيث كان السائق يقف مُنتظرًا في رويَّة وينظر إلى الداخل بحاجبين مُرتفعين في تساؤل. أومأ له المُسعِف بصمت، فأغلق السائق الباب عليهما.

على الرصيف، وقفت شارون بلا أدنى تعبيرٍ على وجهها بينما سيَّارة الإسعاف تبتعد ببطء، وهي تسمع تمتمات المارة الفضولية.

- «ما الذي حدث؟».

- «أوه، من يعرف بحق الجحيم».

تعالى عويل صفارة سيارة الإسعاف صاخبًا في عمق الليل وتهادى فوق النهر. ثم توقَّف فجأة.

لقد تذكَّر السائق أنه لا داعي للعجلة الآن.

خِتام

تدفَّقت خيوطٌ رفيعةٌ من أشعة شمس يونيو عبر خصاص نافذة حُجرة نوم كريس، بينما هي تطوي قطعة الثياب الأخيرة وتضعها فوق محتويات حقيبة السفر الموضوعة فوق فراشها، ثم أغلقتها. تحرَّكت سريعًا باتِّجاه الباب وقالت لكارل: «حسنًا، هذا كل شيء». مع تقدُّم مُدبِّر المنزل السويسري ليؤمِّن على قفل الحقيبة، خرجت كريس إلى الردهة وتوجَّهت إلى حُجرة ريجان وهي تُنادي: «يا ريجان، هل انتهيتِ من حقيبتك؟».

لقد مرَّت ستة أسابيع الآن على وفاة القِسِّين.. على الفاجعة.. على إغلاق التحقيق مِن قِبَل كيندرمان.. وإلى الآن لا توجد إجابات. لا يوجد سوى تكهُّناتها المؤرِّقة واستيقاظها الدَّامع المُتكرِّر من النوم. وفاة ميرين حدثت بسبب مرض في الشريان التاجي، أما بالنسبة إلى كاريس فـ... «الأمر مُحيِّر» كما قال كيندرمان قبل أن يتنهَّد مُتمتمًا: «لا، الفتاة ليست الفاعل». كان قد قرَّر ذلك، الفتاة لم تفعلها، فقد كانت مُقيَّدة بإحكام في فراشها. إذًا فكاريس من نزع المصاريع بنفسه، وقفز من النافذة مُتعمِّدًا الموت. لكن لماذا؟ أهي محاولة للهروب من شيءٍ ما مُروِّع؟ لكن كيندرمان أسقط هذا الاحتمال سريعًا، لأنه إذا كان القس قد أراد الهروب، فالباب أمامه كان مفتوحًا. كما أن كاريس ليس من طراز الرجال الذين يفرُّون من أيِّ شيءٍ. لماذا إذًا القفزة المُميتة؟

بالنسبة إلى كيندرمان، بدأت الإجابة تأخذ هيئة التصريح الذي ذكره داير

عن صراعات كاريس النفسية المُمزِّقة: إحساسه بالذنب تجاه موت أمه.. وأزمة فقد إيمانه.. وعندما أضاف كيندرمان إليهما قلّة النوم لأيّامٍ عديدة مُتتالية، وقلقه وشعوره بالذنب تجاه موت ريجان الوشيك، والهجمات الشيطانية التي اتَّخذت هيئة والدته، ثم أخيرًا صدمته من موت ميرين، فقد خَلِصَ حزينًا أن عقل القس اليسوعي الذي حطَّمته أحاسيس الذنب لم يستطع التحمُّل أكثر، وانهار. بالإضافة إلى ذلك، وفي أثناء تحقيقه في قضية موت بيرك دينينجس، تعلَّم المُحقِّق من قراءاته عن الاستحواذ أن طاردي الأرواح أحيانًا يقعون ضحايا للاستحواذ أنفسهم، وفي ظروفٍ مُشابهة جدًّا لما جرى هنا. أحاسيس الذنب القوية والرغبة في تلقِّي العقاب، تُضاعفان من شِدَّة الإيحاء الذاتي. كان كاريس مُهيَّئًا لذلك كثمرة اكتمل نضوجها.

لكن داير رفض قبول تلك الحقيقة. ولم ينفك عن زيارة المنزل مرَّاتٍ ومرَّات في أثناء فترة نقاهة ريجان كي يتحدَّث إلى كريس، وسألها مِرارًا وتِكرارًا إن كانت ريجان تستطيع الآن تذكُّر ما حدث في غرفتها في تلك الليلة. لكن الإجابة دائمًا ما أتت إليه على هيئة هزَّة رأس نافية، أو كلمة لا صريحة. وفي النهاية أُغلِقت القضية.

أطلَّت كريس برأسها إلى غرفة ريجان. كانت الفتاة تنظر إلى أسفل نحو حقيبة السفر المفتوحة فوق فراشها في سخطٍ طفولي وهي تُمسك بدُميتين محشوَّتين بالقطن في قبضتها. كانا على ميعاد للّحاق بالطائرة التي ستقِلّهما إلى لوس أنچلوس عصرًا، حيث ستتركان خلفهما شارون والزوجين إنجستورم كي يطمئنوا على المنزل ويحكموا إغلاقه، ثم يقود كارل الچاجوار الحمراء عبر البلاد رجوعًا إلى الوطن.

سألتها كريس: «كيف تبلين في إعداد حقيبتك يا حبيبتي؟».

رفعت ريجان إليها وجهًا مُتعبًا قليلًا.. مُضنى قليلًا.. ويُظلِّل عينيه بعض السواد.

قالت وهي تلوي شفتيها إلى الخارج في عبوسٍ مُحبَّب: «لا توجد مساحة كافية في تلك الحقيبة!».

- «حسنًا، لن تستطيعي أخذ كل شيء الآن يا حبيبة قلبي. هلُمي، اتركي ما تبقَّى وويلي ستجلبه معها. هيَّا يا صغيرتي، يجب أن نُسرع وإلا ستفوتنا الطائرة».

- «حسنًا يا ماما».

- «شاطرة يا عزيزتي».

تركتها كريس وهبطت الدرج، وبمُجرَّد وصولها إلى نهايته، رنَّ جرس الباب، فذهبت إليه وفتحته.

- «مرحبًا يا كريس».

كان القادم الأب داير طويل الوجه.

- «فقط جئت لأقول وداعًا».

- «تعال، ادخل. كنت سأتَّصِل بك لتوِّي».

- «لا، لا عليك يا كريس. أعرف أنكِ في عجلة من أمرك».

أخذت كريس يده وجرَّته إلى الداخل قائلة: «أوه، تعال! أنا على وشك إعداد قدحًا من القهوة. احتسِ واحدًا معي».

- «حسنًا، إذا كنت مُتأكِّدة...».

قالت إنها مُتأكِّدة تمامًا وهما يتَّجهان إلى المطبخ، حيث جلسا إلى الطاولة، واحتسيا القهوة وتحدَّثا حديثًا وديًّا وتبادلا المُجاملات، بينما شارون وآل إنجستورم يذرعون المنزل جيئةً وذهابًا من حولهما. جاءت كاريس إلى ذِكْر ميرين، وقد شعرت بالهيبة والدَّهشة من رؤية كل أولئك الوجهاء والأجانب أصحاب المقام الرفيع في جنازته. ثم تلت ذلك لحظاتٍ من الصمت حدَّق فيها داير إلى قدح قهوته، وإلى حزنه. قرأت كريس أفكاره فقالت في عذوبة: «ما زالت لم تتذكَّر. أنا آسفة».

أومأ اليسوعي برأسه وهو ما زال مُطرِقًا. نظرت كريس إلى الطبق الذي يحوي فطورها. إنها لم تأكل من فرط انفعالها وحماستها. كانت الوردة الحمراء إيَّاها قابعة في مكانها. التقطتها كريس وأمسكتها من ساقها وأخذت تلُفُّها يمينًا ويسارًا وهي تُفكِّر. ثم غمغمت: «إنه لم يعرفها قط». ثم أوقفت عبثها بالوردة ورفعت عينيها إلى داير. كان يُحدِّق إليها بإمعان. ثم سألها برفق: «ماذا تظنين قد حدث بالفعل؟ أعني، بصفتك غير مؤمنة، هل تعتقدين أنها كانت ممسوسة حقًّا؟».

فكَّرت كريس قليلًا ورأسها مُطرَق، وعادت تعبث بالوردة مُجدَّدًا. وفي النهاية قالت: «لا أعرف يا أب داير.. لا أعرف. عندما يأتي الحديث إلى الرَّب يتحتَّم على المرء التفكير أنه إذا وُجِد إلهٌ بالفعل، فلا بد أنه يحتاج أن ينام مليون عام كل ليلة كي لا يصبح سريع الغضب. هل تفهم ما أقصد؟ إنه لا يتحدَّث إلينا قط. لكن عندما يأتي الأمر إلى الشيطان...» أوقفت كريس كلامها ونظرت إلى داير، ثم استطردت «حسنًا، الشيطان أمرٌ آخر. أستطيع الاقتناع به، في الحقيقة، رُبَّما أنا كذلك بالفعل. هل تعرف السبب؟ لأن الشَّقي لا ينفك عن الإعلان عن نفسه».

رمقها داير بولعٍ بعض الوقت، ثم قال بهدوء: «لكن إن كانت كل الشرور الموجودة في العالم تجعلكِ تظنين في احتمالية وجود الشيطان يا كريس، ماذا عن كل الأمور الخيِّرة؟».

بادلت كريس نظرة داير الثابتة بمثيلتها. لقد أجبرتها كلماته على أن تقطِّب جبينها وتُضيِّق عينيها في تفكيرٍ طويل، ثم بعد برهة نظرت بعيدًا وأومأت برفقٍ مُغمغِمة: «لم أُفكِّر في ذلك من قبل. تلك نقطة جيِّدة». كان الحزن والصدمة من موت كاريس قد خيَّما على مزاجها كغمامةٍ سوداء، لكنها حاولت الآن التركيز على تلك الدعوة المتواضعة للأمل والضياء، عن طريق تذكُّر ما قاله داير لها عند سيَّارتها الواقفة قرب مقابر اليسوعيين

في الحرم الجامعي بعد مراسم جنازة كاريس. سألته حينها: «هل تستطيع القدوم إلى المنزل لبعض الوقت؟». أجابها: «أوه، لكم أحب ذلك، لكنني لا أستطيع تفويت الوليمة». بدت مُتحيِّرة وقتها لذا فسَّر لها قائلًا: «عندما يموت أحد اليسوعيين، نُقيم مأدُبة للاحتفال. فبالنسبة إليه إنها البداية الحقَّة».

- «قلت إنه يعاني من أزمة إيمان؟».

أومأ داير برأسه.

خفضت كريس رأسها قليلًا وهزَّته قائلة على نحوٍ شارد: «لا أستطيع تصديق ذلك. لم أرَ إيمانًا بمثل هذه القوَّة في حياتي قط».

- «لقد وصلت السيَّارة يا سيِّدتي».

صاحت كريس وقد انتُزِعت من أحلام يقظتها: «حسنًا يا كارل! سنأتي سريعًا».

نهضت وداير من مكانهما، لكنها قالت: «لا، ابق يا أبت. سأصعد إلى الأعلى لآتيَ بريجان».

أومأ داير بشرود وتمتم: «حسنًا». كان يُفكِّر في صرخة كاريس الأخيرة «لا!». ثم صوت الخطوات التي تلت ذلك من فوق رؤوس من في المنزل، قبل القفزة الهائلة من النافذة. ثمة شيءٍ حدث حينها، هكذا فكَّر. تُرى، ماذا كان؟ إن ذكريات كريس وشارون عن الأمر كلها مشوَّشة وغامضة. لكن الآن أخذ داير يُفكِّر من جديد في نظرة الابتهاج الغامضة التي اعتلت عيني كاريس، والتي كانت مصحوبة بشيءٍ آخر، لقد تذكَّر الآن: سطوع بريق شديد من الـ... ماذا؟ لم يكن يعرف على وجه التحديد، لكنه يظن أنه كان نوعًا ما من الفوز.. الانتصار. ولسببٍ غير مفهوم، كانت الفكرة تُريحهُ.. تُشعِره بخِفَّة في الروح. سار داير إلى مدخل المنزل ويداه في جيبيه، ثم وقف قرب الباب المفتوح وشاهد كارل يساعد السائق في دسِّ

الحقائب في صندوق سيَّارة الأجرة الخلفي. مسح داير جبينه. الجو رطب وحار حقًّا. ثم نقل بصره إلى اتِّجاه صوت خطوات تهبط الدرج. كريس وريجان. يدٌ في يد. اقتربتا منه، ولثمته كريس على وجنته، ثم أراحت يدها عليها كما لو أنها تستكشف بحنانٍ أغوار عيني القس الحزينتين.

قال لها: «أنا بخير يا كريس. يلُفُّني هذا الشعور بأن الأمر على ما يُرام».

قالت كريس: «هذا جيِّد»، ثم نظرت إلى أسفل نحو ريجان وأردفت: «عزيزتي، هذا الأب داير. سَلِّمي عليه».

- «تسُرَّني مُقابلتك يا أب داير».

- «وأنا تسُرَّني مُقابلتك جدًّا يا ريجان».

رمقت كريس ساعة معصمها.

- «يجب أن نمضي الآن يا أبت».

- «سعيد أنني ودَّعتك. أوه، لا، انتظري! كدت أنسى!» مدَّ القس اليسوعي يده إلى جيب معطفه واستخرج شيئًا وقال «هذه كنت تخصه».

نظرت كريس إلى الميدالية المُقدَّسة التي تقبع في يدِ داير المفتوحة والمرفوعة إليها.

- «إنها بنقش القديس كريستوفر. ظننت أنكِ قد تُحبِّين الاحتفاظ بها».

مرَّت فترة طويلة من الصمت حدَّقت فيها كريس إلى الميدالية بإمعانٍ شديد، وبجبينٍ عابسٍ قليلًا كما لو أنها تُفكِّر في قرارٍ ما. ثم، ببطء، مدَّت يدها وأخذت الميدالية، ووضعتها في أحد جيوب معطفها وقالت لداير: «شكرًا يا أبت. أجل. أجل أحب الاحتفاظ بها» ثم قالت موجِّهةً كلامها إلى ريجان «هيَّا يا عزيزتي»، لكنها حين مدَّت يدها لتأخذ كف ابنتها، رأت كريس أن الفتاة تقطِّب جبينها وتُضيِّق عينيها بثباتٍ على ياقة اليسوعي الرومانية المُستديرة، كأنها تذكَّرت فجأة شبحًا منسيًّا. ثم رفعت يديها فجأة نحو القس اليسوعي. مُتعجِّبًا، انحنى القس الشاب، فوضعت ريجان

يديها على كتفيه ولثمت خدَّه، ثم خفضت ذراعيها وقد لاح على جبينها عبوسٌ حائرٌ، كأنها تسأل في قرارة نفسها لِمَ فعلت ذلك.

دمعت عينا كريس فجأة وأشاحت بوجهها بعيدًا، ثم التقطت يد ريجان وقالت بصوتٍ رقيقٍ مبحوح: «أوه، حسنًا، يجب أن نرحل الآن حقًّا. هيَّا يا عزيزتي. قولي وداعًا للأب داير».

- «وداعًا يا أبت».

مُبتسمًا، هزَّ داير أصابع يديه في تلويحة وداع أخيرة وقال: «وداعًا. أتمنى لكِ رحلة آمنة إلى المنزل».

قالت كريس من فوق كتفها: «سأتَّصل بك من لوس أنچلوس يا أبت». فقط لاحقًا كانت كريس ستُفكِّر فيما كان يعني بالـ«منزل».

- «اعتنِ بنفسك الآن».

- «وأنت أيضًا».

راقبهما داير وهما تبتعدان. وعندما فتح السائق باب السيَّارة لهما، استدارت كريس ولوَّحت مُودِّعة، وألقت إليه بقُبلة في الهواء. لوَّح داير لها وهو يُشاهدها تنزلق إلى مقعد السيَّارة الخلفي جوار ريجان. ومع تحرُّك السيَّارة من مكانها قرب الرصيف، حدَّقت ريجان مُؤرَّقَة إلى داير عبر زجاج السيَّارة الخلفي، إلى أن انعطفت السيَّارة وغابت عن نظره.

التفت داير ونظر إلى يساره وقد سمع صوت صرير مكابح سيَّارة تتوقَّف: سيَّارة شُرطة. ترجَّل كيندرمان من السيَّارة، وهرول سريعًا مُلتفًّا حولها مُتَّجهًا إلى داير وهو ينادي: «لقد جئت لأقول وداعًا».

- «لقد فوَّتهما لتوِّك».

مُحبطًا، توقَّف المُحقِّق فجأة.

- «حقًّا؟ هل رحلوا؟».

أومأ داير برأسه.

التفت كيندرمان ونظر بندم عبر شارع بروسبكت، واعتدل بعدها وخفض رأسه وهزَّها مُغمغِمًا: «أوه!». ثم نظر إلى داير وسار نحوه وسأله جادًا: «كيف حال الفتاة؟».

- «تبدو جيِّدة. بخير حال».

- «آه، هذا جيِّد. هذا كل ما يهم حقًّا» ثم رفع ذراعه ونظر إلى ساعته وأردف «حسنًا، حان وقت العودة إلى العمل. وداعًا الآن يا أبت». قالها وسار مُتَّجهًا إلى سيَّارة الدورية، لكنه توقَّف، وأدار رأسه لينظر نحو القس في تكهُّن، وسأل: «هل تذهب إلى السينما يا أب داير. هل تحب الأفلام؟».

- «أوه، بالتأكيد».

استدار كيندرمان واقترب من داير قائلًا في تردُّد: «أنا أحصل على دعواتٍ مجَّانية. في حقيقة الأمر، لديَّ دعوات لسينما بيوجراف غدًا. هل تحب المجيء؟».

- «ما الفيلم المعروض؟».

- «مُرتفعات ويذرينج».

- «من الأبطال؟».

- «من الأبطال؟!».

ثم انعقد حاجبا المُحقِّق في تجهُّم وهو يُجيب بخشونة: «سوني بونو في دور هيثكليف، وشير في دور كاثرين إيرنشو. هل ستأتي أم لا؟».

- «لقد شاهدته».

حدَّق المُحقِّق في القس اليسوعي بنظرةٍ ذابلةٍ، ثم أشاح بوجهه وهو يُغمغم في أسفٍ: «واحدٌ آخر!».

ثم نظر إلى داير من جديد وابتسامة مُبتهجة تشيع على وجهه، وصعد فوق الرصيف وتأبَّط ذراع اليسوعي وبدأ في اقتياده ببطء عبر الشارع وهو

يقول بحميمية: «لقد تذكَّرت عبارة من فيلم كازابلانكا. في نهاية الفيلم يقول همفري بوجارت إلى كلود رينز: «لوي... أظن أن هذه بداية صداقة جميلة»».

قال داير: «أتعرف، أنت تُشبه بوجارت إلى حدٍ ما».

- «أوه، لقد لاحظت».

وفي ثنايا النسيان، كانا يحاولان التذكُّر.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حاشية المؤلِّف

تحرَّرت قليلًا في أثناء وصفي جُغرافيةِ موقع جامعة جورج تاون الحالي، لا سيَّما في ما يتعلَّق بمكان معهد اللُّغات واللسانيات. من ناحية أخرى، المنزل القائم في شارع بروسبكت لا وجود له في البقعة التي وصفتها، ولا مقر الإقامة اليسوعية كذلك. وأخيرًا، النثر المنسوب إلى لانكستر ميرين ليس نتاج قريحتي، لكنه مأخوذ من خطبة الكاردينال چون هنري نيومان بعنوان «الربيع الثاني».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شُكر وتقدير

شكر خاص لأستاذ الطب هربرت تاني، وأمين مكتبة جامعة چورچ تاون السيِّد چوزيف إي چيفز، والسيِّد ويليام بلووم، وآن هاريس مُحرِّرتي في دار هاربر؛ على مُساعداتهم النفيسة وكرمهم الوافر في أثناء الإعداد لهذا العمل. كما أنني أرغب في الثناء على القس المُوقَّر توماس ڤي برمنجهام، نائب رئيس أبرشية نيويورك التابعة لمُجتمع يسوع، على اقتراحه موضوع هذه الرواية، والسيِّد مارك جافي من دار باناتم بوكس، على إيمانه الكامل -والوحيد- بأهمِّيتها النهائية. وإلى هؤلاء أود أن أُضيف د. برنارد إم ڤاجنر من جامعة چورچ تاون، الذي علَّمني كيفية الكتابة، والقساوسة اليسوعيين، الذين علَّموني كيفية التفكير.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ويليام بيتر بلاتي

روائي وكاتب سيناريو ومخرج أمريكي من أصول لبنانية، وُلِدَ في نيويورك في 7 يناير عام 1928. تُعدُّ رواية «طارد الأرواح» -التي كُتِبت عام 1971- دُرَّة أعماله، كما أنه كتب لاحقًا سيناريو الفيلم الشهير بذات الاسم الذي أُخِذَ عنها، وحاز به على جائزة الأوسكار في فئة أفضل سيناريو مُقتبس عام 1973. في عام 1983، كتب بيتر بلاتي رواية **Legion**، وهي استطراد لطارد الأرواح، وتحوَّلت بدورها إلى فيلم سينمائي عام 1990 بعنوان The Exorcist III، وقد كتب بيتر بلاتي سيناريو الفيلم وأخرجه أيضًا. أعماله الأخيرة تتضمَّن روايات مثل Elswhere عام 2009، و Dimiter عام 2010، وCrazy عام 2010.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفهرس

إلى چولي 5

مُقدِّمة المُترجم 7

مُفتتح: شمال العراق..11

1- البداية..17

الفصل الأول 18

الفصل الثاني 65

الفصل الثالث..71

الفصل الرابع 84

2- الحافَّة.. 107

الفصل الأول 108

الفصل الثاني 119

الفصل الثالث.. 134

الفصل الرابع 152

الفصل الخامس 184

الفصل السادس.. 207

3 - الهاوية.. 239
الفصل الأول 240
الفصل الثاني 309
4 - «وليصل إليك صراخي...» 353
الفصل الأول 354
خِتام.. 413
حاشية المؤلِّف 423
شُكر وتقدير 425
ويليام بيتر بلاتي 427

طَارِدُ الأَرْوَاح

وِليَم بيتر بلاتي

إحدى أشهر روايات الرُّعب في العَالَم

نُشرت رواية «طارد الأرواح» أول مرة عام 1971، وقد أصبحت منذ ذلك الوقت واحدة من أكثر الروايات إثارة للجدل، كما أصبحت ظاهرة أدبية، فقد ظلَّت على رأس قائمة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا لمدة سبعة عشر أسبوعًا.

الرواية مأخوذة عن أحداث حقيقية لطفل تتلبّسه الأرواح، وقد أبدع ويليام بيتر بلاتي رواية أيقونية تحكي حكاية ريجان، فتاة تبلغ من العمر 11 عامًا، ابنة ممثلة سينما تعيش في واشنطن دي سي، ومجموعة من الأشخاص يعيشون تحت وطأة المأساة التي ألمَّت بها.

تم تحويل «طارد الأرواح» إلى السينما، وحصل على عشر ترشيحات لجوائز الأوسكار، وفي يوم افتتاح الفيلم انتظر الكثير من عشَّاق الرواية في طوابير طويلة أمام دور العرض، واقتحم مشاهدون إحدى دور العرض، واستخدم رجال الشرطة الغاز المسيّل للدموع لتفريق جماهير حاولت شق طريقها بالقوة إلى داخل قاعة العرض.

لقد كانت «طارد الأروح» ولا زالت علامة فارقة. إنها رواية قاسية للغاية، إلى درجة أنها قادرة على إثارة فزع القارئ، وجعله ينسى أنها «مجرَّد قصة».. إن الدراما الناتجة عن الحكاية تجتاح القارئ تمامًا، وتصيبه بالرعب حتمًا.

هذه الترجمة العربية الكاملة للرواية، الصادرة بمناسبة مرور أربعين عامًا على الطبعة الأولى، والتي نقّحها المؤلف، تثبتُ أن قراءتها تجربة عصية على النسيان، وأنها عمل لا يزال قادرًا على صدم جيل جديد من القراء.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد